



عناصر الموضوع



مفهوم البيعة

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (بيع) تدل على بيع الشيء، وربما سمي الشراء بيعًا، والمعنى واحد[(١)].

والبيعة: بفتح الباء، مصدر من بايع يبايع بيعةً ومبايعةً، يقال: بايعه مبايعةً، وبياعًا: عقد معه البيع. وبايع فلانًا على كذا: عاهده وعاقده عليه، وبذل العهد على الطاعة والنصرة، وكأنّ كل واحد من المتبايعين باع ما عنده من صاحبه، وأعطاه خالصة نفسه وطاعته، ودخيلة أمره[(٢)]، وتبايعا: عقدًا بيعًا أو بيعةً[(٣)].

والمقصود أن البيعة في مفهومها اللغوي: إعطاء شيء مقابل ثمن معين، أو إعطاء العهد بقبول ولاية أو خلافة[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرّف العلماء البيعة قديمًا وحديثًا بتعاريف عدة، فعرّفها المناوي بقوله: «البيعة -بالفتح- بذل الطاعة للإمام»[(٥)].

وعرّفها ابن الأثير بقوله: «البيعة: المعاقدة على الإسلام والإمامة والإمارة، والمعاهدة على كل ما يقع عليه اتفاق»[(٦)].

ومن التعاريف الجامعة تعريف ابن خلدون، حيث قال: «البيعة: العهد على الطاعة لولي الأمر»، ثم شرح هذا التعريف قائلًا: «كأن المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلّفه به من الأمر على المنشط والمكره، وكانوا إذا بايعوا الأمير، وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدًا للعهد، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، وصارت البيعة تقترن بالمصافحة بالأيدي، هذا مدلولها في اللغة ومعهود الشرع»[(٧)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٢٧.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٢٦.
(٣) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٧٩.
(٤) انظر: المعجم العربي الأساسي، جماعة من كبار اللغويين العرب، ص١٨٨.
(٥) التوقيف ص١٥٣.
(٦) جامع الأصول ١/ ٢٥٢.
(٧) تاريخ ابن خلدون ١/ ٢٠٩.



البيعة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بايع) في القرآن الكريم (٧) مرات[١] .

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾ [التوبة:١١١]
الفعل المضارع	٤	﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح:١٠]
فعل الأمر	١	﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾ [الممتحنة:١٢]
المصدر	١	﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾ [التوبة:١١١]

وجاءت البيعة في الاستعمال القرآني بمعناها في اللغة وهو: اسم مرَّة من بَايَعَ السلطان: إذا تضمن بذل الطاعة له[٢] .

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص ١١٧ .

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٥٥ .

الألفاظ ذات الصلة

١ الشراء:

الشراء لغةً:

الشين والراء والحرف المعتل، له أصولٌ ثلاثة: أحدها يدلّ على تعارضٍ من الاثنين في أمرين أخذًا وإعطاءً مماثلةً، تقول: شريت الشيء واشتريته: إذا أخذته من صاحبه بثمنه، وربما قالوا: شريت: إذا بعت[(١)].

الشراء اصطلاحًا:

هو إعطاء الثمن، وأخذ المثمّن[(٢)].

الصلة بين البيعة والشراء:

الشراء والبيع متلازمان، فالمشتري دافع الثمن وآخذ المثمن، والبائع دافع المثمن، وآخذ الثّمن، والعلاقة بينهما عكسية، وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده؛ جعلوا أيديهم في يده تأكيدًا للعهد، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، وصارت البيعة تقترن بالمصافحة بالأيدي.

٢ العهد:

العهد لغةً:

هو الموثق الذي يعطيه الإنسان لغيره، ويقال: عهد إليه، أي: أوصاه. فهو: التزام بين اثنين، أو أكثر على شيء يعامل كل واحد من الجانبين الآخر به، وسمي عهدًا لأنهما يتحالفان بعهد الله، أي: بأن يكون الله رقيبًا عليهما في ذلك[(٣)].

العهد اصطلاحًا:

قال الراغب: «العهد: حفظ الشيء ومراعاته حالًا بعد حال»[(٤)].

الصلة بين البيعة والعهد:

البيعة هي عهدٌ على الالتزام بطاعة ولي الأمر، كما ذكر في التعريف الاصطلاحي.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٠٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٧.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ص٢٨١٩.
(٤) المفردات ص٥٩١.

٣ العقد:

العقد لغةً:

يقال: عقد الحبل والبيع والعهد يعقده: شدّه، وعاقدته عقدًا، مثل عاهدته عهدًا، وتعاقدوا: تعاهدوا، من العقد وهو العهد[(١)]،

العقد اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «العقد: ربط أجزاء التصرف بالإيجاب والقبول شرعًا»[(٢)]، ومنه سمي عقد البيع، أو عقد الزواج عقدًا؛ لأنه يعقد ويربط بين طرفين[(٣)].

الصلة بين البيعة والعقد:

البيعة هي عقدٌ بين الإمام والرعية يتم بموجبه نصرة الإمام على من يخرج عليه؛ حفاظًا على وحدة الأمة، وتماسك بنيانها أمام الأعداء في داخل الدولة الإسلامية وخارجها مقابل التزام الإمام بتنفيذ شرع الله تعالى، ويدل عليه كلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه في خطبة مبايعته، وفيها: أطيعوني ما أطعت الله فيكم.

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣٠٠، تاج العروس، الزبيدي ٨/ ٤٠١.
(٢) التعريفات ص١٥٣.
(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي ١/ ٣١٧، القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ١/ ٢٥٥، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦١٤.

منزلة البيعة ومجالاتها

أولًا: منزلة البيعة:

البيعة مصطلح شرعي ذكره القرآن في أكثر من موضع، وجاء في السنة كثيرٌ من الأحاديث في شأن البيعة، وأفردت كتب الحديث بابًا خاصًّا للبيعة، فقد بوّب البخاري باب: البيعة على إقام الصلاة، وباب: البيعة على إيتاء الزكاة، وباب: البيعة في الحرب أن لا يفروا، وفي مسلم باب: البيعة على السمع والطاعة فيما استطاع.

وبوّب ابن ماجه باب: البيعة، وفي موطأ مالك باب: البيعة على الجهاد، وبوّب النسائي باب: البيعة على أن لا ننازع الأمر أهله، وباب: البيعة على القول بالحق، وباب: البيعة على الصلوات الخمس، وهكذا. مما يدل على أهميتها في النظام السياسي والاجتماعي في الإسلام.

وبالنظر إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم نجد أن البيعة قد تمت في المجتمع الإسلامي قبل أن يتحول إلى دولة في المدينة بين الرسول صلى الله عليه وسلم ونفر من الأنصار، كما حصل في بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية، وكان موضوع البيعة الأولى هو إقناع طائفة من الأنصار بالإسلام، ودخولهم فيه، وكان موضوع البيعة الثانية هو مناصرة الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم، وتأييدهم لدعوته، ومنع أي اعتداء يقع عليه؛ ثم حصلت البيعة بعد أن قامت دولة الإسلام في المدينة، مما يدل على أهمية البيعة في الإسلام في بناء الدولة، ومناصرة الإسلام، واجتماع الكلمة.

ثم بعد ذلك صار عقد البيعة الأساس الضروري لشرعية الحكم الإسلامي، حيث يختار أهل الحل والعقد من يرونه صالحًا من المسلمين لتولي أمورهم، ثم يبايعونه على الإمارة، وبعد ذلك يقوم المسلمون جميعًا بالمبايعة؛ لذلك كان كل الحكّام في تاريخ الدولة الإسلامية يحرصون على الحصول على البيعة حتى لو كانت إمارتهم قد تمت بالاستيلاء والمغالبة، فقد اعتبرت البيعة السند الشرعي لأي حاكم يختار من المسلمين لحكم الدولة الإسلامية.

ولأهمية أمر البيعة في المنظور الحضاري الإسلامي نجد أن القرآن الكريم يشير إليها في أكثر من موضع، حيث يقول تعالى في سورة الفتح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

وفي السورة ذاتها يقول: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

كما أشار القرآن الكريم إلى بيعة النساء،

فقال تعالى: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وفي ذلك دلالة على أهمية دورهن الفاعل في بناء الحضارة الإسلامية، وخدمة الإسلام ومناصرته.

ومما يدل على أهمية البيعة: أن البيعة بدأت منذ فجر الحضارة الإسلامية؛ حيث بايع النبي صلى الله عليه وسلم صحابته أكثر من بيعة: كبيعتي العقبة الأولى والثانية، وكذلك بيعة الرضوان.

وكانت طوائف المسلمين كلها تبايعه صلى الله عليه وسلم ، فمن الرجال الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عدد لا يمكن حصره، ومن النساء العدد الجمّ، وقد أحصى الإمام ابن الجوزي عدد من بايع النبي صلى الله عليه وسلم من النساء، فبلغن (٤٥٧) امرأة[١]، ويبايعهن كلهن بالكلام، كما سيأتي.

بل وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع الأطفال، حيث بايع عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، وهو ابن سبع سنين. فقد أخرج الطبراني عن عبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهما أنهما بايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما ابنا سبع سنين، فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم تبسّم، وبسط يده، فبايعهما[٢].

وخرّج البيهقي في دلائل النبوة عن محمد بن الأسود بن خلف أخبره أن أباه الأسود حضر النبي صلى الله عليه وسلم يبايع الناس يوم الفتح، قال: جلس عند قرن مسفلة[٣]، قال: وقرن مسفلة الذي إليه بيوت ابن أبي ثمامة، وهو دار ابن سمرة وما حولها، قال الأسود: فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم جلس إليه فجاءه الناس الصغار والكبار، والرجال والنساء، فبايعوه على الإسلام والشهادة[٤].

وهذا يدل على أن الحضارة الإسلامية حضارةٌ بنّاءة، فهي تعي قيمة أفرادها، وضرورة مشاركتهم في الأحداث المحيطة بهم، ومن ثمّ وجدنا أسوة المسلمين رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسي مبدأ البيعة منذ اليوم الأول لقيام الدولة الإسلامية.

ولمكانة البيعة في الإسلام فقد عظّم الله شأنها، وحذّر من نكثها، يقول سبحانه

(١) انظر: تلقيح فهوم أهل الأثر، ابن الجوزي ص٢٣٤، فقد ذكر المبايعات له صلى الله عليه وسلم لا في خصوص يوم الفتح على حروف المعجم.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ٣/ ٣٦٠، رقم ٣٤٠٢، والكبير ١٣/ ٧٣، رقم ١٨٠.
وانظر: حياة الصحابة، الكاندهلوي ١/ ٣٠٦.

(٣) في أسد الغابة مصقلة، وفي تاج العروس: مسفلة، وهو محلة بأسفل مكة.

(٤) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب بيعة الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ٥/ ٩٤.

وتعالى في كتابه العزيز مخاطبًا نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وذلك لما في البيعة من معاني القوة والجماعة والتآلف، وقد فرض الشرع المطهر على المسلم الوفاء بالعهد، سواء كان ذلك بين المسلمين بعضهم البعض، أم مع غير المسلمين، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

والبيعة بما أنها عقد وعهد بين المسلمين وخليفتهم فإنها داخلة في هذه الآيات، وحكم من نكث البيعة على النصرة أو الجهاد أو السمع والطاعة دون أن يصدر عنه ما ينافي أصل الإيمان فهو عاص مرتكب لكبيرة من أعظم الكبائر؛ لأنها نقض للعهد، وقد وردت فيها أحاديث كثيرة تحرّم نكثها، أشهرها: ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع)[١].

ومما يدل على مكانة البيعة: أن قضية الإمامة في الإسلام من القضايا الكبرى العظيمة؛ وقد صنف فيها العلماء مصنفاتٍ مستقلة، بيّنوا فيها شروط الإمامة، وواجبات الإمام، وكان هذا التفصيل العظيم منهم بيانًا لأهمية هذا الأمر في حياة المسلمين؛ ولأن إقامة السلطان وولي الأمر من الواجبات الدينية، ومما لا تتم مصالح الناس الدينية والدنيوية إلا به، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لابد للناس من أمير برٍّ أو فاجر، يعمل فيه المؤمن، ويستمتع فيه الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل»[٢]. وقال الحسن البصري رحمه الله: «والله لا يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا وظلموا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون، مع أن طاعتهم والله لغبطة، وأنّ فرقتهم لكفر»[٣] يعني: أنه كفر للنعمة، وهو كفر أصغر، وهذا يدل على أن وجود الإمام أمر ضروري في الدين.

وقد أجمع العلماء على وجوب نصب إمام للأمة، يقيم لهم أحكام شرع الله، قال

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول ٣/ ١٤٧٢، رقم ١٨٤٤.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، جماع أبواب الرعاة، باب القوم يظهرون رأي الخوارج لم يحل به قتالهم ٨/ ٣١٩، رقم ١٦٧٦٤.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ١١٧.

الماوردي: «وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع، وإن شذ عنهم الأصم»[1].

وقال ابن خلدون: «نصب الإمام واجب، وقد عرف وجوبه بالشرع بإجماع الصحابة والتابعين؛ لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه، وتسليم النظر إليه في أمورهم، وكذلك في كل عصر من الأعصار، واستقر ذلك إجماعًا دالًّا على وجوب نصب الإمام»[2].

وممن نقل الإجماع على ذلك ابن حزم[3] والقرطبي[4].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «يجب أن يعرف أن ولاية أمور الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها...؛ ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم، وإقامة الحدود، لا تتم إلا بالقوة والإمارة؛ ولهذا روي: أن السلطان ظل الله في الأرض، ويقال: ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان، والتجربة تبيّن ذلك...، فالواجب اتخاذ الإمارة دينًا وقربة يتقرب بها إلى الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال»[5].

وقال ابن رجب رحمه الله: «وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم، وطاعة ربهم»[6].

وقد ورد في القرآن الإشارة إلى إقامة الأئمة للمسلمين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

قال القرطبي رحمه الله: «هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع؛ لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة، ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة، ولا بين الأئمة»[7].

ولقد تواتر أن الصفوة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهم الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين بايعوا الصّدّيق رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقبل أن يدفنوه صلى الله عليه وسلم ؛ ولما أحس الصديق بدنوّ أجله استخلف الفاروق رضي الله عنه ؛ ولما

(١) الأحكام السلطانية، الماوردي ص١٥.
(٢) تاريخ ابن خلدون ١/ ٢٣٩.
(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ٨٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٦٤-٢٦٥.
(٥) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٩٠-٢٩١.
(٦) جامع العلوم والحكم ٢/ ١١٧.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، ١/ ٢٦٤.

طعن الفاروق رضي الله عنه جعل الأمر شورى في ستة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، واتفقوا على أن يخلف الفاروق عثمان بن عفان رضي الله عنه ؛ ولما استشهد عثمان رضي الله عنه بايعوا أبا الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فهذه طريقتهم في الخلافة، فنجد أنهم حرصوا كل الحرص على تنصيب الإمام، ولم يتهاونوا في ذلك، وهذا مما يجب على المسلمين أن يقتدوا بهم فيه، فالبيعة إذن من الأمور المهمة للحاجة الماسة إلى نصب الإمام الشرعي في الأمة.

ومما يدل على منزلة البيعة للخليفة أن فقهاء المسلمين عقدوا لها خمسة شروط لازمة التحقق، وهي:

أن يجتمع في المأخوذ له البيعة شروط الإمامة، المذكورة في باب شروط الخلافة في كتب الفقه.

أن يكون المتولّي لعقد البيعة أهل الحلّ والعقد من العلماء والرؤساء، وسائر وجوه الناس.

أن يجيب المبايع إلى البيعة، فلو امتنع لم تنعقد إمامته ولم يجبر عليها.

الإشهاد على المبايعة فيما إذا كان العاقد واحدًا، أما إذا كان العاقد للبيعة جمعًا، فإنه لا يشترط الإشهاد.

أن يتّحد المعقود له، بأن لا تعقد البيعة لأكثر من واحد[1].

وهذه الشروط التي أقرّها فقهاء الإسلام لاشك أنها تعدّ من المعالم الحضارية البارزة في مؤسسة الحكم الإسلامية؛ لأن غرض هذه الضوابط جلب كل المصالح التي يحتاجها المجتمع الإسلامي.

ومما يشير إلى ما تحتله البيعة من أهمية: أن بيعة ولي الأمر مما يسبّب استقرار المجتمع المسلم؛ لأنهم إذا اجتمعوا على رجلٍ واحد، وعلى خليفةٍ واحد، وعلى إمامٍ واحد استقام كثيرٌ من أمورهم، ولاشك أن التفرّق عن هذه البيعة يسبّب الخصومة والافتراق، والحرب بين المسلمين؛ لأن كلًّا منهم يريد أن ينصب إمامًا تكون له الهيمنة والسيطرة، والنتيجة إراقة الدماء، ووقوع الحروب بينهم؛ ولذلك كان وجود الإمام الذي يجمع هؤلاء جميعًا من أعظم المصالح الشرعية، وقد حكى الفقهاء الإجماع على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خيرٌ من الخروج عليه؛ لما في ذلك من حقن الدماء، وتسكين الدهماء، وقد قال محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «الأمة مجمعون من كل مذهب على أن من تغلّب على بلدٍ أو بلدان له حكم الإمام»[2].

(١) انظر: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، القلقشندي ١/ ٢٠ - ٢٣.

(٢) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ابن قاسم ٩/ ٥، الإمامة العظمى، الدميجي

وذلك ما أقام فيهم شرع الله، وأقام الصلاة، فلا يجوز الخروج عليه بحال، فنكث البيعة مع الإمام الذي يقيم شرع الله حرامٌ، ومن فعل ذلك فمات فميتته جاهلية، وقد سبق قوله عليه الصلاة والسلام: (ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر)[1].

ثانيًا: مجالات البيعة:

تتنوع البيعة في الشرع بحسب الأمر المبايع عليه، وقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم البيعة من المسلمين على أمور مختلفة، وبحسب الواقع واللحظة الراهنة، وبحسب قدرة الفرد واستعداده، فقد ثبت في القرآن الكريم والسنة النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب البيعة من أصحابه أكثر من مرة، وفي أكثر من مناسبة، كما وردت بذلك الأحاديث، والذي يعنينا هنا هو البيعة في القرآن الكريم، فلفظ (البيعة) والمبايعة في القرآن ورد بمعنى جامع، وهو (أخذ المواثيق والعهود)، وبالنظر إلى ما جاء في القرآن بإمكاننا أن نذكر بعض مجالات البيعة، ومن أهمها:

١ . البيعة على الإسلام.

وهي البيعة المشهورة، وهي أوجب وآكد أنواع البيعة، ولا شيء من أنواع البيعة نكثه كفر إلا هذه البيعة؛ لأنها الحد الأدنى من الإسلام الذي يلزم على كل مسلم ومسلمة في الأمة؛ ولأنها أصل البيعات كلها، وأكثر ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع عامة الناس عليه هو الإسلام؛ وذلك بأن يأتي الرجل الذي يريد الدخول في الإسلام فيسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويضع يده في يده، ويتشهد الشهادتين، ويتعهد بالتزام الإسلام كله، فيصير بذلك مسلمًا مبايعًا للرسول صلى الله عليه وسلم .

والبيعة على الإسلام قد أشار إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١].

يقول ابن جرير الطبري بعد أن ذكر معنى الآية: «وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل على اختلاف بينهم فيمن عني بهذه الآية، وفيما أنزلت، فقال بعضهم: عني بها الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام، وفيهم أنزلت...»، وذكر بسنده إلى بريدة، في قول الله عز وجل: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ [النحل: ٩١].

ص٢٢٢.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول ٣/ ١٤٧٢، رقم ١٨٤٤.

قال: أنزلت هذه الآية في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم، كان من أسلم بايع على الإسلام، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام، ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

البيعة، فلا يحملكم قلة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام، وإن كان فيهم قلة، والمشركين فيهم كثرة»[(١)].

كذا قال ابن جرير، بل قدّم هذا القول على غيره، ونقله عنه ابن كثير، ولم يعلّق عليه بشيء[(٢)].

وقال الشوكاني: «وظاهره العموم في كل عهد يقع من الإنسان من غير فرق بين عهد البيعة وغيره، وخص هذا العهد المذكور في هذه الآية بعض المفسرين بالعهد الكائن في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام، وهو خلاف ما يفيده العهد المضاف إلى اسم الله سبحانه من العموم الشامل لجميع عهود الله، ولو فرض أن السبب خاص بعهد من العهود لم يكن ذلك موجبًا لقصره على السبب، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[(٣)].

ومن البيعة على الإسلام: بيعة النساء المشهورة المذكورة في القرآن، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام بهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ [الممتحنة: ١٢])[(٤)].

ففي هذه الآية أمر سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إذا جاءه المؤمنات، أي: قاصدات لمبايعته على الإسلام، وعلى أن لا يشركن بالله شيئًا من الأشياء كائنًا ما كان، وهذا كان يوم فتح مكة، فإن نساء أهل مكة أتين رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعنه، فأمره الله أن يأخذ عليهن أن لا يشركن بالله شيئًا، وأمورًا أخرى قد ذكرتها الآية.

قال مقاتل بن حيان: «أنزلت هذه الآية يوم الفتح، فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجال على الصفا، وعمر يبايع النساء تحتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم»[(٥)].

فنلحظ أن الله تعالى ذكر في هذه الآية في صفة البيعة خصالًا ستًّا، أوّلهنّ: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: شيئًا من الأشياء، أو شيئًا من الاشتراك، والظاهر أن المراد:

(١) جامع البيان، ١٧/ ٢٨١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٥٩٨.
(٣) فتح القدير، ٣/ ٢٢٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب بيعة النساء، ٩/ ٨٠، رقم ٧٢١٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٩٩.

الشرك الأكبر، ويجوز التعميم، فيكون المراد الشرك الأكبر والأصغر الذي هو الرياء، والمعنى: بايعهن على أن لا يتخذن إلهًا غير الله، ولا يعملن إلا خالصًا لوجهه[(١)].

قال الإمام الشافعي في الأم: «وإنما يبايع النساء على الإسلام، فأما على الطاعة فهن لا جهاد عليهن»[(٢)]. فكان نص بيعة النساء مختلفًا عن غيره من أنواع البيعات؛ وذلك بتربيتهنّ على عظائم الأمور، وزجرهن عن كبائر الفواحش الواردة في الآية الكريمة وأكبرها الشرك، قال تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ففي الآية تقرير للتوحيد، وإعلان المفاصلة بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك.

فبدأ تعالى بالنهي عن الشرك؛ لأنه مقابل للإيمان الذي تقوم عليه قاعدة الحياة السليمة لكل بشر، فالشرك نزعة نفسية منحطة تسفل بالإنسان، وتشدّه إلى ذاته البدنيّة؛ وذلك في حالة من سيطرة الوهم، وغياب الوعي، وعمى في البصيرة عن الحقيقة[(٣)].

لذا كان من أولويات البيعة في الإسلام عمومًا وبيعة النساء خصوصًا إعلان المفارقة بين الشرك والتوحيد، فهو أصل الميثاق، وأساس الحياة.

وهذه البيعة على الإسلام قال بعض العلماء: إنها من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول ابن رجب: «وقد ذكر طائفة من العلماء، منهم: القاضي أبو يعلى في كتاب (أحكام القرآن) من أصحابنا: أن البيعة على الإسلام كانت من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم ؛ واستدلوا بأن الأمر بالبيعة في القرآن يخصّ الرسول بالخطاب بها وحده، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الممتحنة: ١٢]»[(٤)].

والمقصود أن هذه البيعة على الإسلام قد ذكرت في القرآن، وهي التي تسمى بيعة النساء أيضًا ، وهي نفس بيعة الرجال، قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: بايعنا النبي صلى الله عليه وسلم على مثل ما بايع عليه النساء، من مات منا ولم يأت شيئًا منهن ضمن له الجنة، ومن مات منا وقد أتى شيئًا منهن، وقد أقيم عليه الحد فهو كفارة، ومن مات منا وقد أتى شيئًا منهن فستر عليه، فعلى الله حسابه[(٥)].

٢ . البيعة على الأعمال الصالحة.

ومن مجالات البيعة الهامة البيعة على الأعمال الصالحة، ومنها:

(١) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٩/ ٣٩٤.
(٢) الأم، ٤/ ٢١٩.
(٣) انظر: بيعة النساء، محمد علي قطب ص٦٤.
(٤) تفسير ابن رجب ٢/ ٤١٩.
(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢/ ٣٠١، رقم ٢٢٥٩.

❁ البيعة على النصرة والمنعة.

البيعة على نصرة الدين من أفضل الأعمال، وأوضح مثال على هذا النوع من البيعة -وهي بيعة المنعة والنصرة- البيعة التي أخذها النبي صلى الله عليه وسلم من وفد الأنصار في بيعة العقبة الثانية في منى، وكان عددهم آنذاك ثلاثة وسبعين رجلًا وامرأتين، فبعد أن تلا الرسول الكريم القرآن، ودعا إلى الله، ورغّب في الإسلام، قال: (أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم، وأبناءكم...). فبايعه البراء بن معرور وسائر الوفد على المنعة والنصرة، ومما قاله البراء بن معرور: «نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله؛ فنحن أهل الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر»[1].

وما قبل النبي صلى الله عليه وسلم عرض الأوس والخزرج في النصرة إلا بعد أن استوثق له عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه منهم، وبعد أن تيقن هو صلى الله عليه وسلم من صدق إيمانهم، وقوة شكيمتهم، واستعدادهم للشهادة في سبيل الله، وأن قلوبهم قد تطهّرت من مطالب الدنيا، فهم يريدون فقط الله ورسوله، والدار الآخرة، ومما يدل على ذلك ما جاء في عقد البيعة: «السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله»[2].

وهذه البيعة هي المقصودة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فقد روى القرطبي وغيره من المفسرين[3] أن هذه الآية نزلت في البيعة الثانية، بيعة العقبة الكبرى، وكان فيها الأنصار نيّفًا وسبعين، وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة، فقال عبد الله بن رواحة للنبي صلى الله عليه وسلم: «اشترط لربك ولنفسك ما شئت»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا،

(١) أخرجه أحمد في المسند، ٢٥/ ٨٩، رقم ١٥٧٩٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (سترون بعدي أمورًا تنكرونها)، ٩/ ٤٧، رقم ٧٠٥٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، ٣/ ١٤٧٠، رقم ١٧٠٩.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٦٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢١٨.

وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم)، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: (الجنة)، قالوا: «ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل»؛ فنزلت الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١].

وهذه الآية وإن نزلت في بيعة العقبة فحكمها عام في كل مؤمن مجاهد في سبيل الله إلى يوم القيامة، قال بعضهم: ما أكرم الله! فإن أنفسنا هو خلقها، وأموالنا هو رزقها، ثم وهبها لنا، ثم اشتراها منا بهذا الثمن الغالي، فإنها لصفقة رابحة[(١)].

فهذه الآية وأمثالها تمثيل عبّر فيه عن إثابة الله المؤمنين الباذلين أنفسهم وأموالهم في سبيله بأن لهم الجنة بالشراء والمعاوضة، وهذا تفضل منه وكرم، وترغيب في الجهاد ببيان فضله إثر بيان حال المتخلفين عنه، وهم المنافقون.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ اشترى منهم وعوّضهم ما فيه الخير كله، مع أن ما في الكون هو ملكه، وهذا من غاية لطفه وكرمه بعباده المؤمنين، وقدّم الأنفس على الأموال ابتداء بالأشرف، وبما لا عوض له إذا فقد[(٢)].

وفي لفظة ﴿ٱشْتَرَىٰ﴾ لطيفة، وهي: أن فيها دلالة على رغبة المشتري فيما اشتراه، واغتباطه به...، والظاهر أن هذا الشراء هو مع المجاهدين، وقال ابن عيينة: اشترى منهم أنفسهم أن لا يعملوها إلا في طاعة، وأموالهم أن لا ينفقوها إلا في سبيل الله، فالآية على هذا أعم من القتل في سبيل الله، وعلى هذا القول يكون ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ مستأنفًا، ذكر أعظم أحوالهم، ونبه على أشرف مقامهم[(٣)].

وقال أبو السعود في الآية: «ترغيب المؤمنين في الجهاد ببيان فضيلته، إثر بيان حال المتخلفين عنه، ولقد بولغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه، حيث عبّر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله تعالى، وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية، ثم جعل المبيع الذي هو العمدة والمقصد في العقد أنفس المؤمنين وأموالهم، والثمن الذي هو الوسيلة في الصفقة الجنة، ولم يجعل الأمر على العكس، بأن يقال: إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم؛ ليدل على أن المقصد في العقد هو الجنة، وما بذله المؤمنون في مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها؛ إيذانًا بتعلق كمال العناية بهم

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٩١.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٥٠٩.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٥٠٨.

وبأموالهم، ثم إنه لم يقل: بالجنة، بل قيل: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ مبالغة في تقرير وصول الثمن إليهم، واختصاصه بهم، كأنه قيل بالجنة الثابتة لهم، المختصة بهم»[(١)].

وقوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ جملة مستأنفة؛ جيء بها لبيان الوسيلة التي توصلهم إلى الجنة، وهي القتال في سبيل الله، أي: إنهم يقاتلون في سبيل الله، فمنهم من يقتل أعداء الله، ومنهم من يقتل على أيدي هؤلاء الأعداء، وكلا الفريقين: القاتل والمقتول، جزاؤه الجنة[(٢)].

وقرأ حمزة والكسائي ﴿فَيُقْتَلُونَ وَيَقْتُلُونَ﴾ بتقديم الفعل المبني للمفعول على الفعل المبني للمعلوم[(٣)]. قال في الوسيط: «وهذه القراءة فيها إشارة إلى أن حرص هؤلاء المؤمنين الصادقين على الاستشهاد أشد من حرصهم على النجاة من القتل؛ لأن هذا الاستشهاد يوصلهم إلى جنة عرضها السموات والأرض، وإلى الحياة الباقية الدائمة»[(٤)].

وكأن الجمع بين الفعلين: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي: سواء قَتلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة[(٥)]؛ ولهذا جاء في الصحيحين: (وتكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وتصديق برسلي، بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة)[(٦)].

وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: ثواب الجنة لهم وعد وحق في التوراة والإنجيل والقرآن، يعني: أن الله عز وجل وعدهم هذا الوعد وبيّنه في هذه الكتب، وفيه دليل على أن أهل الملل كلهم أمروا بالجهاد على ثواب الجنة[(٧)].

وفي هذا التعبير تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[(٨)].

---

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٠٤.
(٢) الوسيط، طنطاوي ٦/ ٤٠٩.
(٣) انظر: التيسير في القراءات السبع، أبوعمرو الداني ص٩٣، النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٢٤٦.
(٤) الوسيط، طنطاوي ٦/ ٤٠٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢١٨.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أحلت لكم الغنائم)، ٤/ ٨٥، رقم ٣١٢٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، ٣/ ١٤٩٥، رقم ١٨٧٦.
(٧) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٩١.
(٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢١٨.



قال ابن كثير: «أخبر الله تعالى بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت ﴿فِي التَّوْرَاةِ﴾ كتاب موسى عليه السلام، ﴿وَالْإِنجِيلِ﴾ كتاب عيسى عليه السلام، ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ أي: قد أثبته فيهما كما أثبته في القرآن، أي: الكتاب الجامع لكل ما قبله، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾، أي: لا أحد أوفى منه سبحانه؛ لأن الإخلاف لا تقدم عليه الكرام من الناس، فكيف بخالقهم الذي له الغنى المطلق»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ أي: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد، ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم المقيم، وفي هذا تحريض على القتال، وإعلام لهم بأنهم رابحون في هذه الصفقة، والاستبشار: الشعور بفرح البشرى، شعورًا تنبسط له أسارير الوجه، أي: إذا كان الأمر كذلك، فافرحوا ببيعكم الذي بايعتم به غاية الفرح، وارضوا به نهاية الرضا، فإن ذلك البيع هو الفوز العظيم الذي لا فوز أعظم منه، قال بعض العلماء: ولا ترى ترغيبًا في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية؛ لأنه أبرزه في صورة عقد عقده رب العزة، وثمنه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط، بل إذا كانوا قاتلين أيضًا لإعلاء كلمته، ونصر دينه، وجعله مسجلًا في الكتب السماوية، وناهيك به من صكٍّ، وجعل وعده حقًّا، ولا أحد أوفى من وعده، فنسيئته أقوى من نقد غيره، وأشار إلى ما فيه من الربح والفوز العظيم، وهو استعارة تمثيلية، حيث صوّر جهاد المؤمنين، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه، وإثابة الله لهم على ذلك الجنة بالبيع والشراء، وأتى بقوله: ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ بيانًا لمكان التسليم، وهو المعركة، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: (الجنة تحت ظلال السيوف)[(٢)]، ثم أمضاه بقوله: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[(٣)].

والمقصود أن من أنواع البيعات التي أخذها النبي صلى الله عليه وسلم من أصحابه، البيعة: أن يمنعوه وينصروه، وهي ما تسمى ببيعة النّصرة والمؤازرة، وهي مذكورة في القرآن، وعبّر عنها بالبيع والشراء، قال عمر رضي الله عنه: إن الله عز وجل بايعك وجعل الصفقتين لك، وقال قتادة: ثامنهم الله عز وجل فأغلى لهم، وقال الحسن: اسعوا إلى بيعة ربيحة بايع الله بها

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الجنة تحت بارقة السيوف، ٤/ ٢٢، رقم ٢٨١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء، ٣/ ١٣٦٢، رقم ١٧٤٢.

(٣) انظر: الوسيط، طنطاوي ٦/ ٤٠٩.

كل مؤمن. وعنه أنه قال: إن الله أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها. قال بعضهم: ناهيك عن بيع، البائع فيه رب العلا، والثمن جنة المأوى، والواسطة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم[1]؛ ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم -والله- فأغلى ثمنهم، وقال شمر بن عطية: ما من مسلم إلا ولله عز وجل في عنقه بيعة، وفّى بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية؛ ولهذا يقال: من حمل في سبيل الله بايع الله، أي: قبل هذا العقد، ووفّى به[2].

❁ البيعة على الجهاد وعدم الفرار.

ومن أمثلة البيعة على الأعمال الصالحة أيضًا: البيعة على الجهاد، وعدم الفرار، وأوضح مثال على هذا النوع من البيعة -وهي البيعة على الجهاد في سبيل الله وعدم الفرار- البيعة التي أخذها النبي صلى الله عليه وسلم من أصحابه تحت الشجرة يوم الحديبية، وهي بيعة الرضوان، التي قال الله فيها: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: لقد رضي الله يا محمد عن المؤمنين ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يعني: بيعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولَ الله بالحديبية حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب، وعلى أن لا يفرّوا، ولا يولوهم الدبر تحت الشجرة، وكانت بيعتهم إياه هنالك فيما ذكر تحت شجرة، وكان سبب هذه البيعة ما قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه برسالته إلى الملأ من قريش، فأبطأ عثمان رضي الله عنه عليه بعض الإبطاء، فظنّ أنه قد قتل، فدعا أصحابه إلى تجديد البيعة على حربهم على ما وصفت، فبايعوه على ذلك، وهذه البيعة التي تسمى بيعة الرضوان»[3].

٣. البيعة على تجنب السيئات.

ومن أبرز الأمثلة على البيعة على تجنب السيئات: ما جاء في بيعة النساء المشهورة المذكورة في القرآن، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

ففي هذه الآية ذكر في صفة البيعة خصالًا ستًّا، هن أركان ما نهى عنه في الدين، ولم

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٩١.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٥٠٩.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٢٢٣.

يذكر أركان ما أمر به، وهي الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج والاغتسال من الجنابة وغيرها؛ وذلك لأن النهي عن هذه دائم في كل زمان وكل حال، فكان التنبيه على اشتراط الدائم أهم وآكد، أو أنه لم يذكر في بيعتهن الصلاة والزكاة والصيام والحج لوضوح كون هذه الأمور ونحوها من أركان الدين، وشعائر الإسلام، وإنما خص الأمور المذكورة لكثرة وقوعها من النساء[1].

وقد ذكرت هذه المنهيات على ترتيب بديع، ووجه هذا الترتيب بين هذا المنهيات أنه قدّم الأقبح على ما هو أدنى قبحًا منه، ثم كذلك إلى آخرها؛ ولذا قدم ما هو الأظهر والأغلب فيما بينهن.

وقد ذكر الله تعالى هذه الأمور، وهناك أمور أخر لم تذكر في كتاب الله، ولكنها ذكرت في سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، منها قول أم عطية: **(أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند البيعة ألا ننوح، فما وفّت منا امرأة إلا خمس نسوة فقط)**[2]. فانظر مع أن المبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنهن نقضن البيعة كلهن، ولا وفّى منهن بالبيعة إلا خمس نسوة فقط، فهذا يدل على قلة التزام النساء بالعهود والمواثيق، وكان مما بايعهن في هذه الآية:

❁ ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾.

بايعهن الرسول صلى الله عليه وسلم على ما ذكره الله في كتابه، وهو ألا يشركن بالله شيئًا، أي: شيئًا من الأشياء، أو شيئًا من الإشراك، والظاهر أن المراد الشرك الأكبر، ويجوز التعميم له وللشرك الأصغر الذي هو الرياء، فالمعنى على أن لا يتخذن إلهًا غير الله، ولا يعملن إلا خالصًا لوجهه.

❁ ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾.

أي: ولا يرتكبن جريمة السرقة، قال ابن كثير: «أي: أموال الناس الأجانب، فأما إذا كان الزوج معسرًا في نفقتها فلها أن تأكل من ماله بالمعروف، ما جرت به عادة أمثالها، وإن كان من غير علمه، عملًا بحديث هند بنت عتبة رضي الله عنها»[3].

لما جاءت لتبايع بعد إسلامها في فتح مكة خافت من ذلك الشرط العظيم؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن هندًا قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: إن أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ، فأحتاج أن آخذ من ماله، قال صلى الله عليه وسلم: **(خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف)**[4].

وفي الحديث: تقييده صلى الله عليه وسلم الأخذ من مال الزوج بالمعروف، وهو ما تعارف عليه الناس دون إفراط ولا

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما ينهى من النوح والبكاء، رقم ١٣٠٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٩٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب القضاء على الغائب، رقم ٧١٨٠.

تفريط.

وقال ابن عاشور: «فقد شملت الآية التخلّي عن خصال في الجاهلية، وكانت السرقة فيهنّ أكثر منها في الرجال»[1].

❁ ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾.

أي: ولا يرتكبن جريمة الزنا التي هي من أفحش الفواحش، قال الرازي: «يحتمل حقيقة الزنا، ودواعيه أيضًا»[2] على ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم: (اليدان تزنيان، والعينان تزنيان، والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه)[3].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت فاطمة بنت عتبة -أخت هند- تبايع النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ عليها: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ الآية، فوضعت يدها على رأسها حياءً، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أقرّي أيتها المرأة، فو الله ما بايعنا إلا على هذا، قالت: فنعم إذًا، فبايعها بالآية[4].

وهذه الرواية تدل على كراهة الزّنا عند النساء الحرائر، وبشاعته في الجاهلية، وإن كان مشهورًا في بعض النساء كالبغايا والإماء؛ لذا جاءت أحكام الإسلام السامية تدعو إلى الترفّع عن السفاسف، وتطييب النفس بالمباح من النكاح، وسد أبواب الفتنة بالمنع من الاختلاط المحرّم بين الرجال والنساء؛ لسدّ أبواب الغواية، وحبائل الشيطان؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

فإذا لم يكتف الإنسان بالنكاح المباح ووقع في الزنا فقد أعدّ الله له عذابًا عظيمًا؛ قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

وجعل حكم الزاني المحصن الرجم حدًّا مصلتًا قاسيًا شديدًا؛ لينتهي من كان في قلبه إيمان وإحسان عن سلوك طريق الحرام.

❁ ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾.

أي: ولا يئدن البنات، كما كان يفعله أهل الجاهلية، خوف العار، أو خشية الفقر، قال ابن كثير: «وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق أو العار، ويعم قتله وهو جنين، كما يفعله بعض النساء الجاهلات، تطرح نفسها لئلا تحبل، إما لغرض فاسد، أو ما أشبهه»[5].

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٦٦.
(٢) مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٢٦٦.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، رقم ٢١٥٣.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٥٦: «إسناده جيد».
(٤) أخرجه أحمد في المسند، ٦/ ١٥١.
قال محقق المسند ٤٢/ ٩٥: «حديث صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين».
(٥) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ١٠٠.

وقال ابن عاشور: «والمراد بقتل الأولاد أمران:

أحدهما: الوأد الذي كان يفعله أهل الجاهلية ببناتهم.

والآخر: إسقاط الأجنة، وهو الإجهاض، وأسند القتل إلى النساء، وإن كان بعضه يفعله الرجال؛ لأن النساء كن يرضين به، ويسكتن عنه»[(١)].

وقال ابن حجر: «خص القتل بالأولاد لأنه قتل وقطيعة رحم، فالعناية بالنهي عنه آكد؛ ولأنه كان شائعًا فيهم وهو وأد البنات، وقتل البنين خشية الإملاق، أو خصهم بالذكر لأنهم بصدد ألا يدفعوا عن أنفسهم»[(٢)].

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢] أي: لا تنسب إلى زوجها ولدًا لقيطًا ليس منه، تقول له: هذا ولدي منك، قال المفسرون: كانت المرأة إذا خافت مفارقة زوجها لها لعدم الحمل التقطت ولدًا ونسبته له ليبقيها عنده، فالمراد بالآية: اللقيط، وليس المراد الزنا لتقدمه في النهي صريحًا.

قال ابن عباس: لا تلحق بزوجها ولدًا ليس منه، وقال الفراء: كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، وإنما قال: ﴿يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾؛ لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها[(٣)].

وأوضح ذلك الزمخشري بقوله: «كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك؛ كني بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذبًا؛ لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين، فهو غير الزنا، فلا تكرار فيه»[(٤)].

والبهتان: الكذب الذي يبهت سامعه، وخص الأيدي والأرجل بالافتراء؛ لأن معظم الأفعال تقع بهما، إذ كانت هي العوامل والحوامل للمباشرة والسعي، وكذا يسمون الصنائع الأيادي، وقد يعاقب الرجل بجناية قولية، فيقال: هذا بما كسبت يداك...، وأصل هذا كان في بيعة النساء، ويعني: نسبة المرأة الولد الذي تزني به أو تلتقطه إلى زوجها، ثم لما استعمل هذا اللفظ في بيعة الرجال احتيج إلى حمله على غير ما ورد أولًا، فيحتمل أن يكون المراد بين الأيدي والأرجل (القلب)؛ لأنه هو الذي يترجم اللسان عنه؛ فلذلك نسب إليه الافتراء، كأن المعنى: لا ترموا أحدًا بكذب تزوّرونه في أنفسكم، ثم تبهتون صاحبه بألسنتكم[(٥)].

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٦٦.
(٢) فتح الباري ١/ ٦٤.
(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٣٤٢.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٢٠.
(٥) انظر: فتح الباري ١/ ٦٥.

وفي هذه البيعة بالنسبة للرجال والنساء دلالة عظيمة على حرص القرآن الكريم على تربية النفوس، وتهذيبها مما قد علق بها من صنائع الجاهلية المذمومة؛ ليبني مجتمعًا سليمًا من الرجال الصادقين، والنساء العفيفات، والدليل على ذلك ما قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: «لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن»[(١)].

«ولعل هذا التحفّظ -بعد المبايعة على عدم الزنا- كان للحالات الواقعة في الجاهلية من أن تبيح المرأة نفسها لعدّة رجال، فإذا جاءت بولدٍ نظرت أيهم أقرب به شبهًا، فألحقته به، وربما اختارت هي أحسنهم، فألحقت به ابنها، وهي تعلم من أبوه، وعموم اللفظ يشير إلى هذه الحالة وغيرها من كلّ بهتان مزور يدّعى، ولعل ابن عباس رضي الله عنهما خصّصه بذلك المعنى لمناسبة واقعة وقتذاك»[(٢)].

وفي هذا تأكيد على حفظ الأنساب بسدّ أبواب الزنا والافتراء، وعدم قتل الأولاد الشرعيين أو اللقطاء، أو وأد البنات خشية العار الذي انتشر في الجاهلية، وتأكيد البيعة على كلّ هذه الأمور؛ ليبني الإسلام دعائم الحياة الاجتماعية الجديدة؛ لينطلق في أرجاء الأرض داعيًا إليها، ومبشّرًا بصلاح الدنيا والآخرة حين تكون الحال، كما جاء في هذه الأركان العالية، والشروط السامية.

وهذه البيعة قد بايع بها النبي صلى الله عليه وسلم النساء والرجال جميعًا؛ كما ورد في حديث عبادة بن الصامت حيث قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مجلس: **(تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه)** فبايعناه على ذلك[(٣)].

٣. البيعة على السمع والطاعة بالمعروف.

ومن أمثلتها ما جاء في بيعة النساء: أن النبي صلى الله عليه وسلم بايعهن على ما بايع عليه الرجال، ومن ذلك السمع والطاعة بالمعروف، وهو الذي يدل عليه قوله تعالى:

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٣٤٠. وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٠٠.
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٤٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب وفود الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، وبيعة العقبة، ٥/ ٥٥، رقم ٣٨٩٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، رقم ١٧٠٩.

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾[الممتحنة: ١٢].

أي: ولا يخالفن أمرك فيما أمرتهن به من معروف، أو نهيتهن عنه من منكر، بل يسمعن ويطعن، وهذا نص عام في جواز أخذ البيعة من النساء على عدم العصيان في أي معروف يأمر به.

وهذا القيد من باب البيان وإلا فالنبي لا يأمر إلا بمعروف، وفي هذا تقريرٌ عظيم أن طاعة الرعية للحاكم بعد النبي صلى الله عليه وسلم لا تكون إلا في المعروف الذي يتّفق مع دين الله وشريعته.

قال الشنقيطي في تفسيره للآية: «القيد بالمعروف هنا للبيان، ولا مفهوم له؛ لأن كل ما يأمر به صلى الله عليه وسلم معروف، وفيه حياتهن، وفيه تنبيه على أن من كان في موضع الأمر من بعده لا طاعة له إلا في المعروف»[1].

والمعروف كما قال في النهاية: اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله، والإحسان إلى الناس، وكل ما أمر به الشرع، ونهى عنه[2]. وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما المعنى بشكل مجملٍ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ حيث قال: «إنما هو شرط شرطه الله على النساء»[3].

والطاعة بالمعروف هو مقتضى قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[المائدة: ٢].

ومن حيث الاستطاعة من جهة المأمور فالمقصود بها أنه لا يلزم المأمور طاعة أميره فيما لا يستطيعه، ومدار أحكام الشريعة كلها على الاستطاعة، والله تعالى لا يكلّف نفسًا إلا وسعها، ولا يكلّف الإنسان شيئًا لا يستطيع أداءه، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦].

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)[4].

كما أن الاستطاعة من عدمها أمر يعلمه الله تعالى من عبده، فإن قصّر العبد في الطاعة مدّعيًا عدم الاستطاعة فإن الله تعالى يحاسبه على ذلك، فإن كان كاذبًا فالله مطلع عليه ومجازيه عليه، ويدل على ذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما حيث قال: كنا إذا بايعنا رسول الله صلى الله عليه

(١) أضواء البيان ٥/ ٣٣٠ بتصرف.
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٢١٦.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب(إذا جاءك المؤمنات يبايعنك)، رقم ٤٨٩٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٩/ ٩٤، رقم ٧٢٨٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توقيره صلى الله عليه وسلم، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، ٤/ ١٨٣٠، رقم ١٣٣٧.

وسلم على السمع والطاعة، يقول لنا: (فيما استطعتم)[1].

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة، فلقنني: (فيما استطعت)[2].

وعن عبد الله بن دينار قال: لما بايع الناس عبد الملك بن مروان كتب إليه عبد الله بن عمر: «إلى عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين، إني أقر بالسمع والطاعة لعبد الملك أمير المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فيما استطعت، وإن بني قد أقروا بذلك»[3]. وهذا المعنى الذي ذكرناه واضح في كثير من الأدلة.

وقد جاء في الرّوايات الواردة في بيعة النساء تقييد هذا الركن بالنياحة. والنياحة أمر منكر في الإسلام، ويقصد به اجتماع النساء لإظهار شعائر الحزن[4].

فقد جاء في حديث أم عطية رضي الله عنها قالت: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأةٌ يدها، فقالت: أسعدتني فلانة، فأريد أن أجزيها، فما قال لها النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا، فانطلقت ورجعت، فبايعها[5].

وقد فسّر زيد بن أسلم قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال: «لا يخدشن وجهًا، ولا يشققن جيبًا، ولا يدعون ويلًا، ولا ينشدن شعرًا»[6].

وهذا بسبب الخوف على النساء في أول الإسلام من التمسّك بشيء من أحوال الجاهلية النكراء، كهذه الأفعال من النياحة المصاحبة للاعتراض على قدر الله عز وجل، ولشناعة هذا الفعل كان الوعيد العظيم عليه ببراءة الرسول صلى الله عليه وسلم ممن يقارفه عند المصيبة، فأكد صلى الله عليه وسلم على النهي عنه أثناء البيعة العظيمة للنساء؛ لما جبلت عليه النساء من العاطفة الجياشة، والاستسلام للضعف عند نزول المصيبة، ونسيان حكم الله، فتوعد عليه الوعيد الشديد؛ فعن أبي مالك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، ٩/ ٧٧، رقم ٧٢٠٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب البيعة على السمع والطاعة فيما استطاع، رقم ١٨٦٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، ٩/ ٧٧، رقم ٧٢٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ١/ ٧٥، رقم ٥٦.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس ٩/ ٧٨- ٧٢٠٥.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٢٠.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (إذا جاء المؤمنات يبايعنك)، رقم ٤٨٩٢.

(٦) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٤١.

الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقوم يوم القيامة وعليها سربالٌ من قطران، ودرعٌ من جرب)[1].

استغفار الرسول للمبايعات:

أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بعد أن يبايع النساء أن يستغفر لهن الله تعالى، وهذا الدعاء الكريم بالمغفرة هو الجائزة العظيمة التي حصل عليها أولئك النساء المبايعات اللاتي ذكرهن ابن سعد في الطبقات الكبرى في الجزء الثامن، تسمية النساء المسلمات المبايعات، وقسمهن إلى أقسام؛ من قريش (٦٦) وغرائب نساء العرب (٥٩) والأنصاريات المسلمات المبايعات (٣٣٧) وبلغ عددهن جملة (٤٦٢)[2].

قال السعدي: «فكان إذا جاءته النساء يبايعنه والتزمن بهذه الشروط بايعهن وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله فيما يحصل منهن من التقصير، وأدخلهن في جملة المؤمنين»[3].

فقوله: ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ أمر من المبايعة، أي: إذا جاء إليك النساء المؤمنات للبيعة فبايعهن على هذه الأمور الستة الهامة، وفي مقدمتها عدم الإشراك بالله جل وعلا ، أي: فبايعهن على ما ذكر وما لم يذكر لوضوح أمره، وظهور أصالته.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ زيادة على ما في ضمن المبايعة من ضمان الثواب، والاستغفار طلب المغفرة للذنوب، والستر للعيوب[4].

فبايعهن الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يمد يده لبيعتهن، ولم يصافح أحدًا منهن عليه الصلاة والسلام ، فعن أميمة بنت رقيقة في قصة البيعة، وفيها: «ألا تصافحنا يا رسول الله؟!» قال: (إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة)[5]. وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: (والله ما مست يد رسول الله يد امرأة قط)[6].

وقد علق ابن حجر على لفظ: (فقبضت امرأة يدها)[7] بقوله: «وقد يؤخذ من قول أم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة، رقم ٩٣٤.
(٢) الطبقات الكبرى، ٨/ ١٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٧٩٥ بتصرف.

(٤) روح البيان، إسماعيل حقي ٩/ ٣٩٦.
(٥) أخرجه أحمد في المسند، ٤٤/ ٥٥٦، رقم ٢٧٠٠٦، والنسائي في سننه، كتاب البيعة، بيعة النساء، ٧/ ١٤٩، رقم ٤١٨١، وابن حبان في صحيحه، باب بيعة الأئمة وما يستحب لهم، ١٠/ ٤١٧، رقم ٤٥٥٣، والطبراني في الكبير، ٢٤/ ١٨٦، رقم ٤٧١.
وصححه الألباني في الصحيحة، رقم ٥٢٩.
(٦) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب (إذا جاءك المؤمنات مهاجرات)، ٦/ ١٥٠، رقم ٤٨٩١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كيفية بيعة النساء، ٣/ ١٤٨٩، رقم ١٨٦٦.
(٧) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (إذا

عطية في الحديث: (فقبضت امرأة يدها) أن بيعة النساء كانت أيضًا بالأيدي، فتخالف ما نقل عن عائشة رضي الله عنها: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام بهذه الآية: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ قالت: وما مسّت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة، إلا امرأة يملكها)[(١)]، ويحتمل أنهن كنّ يشرن بأيديهن عند المبايعة بلا مماسة»[(٢)].

وقال النووي في شرح مسلم: «وفيه: أن بيعة النساء بالكلام من غير أخذ كف، وبيعة الرجال بأخذ الكف مع الكلام»[(٣)]. فيكون الأخذ بالأيدي من باب تأكيد البيعة؛ ولهذا لما تخوّف عمر بن الخطاب رضي الله عنه الاختلاف بين المسلمين قال لأبي بكر: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسطها فبايعه، ثم بايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار[(٤)].

تكرر مبايعته صلى الله عليه وسلم للنساء:

قد تكرّرت مبايعة النساء للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنها كانت بيعة شرعية إيمانية أخلاقية، تتعهّد فيها المرأة بالالتزامات الإيمانية والأخلاقية، وليست بيعة ترشيح النبي صلى الله عليه وسلم للقيادة السياسية، فلم يكن صلى الله عليه وسلم يفتقر إلى موافقة الأمة على قيادته، وهو النبي الخاتم، في حين كانت بيعة الرجال سياسيةً يلتزمون فيها بالجهاد، إضافة إلى التزامهم الإيماني والأخلاقي.

فإذا رأى الوالي ضرورة مشاورة النساء في أمور الدولة، أو في تأدية بعض الحقوق السياسية، أو بعض الأعمال الإدارية، إذا كانت هناك ضرورة ماسة، ولم يتضمن ذلك الأمر معصيةً لله تعالى، أو تضييعًا لنفسها، أو بيتها، أو الوقوع في الاختلاط المحرّم، المفضي إلى المفاسد العظيمة، فعلى النساء طاعته بالمعروف، مثل ضرورة الإذن بالجهاد لقتال العدو الصائل وغيره؛ لأن في ذلك مصلحةً للبلاد والعباد[(٥)].

والمقصود أنه قد ثبت في القرآن الكريم والسنة النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب البيعة من أصحابه أكثر من مرة، وفي أكثر من مناسبة، وأنه أخذ منهم البيعة قبل قيام الدولة الإسلامية، وقبل الهجرة في

جاء المؤمنات يبايعنك)، رقم ٤٨٩٢.

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب (إذا جاءك المؤمنات مهاجرات)، ٦/ ١٥٠، رقم ٤٨٩١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كيفية بيعة النساء، ٣/ ١٤٨٩، رقم ١٨٦٦.

(٢) فتح الباري، ١٣/ ٢٠٤ بتصرف.

(٣) شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣/ ١٠.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت ٨/ ١٦٨-٦٨٣٠.

(٥) انظر: المفصل في أحكام المرأة، عبد الكريم زيدان، ٤/ ٢٩٩ - ٣٥١.

موضعين، هما بيعة العقبة الأولى، وبيعة العقبة الثانية، كما أخذها النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة وقيام الدولة الإسلامية أكثر من مرة، فأخذها في الحديبية، حين أشيع خبر مقتل عثمان رضي الله عنه ، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وأخذها النبي صلى الله عليه وسلم من النساء بعد الحديبية، فقد كان يبايع من تهاجر إلى المدينة، ولا يرجعها إلى مكة، كما كان يفعل بمن هاجر من الرجال، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

كما بايع النبي صلى الله عليه وسلم الرجال والنساء بعد فتح مكة، وكانت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان من المبايعات بعد الفتح.

ومن هذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الصحيحة التي ذكرت نستنتج أن:

البيعة متنوعة، فقد تكون على الإسلام، مثل البيعة التي أخذها النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة، فقد جاءه الناس الكبار والصغار والرجال والنساء فبايعهم على الإسلام والشهادة.

وتكون البيعة على كل طاعة من الطاعات، وعبادة من العبادات، كالبيعة على الهجرة والجهاد والصلاة والزكاة والنصيحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك من شرائع الإسلام.

وقد استفاض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الناس كانوا يبايعونه تارةً على الهجرة والجهاد، وتارةً على إقامة أركان الإسلام، وتارةً على الثبات والقرار في معركة الكفار، وتارةً على التمسك بالسنة، واجتناب البدعة، والحرص على الطاعات.

وقد جاء عن أنس رضي الله عنه قال: **خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: (اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة)، فقالوا مجيبين له: نحن الذين بايعوا محمدًا، على الجهاد ما بقينا أبدًا**[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على القتال، ٤/ ٢٥، رقم ٢٨٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب وهي الخندق، ٣/ ١٤٣٢، رقم ١٨٠٥.

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: بايعت النبي صلى الله عليه وسلم، ثم عدلت إلى ظل الشجرة، فلما خف الناس، قال: (يا ابن الأكوع ألا تبايع؟!) قلت: قد بايعت يا رسول الله، قال: (وأيضًا) فبايعته الثانية، فقال الراوي عنه: يا أبا مسلم على أي شيء كنتم تبايعون يومئذٍ؟ قال: على الموت[1].

وعن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفًا وأربع مائة، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة -وهي سمرة- وبايعناه على أن لا نفر، ولم نبايعه على الموت[2].

والظاهر -والله أعلم- أن ألفاظ البيعة كانت تختلف من شخص إلى شخص، وإن كانت كلها بمعنى واحد، فعدم الفرار هو الثبات حتى الموت، وهو عين ما بايع عليه سلمة رضي الله عنه، فعن يزيد بن أبي عبيد مولى سلمة بن الأكوع قال: قلت لسلمة: على أي شيء بايعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية؟ قال: على الموت[3].

وقد بايع النبي صلى الله عليه وسلم بعض الناس بيعات مخصوصة، فقد بايع بعض أصحابه على أن يقول الحق دائمًا، وأن لا يسأل الناس شيئًا، فوفوا بذلك، فكان السوط يقع من أحدهم فلا يقول لغيره: ناولنيه، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: بايعني رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسًا، وأوثقني سبعًا، وأشهد الله علي تسعًا؛ أن لا أخاف في الله لومة لائم، فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (هل لك إلى بيعة ولك الجنة؟) قلت: نعم، وبسطت يدي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يشترط علي: (أن لا تسأل الناس شيئًا) قلت: نعم، قال: (ولا سوطك إن يسقط منك حتى تنزل إليه فتأخذه)[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب أن لا يفروا، وقال بعضهم: على الموت، ٤/ ٥٠، رقم ٢٩٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، رقم ١٨٦٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، ٣/ ١٤٨٣، رقم ١٨٥٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، ٣/ ١٤٨٦، رقم ١٨٦٠.

(٤) أخرجه أحمد في المسند، ٣٥/ ٤٠١، رقم ٢١٥٠٩.

قال محقق المسند: «إسناده ضعيف، لكن يشهد له قوله: (أن لا تسأل الناس شيئًا)، حديث عوف بن مالك عند مسلم ١٠٤٣».

أركان البيعة

من خلال التعريفات السابقة للبيعة، والتكييف الفقهي لها، يمكن أن نستنبط بسهولة أن للبيعة ثلاثة أركان:

الركن الأول: (موضوع البيعة): وهو إقامة نظام الخلافة الإسلامية، وفقًا لكتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من تطبيق للحدود والأحكام، أو البيعة على فرائض الإسلام وشرائعه، والدفاع عنه.

الركن الثاني: (المبايِع)، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، أو الخليفة من بعده، أو المربي، أو أمير القوم في السفر والمهمات القصيرة، وهو الطرف الذي أخذت له البيعة ليتولى منصب الخلافة، أو الإمامة، ويلقب بالأمير أو الخليفة.

الركن الثالث: (المبايَع)، وهو الطرف الذي أعطي البيعة لمن يستحقها، وهم أهل الحل والعقد خاصة، والأمة الإسلامية عامة. وسنتكلم فيما يأتي عن هذه الأركان الثلاثة بالتفصيل:

أولًا: البيعة:

التكييف الشرعي والفقهي للبيعة أنها (عقد)، وهذا التكييف له آثار جوهرية بليغة، فمعنى كونها عقدًا: أنه يجري فيها ما يجري في العقود الشرعية من أركان: كالعاقدين، والصيغة، والشروط.

وقد سبق القول أن موضوع البيعة هو إقامة نظام الخلافة الإسلامية، وفقًا لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من تطبيق للحدود والأحكام التي نصت عليها الشريعة الغراء، أو البيعة على فرائض الإسلام وشرائعه، والدفاع عنه.

وقد تكون على الإسلام، مثل البيعة التي أخذها النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة، فقد جاءه الناس الكبار والصغار والرجال والنساء فبايعهم على الإسلام والشهادة.

وقد تكون على الإسلام ومكارم الأخلاق، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مجلس: **(تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه) فبايعناه على ذلك**[١].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب بيعة النساء، ٩/ ٧٩، رقم ٧٢١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، ٣/ ١٣٣٣، رقم ١٧٠٩.

وقد تكون بيعة السياسة والحرب، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلًا وامرأتان من نسائنا، فاجتمعنا في الشعب حتى جاءنا رسول الله ومعه العباس، قلنا: يا رسول الله على ما نبايعك؟ قال: على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعلى أن تقوموا في الله، لا تأخذكم في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة، فقمنا إليه رجلًا رجلًا، فأخذ علينا البيعة[1].

وقد تكون بيعة على الموت، كما حدث في بيعة الشجرة في الحديبية، والبيعة تكون للرجال وللنساء وللكبار وللصغار على حد سواء.

١ . حكم البيعة.

يختلف حكم المبايعة باختلاف المبايعين، فأهل الحل والعقد يجب عليهم بيعة من يختارونه للإمامة، ممن قد استوفى الشروط الشرعية لها، وأما سائر الناس فالأصل وجوب البيعة على كل واحد منهم بناءً على بيعة أهل الحل والعقد؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتةً جاهليةً)[2]. ولكن المالكية ذهبوا إلى أنه يكفي سائر الناس أن يعتقدوا أنهم تحت أمر الإمام المبايع، وأنهم ملتزمون بالطاعة له[3].

هذا بالنسبة للمبايعين من أهل الحل والعقد وسائر الناس، أما من جهة المختار ليكون إمامًا فيجب عليه قبول البيعة إن تعيّنت الإمامة، بأن لا يوجد غيره مستوفيًا للشروط، فإن كان المستوفون للشروط أكثر من واحد كان قبول البيعة فرض كفاية.

لأن البيعة عقد مراضاة واختيار، لا يدخله إكراه ولا إجبار، وهو عقد بين طرفين: أحدهما: أهل الحل والعقد، وثانيهما: الشخص الذي أدّاهم اجتهادهم إلى اختياره ممن قد استوفوا شرائط الإمامة؛ ليكون إمامًا لهم، فإذا اجتمع أهل الحل والعقد للاختيار، وتصفّحوا أحوال أهل الإمامة الموجودة فيهم شروطها، فقدّموا للبيعة منهم أكثرهم

(١) أخرجه أحمد في المسند، ٢٣/ ٢٢، رقم ١٤٦٥٣.
قال محقق المسند: «حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل يحيى بن سليم، وهو الطائفي».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، ٣/ ١٤٧٨، رقم ١٨٥١.

(٣) انظر: الشرح الكبير، الشيخ الدردير، وحاشية الدسوقي ٤/ ٢٩٨، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، الحطاب ٦/ ٢٧٩.



فضلًا، وأكملهم في تلك الشروط، ومن يسرع الناس إلى طاعته، ولا يتوقّفون عن بيعته، فإذا تعيّن لهم من بين الجماعة من أدّاهم الاجتهاد إلى اختياره عرضوها عليه، فإن أجاب إليها بايعوه عليها، وانعقدت ببيعتهم له الإمامة، فلزم كافة الأمة الدخول في بيعته، والانقياد لطاعته، وإن امتنع من الإمامة ولم يجب إليها لم يجبر عليها، وعدل عنه إلى من سواه من مستحقّيها.

٢. مشروعية البيعة.

دل على مشروعية البيعة الكتاب والسنة والإجماع:

فمن القرآن قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

والآية تدل أن مبايعة المسلمين للرسول صلى الله عليه وسلم إنما هي في الحقيقة مبايعة لله تبارك وتعالى؛ فيده سبحانه فوق أيديهم، والمراد بالمبايعة في الآية: بيعة الرضوان بالحديبية، وقد أنزل الله تعالى فيمن بايعه فيها قوله جل شأنه: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: «كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة، فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة، وقال: بايعناه على أن لا نفرّ»[1].

ومما يدل على مشروعية البيعة قوله سبحانه في بيعة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وهذا لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة جاءه نساء أهلها يبايعنه فأخذ عليهن: أن لا يشركن... إلخ.

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: **(كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتحنّ بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ [الممتحنة: ١٢].. إلى آخر الآية، قالت عائشة: فمن أقرّ بهذا من المؤمنات فقد أقرّ بالمحنة)**[2].

وقالت أم عطية رضي الله عنها: **(لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة**

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، ٣/ ١٤٨٣، رقم ١٨٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب إذا أسلمت المشركة أو النصرانية تحت الذمي أو الحربي، ٧/ ٤٩، رقم ٥٢٨٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كيفية بيعة النساء، ٣/ ١٤٨٩، رقم ١٨٦٦.

جمع نساء الأنصار في بيت، ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقام على الباب، فسلّم، فرددن عليه السلام، فقال: أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكنّ: أن لا تشركن بالله شيئًا، فقلن: نعم)[1].

ومما يدل مشروعية البيعة أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ البيعة من الصحابة في مواقف كثيرة، وعلى أمور مختلفة، كما في بيعة العقبة الأولى حيث بايع المسلمون الرسول صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء قبل أن تفرض عليهم الحرب، وفي بيعة العقبة الثانية، وفي بيعة الرضوان، وغيرها من البيعات.

كما دل على مشروعية البيعة الإجماع، فقد أجمع الفقهاء في الجملة على وجوب بيعة المسلمين لإمام لهم يمثّلهم، ويقوم على أمورهم؛ حتى لا تذهب ريحهم، ويتولى أمر البيعة في بادئ الأمر بعض وجهاء المسلمين من أهل الحل والعقد، الذين يختارون الإمام الصالح بحسب اجتهادهم ومشورتهم، ثم يدعون عموم الناس لمبايعته، فقد قال الإمام النووي: «أجمع العلماء على أنه يجب على المسلمين نصب خليفة»[2].

فالبيعة لخليفة المسلمين أمر معلوم من الدين بالضرورة، وعدم نصب خليفة أو حاكم مسلم سيورث الإضرار والفوضى والاختلاف والتنازع.

٣. الفرق بين مبايعة النبي صلى الله عليه وسلم ومبايعة غيره.

إن موضوع بيعة الرسول صلى الله عليه وسلم يقتصر على التزام المبايعين وتعهّدهم بالسمع والطاعة، وخاصةً الالتزام بما بايعوا عليه، أما تعيينه صلى الله عليه وسلم للإمامة فإنما كان ذلك بالوحي، وأما بيعة غيره فهي التزام من كل من الطرفين، فهي من أهل الحل والعقد التزام للإمام بالسمع والطاعة، والإقرار بإمامته، والتزام من المبايع بإقامة العدل والإنصاف والقيام بفروض الإمامة، ويترتّب على البيعة إذا تمّت على الوجه المشروع انعقاد الإمامة لمن بايعه أهل الحل والعقد، وأما سائر الناس غير أهل الحل والعقد فعليهم أن يبايعوه بعد ذلك تبعًا لأهل الحل والعقد.

٤. أثر البيعة في انعقاد الإمامة.

اختيار أهل الحل والعقد للإمام، وبيعتهم له، هي إحدى طرق التولي، بل هي الأصل في انعقاد الإمامة، وأهل الحل والعقد هم العلماء وجماعة أهل الرأي والتدبير، الذين اجتمع فيهم العلم والأمانة والعدالة والرأي. والأصل في البيعة أن تكون على الكتاب

(١) أخرجه أحمد في المسند، ٣٤/ ٣٩٤، رقم ٢٠٧٩٧.

(٢) شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٢/ ٢٠٥.

والسنة، وإقامة الحق والعدل من قبله، وعلى السمع والطاعة في المعروف من قبلهم، وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي كان يلقنهم قيد الاستطاعة عند المبايعة، وقد بايعوه أيضًا على الإسلام، وعلى الهجرة، وعلى الجهاد، وعلى الصبر وعدم الفرار من القتال، وعلى بيعة النساء المنصوصة في القرآن.

وهذه الطريق هي إحدى الطرق الصحيحة عند أهل السنة لتولي الخلافة، وتنعقد الإمامة أيضًا بالتغلب، أو أن يجعل الخليفة الأمر شورى بين أهل الحل والعقد.

٥. البيعة العامة.

البيعة قد تكون بيعة عامة كبرى، تعطى لإمام المسلمين الذي اجتمع عليه الناس كلهم، لاستيفاء شروط الإمامة، أو لكفاءته أكثر من غيره، أو لتغلبه، وهذا النوع هو المقصود عند إطلاق لفظ البيعة، ففي بيعة المتغلب قال الإمام الشاطبي: «قيل ليحيى بن يحيى: البيعة مكروهة، قال: لا، قيل له: فإن كانوا أئمة جور، فقال: قد بايع ابن عمر لعبد الملك بن مروان، وبالسيف أخذ الملك، أخبرني بذلك مالك عنه أنه كتب إليه: أقر له بالسمع والطاعة على كتاب الله وسنة رسوله»[(١)].

وهذه البيعة العامة لا تكون إلا بمبايعة أهل الحل والعقد للمرشح للإمامة، وعليه فإن أداءها واجب على الأمة كافة، ويعدّ من نقضها باغيًا، والتارك لها من غير تأول يموت ميتة جاهلية؛ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)**[(٢)].

وقوله: **(مات ميتة جاهلية)** أي: مات كميتة أهل الجاهلية، وليس أنه مات على الكفر، كما فهمه بعضهم، قال النووي رحمه الله: «أي: على صفة موتهم، من حيث هي فوضى لا إمام لهم»[(٣)].

وقال ابن حجر رحمه الله: «والمراد بالميتة الجاهلية -وهي بكسر الميم-: حالة الموت، كموت أهل الجاهلية على ضلال، وليس له إمام مطاع؛ لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافرًا، بل يموت عاصيًا»[(٤)].

وهذه البيعة لا تقبل التعدد؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: **(إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما)**[(٥)].

(١) الاعتصام، ٢/ ١٢٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، ٣/ ١٤٧٨، رقم ١٨٥١.

(٣) شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ١٢/ ٢٣٨.

(٤) فتح الباري ١٣/ ٥.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب إذا بويع لخليفتين، ٣/ ١٤٨٠، رقم ١٨٥٣.

وتنخرم هذه البيعة، ويسقط واجب الطاعة إذا ما طرأ على الإمام الكفر البواح الذي عندنا فيه من الله تعالى البرهان، أو طرأ عليه أمر يعجز معه عن القيام بأعبائها كالجنون ونحوه، كما هو مفصل في كتب الفقه والسياسة الشرعية[1].

٦ . البيعة الخاصة.

وقد تكون البيعة بيعة صغرى جزئية خاصة، وللعلماء في هذا النوع من التحالف والعهد تفصيل:

فإذا كان موضوع التحالف مخالفًا للشرع فالعهد باطل؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (**من اشترط شرطًا ليس في كتاب الله فهو باطل، وإن اشترط مائة شرط؛ شرط الله أحق وأوثق**)[2] وإذا كان العقد على أمر شرعي كالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويكون العهد على طاعة من يرتضونه لعلمه، أو كفايته، فقد سوغها بعض العلماء. وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية مشروعية هذا التعاهد، فقال: «ولكن يحسن أن يقول لتلميذه: عليك عهد الله وميثاقه أن توالي من والى الله ورسوله، وتعادي من عادى الله ورسوله، وتعاون على البر والتقوى، ولا تعاون على الإثم والعدوان، وإن كان الحق معي نصرت الحق، وإن كنت على الباطل لم تنصر الباطل، فمن التزم هذا كان من المجاهدين في سبيل الله تعالى الذين يريدون أن يكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا»[3].

وقد علّق شيخ الإسلام ابن تيمية على الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**ولا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة، إلا أمّروا عليهم أحدهم**)[4] بقوله: «فأوجب صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيهًا بذلك على سائر أنواع الاجتماع؛ ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة»[5].

فتأمير الأمير وأخذ البيعة له أمر فطري، ونجد أنه كانت هناك إمارات تتم في ظروف خاصة لمهام خاصة، مثل: إمارة الحج، وإمارة السفر والقتال، ومنها: تأمير خالد بن الوليد في مؤتة، والأمر في هذه الإمارات والبيعات يتم بصورة طبيعية لا يفهم منها

(١) انظر مسببات العزل في: الأحكام السلطانية، الماوردي ص١٧-٢٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب البيع والشراء مع النساء، ٣/ ٧١، رقم ٢١٥٥، ومسلم في صحيحه، كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق، ٢/ ١١٤١، رقم ١٥٠٤.
(٣) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢١.
(٤) أخرجه أحمد في المسند، ١١/ ٢٢٧، رقم ٦٦٤٧.
(٥) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٣٩٠.

أنها تحل محل الإمارة أو البيعة العامة.

فالناس لهم أن يتعاهدوا على فعل أي طاعة من الطاعات، كالجهاد أو الدعوة، أو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أو إغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم وهكذا، فلا يشترط لصحة هذه البيعات أن تكون على إقامة أحكام الإسلام كلها، وهذا أيضًا قد سبق بيانه فيما سقناه من أدلة.

٧. كيفية البيعة.

كيفيّتها أن يقول كل من أهل الحل والعقد المبايعين لمن يبايعونه بالخلافة: قد بايعناك على إقامة العدل والإنصاف والقيام بفروض الإمامة، ولا يحتاج ذلك إلى صفقة اليد، إلا إذا اقتضى الأمر التأكيد، كما حصل في مبايعة أبي بكر رضي الله عنه حين تخوّف عمر بن الخطاب رضي الله عنه الاختلاف بين المسلمين، قال لأبي بكر رضي الله عنه: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعه، ثم بايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار[(١)].

وكانت البيعة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين بالمصافحة، وبيعة النساء بالكلام، وما مست يده الكريمة صلى الله عليه وسلم يد امرأة لا يملكها، فيقول لمن يبايعه: بايعتك، أو أبايعك على السمع والطاعة، في العسر واليسر والمنشط والمكره[(٢)].

فلما ولي الحجاج رتّبها أيمانًا تشتمل على اليمين بالله والطلاق والعتاق وصدقة المال، قال ابن القيم: «ومن هذه الالتزامات التي لم يلزم بها الله ولا رسوله لمن حلف بها، الأيمان التي رتّبها الفاجر الظالم الحجاج بن يوسف، وهي أيمان البيعة...، فأحدث الحجاج في الإسلام بيعة غير هذه تتضمن اليمين بالله تعالى، والطلاق، والعتاق، وصدقة المال، والحج»[(٣)].

والذي يأخذ البيعة في حاضرة الدولة هو الخليفة، وأما في الأقاليم فقد يأخذها الإمام، وقد يأخذها نواب الإمام، كما حدث في بيعة الصديق رضي الله عنه ، فأهل مكة والطائف أخذها نواب الخليفة.

٨. نقض البيعة.

البيعة عهد وموثق يعطيه المسلم طائعًا مختارًا لربه، مستسلمًا لمشيئته، مدافعًا عن دينه، فإذا كانت البيعة على الإسلام، فعهدهم أن لا يشركوا بالله شيئًا، وإذا كانت البيعة على الجهاد فعهدهم أن يبذلوا أنفسهم حمية لدينهم لا لأنفسهم حتى تكون كلمة الله هي العليا، وإذا كانت البيعة على النصرة فعهدهم أن يسمعوا ويطيعوا للقيادة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، ٨/ ١٦٨، رقم ٦٨٣٠.

(٢) إعلام الموقعين، ابن القيم ٣/ ٦٢.

(٣) المصدر السابق.

المؤمنة، وأن يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر، وأن لا ينازعوا الأمر أهله.

وقد حرّم الشرع على المسلم إذا بايع الإمام أن ينقض بيعته، أو يترك طاعته، إلا لموجب شرعي يقتضي انتقاض البيعة، كردة الإمام، فإن نقض البيعة لغير ذلك فهو حرام، وقد ورد النهي عنه في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

فذكر الله سبحانه وتعالى بيعتهم لرسوله، وأكدها بكونها بيعة له سبحانه، وأن يده تعالى كانت فوق أيديهم؛ إذ كانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك، وهو رسوله ونبيه، فالعقد معه عقد مع مرسله، وبيعته بيعته، فمن بايعه فكأنما بايع الله، ويد الله فوق يده، ثم أخبر أن ناكث هذه البيعة إنما يعود نكثه على نفسه، وأن للموفي بها أجرًا عظيمًا، فكل مؤمن قد بايع الله على لسان رسوله بيعة على الإسلام وحقوقه، فناكث وموف، ثم ذكر حال من تخلف عنه من الأعراب، وظنهم أسوأ الظن بالله أنه يخذل رسوله وأولياءه وجنده، ويظفر بهم عدوهم، فلن ينقلبوا إلى أهليهم؛ وذلك من جهلهم بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق به، وجهلهم برسوله وما هو أهل أن يعامله به ربه ومولاه، ثم أخبر سبحانه عن رضاه عن المؤمنين بدخولهم تحت البيعة لرسوله، وأنه سبحانه علم ما في قلوبهم حينئذٍ من الصدق والوفاء، وكمال الانقياد والطاعة، وإيثار الله ورسوله على ما سواه، فأنزل الله السكينة والطمأنينة والرضا في قلوبهم، وأثابهم على الرضا بحكمه والصبر لأمره فتحًا قريبًا، ومغانم كثيرة يأخذونها، وكان أول الفتح والمغانم فتح خيبر ومغانمها، ثم استمرت الفتوح والمغانم إلى انقضاء الدهر[(١)].

فبيعة إمام المسلمين واجبة على كل مسلم، لا يسع أحد التنصل منها أو الخروج عليها ألبتة؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: **(وستكون خلفاء فتكثر)، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: (فوا ببيعة الأول فالأول)**[(٢)]. وقال صلى الله عليه وسلم: **(من بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع)**[(٣)].

فأمر بالوفاء ببيعتهم وطاعتهم، وذم من

---

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٢٧٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٤/ ١٦٩، رقم ٣٤٥٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، رقم ١٨٤٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول ٣/ ١٤٧٢، رقم ١٨٤٤.

لم يبايع في قوله صلى الله عليه وسلم: (ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية)[١].

وأمر بلزوم هذه البيعة في قوله صلى الله عليه وسلم: (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم)[٢].

وقد قال أحمد بن حنبل رحمه الله: «ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة، وسمي أمير المؤمنين، لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إمامًا عليه، برًّا كان أو فاجرًا، فهو أمير المؤمنين»[٣].

أما بيعات الناس وعهودهم على الطاعات فلا تجب إلا على من دخل فيها برضاه، فتجب عليه بالعهد الذي ألزم به نفسه، كأن يتعاهد اثنان على حفظ القرآن أو بعضه، فحفظ القرآن ليس بواجب على كل مسلم من حيث الأصل، أما إذا عاهد غيره عليه فقد وجب عليه الحفظ بالعهد لا بالأصل.

ثانيًا: المبايَع:

المبايَع هو الركن الثاني من أركان البيعة، وهو الرسول أو الإمام، أو المربي، أو أمير القوم في السفر والمهمات القصيرة، فالإمام يبايع على الحكم بالكتاب والسنة، والخضوع التام للشريعة الإسلامية عقيدة وشريعة، ونظام حياة، والأمة تبايع على الخضوع والسمع والطاعة للإمام في حدود الشريعة.

فعملية البيعة أو المبايعة هي في جوهرها وأصلها عقدٌ وميثاق بين طرفين: الأمير، أو الإمام المرشح لرئاسة الدولة، والجمهور، أما هو فيبايع على الحكم بالكتاب والسنة والنصح للمسلمين، وأما الجمهور المبايع فعلى الطاعة في حدود طاعة الله ورسوله[٤].

وهذا يعني أن الحاكم والأمة كليهما مقيد بما جاء به الإسلام من الأحكام الشرعية، لا يحق لأحدهما سواء كان الحاكم أو الأمة ممثلة بأهل الحل والعقد الخروج على أحكام الشريعة، أو تشريع الأحكام التي تصادم الكتاب والسنة، أو القواعد العامة في الشريعة، ويعد فعل مثل ذلك خروجًا على الإسلام، بل إعلان الحرب على النظام العام للدولة الإسلامية، بل أبعد

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، ٣/ ١٤٧٨، رقم ١٨٥١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ٩/ ٥١، رقم ٧٠٨٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، ٣/ ١٤٧٥، رقم ١٨٤٧.

(٣) الأحكام السلطانية، أبو يعلى الفراء، ص ٢٠-٢٣.

(٤) انظر: نظام الإسلام الحكم والدولة، محمد المبارك، ص ٣٠ بتصرف.

من هذا نجد أن القرآن الكريم نفى عنهم صفة الإيمان، حيث قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ونلحظ أن عقد البيعة يتضمن -دائمًا- الشروط التي قبل المسلمون بمقتضاها تولية الحاكم، فقد كان الخليفة أو الإمام يعلن عن هذه الشروط، وإن اعتبرت معلنة ضمنًا بعد عصر الخلافة الراشدة، فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول بعد أن بايعه المسلمون بالخلافة: «أما بعد: أيها الناس، فإني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»[(١)].

ومن هذا الخطاب نستنتج أن البيعة لا تعطي الحاكم سلطة مطلقة كما يعتقد بعضهم، وإنما سلطات مقيدة، فالخليفة -أولًا: ملتزم بتنفيذ أحكام الشريعة «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله»، والمسلمون لهم حق المراقبة لأعمال الحاكم «فإن أسأت فقوموني»، بل لهم أن يعزلوه إن أساء وخالف أحكام الإسلام، وهناك إعلان آخر هام بالمساواة بين عناصر الأمة، وتطبيق العدل بين كل الناس، بصرف النظر عن قوة المحكوم أو ضعفه «والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه».

١ . شروط المبايَع.

كما أنه يشترط لأهل الحل والعقد شروط يجب توافرها فيهم؛ كالأمانة والعدل وحسن الرأي، فكذلك للخليفة المبايَع شروط يجب توافرها فيه، وبعض هذه الشروط مختلف فيها، وبعضها الآخر متفق عليه، فشرط الإسلام لم يختلف عليه أحد من أهل العلم؛ لأن مقتضى البيعة تطبيق شرع الله تعالى، وإقامة الحدود، وحراسة الثغور، فكيف سيطبق كافرٌ شرع الله تعالى، ويقوم بهذه الأعمال؟! بل إن كان مسلمًا وطرأ عليه الكفر فإنه يعزل لكفره.

قال ابن حزم رحمه الله في بيان شروط الإمامة: «وأن يكون مسلمًا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

والخلافة أعظم السبيل؛ ولأمره تعالى بإصغار أهل الكتاب، وأخذهم بأداء الجزية»[(٢)].

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك، الطبري ٢/ ٢٣٨، السيرة النبوية، ابن هشام ٦/ ٨٢.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنّحل، ٤/ ١٢٨.

وقال النووي رحمه الله: «قال القاضي: أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل»[1].

وفي بيعة الإمامة يجب أن يكون المبايع له مستوفيًا لشرائط الإمامة من قرشية وغيرها، وقد تستثنى بعض الشروط لمن غلب بالقهر، أما في بيعات الناس وعهودهم على الطاعات فلا تلزم هذه الشروط؛ لأنها بيعات خاصة، فقد يبايع الناس من ليس بقرشي ولا مجتهد ولا حر، وهذا مستفاد مما جاء من الأدلة.

ولكي تكون البيعة واقعة على الوجه الصحيح لا بد من توافر بعض الشروط، وهي:

١. أن تجتمع في المأخوذ له البيعة الشروط المطلوبة في الإمام، وعلى هذا فلا تنعقد الإمامة لواحد فقد شرطًا من الشروط إلا في حال الضرورة، غير شرط الإسلام فإنه لا يسقط.

٢. أن يكون الذين عقدوا البيعة للإمام هم أهل الحل والعقد، فإذا عقدها له غيرهم فلا تنعقد، يقول شمس الدين الرملي: «أما بيعة غير أهل الحل والعقد من العوام فلا عبرة بها»[2].

٣. أن يقبل الشخص الذي عقدوا له الإمامة هذا المنصب، يقول الإمام النووي: «ويشترط لانعقاد الإمامة أن يجيب المبايع، فإن امتنع لم تنعقد إمامته، ولم يجبر عليها، إلا أن لا يكون من يصلح إلا واحد، فيجبر بلا خلاف»[3].

٤. الإشهاد على البيعة، وهو شرط اختلف فيه على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن البيعة لا تحتاج إلى إشهاد؛ لأنه لم يقم دليل من السمع على وجوب الإشهاد؛ ولا يوجب العقل ذلك، وممن قال بهذا الرأي إمام الحرمين الجويني، حيث قال: «ثم ربما كان الأمر ينجر إلى إنكار وجحود، ونزاع في مقصود، ومس الحاجة إلى شهود، وقد ندبنا إلى الإشهاد على البيوع...، والمسألة مظنونة مجتهد فيها»[4].

الثاني: وجوب الإشهاد عليها؛ وذلك لأنه لو لم يجب الإشهاد لم نأمن أن يدعي أناس انعقاد الإمامة لهم سرًّا، فيؤدي إلى الهرج والفتنة، وهو اختيار القاضي أبي بكر الباقلاني[5].

الثالث: ينظر إلى عدد العاقدين، فإن كانوا جمعًا لم يشترط الإشهاد، وإن كان العاقد واحدًا اشترط ذلك، وممن ذهب إلى ذلك الإمام النووي رحمه

(١) شرح صحيح مسلم، ١٢/ ٢٢٩.
(٢) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، ٧/ ٤١٠.
(٣) روضة الطالبين ٣/ ٤٣٤.
(٤) غياث الأمم ص٧٤.
(٥) المصدر السابق ص٧٣.

الله حيث قال: «قلت: الأصح: لا يشترط إن كان العاقدون جمعًا، وإن كان واحدًا، اشترط الإشهاد»[1].

٥. ألا يقارن هذا العقد عقد لآخر؛ فلا يجوز أن تعقد الإمامة لأكثر من واحد، وقد أجمع العلماء أنه لا يصح أن تعقد البيعة لأكثر من إمام، سواء أكان ذلك التعدد حاصلًا بطريق الصدفة والاتفاق؛ أم غير ذلك، قال إمام الحرمين: «إن عقد الإمامة لشخصين في صقع واحد؛ متضايق الخطط والمخالف غير جائز، وقد حصل الإجماع عليه»[2].

وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما)**[3].

والمقصود أنه يشترط في المختار عشرة أوصاف: أن يكون ذكرًا، حرًّا، بالغًا، عاقلًا، مسلمًا، عدلًا، شجاعًا، عالمًا، كافيًا لما يتولاه من سياسة الأمة ومصالحها، فإذا اختاروه على هذه المواصفات فقد تمت البيعة له من قبل الأمة، ولزمهم طاعته، وتنفيذ ما أمر به، وترك ما نهى عنه، إلا إذا أمر بمعصية الله فلا يطاع؛ لقوله: **(لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف)**[4].

٢. دوام البيعة له.

بيعة الإمام دائمة لا تنقطع إلا إذا مات الإمام، أو طرأ عليه سبب يوجب العزل من نقص في الدين، أو نقص مؤثر في البدن[5].

ثالثًا: المبايع:

الركن الثالث للبيعة هو المبايع، وهو الطرف الذي أعطي البيعة لمن يستحقها، وهم صنفان:

- أهل الحل والعقد خاصة.
- الأمة الإسلامية عامة.

ولهذا فالبيعة نوعان:

بيعة خاصة: يقوم بها أهل الحل والعقد، الذين يختارون فيما بينهم واحدًا يكون أصلح الموجودين لتولي الإمارة، بحيث يتم الاختيار بحرية تامة دون إكراه.

بيعة عامة: وتأتي بعد البيعة الخاصة، وتكون عامة لكل الناس يأخذها الخليفة، أو الأمير بنفسه، أو من ينيبه عنه، وهي عبارة

(١) روضة الطالبين ١٠/ ٤٣.

(٢) الإرشاد، الجويني ص٤٢٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب إذا بويع لخليفتين، ٣/ ١٤٨٠، رقم ١٨٥٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة، ٩/ ٨٨، رقم ٧٢٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، ٣/ ١٤٦٩، رقم ١٨٤٠.

(٥) انظر مسببات العزل في: الأحكام السلطانية، الماوردي، ص ١٧-٢٠.



عن إعلان الولاء والطاعة والاعتراف بالأمر الواقع، وعدم الخروج على الجماعة[1].

فإذا بايع الإمام أهل الحل والعقد، وهم العلماء والفضلاء ووجوه الناس ثبتت ولايته، ولا يجب على عامة الناس أن يبايعوه بأنفسهم؛ وإنما الواجب عليهم أن يلتزموا طاعته في غير معصية الله تعالى؛ لأن المقصود بذلك المجموع لا الجميع؛ لأنه لو كلف الناس كلهم أن يبايعوا ويباشروا البيعة لشق ذلك على السلطان نفسه، وللحق الناس من ذلك المشقة العظيمة، بل يكفي أن يبايع أهل الحل والعقد، ويكون الناس تبعًا لهم، قال المازري: «يكفي في بيعة الإمام أن يقع من أهل الحل والعقد ولا يجب الاستيعاب، ولا يلزم كل أحد أن يحضر عنده ويضع يده في يده، بل يكفي التزام طاعته والانقياد له بأن لا يخالفه ولا يشق العصا عليه»[2].

وقال النووي رحمه الله: «أما البيعة فقد اتفق العلماء على أنه لا يشترط لصحتها مبايعة كل الناس، ولا كل أهل الحل والعقد، وإنما يشترط مبايعة من تيسر إجماعهم من العلماء والرؤساء ووجوه الناس...، ولا يجب على كل واحد أن يأتي إلى الإمام فيضع يده في يده ويبايعه، وإنما يلزمه الانقياد له، وألا يظهر خلافًا، ولا يشق العصا»[3].

١ . عدد من تنعقد بمبايعتهم الإمامة.

ليس من شرط البيعة إجماع الناس عليها، ومبايعتهم جميعهم، كما هو مقرر عند العلماء في السياسة الشرعية، قال ابن جماعة: «ولا يشترط في أهل البيعة عدد مخصوص، بل من تيسر حضوره عند عقدها، ولا تتوقف صحتها على مبايعة أهل الأمصار، بل متى بلغتهم لزمهم الموافقة إذا كان المعقود له أهلًا لها»[4].

وقال المازري: «يكفي في بيعة الإمام أن يقع من أهل الحل والعقد، ولا يجب الاستيعاب، ولا يلزم كل أحد أن يحضر عنده ويضع يده في يده، بل يكفي التزام طاعته والانقياد له بأن لا يخالفه، ولا يشق العصا عليه»[5].

وقال النووي رحمه الله: «أما البيعة فقد اتفق العلماء على أنه لا يشترط لصحتها مبايعة كل الناس، ولا كل أهل الحل والعقد، وإنما يشترط مبايعة من تيسر إجماعهم من العلماء والرؤساء ووجوه الناس، وأما عدم القدح فيه؛ فلأنه لا يجب على كل واحد أن يأتي إلى الإمام فيضع يده في يده ويبايعه، وإنما يلزمه إذا عقد أهل الحل والعقد للإمام

(١) انظر: البيعة في النظام السياسي الإسلامي، أحمد صديق عبد الرحمن، ص٣٤- ٣٥.
(٢) فتح الباري، ابن حجر ٧/ ٤٩٤.
(٣) شرح صحيح مسلم، ١٢/ ٧٧.
(٤) تحرير الأحكام، ابن جماعة ص٥٣.
(٥) فتح الباري، ابن حجر ٧/ ٤٩٤.

الانقياد له، وأن لا يظهر خلافًا، ولا يشق العصا»[1].

وقال أبو يعلى: «أما انعقاد الإمامة باختيار أهل الحل والعقد فلا تنعقد إلا بجمهور أهل الحل والعقد، قال أحمد في رواية إسحاق بن إبراهيم: الإمام الذي يجتمع قول أهل الحل والعقد عليه كلهم يقول: هذا إمام، قال أبو يعلى: وظاهر هذا أنها تنعقد بجماعتهم»[2].

وقيل: تنعقد بأقل من ذلك، وممن قال بعدم انعقادها إلا بجمهور أهل الحل والعقد المالكية والحنابلة، وقال المعتزلة بانعقادها بخمسة، وقال الشافعية بانعقادها بالأربعة والثلاثة والاثنين. وقال الحنفية بانعقادها بواحد[3].

والصواب ما قدمناه من أنه لا يشترط في البيعة إجماع الناس عليها، ولا عدد مخصوص.

والناظر في أدلة معظم هذه الأقوال التي فيها اشتراط عدد معين لا يجد فيها حجة ناهضة، أو دليلًا شرعيًّا معتبرًا، وعلى ذلك فالحكم الشرعي هو أن يقوم بانتخاب الخليفة جمعٌ يتحقق في تنصيبهم له رضا المسلمين بأي أمارة من أمارات التحقق، سواء أكان ذلك بكون المبايعين أكثر أهل الحل والعقد، أم بكونهم أكثر الممثلين للأمة، أو كان بسكوت المسلمين عن بيعتهم له، أو مسارعتهم بالطاعة بناء على هذه البيعة، أو بأي وسيلة من الوسائل، ما دام قد توفّر لهم التمكين التام من إبداء رأيهم، ولا يشترط كونهم أربعين، أو أكثر أو أقل، أو كونهم أهل العاصمة، أو الأقاليم والأمصار؛ لأن كل ذلك يرتبط بالحال والواقع الذي يشير إلى يسر وسائل الاتصال أو صعوبتها، فمع ثورة الاتصالات وإمكان التعرف على الآراء في وقت قصير يمكن بوساطة ما الاستدلال على الرضا والاختيار، فإن ذلك يعد من قبيل الوسائل التي يتم بها الواجب، وعلى هذا فإن الخلافة تنعقد إذا جرت البيعة من أكثر الممثلين لأكثر الأمة الإسلامية ممن يدخلون تحت طاعة الخليفة الذي يراد انتخاب خليفة مكانه، كما جرت الحال في عهد الخلفاء الراشدين، وتكون بيعتهم حينئذٍ بيعة عقد للخلافة، أما من عداهم فإن بيعتهم تصير بيعة طاعة.

٢. العبرة في البيعة بأهل الحل والعقد.

أهل الحل والعقد من المسلمين هم الذين يتولون اختيار إمام المسلمين وخليفتهم ولا عبرة بقول العوام في بيعة الانعقاد، قال القرطبي: «إذا انعقدت الإمامة باتفاق أهل الحلّ والعقد، أو بواحد على ما

(١) شرح صحيح مسلم ١٢/ ٧٧.
(٢) الأحكام السلطانية، أبو يعلى الفراء ص٢٣.
(٣) انظر: الأحكام السلطانية، الماوردي ص٦ - ٧.

تقدّم، وجب على الناس كافة مبايعته على السمع والطاعة، وإقامة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن تأبّى عن البيعة لعذر عذر، ومن تأبى لغير عذر جبر وقهر؛ لئلا تفترق كلمة المسلمين»[1] . وقد سبق قول الرملي: «أما بيعة غير أهل الحل والعقد من العوام فلا عبرة بها»[2] .

والمقصود أن البيعة في إطارها العام تتكون من ثلاثة عناصر رئيسة، أولها: الطرف الذي أخذت البيعة له، وهو الشخص الذي يتولى منصب الإمامة. وثانيها: الطرف الذي أعطى البيعة لمن يستحق الإمامة، وهم أهل الحل والعقد خاصة، وجماهير الأمة الإسلامية عامة. وثالثها: موضوع البيعة، وهو إقامة نظام الخلافة الإسلامية، وفقًا لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٧٢.
(٢) نهاية المحتاج ٧/ ٤١٠.

آثار البيعة

أولًا: وحدة الكلمة وجمع الشمل:

من آثار البيعة وحدة الكلمة، وجمع الشمل، ومن المعلوم أن الاجتماع في شريعة الإسلام له أهمية كبرى، بل هو من مقاصد الشريعة؛ فالإسلام دين الاجتماع، ينهى عن الفرقة، ويأمر باجتماع الكلمة تحت لواء واحد، وسلطان واحد، وإمام واحد، ولهذا شرعت الجمع والجماعات من أجل الاجتماع، ومنع من إقامة جماعتين في آن واحد؛ لئلا تتفرق الكلمة.

ومن أجل هذا المقصد العظيم شرع الاجتماع على ولي أمر واحد، ومبايعته، وعدم منازعته، أو الخروج عليه.

ونجد أن الشارع الحكيم قد رتب القتل، وأمر به نتيجة الخروج على الإمام، مما يدل على حرمة هذا الفعل؛ لأنه به يحصل النزاع والشقاق، قال صلى الله عليه وسلم: **(من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم، أو يفرق جماعتكم، فاقتلوه)**[3] .

وقال صلى الله عليه وسلم: **(ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه**

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، ٣/ ١٤٨٠، رقم ١٨٥٢.

ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر)[١].

وهذا يدل على أهمية اجتماع الناس على البيعة؛ لما لها من أهمية في استقرار المجتمع، وجمع الشمل، ووحدة الصف.

وقد ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تدعو المسلمين، وتأمرهم بالاجتماع والتآلف، وتنهى عن التفرق والاختلاف المؤديين إلى التنازع والفشل، فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا المعنى، ووجه الدلالة من هذه الآيات أنها جميعًا جاءت متفقة على الأمر بالوحدة والتضامن، والنهي عن التشتت والافتراق والاختلاف؛ لما ينجم عن ذلك عادة من التنازع والفشل الممقوت، وكلها تدل على وجوب وحدة الأمة الإسلامية وتضامنها، وذلك لا يتأتى إلا إذا كان إمامها واحدًا لا ينازعه أحد؛ إذ إن وجود إمامين فأكثر يؤدي إلى غيرة أحدهما من الآخر، ومنافسته له، ومحاولة التعالي عليه، ومن ثم إلى الشقاق والتناحر لا محالة، وهذا مما نهى الإسلام عنه، فدل على وجوب أن يكون إمام المسلمين واحدًا؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ونتعلم من مبايعة الأمة للصديق رضي الله عنه بأن الحاكم في الدولة الإسلامية إذا وصل إلى الحكم عن طريق أهل الحل والعقد، وبايعته الأمة بعد أن توفرت فيه الشروط المعتبرة، فإنه يجب على المسلمين جميعًا مبايعته، والاجتماع عليه، ونصرته على من يخرج عليه؛ حفاظًا على وحدة الأمة، وتماسك بنيانها أمام الأعداء في داخل الدولة الإسلامية وخارجها[٢].

ومن أجل هذا أوجب النبي صلى الله عليه وسلم البيعة بقوله: (ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)[٣]. فهذا الحديث فيه حث على وجوب إعطاء البيعة، والتوعد على تركها، فمن مات ولم يبايع

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، ٣/ ١٤٧٢، رقم ١٨٤٤.

(٢) انظر: نظام الحكم في الإسلام، عارف أبو عيد ص٢٤٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، ٣/ ١٤٧٨، رقم ١٨٥١.

مات على الضلال؛ ومن هنا ندرك أهمية إعطاء البيعة، والوفاء بها، وليس هذا في الإمامة العظمى فقط، بل حتى فيما دون ذلك. وقد علّق شيخ الإسلام ابن تيمية على الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمّروا عليهم أحدهم**)[1] قائلاً: «فأوجب صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر؛ تنبيهًا بذلك على سائر أنواع الاجتماع؛ ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة...، فالواجب اتخاذ الإمارة دينًا وقربة إلى الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات»[2].

ولأن البيعة الغرض منها اجتماع الناس على إمام واحد وجمع الكلمة، فقد ورد أن ابن عمر رضي الله عنه ما- كان من عادته عدم البيعة في حال الاختلاف، وكان يبايع عند اجتماع الكلمة.

فقد أخرج يعقوب بن سفيان في تاريخه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «ما كنت لأعطي بيعتي في فرقة، ولا أمنعها من جماعة»[3].

وقد روى البخاري عن عبد الله بن دينار قال: شهدت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حيث اجتمع الناس على عبدالملك، قال: «إني أقر بالسمع والطاعة لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله ما استطعت، وإن بنيّ قد أقرّوا بذلك»[4].

قال ابن حجر: «قوله: (حيث اجتمع الناس على عبد الملك) يريد ابن مروان بن الحكم، والمراد بالاجتماع: اجتماع الكلمة، وكانت قبل ذلك مفرقة، وكان في الأرض قبل ذلك اثنان كل منهما يدعى له بالخلافة، وهما: عبد الملك بن مروان، وعبد الله بن الزبير»[5].

وقال: «وكان ابن عمر في تلك المدة امتنع أن يبايع لابن الزبير أو لعبد الملك، فلما غلب عبد الملك، واستقام له الأمر بايعه»[6].

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالسمع والطاعة، فقال: (**اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي، كأن رأسه**

(١) أخرجه أحمد في المسند، ١١/ ٢٢٧، رقم ٦٦٤٧.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٣٩١.
(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٣/ ١٩٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، ٩/ ٧٨، رقم ٧٢٠٥.
(٥) فتح الباري ١٣/ ١٩٤.
(٦) المصدر السابق ١٣/ ١٩٥.

زبيبة)[(١)].

قال المناوي: «وهذا حث على السمع والطاعة للإمام ولو جائرًا؛ وذلك لما يترتب عليه من اجتماع الكلمة، وعز الإسلام، وقمع العدو، وإقامة الحدود، وغير ذلك، وفيه التسوية في وجوب الطاعة بين ما يشق على النفس وغيره، وقد بين ذلك في رواية بقوله: (فيما أحب وكره)[(٢)]، ووجوب الاستماع لكل من تجب طاعته، كالزوج والسيد والوالد، واستدل به على أن الإمام إذا أمر بعض رعيته بالقيام ببعض الحرف والصنائع من زراعة وتجارة وعمل أنه يتعين على من عينه لذلك، وينتقل من فرض الكفاية إلى فرض العين عليه بتعيين الإمام»[(٣)].

وجاء عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على العسر واليسر، في المنشط والمكره، على أن نقول، أو نقوم بالحق لا نخاف في الله لومة لائم)[(٤)].

وهذه الطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره لولي الأمر لا تنافي النصح، فالدين النصيحة حتى لأئمة المسلمين، فلا يعني أن الإنسان إذا أسدى النصيحة لولي الأمر أنه يكون قد نقض بيعته، وانتقص حقه.

قال ابن جماعة: «وعلى طائفة الأمير امتثال أمره، والتزام طاعته، والرجوع إلى تدبيره ورأيه لتكون الكلمة مجتمعة والآراء متفقة، فإن الخير في اجتماع الكلمة، فإن ظهر لبعضهم صواب خفي على أميره، بينه له بأدب، وإن نابهم أمر رفعوه إليه»[(٥)].

وكما أن للناس حقوقًا على ولي الأمر فكذلك له عليهم حقوق أعظمها وأهمها محبته، وطاعته في غير معصية الله، والدعاء له بالصلاح والهداية والتوفيق والإعانة، ونحو ذلك مما فيه منفعة له؛ ولعموم رعيته وللمسلمين عامة، وعلى هذا المنهج كان سلفنا الصالح من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا، حتى وإن نالهم شيء منهم، كما حصل للإمام أحمد وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهما، وقد كان الإمام أحمد يقول: «لو كان لنا دعوة مستجابة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب إمامة العبد والمولى، ١/ ١٤٠، رقم ٦٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ٩/ ٦٣، رقم ٧١٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم ١٨٣٩.

(٣) فيض القدير ١/ ٥١٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، ٩/ ٧٧، رقم ٧١٩٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، ٣/ ١٤٧٠، رقم ١٧٠٩.

(٥) تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ص٨٦.

لدعونا بها لإمام عادل؛ لأن في صلاحه صلاحًا للمسلمين»[1].

وقال: «إني لأدعو له بالتوفيق والتسديد»[2]، وذلك اتباعًا لما يعلمونه من شرع الله عز وجل، وإيمانًا منهم بما يحصل من طاعته وصلاحه من اجتماع الكلمة، ووحدة الصف، واستتباب الأمن، وأداء الحقوق، وقيام مصالح الناس وحياتهم على الوجه السوي، وما يحصل بضدّ ذلك من الأضرار والمفاسد التي لا يعلم قدرها إلا الله عز وجل، ولا يعرف ذلك إلا من جربه.

ثانيًا: تأييد الله سبحانه وتعالى ومباركته:

ومن آثار البيعة تأييد الله سبحانه وتعالى للمتبايعين، ومباركته لهم، وفيض نعمه عليهم بسبب مبايعتهم، ووفائهم مع ربهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

قال السعدي: «هذه المبايعة التي أشار الله إليها هي (بيعة الرضوان)، التي بايع الصحابة رضي الله عنهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يفروا عنه، فهي عقد خاص، من لوازمه أن لا يفروا، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها»[3]. وهؤلاء الموفون بالبيعة، وما عاهدوا الله ورسوله عليه كانت عاقبة صدقهم تأييد الله لهم، وكبت أعدائهم، وجعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

والحصر المفاد من (إنما) حصر الفعل في مفعوله، أي: لا يبايعون إلا الله، وهو قصر ادعائي بادعاء أن غاية البيعة وغرضها هو النصر لدين الله ورسوله، فنزل الغرض منزلة الوسيلة، فادعى أنهم بايعوا الله لا الرسول[4].

فلما كانوا صادقين مع الله في تلك المبايعة أيدهم ونصرهم، وآتاهم أجرًا عظيمًا، وجعل يده فوق أيديهم، قال ابن كثير: «أي: هو حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله صلى الله عليه وسلم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ

(١) انظر: الفروع، ابن مفلح، ٢/ ١٢٠، الإنصاف، المرداوي، ٢/ ٣٩٨.
(٢) انظر: الفروع، ابن مفلح، ٢/ ١٢٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٩٢.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ١٥٧.

﴿الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١][(١)].

فهؤلاء في حقيقة الأمر أنما ﴿يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ ويعقدون العقد معه، وقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: كأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعة، فقوة الله تعالى وقدرته ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم، كما يقال: اليد في هذه المسألة لفلان، أي: الغلبة والنصرة له، أو المعنى: يد الله تعالى بالوفاء بما وعدهم من الخير والنصرة فوق أيديهم».

والمراد بهذه الجملة زيادة التأكيد على وجوب الوفاء والثبات، وتقرير أن عقد الميثاق من الرسول صلى الله عليه وسلم كعقده مع الله تعالى؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ فلم يف بما عاهد الله عليه ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: وبال ذلك راجع إليه، وعقوبته واصلة له[(٢)].

قال سيد قطب: «أما الحديث عن الوفاء بالبيعة، والنكث فيها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

فالإيحاء فيه أكثر إلى تكريم المبايعين، وتعظيم شأن البيعة، والإشارة إلى النكث جاءت بمناسبة الحديث عن الأعراب المتخلفين؛ وكذلك الإشارة إلى المنافقين والمنافقات، فهي إشارة عابرة، تدل على ضعف موقف هذه الطائفة»[(٣)].

والمقصود أن جملة ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ فيها ترغيب في الوفاء، وفيها دلالة أن الله حاضر معهم بتأييده ونصره إن هم صدقوا في البيعة، وعزموا الوفاء، وأخلصوا النية، وقد حصل هذا منهم رضوان الله عليهم.

ومذهب السلف في هذه الآية وأمثالها من آيات الصفات أنه يجب الإيمان بها، وتفويض كيفيتها إلى الله تعالى، وترك تأويلها، وإن كان ابن كثير -كما سبق- قد قال: إن المعنى هو أنه سبحانه وتعالى حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله.

ثم بيّن سبحانه سوء عاقبة الناكثين، فقال: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه، فمن نكث البيعة، ولم يف بما بايع عليه فإنما نكثه راجع عليه؛ لأنه يحرم نفسه الأجر الجزيل، والعطاء العظيم في الآخرة، والتأييد والنصر في الدنيا.

قال ابن كثير: «وقد قال محمد بن كعب

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٠٦.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٢.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣١٥.

القرظي: ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به، من مكر، أو بغي، أو نكث، وتصديقها في كتاب الله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]. ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]. ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]»[1].

فالإنسان الذي يخدع تحيق به خديعته، والإنسان الذي ينكث في عهده ويغدر يتسبب في إصابة نفسه وهلاكها، كذلك الإنسان الذي يبغي ويظلم عقوبته على نفسه في النهاية؛ ولذلك قيل: لا تمكر ولا تعن ماكرًا، ولا تخدع أحدًا؛ لأن خداعك سيعود عليك، ولا تبغ ولا تعن باغيًا، ولا تظلم ولا تعن ظالمًا، فهذه الأعمال بعواقبها، فمن مكر بغيره مكر به، ومن بغى على غيره فالبغي في الحقيقة عليه، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه.

ثم بيّن سبحانه جزاء الموفين، فقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ أي: أتى به كاملًا موفرًا ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه إياه.

والمقصود أن النصر والتأييد حليف الموفين ببيعتهم وعهودهم مع الله ورسوله، والخذلان رفيق الناكثين الباغين.

يقول سيد رحمه الله: «وما يزال القرآن يعمل بحقيقته الكبيرة، وبما يتضمنه من مثل هذه الحقيقة، إنّ وعد الله بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج الله قائم في كل لحظة، ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة -ولو قل عددها- قائم كذلك في كل لحظة، وتوقف النصر على تأييد الله الذي يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تنسخ، وسنة ماضية لم تتوقف، وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة، وتثق في ذلك الوعد، وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة، وتصبر حتى يأذن الله، ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب في علم الله، المدبر بحكمته، المؤجل لموعده الذي يحقق هذه الحكمة»[2].

ثالثًا: رضوان الله تعالى والأجر العظيم في الآخرة:

لما كانت البيعة هي التعاهد والتعاقد على الالتزام بالإسلام، أو ببعض شرائعه، كالمبايعة على الجهاد، وبذل النفس والنفيس في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، ونشر دينه، ونصرة نبيه، فالموفي بهذه البيعة ينال رضوان الله تعالى، والأجر العظيم في الآخرة، وقد قال الله تعالى في شأن أصحاب بيعة الرضوان: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٥٥٩.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٢.

﴿مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

فالله تعالى هنا يخبر عن رضاه عن المؤمنين؛ إذ يبايعون الرسول صلى الله عليه وسلم تلك المبايعة التي بيّضت وجوههم، واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة، وكان سبب هذه البيعة -التي يقال لها: بيعة الرضوان، لرضا الله عن المؤمنين فيها- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دار الكلام بينه وبين المشركين يوم الحديبية في شأن مجيئه، وأنه لم يجئ لقتال أحد، وإنما جاء زائرًا هذا البيت، معظمًا له، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان لمكة في ذلك، فجاء خبر غير صادق، أن عثمان قتله المشركون، فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم من معه من المؤمنين، وكانوا نحوًا من ألف وخمسمائة، فبايعوه تحت شجرة على قتال المشركين، وأن لا يفروا حتى يموتوا[(١)]. فأخبر تعالى أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال، التي هي من أكبر الطاعات وأجل القربات[(٢)].

فيا له من فوز! ويا له من رضوان!؛ لأن مصدره من الله العظيم لعبيده الضعفاء، فقد أنال المبايعين رضوانه، وهو أعظم خير في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وشهد لهم بإخلاص النية، وأنزل السكينة على قلوبهم، ووعدهم بفتح قريب، ومغانم كثيرة.

فالله سبحانه وتعالى يرضى ويرضي، يرضى عن عباده المحسنين، ويرضيهم بإحسانه، كما قال سبحانه عن النفس المؤمنة: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨].

ففي الجمع بين صفة الرضا للنفس والرضا من الله عنها، إشارة إلى أن هذا الرضا الذي تجده النفس هو رضا دائم متصل؛ لأنه مستمد من رضا الله عنها، وأنه ليس مجرد شعور يطرقها، أو خاطر يطوف بها، ثم يذهب هذا الشعور ويغيب هذا الخاطر مع موجات الخواطر والمشاعر التي تموج في كيان الإنسان، كلا إنه رضا لا ينقطع أبدًا[(٣)].

وفي هذه الجملة أسمى وأعلى ما يتمناه إنسان، وهو رضا الله تعالى عنه ودخوله في زمرة العباد الذين ظفروا بمغفرته سبحانه ورحمته[(٤)]. «فيا لله! كيف تلقوا -أولئك السعداء- تلك اللحظة القدسية، وذلك

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٢/٣١٥، السيرة النبوية، ابن كثير ٣/٣١٩.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٣.
(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٦/ ١٥٦٣.
(٤) الوسيط، طنطاوي ١٣/ ٢٧٧.



التبليغ الإلهي؟! التبليغ الذي يشير إلى كل أحد في ذات نفسه، ويقول له: أنت، أنت بذاتك، يبلغك الله: لقد رضي عنك، وأنت تبايع تحت الشجرة، وعلم ما في نفسك، فأنزل السكينة عليك. إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فيسعد، يقول في نفسه: ألست أطمع أن أكون داخلًا في هذا العموم؟! ويقرأ أو يسمع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

فيطمئن، يقول في نفسه: ألست أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين؟! وأولئك الرجال يسمعون ويبلغون واحدًا واحدًا أن الله يقصده بعينه وبذاته، ويبلغه: لقد رضي عنه، وعلم ما في نفسه، ورضي عما في نفسه، يا لله! إنه أمر مهول ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

علم ما في قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم، وعلم ما في قلوبهم من الصدق في بيعتهم، وعلم ما في قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز، وضبط لمشاعرهم ليقفوا خلف كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم طائعين مسلمين صابرين، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ بهذا التعبير الذي يرسم السكينة نازلة في هينة وهدوء ووقار، تضفي على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة بردًا وسلامًا وطمأنينة وارتياحًا ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو هذا الصلح بظروفه التي جعلت منه فتحًا، وجعلته بدء فتوح كثيرة، قد يكون فتح خيبر واحدًا منها، وهو الفتح الذي يذكره أغلب المفسرين على أنه هو هذا الفتح القريب الذي جعله الله للمسلمين، ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ إما مع الفتح إن كان المقصود هو فتح خيبر، وإما تاليًا له إن كان الفتح هو هذا الصلح الذي تفرغ به المسلمون لفتوح شتى»[(١)].

واللام في قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هي الموطئة للقسم[(٢)].

والرضا: ما يقابل السخط ﴿عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عن جميع المؤمنين، وهم أهل الحديبية الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة، وقد علم الله ما في قلوبهم من الصدق والإيمان، وولاء وتسليم لله، مع ما كانوا يجدون في صدورهم من حرج في التوفيق بين ما جاءوا له، وهو دخول المسجد الحرام، وبين هذا الصلح، فرضى الله عنهم لمبايعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدقهم في بيعتهم.

و﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ ظرف متعلق

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٢٦.
(٢) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٣/ ٢٧٥.

بـ﴿رِضْوَٰنٗا﴾، وفي تعليق هذا الظرف بفعل الرضا ما يفهم أن الرضا مسبب عن مفاد ذلك الظرف الخاص بما أضيف هو إليه...، والمضارع في قوله: ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ مستعمل في الزمان الماضي؛ لاستحضار حالة المبايعة الجليلة[(١)].

والتعريف في الشجرة للعهد، وهي: الشجرة التي عهدها أهل البيعة حين كان النبي صلى الله عليه وسلم جالسًا في ظلها، وهي شجرة من شجر السّمر -بفتح السين المهملة وضم الميم- وهو شجر الطلح...، وذكر تحت الشجرة؛ لاستحضار تلك الصورة تنويهًا بالمكان، فإن لذكر مواضع الحوادث وأزمانها معاني تزيد السامع تصورًا؛ ولما في تلك الحوادث من ذكرى مثل مواقع الحروب والحوادث، كقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (**ويوم الخميس وما يوم الخميس اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه**)[(٢)] الحديث[(٣)].

وقد كان الناس بعد ذلك يترددون على تلك الشجرة ويصلون تحتها، ويدعون الله تعالى، فأمر عمر رضي الله عنه بقطعها خشية الافتتان بها. قال الحافظ ابن حجر: «روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع أن عمر بلغه أن قومًا يأتون الشجرة، فيصلّون عندها، فتوعّدهم، ثم أمر بقطعها، فقطعت»[(٤)].

والحكمة في ذلك أن لا يحصل بها افتتان لما وقع تحتها من الخير، فلو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهال لها، حتى ربما أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضر، كما نراه الآن مشاهدًا فيما هو دونها، وإلى ذلك أشار ابن عمر رضي الله عنهما بقوله: (**رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها، كانت رحمة من الله**)[(٥)]. أي: كان خفاؤها عليهم بعد ذلك رحمة من الله تعالى.

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإيمان ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾؛ شكرًا لهم على ما في قلوبهم، وزادهم هدى، وعلم ما في قلوبهم من الجزع من تلك الشروط التي شرطها المشركون على رسوله، فأنزل عليهم السكينة تثبتهم، وتطمئن بها قلوبهم ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحٗا قَرِيبٗا﴾ وهو: فتح خيبر، لم يحضره سوى أهل الحديبية، فاختصوا بخيبر وغنائمها، جزاءً لهم، وشكرًا على ما فعلوه من طاعة الله تعالى والقيام بمرضاته.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ١٧٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته، ٦/ ٩، رقم ٤٤٣١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ١٧٥.
(٤) فتح الباري، ٧/ ٤٤٨.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب أن لا يفروا، وقال بعضهم: على الموت، ٤/ ٥٠، رقم ٢٩٥٨.

ووصف الفتح بأنه قريب وذلك لقرب زمانه؛ إذ كان على أيام من صلح الحديبية، ثم لقرب تناوله؛ إذ لم يلق المسلمون من أهل خيبر بلاء كثيرًا، بل سرعان ما استسلم يهود خيبر ليد النبي صلى الله عليه وسلم، ونزلوا على حكمه[(١)].

وإضافةً إلى رضوانه عنهم وعدهم سبحانه وتعالى مغانم، فقال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾، والمغانم الكثيرة المذكورة هنا هي: مغانم أرض خيبر، والأنعام والمتاع والحوائط، فوصفت بكثيرة لتعدد أنواعها، وهي أول المغانم التي كانت فيها الحوائط، وفائدة وصف المغانم بجملة: ﴿يَأْخُذُونَهَا﴾ تحقيق حصول فائدة هذا الوعد لجميع أهل البيعة قبل أن يقع بالفعل، ففيه زيادة تحقيق لكون الفتح قريبًا، وبشارة لهم بأنهم لا يهلك منهم أحد قبل رؤية هذا الفتح[(٢)].

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: له العزة والقدرة التي قهر بها الأشياء، فلو شاء لانتصر من الكفار في كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين، ولكنه حكيم، يبتلي بعضهم ببعض، ويمتحن المؤمن بالكافر[(٣)].

وهو تعقيب مناسب للآيات قبله، ففي الرضا والفتح والوعد بالغنائم تتجلى القوة والقدرة، كما تتجلى الحكمة والتدبير، وبهما يتم تحقيق الوعد الإلهي الكريم[(٤)].

والمقصود أن في قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ أسلوبًا تبشيريًّا وتنويهيًّا، كما هو ظاهر للذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم في سفرة الحديبية تحت الشجرة...، والجملتان منطويتان كذلك على القصد التطميني والتبشيري الذي استهدفته آيات السورة.

وقد رويت بعض الأحاديث في فضل الذين بايعوا تحت الشجرة؛ منها:

- حديث عن جابر رضي الله عنه قال: (قال النبي صلى الله عليه وسلم حينما بايعه الناس تحت الشجرة: (أنتم خير أهل الأرض)[(٥)].
- وحديث أم مبشر، قالت: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة: (لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة التي بايعوا تحتها أحد)[(٦)].

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ١٣/ ٤١٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ١٧٦.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٩٣.
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٢٦.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، ٥/ ١٢٣، رقم ٤١٥٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، رقم ١٨٥٦.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل

وكل هذه الفضائل لهم لما علم جل وعلا من أهل بيعة الرضوان الإخلاص الكامل، والوفاء التام، وقد نوه عن إخلاصهم بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من الإيمان والإخلاص، وكان من نتائج ذلك ما ذكره الله جل وعلا في قوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: ٢١].

فصرح جل وعلا في هذه الآية بأنهم لم يقدروا عليها، وأن الله جل وعلا أحاط بها، فأقدرهم عليها؛ وذلك من نتائج قوة إيمانهم، وشدة إخلاصهم، فدلت الآية على أن الإخلاص لله وقوة الإيمان به هو السبب لقدرة الضعيف على القوي، وغلبته له ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فقوله: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ في معنى: لا قدرة لكم عليها، وهذا يعم سلب جميع أنواع القدرة؛ لأن النكرة في سياق النفي تدل على عموم السلب وشموله لجميع الأفراد الداخلة تحت العنوان، كما هو معروف في محله؛ وبهذا تعلم أن جميع أنواع القدرة عليها مسلوب عنهم، ولكن الله جل وعلا أحاط بها، فأقدرهم عليها؛ لما علم من الإيمان والإخلاص في قلوبهم...، وقد جاء ما يبين سبب رضوان الله تعالى عليهم، وهو بسبب أعمالهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ فكانت المبايعة سببًا للرضوان[(١)].

وفي هذه الآية رد على طعن الرافضة في الصحابة رضوان الله عليهم ، ولا سيما أصحاب بيعة الرضوان، الذين أثنى الله تعالى عليهم في القرآن، وأقسم أنه رضي عنهم، وجعل ذلك مما يتعبد به المسلمون إلى آخر الزمان.

موضوعات ذات صلة:

السياسة، العهد، والميثاق، الوفاء

الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أصحاب الشجرة، ٤/ ١٩٤٢، رقم ٢٤٩٦.

(١) انظر: أضواء البيان ٣/ ٥٢ بتصرف.





عناصر الموضوع

المجلد الثامن

مفهوم البيوت

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «(بيت) الباء والياء والتاء أصل واحد، وهو المأوى والمآب ومجمع الشمل، يقال: بيت وبيوت وأبيات»[1].

والبيت سمي بيتًا؛ لأنه يبات فيه ليلًا[2].

قال الراغب: «أصل البيت: مأوى الإنسان بالليل؛ لأنه يقال: بات: إذا أقام بالليل، كما يقال: ظل بالنهار، ثم قد يقال للمسكن: بيت من غير اعتبار الليل فيه، وجمعه: أبيات وبيوت، لكن البيوت بالمسكن أخص، والأبيات بالشعر»[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه ابن العربي بقوله: «كل ما علاك فأظلك فهو سقف، وكل ما أقلك فهو أرض، وكل ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار، فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت»[4].

وقال القرطبي: «البيت سمي بذلك؛ لأنها ذات سقف وجدار، وهي حقيقة البيتية، وإن لم يكن بها ساكن»[5].

وعرفه إسماعيل حقي بقوله هي: «اسم مبنى مسقف مدخله من جانب واحد، بنى للبيتوتة سواء كان حيطانه أربعة أو ثلاثة»[6].

وعرفه ابن عاشور بقوله: «البيت: اسم جنس للمكان المتخذ مسكنًا لواحد، أو عدد من الناس في غرض من الأغراض، وهو مكان من الأرض يحيط به ما يميزه عن بقية بقعته من الأرض ليكون الساكن مستقلًا به لنفسه، ولمن يتبعه فيكون مستقرًّا له، وكنًّا يكنّه من البرد، وساترًا يستتر فيه عن الناس، ومحطًّا لأثاثه وشؤونه»[7].

(١) مقاييس اللغة ١/ ٣٢٤.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ٢٣٨.
(٣) المفردات ص ١٥١.
(٤) أحكام القرآن ٣/ ١٤٨.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٢٥.
(٦) روح البيان ٤/ ٤٨٣.
(٧) التحرير والتنوير ١/ ٧٠٨.



البيوت في الاستعمال القرآني

ورد (البيت) في القرآن الكريم (٦٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
مفرد	٢٦	﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥]
جمع	٣٧	﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾ [النور:٦١]

وجاءت البيوت في القرآن على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: المكان المعد للمبيت، ويشمل المنزل والخيمة وغيرها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١]. أي: منازل.

الثاني: المسجد: ومنه قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور:٣٦]. أي: مساجد.

الثالث: الكعبة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥].

أي: جعلنا الكعبة.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٣٤٧-٣٤٨.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ١٩٦-١٩٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٢٠٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ المنزل:

المنزل لغة:

موضع النزول، وهو الحلول، تقول: نزلت نزولًا ومنزلًا؛ ويطلق المنزل على المنهل والدار[(١)]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون:٢٩].

المنزل اصطلاحًا هو:

اسم لما يشتمل على بيوت وصحن مسقف ومطبخ ليسكنه الرجل بعياله[(٢)]، وهو عند الفقهاء دون الدار وفوق البيت، وأقله بيتان أو ثلاثة[(٣)].

الصلة بين البيت والمنزل:

أن البيت أخص من المنزل، والمنزل أعم من البيت.

٢ الدار:

الدار لغة:

المحل الذي يجمع البناء والعرصة، وهو من دار يدور؛ لكثرة حركات الناس فيها[(٤)]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف:٩١].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس:٢٥].

الدار اصطلاحًا:

هو اسم لما اشتمل على بيوت ومنازل وصحن غير مسقف[(٥)].

الصلة بين البيت والدار:

أن الدار أشمل من البيت والمنزل لاشتمالها عليهما[(٦)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٦٥٦، المصباح المنير، الفيومي١/ ٢٠٦، تاج العروس، الزبيدي ٣٠/ ٤٧٨.
(٢) انظر: أنيس الفقهاء، القونوي ص٧٨.
(٣) انظر: المغرب في ترتيب المعرب، الخوارزمي ص٤٦١.
(٤) انظر: المحكم، ابن سيده ٩/ ٤١٨، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٩٨.
(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص٢٣٩.
(٦) انظر: دستور العلماء، القاضي نكري ٢/ ٦٩.



٣ المسكن:

المسكن لغة:

مكان السكنى، والموضع الذي يسكن فيه[١]، كما يطلق المسكن: على المنزل والبيت[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ:١٥].

المسكن اصطلاحًا:

هو البيت سواء كان بناء، أم خيمة، أم غير ذلك[٣].

الصلة بين البيت والمسكن:

أن المسكن هو البيت الذي يسكن فيه الإنسان إلا أن المسكن فيه معنى الإقامة والاستيطان والاستقرار بالمكان[٤].

٤ المأوى:

المأوى لغة:

المكان[٥]، قال الجوهري: «المأوى كل مكان يأوي إليه شيء ليلاً أو نهارًا»[٦]، ومنه قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [النجم:١٥].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات:٣٩].

المأوى اصطلاحًا:

هو كل مكان يأوي إليه شيء، ويكون ملجأ للشخص ومستراحًا يستريح إليه من الحر والبرد[٧].

الصلة بين البيت والمأوى:

أن البيت هو محل المأوى الذي يأوي إليه الإنسان ويجتمع شمله بمن أوى إليهم.

---

(١) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد٢/ ٨٥٦.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور١٣/ ٢١٢، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٦٧.
(٣) انظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص٤٣.
(٤) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي وحامد قنيبي ص٤٢٩.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٥٢، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ١١٥.
(٦) انظر: الصحاح ٦/ ٢٢٧٤.
(٧) انظر: الكليات، الكفوي ص٨٠٣، روح المعاني، الألوسي ١١/ ١٣١.

٥ العمارة:

العمارة لغة:

نقيض الخراب: يقال: عمر أرضه: يعمرها عمارة، قال تعالى: ﴿وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [التوبة:١٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١٨].

إما من العمارة التي هي حفظ البناء، أو من العمرة التي هي الزيارة، أو من قولهم: عمرت بمكان كذا، أي: أقمت به[١].

وعمر المنزل بأهله عمرًا، وعمره أهله: إذا سكنوه، وأقاموا به، وعمرت الدار عمرًا أيضًا: بنيتها، والاسم العمارة بالكسر، والعمران: اسم للبنيان[٢].

العمارة اصطلاحًا:

هي اسم للبيت المؤلف من طبقات وشقق[٣].

الصلة بين البيت والعمارة:

أن العمارة اسم للبيت الواسع المكون من طوابق وشقق إلا أن فيه معنى حفظ البناء والإقامة فيه.

٦ الخراب:

الخراب لغة:

ضد العمارة، قال تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ [البقرة:١١٤][٤].

قال ابن فارس: «(خرب) الخاء والراء والباء أصل يدل على التثلم والتثقب، فالخربة: الثقبة، ومن الباب، وهو الأصل، الخراب: ضد العمارة»[٥].

الخراب اصطلاحًا:

هو ذهاب العمارة[٦].

---

(١) انظر: المفردات، الراغب ص٥٨٦.
(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٢٩.
(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي وحامد قنيبي ص٣٢١.
(٤) انظر: المفردات، الراغب ص٢٧٧.
(٥) مقاييس اللغة٢/ ١٧٤.
(٦) انظر: التوقيف، المناوي ص١٥٤.

الصلة بين البيوت والخراب:

أن الخراب هو نقيض البيوت وعمارتها والسكن فيها.

٧ الخواء:

الخواء في اللغة:

قال ابن فارس: «(خوى) الخاء والواو والياء أصل واحد يدل على الخلو والسقوط»[(١)]، وخوت الدار: تهدمت وسقطت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل:٥٢].

أي: خالية، كما قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج:٤٥]؛ أي: خالية، وقيل: ساقطة على سقوفها، وأرض خاوية: خالية من أهلها[(٢)].

الخواء اصطلاحًا:

سقوط البيوت وتهدمها بعد خلوها من سكانها الذين كانوا يعمرونها[(٣)].

الصلة بين البيوت والخواء:

أن الخواء صفة للبيوت الخالية من سكانها بسبب ما حل بها من عذاب، كما يلاحظ ذلك من الآيات التي ورد فيها لفظ: (خاوية)، قال تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩].

وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج:٤٥].

وقال سبحانه: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل:٥٢].

---

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٢٢٥.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٤٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٩٠، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٢٠.

البيوت نعمة

من نعم الله تعالى على عباده أن جعل البيوت مكانًا للعبادة، ومكانًا للأمن ومكانًا للستر، وللراحة والاستقرار، ومكانًا للأكل والإدخار، وبيان ذلك في الفقرات الآتية:

أولًا: مكان للعبادة:

إن البيوت التي جعلها الله للعبادة على ثلاثة أنواع:

١ . البيت الحرام.

وهو مكان للعبادة حيث يجب على المسلم استقبال البيت الحرام في كل صلاة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٦﴾ [آل عمران: ٩٦].

قال أبو جعفر الطبري: «ومعنى ذلك: إن أول بيت وضع للناس لعبادة الله فيه»[(١)].

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ قال: «كانت البيوت قبلة، ولكن كان أول بيت وضع لعبادة الله»[(٢)].

وقد أمر الله تعالى باستقبال البيت الحرام بقوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤].

والمعنى: «من أي مكان وبقعة شخصت فخرجت يا محمد، فول وجهك تلقاء المسجد الحرام، وهو شطره، وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرض الله، فولوا وجوهكم في صلاتكم تجاهه وقبله وقصده»[(٣)].

كما أنه مكان لعبادة الحج قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

أي: ويجب الحج على المستطيع من هذه الأمة، واستطاعة السبيل إلى الشيء إمكان الوصول إليه، وتختلف الاستطاعة باختلاف الأشخاص، واختلاف البعد عن البيت والقرب منه[(٤)].

والمعنى: ولله على من استطاع من الناس حج البيت، أي: فرض واجب لله تعالى على من استطاع من أهل التكليف السبيل إلى حج بيته الحرام[(٥)].

٢ . المساجد.

إن المساجد بيوت ومكان للعبادة، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ

---

(١) جامع البيان ٦/ ٢٢.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٧٠٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٩٩.
(٤) تفسير المراغي ٤/ ٩.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٧، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٧٣.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٧، الوسيط، الواحدي ١/ ٤٦٧.

﴿فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ٣٦﴾ [النور:٣٦][(١)].

والبيوت المذكور في الآية هي: المساجد المخصوصة لله تعالى بالعبادة، وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾، أي: أذن الله أن تبنى، فيصلى فيها الصلاة المفروضة بالغدو والآصال بالبكر والعشايا[(٢)].

٣. بيوت المؤمنين.

إن بيوت المؤمنين مكان للعبادة كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٨٧﴾ [يونس:٨٧] يقول: واجعلوا بيوتكم مساجد تصلون فيها[(٣)]، وقيل: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: صلوا في بيوتكم لتأمنوا من الخوف؛ لأنهم آمنوا على خوف من فرعون[(٤)]، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: في بيوتكم، وفي ذلك دلالة على جواز كتم الصلاة عند الخوف، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالنصرة في الدنيا، والجنة في العقبى[(٥)].

كما أن الله تعالى أخبر عن حال عباده في بيوتهم، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ٦٤﴾ [الفرقان:٦٤].

أي: والذين يبيتون ساجدين قائمين لربهم، أي: يحيون الليل كله أو بعضه بالصلاة، وخص العبادة بالبيتوتة؛ لأن العبادة بالليل أخص وأبعد عن الرياء، وقال ابن عباس رضي الله عنه: من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجدًا قائمًا، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ١٦﴾ [السجدة:١٦].

وقوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ١٨﴾ [الذاريات:١٧-١٨].

وقوله عز وجل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر:٩][(٦)].

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل الرجل من صلاته غير المفروضة في بيته شيئًا، فقد روى ابن عمر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم، ولا تتخذوها قبورًا)[(٧)].

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥٣٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٩٢، الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٧١.
(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٣٠.
(٥) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٥٦.
(٦) انظر: تفسير المراغي ١٩/ ٣٧.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب كراهية الصلاة في المقابر، رقم٤٣٢، ١/ ٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، رقم٧٧٧، ١/ ٥٣٨.

وروى زيد بن ثابت رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ حجرة قال: حسبت أنه قال من حصير - في رمضان، فصلى فيها ليالي، فصلى بصلاته ناس من أصحابه، فلما علم بهم جعل يقعد، فخرج إليهم فقال: **(قد عرفت الذي رأيت من صنيعكم، فصلوا أيها الناس في بيوتكم، فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة)**[1].

وفي هذه الأحاديث بيان بأن بيوت المؤمنين مكان للصلاة، وفيها أيضًا حث للصلاة في البيوت فيما عدا الفروض، فإنها تكون في المساجد من أجل الجماعة.

ثانيًا: مكان للأمن:

جعل الله تعالى البيوت مكانًا يأمن فيه الإنسان على نفسه وأهله وماله، وجعل لهذه البيوت حرمة لا يجوز دخولها إلا بإذن من صاحبها فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور:٢٧].

وشرع الاستئذان لمن يزور أحدًا في بيته؛ لأن الناس اتخذوا البيوت للاستتار مما يؤذي الأبدان من حرٍّ وقرٍّ ومطرٍ، ومما يؤذي العرض والنفس من انكشاف ما لا يحب الساكن اطلاع الناس عليه، فإذا كان في بيته وجاءه أحد فهو لا يدخله حتى يصلح ما في بيته وليستر ما يحب أن يستره، ثم يأذن له أو يخرج له فيكلمه من خارج الباب[2].

وحكمة الاستئذان هي: توفير حرمة المسكن وحرية السكان، لذا قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أن الاستئذان خير وأفضل للطرفين، المستأذن وأهل البيت، فهو خير من الدخول فجأة، والمعنى: قد أنزل الله عليكم هذا الأدب، وأرشدكم إليه، لتتذكروا وتتعظوا، وتعملوا بالأصلح لكم، ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور:٢٨] أي: فإن لم تجدوا في بيوت غيركم أحدًا يأذن لكم، فلا تدخلوها حتى يأذن لكم صاحب الدار، فلا يحل الدخول في هذه الحالة؛ لأنه تصرف في ملك الغير بغير إذنه؛ ولأن للبيوت حرمة، وهي محل السكن الخاص والطمأنينة الشخصية، والراحة والوداعة[3].

وقد أباح النبي صلى الله عليه وسلم حرمة من تطلع في بيوت الغير بغير إذن،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب صلاة الليل، رقم٧٣١، ١/ ١٤٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، رقم ٧٨١، ١/ ٥٣٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٩٦.

(٣) انظر: الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٧٤٤.



وأهدر كل جناية تقع عليه؛ لما أخرجه الشيخان في صحيحيهما، ففي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فخذفته بعصاة ففقأت عينه، لم يكن عليك جناح)[(١)]، وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: (من اطلع في بيت قوم من غير إذنهم، حل لهم أن يفقؤوا عينه)[(٢)].

وفي هذه الأحاديث دليل على أن البيوت مكان للأمن حيث يأمن فيها الإنسان على نفسه وحرمه وأهله، ولهذا فقد أباح النبي صلى الله عليه وسلم ورفع الجناح عن من تطلع في بيت غيره بغير إذن بأن يفقأ عين من يفعل ذلك، وأن ذلك هدر لا قصاص فيه، ولا دية.

والأمن في البيوت نعمة تستوجب الشكر؛ لما رواه سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمي، عن أبيه، وكانت له صحبة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا)، وحِيزَت: جُمِعَت[(٣)].

وقد جعل الله تعالى بيته الحرام مكانًا للأمن العام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة:١٢٥].

فقد استجاب الله دعوة خليله إبراهيم عليه السلام فجعل مكة المكرمة بلدًا آمنًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة:١٢٦].

فجعل الله مكة المكرمة بلدًا آمنًا من الظلم والإغارات الواقعة على غيره، فكان الرجل يلقى قاتل أبيه فيه فلا يهيجه[(٤)].

وقال تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران:٩٧].

أي: وأمن من دخله، والعرب جميعًا قد اتفقوا على احترامه وتعظيمه، فمن دخله أمن على نفسه من الاعتداء والإيذاء، ومن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقئوا عينه، رقم ٦٩٠٢، ٩/ ١١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره، رقم ٢١٥٨، ٣/ ١٦٩٩.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا، رقم ٢٣٤٦، ٤/ ٥٧٤، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب القناعة، رقم ٤١٤١، ٢/ ١٣٨٧.
والحديث حسنه الترمذي، والألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم٦٠٤٢، ٢/ ١٠٤٤.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٤٩.

أن يسفك دمه أو تستباح حرماته ما دام فيه، وقد مضوا على ذلك الأجيال الطوال في الجاهلية على كثرة ما بينهم من الأحقاد والضغائن، واختلاف المنازع والأهواء، وقد أقر الإسلام هذا، وكل ذلك بفضل دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ [البقرة:١٢٦][1].

والمعنى: ومن دخله كان آمنًا يعني: حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج، وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗا﴾ قال: من عاذ بالبيت أعاذه البيت، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى، فإذا خرج أخذ بذنبه.

وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ [العنكبوت:٦٧].

وقال تعالى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش:٣-٤].

وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها[2].

ثالثًا: مكان للستر:

جعل الله تعالى البيوت مكانًا لستر العورات والحرمات، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ [النحل:٨٠].

أي: جعل لكم موضعًا تسكنون فيه أيام مقامكم، وقيل: معناه: جعل لكم من بيوتكم ما تسكن إليه أنفسكم من ستر العورة والحرم، فتهدأ فيه جوارحكم[3].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ موضعًا تسكنون فيه، قال ابن عباس، ومجاهد: يعني: المساكن من الحجر والمدر يستر عوراتكم وحرمكم، وذلك أن الله خلق الخشب والمدر والآلة التي بها يمكن تسقيف البيوت وبناؤها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ يعني: الأنطاع والأدم، بيوتًا يعني: القباب والخيام، ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾ يخف عليكم حملها في أسفاركم، ومعنى الظعن: سير أهل البوادي لنجعة، أو حضور ماء، أو طلب مرتع، ﴿وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ قال مقاتل: لا تثقل عليكم في الحالتين[4].

(١) انظر: تفسير المراغي ٤/ ٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٨.

(٣) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ٦/ ٤٠٥٨.

(٤) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٧٦.

رابعًا: الراحة والاستقرار:

جعل الله تعالى البيوت مكانًا للراحة والاستقرار، وهذا ما يفيده معنى السكن الذي جعله الله تعالى في البيوت.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ [النحل: ٨٠].

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضًا من جلود الأنعام بيوتًا، أي: من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر، ولهذا قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ بما يحقق لهم الراحة والاستقرار فيها في كلا الحالين[(١)].

قال سيد قطب: «والسكن والطمأنينة في البيوت نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا المشردون الذين لا بيوت لهم ولا سكن ولا طمأنينة، وذكرها في السياق يجيء بعد الحديث عن الغيب، وظل السكن ليس غريبًا عن ظل الغيب، فكلاهما فيه خفاء وستر، والتذكير بالسكن يمس المشاعر الغافلة عن قيمة هذه النعمة.

ونستطرد هنا إلى شيء عن نظرة الإسلام إلى البيت، بمناسبة هذا التعبير الموحي: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ فهكذا يريد الإسلام البيت مكانًا للسكينة النفسية والاطمئنان الشعوري، هكذا يريده مريحًا تطمئن إليه النفس وتسكن وتأمن سواء بكفايته المادية للسكنى والراحة، أو باطمئنان من فيه بعضهم لبعض، وبسكن من فيه كل إلى الآخر، فليس البيت مكانًا للنزاع والشقاق والخصام، إنما هو مبيت وسكن وأمن واطمئنان وسلام.

ومن ثم يضمن الإسلام للبيت حرمته، ليضمن له أمنه وسلامه واطمئنانه، فلا يدخله داخل إلا بعد الاستئذان، ولا يقتحمه أحد - بغير حق - باسم السلطان، ولا يتطلع أحد على من فيه لسبب من الأسباب، ولا يتجسس أحد على أهله في غفلة منهم أو غيبة، فيروع أمنهم، ويخل بالسكن الذي يريده الإسلام للبيوت، ويعبر عنه ذلك التعبير الجميل العميق!

ولأن المشهد مشهد بيوت وأكنان وسرابيل، فإن السياق يعرض من الأنعام جانبها الذي يتناسق مع مفردات المشهد: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٠٧.

﴿وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠﴾ [النحل:٨٠].

وهو هنا كذلك يستعرض من نعمة الأنعام ما يلبي الضرورات وما يلبي الأشواق، فيذكر المتاع، إلى جانب الأثاث، والمتاع ولو أنه يطلق على ما في الأرحال من فرش وأغطية وأدوات، إلا أنه يشي بالتمتع والارتياح»[(١)].

فهذه البيوت التي جعلها الله سكنًا للإنسان، يأوي إليها، ويجد فيها أنس النفس وروح الروح، بما يجتمع إليه فيها من زوج وولد.. أليس هذا من نعم الخالق ومن سابغات أفضاله؟ ثم هذه البيوت الخفيفة الحمل التي يتخذها الإنسان من جلود الأنعام، أو مما على جلودها من أصواف وأوبار وأشعار- أليست مما يسر الله للإنسان، ومكن له منها؟[(٢)].

خامسًا: مكان للأكل والادخار:

جعل الله تعالى البيوت مكانًا للأكل، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور:٦١].

فالآية الكريمة قد أجازت الأكل من هذه البيوت المذكورة -وهي أحد عشر بيتًا- وإن لم يكن فيها أصحابها، ما دام الآكل قد علم رضا صاحب البيت بذلك، وأنه لا يكره هذا ولا يتضرر منه، استنادًا إلى القواعد العامة في الشريعة، والتي منها: (لا ضرر ولا ضرار)[(٣)]، وأنه (لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه)[(٤)][(٥)].

«قال سعيد بن المسيب: إن المسلمين كانوا إذا غزوا وخلفوا زمناهم، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم، ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا. وكانوا يتحرجون من ذلك، وقالوا: لا ندخلها وهم غيب.

فنزلت هذه الآية رخصة لهم، ومعنى الآية: نفي الحرج عن الزمنى في أكلهم من بيت أقاربهم، أو بيت من يدفع إليهم المفتاح إذا خرج للغزو، وقوله: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ [النور:٦١].

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٨٦.
(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧/ ٣٣٦.
(٣) انظر: الأشباه والنظائر، ابن نجيم ص٧٢.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٠٦٩٥، ٣٤/ ٢٩٩، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم ١٦٧٥٦، ٨/ ٣١٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧٦٦٢، ٢/ ١٢٦٨.
(٥) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٥٦.



أي: ليس عليكم حرج أن تأكلوا من أموال عيالكم وأزواجكم، وبيت المرأة كبيت الرجل، وقال ابن قتيبة: أراد أن تأكلوا من بيوت أولادكم، فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء، لأن الأولاد كسبهم وأموالهم كأموالهم»[1].

وذكر سبحانه بيوتهم هنا مع أنه من المعروف أنه لا حرج في أن يأكل الإنسان من بيته، للإشعار بأن أكلهم من بيوت الذين سيذكرهم سبحانه بعد ذلك من الآباء والأمهات والأقارب، يتساوى في نفي الحرج مع أكلهم من بيوتهم، أي: أن أكل الناس من بيوتهم لم يذكر هنا لنفي حرج كان متوهمًا، وإنما ذكر لإظهار التسوية بين أكلهم من بيوت أقاربهم وأصدقائهم، وبين أكلهم من بيوتهم[2].

ثم ذكر سبحانه بيوتًا أخرى لا حرج عليهم في الأكل منها، فقال: ﴿بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور:٦١].

يعني: بيوت عبيدكم ومما يملكون، وذلك أن السيد يملك منزل عبده، والمفاتح معناها الخزائن، كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام:٥٩][3].

ويجوز أن تكون التي يفتح بها، وهذا قول عطاء، عن ابن عباس.

قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور:٦١] ما خزنتموه لغيركم، قال ابن عباس: يعني بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته، لا بأس عليه أن يأكل من ثمر حائطه، ويشرب من لبن ماشيته، قال عكرمة: إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن، فلا بأس أن يطعم الشيء اليسير، وقال السدي: الرجل يولى طعام غيره يقوم عليه، فلا بأس أن يأكل منه[4].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور:٦١] معطوف على ما قبله والصديق هو من يصدق في مودتك، وتصدق أنت في مودته، وهو اسم جنس يطلق على الواحد والجمع، والمراد هنا: الجمع، أي: ولا حرج عليكم أيضًا في الأكل من بيوت أصدقائكم[5]، والمعنى: ليس عليكم جناح أن تأكلوا من منازل أصدقائكم وأصحابكم إذا دخلتموها وإن لم يحضروا من غير أن تتزودوا وتحملوا[6] إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك.

(١) الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٩.
(٢) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٥٦.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٩.
(٥) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٥٦.
(٦) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٩.

وقال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه[1].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور:٦١].

قال ابن كثير: «قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك لما أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء:٢٩] قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل من الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾.

وكانوا أيضًا يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره، فرخص الله لهم في ذلك، أن يأكلوا جميعا أو أشتاتًا، وقال قتادة: كان هذا الحي من بني كنانة يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه، فأنزل الله ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعًا أو أشتاتًا، فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل»[2].

أما الادخار في البيوت:

جعل الله تعالى البيوت مكانًا للادخار وحفظ ما يحتاجه الإنسان في المستقبل، وذلك لأن مسكن الإنسان أعز البيوت عنده وأخفى لما يريد أن يخفيه، ومكان أمنه واستقراره فلا غرابة أن يكون مكان مدخراته، وهذه المدخرات لا يعلم بها إلا صاحبها[3]، ولهذا جعلها الله تعالى من معجزات سيدنا عيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران:٤٩].

والمعنى: أن عيسى عليه السلام قد قال لقومه بنى إسرائيل: وإن من معجزاتي التي تدل على صدقي فيما أبلغه عن ربي أني أخبركم بالشيء الذي تأكلونه وبالشيء الذي تخبئونه في بيوتكم لوقت حاجتكم إليه[4].

والادخار هو: إعداد الشيء لوقت الحاجة إليه، ويقال: لا يعرف الادخار من المخلوقات إلا الإنسان والفأر والنمل، أما الحمار مثلًا مع قدرته على الحمل لا يحمل

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧٩.
(٢) المصدر السابق.
وانظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٩.

(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٤٠٦.
(٤) انظر: الوسيط، طنطاوي ٢/ ١١٥.

رزقه؛ لذلك تراه إن شبع لا يدخر شيئًا، وربما يدوس الأكل الباقي، أو يبول عليه، وكذلك كل الحيوانات[(١)].

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١٨/ ١١٢٥١.

انواع البيوت

إن البيوت المذكورة في القرآن الكريم على أنواع، منها: بيوت الله تعالى، وبيوت الأنبياء عليهم السلام، وبيوت المؤمنين، وبيوت الظالمين، وبيوت المخلوقات من غير بني آدم، وسيكون بيانها في المطالب الآتية:

أولًا: بيوت الله تعالى:

إن بيوت الله تعالى المذكورة في القرآن هي: البيت المعمور، والبيت الحرام، والمسجد الأقصى، وعامة المساجد، ويمكن بيانها بإيجاز في الفقرات الآتية:

١ . البيت المعمور.

من بيوت الله تعالى المذكورة في القرآن الكريم: البيت المعمور، وقد ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾ [الطور:٤].

وفي البيت المعمور فيه قولان:

القول الأول: أنه بيت في السماء، وفي أي سماء هو؟ فيه ثلاثة أقوال:

أولًا: إنه في السماء السابعة، وهذا هو مذهب جمهور المفسرين[(٢)]، وهو الصحيح، ويدل على ذلك ما رواه أنس

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٥٥، الوسيط، الواحدي٤/ ١٨٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٧/ ٣٩٨.

رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه)، قال: (فركبته حتى أتيت بيت المقدس)،....، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم صلى الله عليه وسلم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه)[(١)].

ويدل عليه كذلك حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه في «الصحيحين» قال: «قال النبي صلى الله عليه وسلم: (بينا أنا عند البيت بين النائم، واليقظان فأتينا السماء السابعة، قيل من هذا؟ قيل: جبريل، قيل من معك؟ قيل: محمد، قيل: وقد أرسل إليه، مرحبًا به، ولنعم المجيء جاء، فأتيت على إبراهيم فسلمت عليه، فقال: مرحبًا بك من ابن ونبي، فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم)[(٢)].

ثانيًا: إنه في السماء السادسة، قاله علي رضي الله عنه[(٣)].

ثالثًا: إنه في السماء الدنيا، روي عن ابن عباس رضي الله عنه، وقال: هو حيال الكعبة يحجه كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون فيه حتى تقوم الساعة، يسمى الضراح[(٤)].

القول الثاني: أنه البيت الحرام، وعمارته بالحج والطواف، قاله الحسن[(٥)].

ووصف هذا البيت بأنه معمور لكثرة غاشيته، وقاصديه[(٦)].

قال الماوردي: «وفي ﴿الْمَعْمُورِ﴾ وجهان: أحدهما: أنه معمور بالقصد إليه،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات، رقم ١٦٢، ١/ ١٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٧، ٤/ ١١١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات، رقم ١٦٢، ١/ ١٤٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٥٥، الوسيط، الواحدي ٤/ ١٨٤، تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٢٦٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٧٥.

(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٢٦٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٧٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٦٠.

(٥) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٧٨، تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٢٦٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٧٥.

(٦) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٥٤.



والثاني: بالمقام عليه»[(١)].

وقال ابن كثير: «ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: (ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفًا، لا يعودون إليه آخر ما عليهم)[(٢)]، يعني: يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مسندًا ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة»[(٣)].

ولعظمة هذا البيت فقد أقسم تعالى به مع ما ذكر في الآية من غيره من مخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة على أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم[(٤)].

٢. البيت الحرام.

إن البيت الحرام هو: أول بيت وضع في الأرض، وأعظم المساجد وأفضلها، وأهم موضع في مكة، وهو اسم لمسجد الكعبة، وقد يمتد إلى حدود الحرم، وهو قبلة المسلمين، وإليه يحجون من كل فج عميق[(٥)].

وقد ورد ذكر البيت في القرآن الكريم في عشرة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٦-٩٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥].

كما ورود بلفظ المسجد الحرام في القرآن الكريم في خمسة عشر موضعًا، منها قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة:١٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٧٨.
(٢) سبق تخريجه قريبًا.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٧٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٨.
(٥) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١١٥، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٧٢، الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٥١.

﴿٢﴾ [المائدة:٢] وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء:١][1].

٣. المسجد الأقصى.

من بيوت الله تعالى: المسجد الأقصى، وهو بيت المقدس، وهو أولى القبلتين، ومسرى الرسول الكريم، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء:١].

وسمي الأقصى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام[2] أو لأنه أبعد المساجد التي تزار، ويبتغى في زيارته الفضل بعد المسجد الحرام[3].

وقد بارك الله حوله بالماء والأنهار والأشجار والثمار، قال مجاهد: سماه مباركًا؛ لأنه مقر الأنبياء، وفيه مهبط الملائكة والوحي، ومنه يحشر الناس يوم القيامة[4].

وقد ذكر المسجد الأقصى في القرآن مرتين مرة باللفظ الصريح كما سبق في الآية السابقة والثانية بلفظ المسجد في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء:٧].

والمعنى: وليدخلوا المسجد، أي: بيت المقدس كما دخلوه أول مرة، أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار، وليتبروا أي: يدمروا ويخربوا ما علوا أي: ما ظهروا عليه تدميرًا[5].

اختلف المفسرون في من بنى المسجد الأقصى؟ على قولين:

القول الأول: ذهب بعض المفسرين إلى أن أول من بناه هو إبراهيم عليه السلام ويدل على ذلك الحديث الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: (المسجد الحرام) قال: قلت: ثم أي؟ قال (المسجد الأقصى) قلت: كم كان بينهما؟ قال: (أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله، فإن الفضل فيه)[6]، وقدر بعض

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١١٥، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٧٢، الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٥١.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٢٦، الوسيط، الواحدي ٣/ ٩٤.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٣٣.
(٤) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٥٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٤٥.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٨٨، النكت والعيون الماوردي ٣/ ٢٣١.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث

المفسرين أن ما بين إبراهيم وسليمان عليهما السلام من الزمان عشرة قرون[1].

القول الثاني: إن أول من بناه هو سليمان عليه السلام[2].

واستدلوا بما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**أن سليمان بن داود صلى الله عليه وسلم لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل خلالًا ثلاثة: سأل الله عز وجل حكمًا يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله عز وجل ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه**)[3].

الراجح: الجمع بين القولين فقد جمع بعض المفسرين بين القولين: بأن الذي بنى المسجد الأقصى هو إبراهيم عليه السلام لحديث أبي ذر السابق، وهو يدل على أنه قد كان بني أيضًا زمن إبراهيم أو إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ولكن بنيانه على التمام وكمال الهيئة كان على عهد سليمان عليه السلام[4].

وهو أحد المساجد التي تشد إليها الرحال دون غيرها؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد الأقصى**)[5].

٤ . عامة المساجد.

أما عامة المساجد المنتشرة في بقاع الأرض فهي بيوت الله تعالى التي أمر بأن ترفع، ويذكر فيها اسمه، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور:٣٦].

قال الماوردي: «في هذه البيوت قولان: أحدهما: أنها المساجد، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد.

الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلا)، رقم٣٣٦٦، ٤/ ١٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم٥٢٠، ١/ ٣٧٠.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية١/ ٤٧٤، البحر المحيط، أبو حيان٣/ ٢٦٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور١٥/ ١٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٣٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٦.

(٣) أخرجه النسائي في سننه، كتاب المساجد، فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه، رقم٦٩٣، ٢/ ٣٤.
والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم٢٠٩٠، ١/ ٤٢٠.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٧٤ البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٢٦٨ التحرير والتنوير، ابن عاشور١٥/ ١٦.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم١١٨٩، ٢/ ٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، رقم١٣٩٧، ٢/ ١٠١٤.

الثاني: أنها سائر البيوت، قاله عكرمة.

وفي قوله: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ أربعة أوجه:

أحدها: أن تبنى، قاله مجاهد، كقوله: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [البقرة:١٢٧]. أي: يبني.

الثاني: أنها تطهر من الأنجاس والمعاصي، حكاه ابن عيسى.

الثالث: أن تعظم، قاله الحسن.

الرابع: أن ترفع فيها الحوائج إلى الله»[١].

كما ذكر الله تعالى هذه البيوت باسم المساجد في آيات، منها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجن:١٨].

فقد ذكر المفسرون أن المراد بالمساجد: بيوت الله التي وضعت للصلاة على أحد المعاني الواردة في الآية، قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم، أشركوا بالله، فأمر الله أن يخلص المسلمون له الدعوة إذا دخلوا مساجدهم، وقال سعيد بن جبير: المساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، أي: أن هذه الأعضاء التي يقع السجود عليها مخلوقة لله، فلا يسجدوا عليها لغيره، وقال الحسن: أراد البقاع كلها، يعني: أن الأرض كلها مواضع للسجود، وجعلت مسجدًا لهذه الأمة[٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾ [التوبة:١٨].

وفي هذه المساجد قولان:

أحدهما: أنها مواضع السجود من المصلى، فعلى هذا عمارتها تحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: بالمحافظة على إقامة الصلاة.

والثاني: بترك الرياء.

والثالث: بالخشوع والإعراض عما ينهى.

والقول الثاني: أنها بيوت الله تعالى المتخذة لإقامة الصلوات.

فعلى هذا عمارتها تحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: إنما يعمرها بالإيمان من آمن بالله تعالى.

والثاني: إنما يعمرها بالزيارة لها والصلاة فيها من آمن بالله تعالى.

والثالث: إنما يرغب في عمارة بنائها من آمن بالله تعالى[٣].

وعمارة المساجد نوعان: حسية،

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١٠٦.
وانظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢١.

(٢) الوسيط، الواحدي ٤/ ٣٦٧.
وانظر: النكت والعيون، الماوردي ٦/ ١١٩.

(٣) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٤٧.



ومعنوية؛ فالحسية: بالتشييد والبناء والترميم والتنظيف والفرش والتنوير بالمصابيح والدخول إليها والقعود فيها، والمعنوية: بالصلاة وذكر الله والاعتكاف والزيارة للعبادة فيها، وذلك يشمل العمرة، ومن الذكر: درس العلم، بل هو أجله وأعظمه وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا، فضلًا عن فضول الحديث[1].

والمعنى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي: إنما يستحق عمارة المساجد وتستقيم منه العمارة، ويكون أهلًا لها من اتصف بالإيمان بالله تعالى إيمانًا صحيحًا، على النحو المبين في القرآن من الإقرار بوجود الله والاعتراف بوحدانيته، وتخصيصه بالعبادة، والتوكل عليه، وآمن باليوم الآخر الذي يحاسب الله فيه العباد، ويجزي فيه بالثواب للمحسنين وبالعقاب للمسيئين، وأقام الصلاة المفروضة على الوجه المستكمل لأركانها وشروطها وتدبر تلاوتها وأذكارها، وخشوع القلب لله وخشيته، وآتى الزكاة لمستحقيها المعروفين كالفقراء والمساكين وأبناء السبيل، ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ في قوله وعمله إلا الله وحده، دون غيره من الأصنام والعظماء الذين لا ينفعون ولا يضرون في الحقيقة، وإنما النفع والضر بيد الله. أما إنه لم يذكر الإيمان بالرسول فلأنه دل عليه ما ذكر من إقامة الصلاة وغيرها لأنه مما جاء به الرسول، فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إنما يصح من المؤمن بالرسول.

وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات هم الذين يقتصر عليهم عمارة المساجد الحسية بالبناء والتشييد والترميم، والمعنوية بالعبادة والأذكار وحضور دروس العلم، فلا يعمر بيوت الله غيرهم، وهؤلاء هم الذين يرجى بحق أن يكونوا من المهتدين إلى الخير دائمًا، وإلى ما يحب الله ويرضيه، المستحقون الثواب على أعمالهم، لا أولئك المشركون الضالون الذين يجمعون بين الأضداد، فيشركون بالله ويكفرون بما جاء به رسوله، ويسجدون للطواغيت (الأصنام) ثم يقدمون بعض الخدمات للمسجد الحرام[2].

كما أن الله تعالى ذم من يسعى في خراب المساجد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١٤﴾ [البقرة:١١٤].

قال الرازي في تفسيرها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ «فإن ظاهرها يقتضي أن يكون الساعي في تخريب المساجد أسوأ حالًا من

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ١٣٥.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ١٣٨.

المشرك؛ لأن قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يتناول المشرك؛ لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

فإذا كان الساعي في تخريبه في أعظم درجات الفسق وجب أن يكون الساعي في عمارته في أعظم درجات الإيمان»[(١)].

وقد ورد ذكر بيوت الله التي هي المساجد في السنة النبوية، وذلك فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطوتاه إحداهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة)[(٢)].

وفيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أيضًا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده)[(٣)].

(١) مفاتيح الغيب ٤/ ١٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، وترفع به الدرجات، رقم٦٦٦، ١/ ٤٦٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم٢٦٩٩، ٤/ ٢٠٧٤.

ثانيًا: بيوت الأنبياء:

ذكرت بيوت الأنبياء في سياقات متعددة، وسيتم الحديث أولًا عن بيوت النبي محمد صلى الله عليه وسلم ثم بيوت غيره من الأنبياء فيما يأتي:

١. بيوت النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ذكر القرآن بيوت النبي محمد صلى الله عليه وسلم في سياقات مختلفة كما يأتي:

- في سياق الجهاد.

قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥﴾ [الأنفال:٥].

والإخراج من البيت: هو الإخراج المعين الذي خرج به النبي صلى الله عليه وسلم غازيًا إلى بدر.

والمعنى: أن الله أمره بالخروج إلى المشركين ببدر أمرًا موافقًا للمصلحة في حال كراهة فريق من المؤمنين ذلك الخروج[(٤)].

- في سياق الآداب الواجبة معها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور٩/ ٢٦٣، وانظر: النكت والعيون، الماوردي٢/ ٢٩٥.

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب:٥٣].

وقد تضمنت الآية- فيما يتعلق بالبيوت- حكمين:

الحكم الأول: النهي عن دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم في كل الأحوال إلا بالإذن لتناول طعام، غير منتظرين وقت نضجه، والمعنى: فيا أيها الذين آمنوا أو صدقوا بالله ورسوله لا تدخلوا بيتًا من بيوت النبي صلى الله عليه وسلم في كل الأحوال إلا بالإذن لتناول طعام، غير منتظرين وقت نضجه، فإذا نضج فادخلوا، إذا دعيتم، فإذا تناولتم الطعام فانتشروا في الأرض غير مستأنسين أو مشتغلين بلهو الحديث، إن دخولكم بيت النبي واشتغالكم بالحديث قبل نضج الطعام كان يؤذي النبي، وإيذاؤه حرام، وكان النبي يتضايق من ذلك، ويكره أن ينهاكم عن ذلك من شدة حيائه صلى الله عليه وسلم، والله لا يستحيي من بيان الحق، وهو الأمر بالخروج من البيت، ومنع البقاء فيه، وهذا أدب عام يشمل النبي صلى الله عليه وسلم وسائر المؤمنين[1].

الحكم الثاني: النهي عن النظر إلى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، والمعنى: فكما نهيتكم عن الدخول إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم من غير إذن، ودون انتظار نضج الطعام، كذلك نهيتكم عن النظر إلى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم فإذا طلبتم منهن شيئًا من الأمتعة، كالمواعين وسائر مرافق الدين والدنيا، فاطلبوه من وراء حجاب ساتر، وذلك الحجاب أطهر وأطيب للنفس، وأبعد عن الريبة، لقلوبكم وقلوبهن، من الهواجس ووساوس الشيطان.

وذلك لأنه لم يصح لكم أن تؤذوا رسول الله وتضايقوه، كالبقاء في منزله، والاشتغال بالحديث، وانتظار نضج الطعام، ويحرم عليكم أبدًا التزوج بنسائه بعد الفراق بموت أو طلاق، تعظيمًا له، إن إيذاء صلى الله عليه وسلم وزواج نسائه من بعده ذنب عظيم وإثم كبير، والبعد عن الإيذاء سرًّا وعلنًا مطلوب، فإنكم إن تظهروا شيئًا من الأذى أو تكتموه، فإن الله تام العلم به، يعلم السرائر والخفايا، والظواهر والأحوال كلها.

ثم استثنى الله من حكم حجاب أزواج النبي: المحارم، فلا إثم ولا حرج على

(١) الوسيط، الزحيلي٣/ ٢٠٨٢، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٣٩٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٠.

زوجات النبي صلى الله عليه وسلم في ترك الحجاب أمام الآباء والأبناء، بسبب النسب أو الرضاع، والإخوة وأبناء الإخوة والأخوات، وأمام النساء المؤمنات، والأرقاء من الذكور والإناث، بعدًا عن الحرج والمشقة في ذلك بسبب الخدمة، ودخل الأعمام في الآباء[1].

❁ في سياق ذكر أمهات المؤمنين.

قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾ [الأحزاب:٣٢-٣٤].

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال تعالى مخاطبًا لنساء النبي صلى الله عليه وسلم بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ قال السدي وغيره: يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال، ولهذا قال تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ أي: دغل ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ قال ابن زيد: قولًا حسنًا جميلًا معروفًا في الخير، ومعنى هذا: أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها[2].

وفي قوله تعالى: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه عنى عليًّا وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم ، قاله أبو سعيد الخدري وأنس بن مالك وعائشة وأم سلمة رضي الله عنهم.

الثاني: أنه عنى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، قاله ابن عباس وعكرمة.

الثالث: أنها في الأهل والأزواج ، قاله الضحاك[3].

وقد اختلف الفقهاء والمفسرون في أهل البيت المذكورين في الآية على أقوال، والراجح والصحيح منها: أنهم الذين حرمت عليهم الصدقة، وهم: بنو هاشم، وبنو عبد المطلب، أو بنو هاشم خاصة، أو بنو هاشم ومن فوقهم إلى غالب؛ وهذا القول هو اختيار الجمهور والأكثرين من العلماء، ولا شك أن بعضهم أخص بكونه من آل

(١) الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٠٨٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٦٣.

(٣) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٠١.

البيت من بعض، فعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين: أخص من غيرهم[1]،[2]، وكذلك زوجاته صلى الله عليه وسلم يدخلن دخولًا أوليًّا، قال ابن عطية: «والذي يظهر إلي أن زوجاته لا يخرجن عن ذلك البتة، فأهل البيت زوجاته وبنته وبنوها وزوجها، وهذه الآية تقضي أن الزوجات من أهل البيت؛ لأن الآية فيهن والمخاطبة لهن»[3].

وقال الشوكاني- بعد أن ذكر تلك الأقوال-: «أما الزوجات فلكونهن المرادات في سياق هذه الآيات، ولكونهن الساكنات في بيوته صلى الله عليه وسلم النازلات في منازله، ويعضد ذلك ما تقدم عن ابن عباس وغيره، وأما دخول علي وفاطمة والحسن والحسين فلكونهم قرابته وأهل بيته في النسب، ويؤيد ذلك ما ذكرناه من الأحاديث المصرحة بأنهم سبب النزول، فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين فقد أعمل بعض ما يجب إعماله، وأهمل ما لا يجوز إهماله، وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبي، وابن كثير، وغيرهما»[4].

(١) انظر: الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٦٠، لباب التأويل، الخازن٤/ ٩٨، بيان المعاني، العاني٤/ ٣٧.

(٢) انظر في بقية الأقوال وأدلتها: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٤، فتح القدير، الشوكاني٤/ ٣٢٣.

(٣) المحرر الوجيز٤/ ٣٨٤.

(٤) فتح القدير٤/ ٣٢٣.

٢. بيوت غيره صلى الله عليه وسلم من الأنبياء.

● ذكر القرآن الكريم بيت نوح عليه السلام في سياق الدعاء.

قال تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح:٢٨].

فقد ذكر المفسرون في معنى بيتي المذكور في الآية: بيتي منزلي، وقيل: مسجدي، فيما قال ابن عباس وجمهور المفسرين، وقيل: سفينتي[5]. وقال ابن عباس أيضا: بيته: شريعته ودينه استعار لها بيتًا، كما يقال: قبة الإسلام، وفسطاط الدين[6].

● بيت إبراهيم عليه السلام.

قال سبحانه: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود:٧٣] يعني قالت الملائكة لسارة ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ معناه: لا تعجبي من ذلك، فإن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء، فإذا أراد شيئًا كان سريعًا ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ يعني: بيت إبراهيم عليه السلام، وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة، وفيه دليل على أن أزواج

(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري٤/ ٦٢١.

(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية٥/ ٣٧٧.

الرجل من أهل بيته ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ﴾ يعني: هو المحمود الذي يحمد على أفعاله كلها، وهو المستحق لأن يحمد في السراء والضراء والشدة والرخاء، فهو محمود على كل حال ﴿مَّجِيدٞ﴾ ومعناه: المنيع الذي لا يرام، وقال الخطابي: المجيد الواسع الكرم[(١)].

❁ ذكر القرآن الكريم بيت لوط عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦﴾ [الذاريات:٣٦].

أي: لوطًا عليه السلام وابنتيه[(٢)]، وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعًا؛ لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم[(٣)].

❁ بيت موسى وهارون عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧﴾ [يونس:٨٧].

وذلك حين منعهم فرعون الصلاة، فأمروا أن يجعلوا مساجدهم في بيوتهم، وأن يوجهوها نحو القبلة[(٤)].

وقال الزجاج: صلوا في بيوتكم لتأمنوا من الخوف[(٥)]، وقال عكرمة، عن ابن عباس: واجعلوا بيوتكم مساجد[(٦)].

ثالثًا: بيوت المؤمنين:

ذكرت بيوت المؤمنين في سياقات متعددة يمكن بيانها فيما يأتي:

❁ في سياق الهجرة.

قال تعالى: ﴿۞وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٠﴾ [النساء:١٠٠].

❁ في سياق الأكل في البيوت.

قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦١﴾ [النور:٦١].

---

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤٥٧، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٩٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٠٥.
(٣) انظر: الوسيط، الواحدي ٤/ ١٧٨.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٧٥.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٣٠.
(٦) الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٥٦.

❁ في سياق آداب دخول البيوت.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور:٢٧].

رابعًا: بيوت الظالمين:

ذكر الله تعالى بيوت الظالمين في مقام التذكير بنعم الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:٧٤].

فقد ذكّر نبي الله صالح عليه السلام قومه بالنعم التي أنعم الله بها عليهم، والمعنى: أي وتذكروا نعم الله عليكم وإحسانه إليكم، إذ جعلكم خلفاء لعاد في الحضارة والعمران والقوة والبأس، وأنزلكم منازلهم تتخذون من سهولها قصورًا زاهية، ودورًا عالية، بما ألهمكم من حذق في الصناعة، فجعلكم تضربون اللّبن وتحرقونه آجرًا (الطوب المحرق) وتستعملون الجص، وتجيدون هندسة البناء ودقة النجارة، وتنحتون من الجبال بيوتًا، إذ علمكم صناعة النحت، وآتاكم القوة والجلد.

فقد كانوا يسكنون الجبال في الشتاء لما في البيوت المنحوتة من القوة، فلا تؤثر فيها الأمطار والعواصف، ويسكنون السهول في باقي الفصول للزراعة والعمل.

قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤].

أي: وتذكروا هذه النعم العظام، واشكروها له بتوحيده وإفراده بالعبادة، ولا تتصرفوا فيها تصرف كفران وجحود بفعل ما لا يرضي الله الذي خلقها لكم، فما بالكم بالكفر والعثي في الأرض بالفساد(١).

كما ذكر الله تعالى بيوت الظالمين في مقام العذاب الذي استحقته.

قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل:٥٢].

قال الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ فتلك مساكنهم خاوية خالية منهم، ليس فيها منهم أحد، قد أهلكهم الله فأبادهم ﴿بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ يقول تعالى ذكره: بظلمهم أنفسهم بشركهم بالله، وتكذيبهم رسولهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن في فعلنا بثمود ما قصصنا عليك يا محمد من القصة، لعظة لمن يعلم فعلنا بهم ما فعلنا، من قومك الذين يكذبونك فيما جئتهم به من عند ربك

---

(١) انظر: تفسير المراغي ٨/ ١٩٩.

وعبرة»[1].

كما ذكر الله تعالى بيوت الظالمين في مقام تذكير المكذبين برسلهم وكيف كانت سنة الله تعالى فيمن كان قبلهم وسلك مسلكهم، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه:١٢٨].

قال ابن جرير الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: أفلم يهد لقومك المشركين بالله، ومعنى يهد: يبين، يقول: أفلم يبين لهم كثرة ما أهلكنا قبلهم من الأمم التي سلكت قبلها التي يمشون في مساكنهم ودورهم، ويرون آثار عقوباتنا التي أحللناها بهم سوء مغبة ما هم عليه مقيمون من الكفر بآياتنا، ويتعظوا بهم، ويعتبروا، وينيبوا إلى الإذعان، ويؤمنوا بالله ورسوله، خوفًا أن يصيبهم بكفرهم بالله مثل ما أصابهم»[2].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة:٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٥-٤٦].

أي: إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم، لآيات وعبرًا ومواعظ ودلائل متناظرة تبين أخبار من تقدم كيف كان أمرهم[3].

كما ذكر الله تعالى بيوت الظالمين في مقام النفاق وأنها سبب للفرار من الجهاد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب:١٣].

وكذلك ذكر سبحانه بيوت الظالمين بأنها بيوت شهوات وانحلال وخيانة، كما ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف:٢٣].

وتشير الآية إلى أن اتباع الشهوات

(١) جامع البيان ١٩/ ٤٨٠.
(٢) جامع البيان ١٨/ ٣٩٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٣٢.

وارتكاب الخيانات في البيوت من الظلم، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: إنه تعالى لا يفلح الظالمين لأنفسهم والظالمين للناس بخيانة وتعد على الأعراض، لا في الدنيا ببلوغ الإمامة والرياسة، ولا في الآخرة بالوصول إلى رضوان الله تعالى ودخول جنات النعيم[1].

خامسًا: بيوت المخلوقات:

إن بيوت المخلوقات من غير بني آدم المذكورة في القرآن هي:

١. بيوت العنكبوت.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [العنكبوت:٤١].

يقول تعالى ذكره: مثل الذين اتخذوا الآلهة والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها عند حاجتهم إليها في ضعف احتيالهم، وقبح رواياتهم، وسوء اختيارهم لأنفسهم، ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ في ضعفها، وقلة احتيالها لنفسها، ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ لنفسها، كيما يكنها، فلم يغن عنها شيئًا عند حاجتها إليه، فكذلك هؤلاء المشركون لم يغن عنهم حين نزل بهم أمر الله، وحل بهم سخطه أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئًا، ولم يدفعوا عنهم ما أحل الله بهم من سخطه بعبادتهم إياهم[2].

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم، إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئًا، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها»[3].

٢. بيوت النحل.

قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨﴾ [النحل:٦٨].

وقوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ [النحل:٦٨].

أي: خلايا، وهي الأمكنة التي يضع النحل فيها العسل، ويقال: إنما يضع العسل

(١) انظر: تفسير المراغي ١٢/ ١٣٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٥٢.

في أجواف الأشجار، وقد يضع على أغصان الأشجار، وقوله: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يعني: يبنون، وقد جرت عادة أهلها أنهم يبنون لها الأماكن فهي تأوي إليها بتسخير الله إياها لذلك[(١)].

قال الرازي: في تفسير قوله: ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل:٦٨].

يقال: وحى وأوحى، وهو الإلهام، والمراد من الإلهام: أنه تعالى قرر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي تعجز عنها العقلاء من البشر، وبيانه من وجوه: الأول: أنها تبني البيوت المسدسة من أضلاع متساوية، لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها، والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت إلا بآلات وأدوات مثل المسطر والفرجار، والثاني: أنه ثبت في الهندسة أن تلك البيوت لو كانت مشكلة بأشكال سوى المسدسات فإنه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة، أما إذا كانت تلك البيوت مسدسة فإنه لا يبقى فيما بينها فرج ضائعة، فإهداء ذلك الحيوان الضعيف إلى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الأعاجيب، والثالث: أن النحل يحصل فيما بينها واحد يكون كالرئيس للبقية، وذلك الواحد يكون أعظم جثة من الباقي، ويكون نافذ الحكم على تلك البقية، وهم يخدمونه ويحملونه عند الطيران، وذلك أيضًا من الأعاجيب، والرابع: أنها إذا نفرت من وكرها ذهبت إلى موضع آخر، فإذا أرادوا عودها إلى وكرها ضربوا الطنبور والملاهي وآلات الموسيقى، وبواسطة تلك الألحان يقدرون على ردها إلى وكرها، وهذا أيضًا حالة عجيبة، فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة، وكان حصول هذه الأنواع من الكياسة ليس إلا على سبيل الإلهام، وهي حالة شبيهة بالوحي، لا جرم، قال تعالى في حقها: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل:٦٨][(٢)].

النظرة العلمية: إن بعض العلماء الذين كرسوا جهودهم لدراسة حياة الحشرات وقفوا على حقائق عجيبة وألفوا مئات الكتب التى أثبتت صحة ما جاء في القرآن من أن هناك فصائل برية من النحل تسكن الجبال وتتخذ من مغاراتها مأوى لها، وأن منه سلالات تتخذ من الأشجار سكنًا بأن تلجأ إلى الثقوب الموجودة في جذوع الأشجار وتتخذ منها بيوتًا تأوي إليها، ولما أراد الإنسان أن ينتفع بعسل النحل استأنسها وصنع لها خلايا من الطين أو الخشب

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٨٥.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٠/ ٢٣٦.

يعيش فيها، وهكذا تبين الآية الكريمة كيف كانت هذه الحشرات بإلهام من الله تأوى إلى مساكنها المختلفة منذ القدم إلى يومنا هذا[(١)].

٣. بيوت النمل.

قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل:١٧ - ١٩].

وقد ذكر الله تعالى بيوت النمل في سياق الملك العظيم الذي وهبه لنبيه سليمان عليه السلام، والمعنى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ يعني: في بيوتكم، ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يهلكنكم، ويقال: لا يكسرنكم سليمان وجنوده بأن يظلموكم، وإنما خاطبهم بقوله ﴿ادْخُلُوا﴾ بخطاب العقلاء؛ لأنه حكى عنهم ما يحكى عن العقلاء، ثم قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: قوم سليمان لا يشعرون بكم، ولو كانوا يشعرون بكم، لا يحطمونكم؛ لأنهم علموا أن سليمان ملك عادل لا بغي فيه ولا جور فيه، ولئن علم بها لم توطأ، ويقال: وهم لا يشعرون يعني: جنوده خاصة؛ لأنه علم أن سليمان يعلم بمكانه ويتعاهده ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ كما يكون ضحك الأنبياء عليهم السلام، وإنما ضحك من ثنائها على سليمان بعدله في ملكه، يعني: أنه لو شعر بكم لم يحطمنكم. ويقال: فتبسم ضاحكًا أي: متعجبًا ويقال: فرحًا بما أنعم الله تعالى عليه[(٢)].

(١) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص١٥١.

(٢) تفسير السمرقندي٢/ ٥٧٦. وانظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ٨/ ٥٣٨٦.

الخروج من البيت ابتغاء مرضاة الله

إن الهجرة والخروج من البيوت ابتغاء لمرضات الله تعالى يكون في أمور، منها: الهجرة، والجهاد في سبيل الله تعالى، والسفر المباح، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الهجرة:

الهجرة هي: الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضًا في أيام النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح: هي القصد إلى النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان، فإن بقي في دار الحرب، ولم يهاجر عصى[1].

وفي الهجرة ترك البيوت ابتغاء مرضاة الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ١٠٠].

أي: إن من يهاجر في سبيل الله، أي: لقصد رضاه وإقامة دينه كما يجب وكما يحب الله تعالى، يجد في الأرض سبيلًا يرغم به أنوف من كانوا مستضعفين له، ومأوى يصيب فيه الخير والسعة فوق النجاة من الاضطهاد والذل، وفي هذا وعد للمهاجرين في سبيله بتسهيل سبل العيش لهم وإرغامهم أعداءهم والظفر بهم[2].

كما وعد من يموت في الطريق قبل وصوله دار الهجرة بالأجر العظيم الذي ضمنه له عز وجل إذا كان يقصد بهجرته رضا الله ونصرة رسوله في حياته، وإقامة سننه بعد وفاته، وكان مستحقًا لهذا الأجر ولو مات بعد أن تجاوز عتبة الباب ولو لم يصب تعبًا ولا مشقة، فإن نية الهجرة مع الإخلاص كافية لاستحقاقه له، كما في حديث عمر رضي الله عنه (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)[3].

وفي إبهام هذا الأجر وجعله حقًا واجبًا عليه تعالى إيذان بعظم قدره وتأكيد ثبوته ووجوبه، ولله تعالى أن يوجب على نفسه ما يشاء، وليس لغيره أن يوجب عليه شيئًا، إذ لا سلطان فوق سلطانه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]

أي: وكان شأن الله الغفران أزلًا وأبدًا لأمثال هؤلاء المهاجرين الذين دعاهم إيمانهم لترك أوطانهم لإقامة دينه واتباع سبيله، والرحمة

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٦/ ٦٠٠.

(٢) تفسير المراغي ٥/ ١٣٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم١، ١/ ٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنية»، رقم١٩٠٧، ٣/ ١٥١٥.

الشاملة لهم بعطفه وإحسانه[1].

واختلف المفسرون في معنى المراغم المذكورة في الآية: فقال بعضهم: هو التحول من أرض إلى أرض، وقال آخرون: مبتغى معيشة، وقال آخرون: المراغم، المهاجر[2]، وقال مجاهد: المرغم: المتزحزح، وقال الكسائي: المراغم: المذهب.

قال أبو جعفر النحاس: «وهذه الأقوال متفقة المعاني فالمراغم هو المذهب والمتحول في حال هجرة، وهو اسم للموضع الذي يراغم فيه، وهو مشتق من الرغام، ورغم أنف فلان، أي: لصق بالتراب، وراغمت فلانًا هجرته وعاديته»[3].

أما السعة فقال أبو جعفر بعد أن ذكر أقوال المفسرين في معنى السعة: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أن من هاجر في سبيله يجد في الأرض مضطربًا ومتسعًا، وقد يدخل في«السعة»، السعة في الرزق، والغنى من الفقر، ويدخل فيه السعة من ضيق الهم والكرب الذي كان فيه أهل الإيمان بالله من المشركين بمكة، وغير ذلك من معاني(السعة)، التي هي بمعنى الروح والفرج من مكروه ما كره الله للمؤمنين بمقامهم بين ظهري المشركين وفي سلطانهم. ولم يضع الله دلالة على أنه عنى بقوله:(وسعة)، بعض معاني(السعة) التي وصفنا، فكل معاني(السعة) التي هي بمعنى الروح والفرج مما كانوا فيه من ضيق العيش، وغم جوار أهل الشرك، وضيق الصدر بتعذر إظهار الإيمان بالله وإخلاص توحيده وفراق الأنداد والآلهة، داخل في ذلك»[4].

والهجرة ابتغاء مرضات الله تعالى هي سنة النبيين عليهم، فقد هاجر نبي الله إبراهيم ولوط عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ ﴾ [العنكبوت:٢٦].

فقد خرج إبراهيم عليه السلام من أرض العراق مهاجرًا إلى ربه، وخرج معه لوط عليه السلام وسارة، فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة الله حتى نزل حران من دمشق، فمكث بها ما شاء الله أن يمكث، ثم خرج منها مهاجرًا حتى قدم مصر، ثم خرج من مصر إلى الشام ونزل بلاد السبع من أرض فلسطين، ونزل لوط عليه السلام بالمؤتفكة، وهي من السبع على مسيرة يوم وليلة وأقرب من ذلك، فبعثه الله سبحانه نبيًا[5].

يقول تعالى مخبرًا عن إبراهيم أنه آمن له

(١) تفسير المراغي٥/ ١٣٥.
(٢) جامع البيان، الطبري٩/ ١١٩.
(٣) إعراب القرآن، النحاس١/ ٢٣٥.
(٤) جامع البيان٩/ ١٢٢.
(٥) الكشف والبيان، الثعلبي٦/ ٢٨٣.

لوط عليه السلام، يقال: إنه ابن أخي إبراهيم عليه السلام، ولم يؤمن به، من قومه سواه وسارة امرأة إبراهيم الخليل، ثم أخبر عنه عليه السلام بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين به، الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية(١).

وكذلك فعل نبي الله موسى عليه السلام فقد خرج من مصر، خائفًا يترقب، أي: ينتظر الطلب، قال: رب نجني من القوم الظالمين الكافرين، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص:٢١-٢٢].

أي: سلك الطريق التي يلقى مدين(٢) فيها، وكانت مدين على مسيرة ثمانية أيام من مصر ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢].

أي: قصد الطريق إلى مدين(٣).

والهجرة بترك البيوت هي كذلك سنة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠].

وفي الآية إخبار بهجرة رسول إلى المدينة وتركه مكة وبيته فيها ابتغاء مرضات الله تعالى.

والمعنى: إلا تنصروه أي: تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين في عام الهجرة لما همّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هاربًا بصحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيروا نحو المدينة، فجعل أبو بكر رضي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٤٦.

(٢) مدين: اسم بلاد ذكر في القرآن، وكانت تمثل إقليمًا كبيرًا وواسعًا، وكانت تقع في شمال غرب الجزيرة العربية بين تبوك والبحر الأحمر، وتعرف اليوم باسم: البدع، وهي بلدة بين تبوك وساحل البحر الأحمر على بعد١٣٢كيلًا غرب تبوك، وشرق رأس الشيخ حميد، على البحر، بمسافة٧٠كيلًا، وهي تابعة لمنطقة تبوك التي تقع شمال غرب المملكة العربية السعودية.
انظر: معجم المعالم الجغرافية، عاتق البلادي ص٢٨٤، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، سامي المغلوث ص ١٣٩.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٢٨.

الله عنه يجزع أن يطلع عليهم أحد فيخلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أذى، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يسكنه ويثبته ويقول: (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[1][2].

ثانيًا: الجهاد:

إن في الجهاد تركًا للبيوت ابتغاء مرضات الله تعالى، كما قال تعالى عن رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ [الأنفال: ٥].

وفي قوله عز وجل: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ قولان:

أحدهما: كما أخرجك ربك من مكة إلى المدينة بالحق مع كراهة فريق من المؤمنين، كذلك ينجز وعدك في نصرك على أعدائك بالحق.

والثاني: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ﴾ من المدينة إلى بدر بالحق، كذلك جعل لك غنيمة بدر بالحق.

وفي قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ وجهان:

أحدهما: أنك خرجت ومعك الحق.

الثاني: أنه أخرجك بالحق الذي وجب عليك.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: كارهون خروجك.

الثاني: كارهون صرف الغنيمة عنهم؛ لأنهم لم يعلموا أن الله تعالى قد جعلها لرسوله صلى الله عليه وسلم[3].

وقد أمر الله تعالى بالخروج من البيوت والمنازل للجهاد الواجب وتوعد من لم يخرج بالعذاب الأليم والاستبدال بقوم يخرجون للجهاد.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [التوبة: ٣٨- ٣٩].

وهذه الآية حث من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم على الجهاد وغزو الروم، وذلك غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك، والمعنى: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿مَا لَكُمْ﴾، أي: شيء أمركم ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: إذا قال

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم ٢٣٨١، ٤/ ١٨٥٤، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٣٦.
(٣) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٩٥.

لكم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿انفِرُوا﴾، أي: اخرجوا من منازلكم إلى مغزاكم، وأصل النفر، مفارقة مكان إلى مكان لأمر هاجه على ذلك(1).

وقد أمر الله تعالى بالخروج من البيوت للجهاد في كل الأحوال والظروف.

قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١].

قوله: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: شيبًا وشبانًا(2)، وموسرين ومعسرين، خفت عليكم الحركة أو ثقلت، ركبانًا ومشاة(3).

قال الإمام البغوي: «قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، قال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة: شبانًا وشيوخًا، وعن ابن عباس: نشاطًا وغير نشاط، وقال عطية العوفي: ركبانًا ومشاة، وقال أبو صالح: خفافًا من المال، أي: فقراء، وثقالًا أي: أغنياء، وقال ابن زيد: الثقيل الذي له الضيعة، فهو ثقيل يكره أن يضيع ضيعته، والخفيف الذي لا ضيعة له، ويروى عن ابن عباس قال: خفافًا أهل الميسرة من المال وثقالًا أهل العسرة، وقيل: خفافًا من السلاح، أي: مقلين منه، وثقالًا أي: مستكثرين منه، وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل، وقال مرة الهمداني: أصحاء ومرضى، وقال يمان ابن رباب عزابًا ومتأهلين، وقيل: خفافًا من حاشيتكم وأتباعكم، وثقالًا مستكثرين بهم، وقيل: خفافًا مسرعين خارجين ساعة سماع النفير، وثقالًا بعد التروي فيه والاستعداد له»(4).

ثم بين سبحانه شرط الخروج من البيوت للجهاد الذي يقصد به ابتغاء مرضات الله بأن لا يتخذ الخارجون أعداء الله تعالى أولياء.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١].

وجواب الشرط في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه أى: إن كنتم -أيها المؤمنون- قد خرجتم من مكة من أجل الجهاد في سبيلي، ومن أجل طلب مرضاتي، فاتركوا اتخاذ عدوي وعدوكم أولياء، واتركوا مودتهم ومصافاتهم.

---

(1) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٥١.
(2) المصدر السابق ١٤/ ٢٦٢.
(3) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٤٤٩.
(4) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٥٣.

فالمقصود من الجملة الكريمة: زيادة التهييج للمؤمنين، حتى لا يبقى في قلوبهم أي شيء من المودة نحو الكافرين[(١)].

ثم بين سبحانه موقف المنافقين من الخروج للجهاد بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة:٤٢-٤٣].

والعرض كل ما عرض لك من منافع الدنيا، فالمعنى: لو كانت غنيمة قريبة، أي: لو كان ما دعوا إليه غنمًا، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: سهلًا قريبًا لاتبعوك ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾، أي: بعدت عليهم الغاية التي تقصدها، وكان هذا حين دعوا إلى غزوة تبوك، فثقل عليهم الخروج إلى نواحي الشام[(٢)].

والمعنى: لو كان ما دعوا إليه عرضًا قريبًا غنيمة قريبة، وسفرًا قاصدًا قريبًا هينًا، لاتبعوك طمعًا في المال ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ [التوبة:٤٢].

المسافة، وقال الكلبي: يعني: السفر إلى الشام، والشقة السفر البعيد؛ لأنه يشق على الإنسان، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني المنافقين إذا رجعتم إليهم: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة:٤٢] أي: لو قدرنا وكان لنا سعة في المال، يهلكون أنفسهم بالكذب والنفاق، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة:٤٢]؛ لأنهم كانوا يستطيعون الخروج وكانوا مياسير، ذوي زاد وسلاح وعدة، قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣][(٣)].

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة:٤٦-٤٧].

أي: إن المنافقين لو أرادوا الجهاد لتأهبوا أهبة السفر، فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ أي: خروجهم معك ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: حبسهم عنك وخذلهم، لأنهم قالوا: إن لم يؤذن لنا في الجلوس أفسدنا وحرضنا على المؤمنين، ويدل على هذا أن بعده: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ قيل: هو من قول بعضهم

(١) الوسيط، طنطاوي ١٤/ ٣٢٣.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٢/ ٤٤٩.
(٣) الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٠٠.

لبعض، وقيل: هو من قول النبي صلى الله عليه وسلم، ويكون هذا هو الإذن الذي تقدم ذكره، قيل: قاله النبي صلى الله عليه وسلم غضبًا فأخذوا بظاهر لفظه وقالوا: قد أذن لنا، وقيل: هو عبارة عن الخذلان، أي: أوقع الله في قلوبهم القعود، ومعنى: ﴿مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ أي: مع أولي الضرر والعميان والزمنى والنسوان والصبيان[1].

ثم ذكر الحكمة في ذلك، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: نقصًا، ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ﴾ أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم. ﴿وَفِيكُمْ﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم، فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتثبيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستنصحهم. فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم، فلله أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفًا من أن يداخلهم ما لا ينفعهم، بل يضرهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم[2].

وهؤلاء قال تعالى عنهم: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة:٨٣].

يقول تعالى آمرًا لرسوله صلى الله عليه وسلم، ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: ردك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلًا ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أي: معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ أي: تعزيرًا لهم وعقوبة، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠][3].

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾ يعني: مع المتخلفين من النساء والصبيان، وقيل: مع المرضى والزمنى، وقال ابن عباس رضي الله عنه: مع الذين تخلفوا بغير عذر، وقيل: مع المخالفين يقال: صاحب خالف إذا كان مخالفًا كثير الخلاف.

وفي الآية دليل على أن الرجل إذا ظهر منه مكروه وخداع وبدعة يجب الانقطاع

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٥٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٣٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٦٩.

عنه وترك مصاحبته؛ لأن الله سبحانه وتعالى منع المنافقين من الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجهاد، وهو مشعر بإظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وإبعادهم؛ لما علم من مكرهم وخداعهم إذا خرجوا إلى الغزوات[1].

ثالثًا: السفر:

في السفر ترك للبيوت، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [النساء:١٠١].

والضرب في الأرض هو السفر، قال الله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل:٢٠][2].

قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي: تخففوا فيها إما من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية، كما فهمه الجمهور من هذه الآية، واستدلوا بها على قصر الصلاة في السفر على اختلافهم في ذلك، فمن قائل: لا بد أن يكون سفر طاعة من جهاد، أو حج، أو عمرة، أو طلب علم، أو زيارة، وغير ذلك، كما هو مروي عن ابن عمر وعطاء ويحيى عن مالك في رواية عنه نحوه، لظاهر قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

ومن قائل: لا يشترط سفر القربة، بل لا بد أن يكون مباحًا، لقوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة:٣].

كما أباح له تناول الميتة مع الاضطرار بشرط أن لا يكون عاصيًا بسفره، وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة[3].

وهناك أسفار فيها ترك البيوت ابتغاء مرضات الله تعالى يمكن ذكرها بإيجاز فيما يأتي:

أولًا: سفر العلم، وهو مشهور لدى العلماء؛ لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة[4].

ثانيًا: سفر الحج والعمرة، وسفر الحج واجب على المستطيع، وهو من فروض العين[5]، وسفر العمرة مندوب[6].

ثالثًا: سفر الكسب والمعاش: فقد يتعذر على الرجل معاشه مع الإقامة، فيخرج في طلبه لا يزيد عليه، ولا ينقص من صيد أو احتطاب أو احتشاش أو استئجار، وهو فرض عليه[7]، وهو جائز إذا أراد التوسع

---

(١) لباب التأويل، الخازن٢/ ٣٩١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير١/ ٥٤٢.
(٣) المصدر السابق٢/ ٣٤٨.
(٤) أحكام القرآن، ابن العربي١/ ٦١٣، بيان المعاني، عبد القادر العاني٤/ ٥٠٠.
(٥) بيان المعاني، عبد القادر العاني٤/ ٥٠٠.
(٦) أحكام القرآن، ابن العربي١/ ٦١٣.
(٧) المصدر السابق١/ ٦١٣.

بأكثر مما هو فيه، وواجب إذا كان محتاجًا له لنفسه أو لمن يعوله[1].

رابعًا: سفر التجارة والكسب الزائد على القوت، وذلك جائز بفضل الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨]. أي: التجارة في البيع والشراء[2]، يعني التجارة، وهي نعمة من الله بها في سفر الحج، فكيف إذا انفردت[3].

خامسًا: سفر الزيارة: وسفر الزيارة إما يكون للإخوان في الله[4].

ومن الترغيب فيه روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: **(أن رجلًا زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله له، على مدرجته، ملكًا فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)**[5][6].

ومنه قصد البقاع الكريمة، وهو مطلوب لثلاث أمكان، لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد الأقصى)**[7][8].

(١) بيان المعاني، عبد القادر العاني ٤/ ٥٠٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ٤/ ١٦٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٥١.
وانظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ١/ ٣٧٤.
(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦١٣.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله، رقم٢٥٦٧، ٤/ ١٩٨٨.
(٦) بيان المعاني، عبد القادر العاني ٤/ ٥٠٠.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم١١٨٩، ٢/ ٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، رقم١٣٩٧، ٢/ ١٠١٤.
(٨) بيان المعاني، عبد القادر العاني ٤/ ٥٠٠.
وانظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦١٢.

آداب دخول البيوت

هناك آداب لدخول البيوت سواء أكانت بيوت الله تعالى، أو بيوت النبي صلى الله عليه وسلم أو بيوت سائر المخلوقات من الإنس والجن، كما سيأتي توضيح ذلك في المطالب الآتية:

أولًا: آداب بيوت الله تعالى:

١. يستحب لدخول بيوت الله تعالى الطهارة، وأخذ الزينة عند كل مسجد.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١﴾ [الأعراف:٣١][(١)].

قال الزمخشري: «﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ أي: ريشكم ولباس زينتكم عند كل مسجد، كلما صليتم أو طفتم، وكانوا يطوفون عراة، وعن طاوس: لم يأمرهم بالحرير والديباج، وإنما كان أحدكم يطوف عريانًا ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه، ضرب وانتزعت عنه؛ لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها»[(٢)].

وقال أبو حيان: «والذي يظهر أن الزينة هو ما يتجمل به ويتزين عند الصلاة، ولا يدخل فيه ما يستر العورة؛ لأن ذلك مأمور به مطلقًا»[(٣)].

أما الطهارة: فإنها من آداب دخول بيوت الله تعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: **(من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فيه فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة)**[(٤)]، ما لم يكن الدخول للصلاة أو الطواف بالبيت الحرام، فإنها تكون واجبة.

٢. التيمن في دخول المسجد.

من آداب دخول بيوت الله تعالى أن يدخل على السنة الواردة في دخولها، فقد أخرج البخاري في ذلك قوله: «وكان ابن عمر رضي الله عنه - عند دخول المسجد - يبدأ برجله اليمنى، فإذا خرج بدأ برجله اليسرى، فيه: عائشة رضي الله عنها قالت: **(كان النبي يحب التيمن ما استطاع في شأنه كله في طهوره، وترجله، وتنعله)**»[(٥)].

٣. الدعاء عند الدخول في المسجد والخروج منه.

عن أبي حميد، أو عن أبي أسيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إذا**

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٩.
(٢) الكشاف ٢/ ١٠٠.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤١.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، وترفع به الدرجات، رقم٦٦٦، ١/ ٤٦٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التيمن في دخول المسجد وغيره، رقم٤٢٦، ١/ ٩٣.

دخل أحدكم المسجد، فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج، فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك)[١].

٤. تحية المسجد.

يستحب لداخل بيوت الله تعالى أن يركع ركعتين تحية المسجد قبل أن يجلس، وذلك لما رواه أبو قتادة السلمي رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس)[٢].

والقول بذلك هو مذهب الشافعي وأحمد والجمهور، وذهب قوم مالك والثوري وأصحاب الرأي إلى أنه يجلس ولا يصلي[٣]، والراجح هو مذهب الجمهور لحديث أبي قتادة السابق فهو نص في المسألة.

أما تحية المسجد الحرام فقد ذكر ابن القيم أن تحية المسجد الحرام الطواف؛ لأنه صلى الله عليه وسلم بدأ فيه بالطواف[٤]، وتعقب بأنه صلى الله عليه وسلم لم يجلس، إذ التحية إنما تشرع لمن جلس، والداخل إلى المسجد الحرام يبدأ بالطواف، ثم يصلي صلاة المقام، فلا يجلس إلا وقد صلى، فأما لو دخل المسجد الحرام، وأراد القعود قبل الطواف، فإنه يشرع له أن يصلي التحية[٥].

والطواف بالبيت ورد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج:٢٩].

ومما يؤيد ما ذهب إليه ابن القيم من أن الطواف هو تحية المسجد الحرام ما رواه ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الطواف بالبيت صلاة، إلا أن الله عز وجل قد أحل فيه المنطق، فمن نطق فلا ينطق إلا بخير)[٦].

٥. عدم رفع الصوت في المسجد.

من آداب دخول بيوت الله تعالى: عدم رفع الصوت في المسجد بغير الذكر، فقد ورد ما يدل على كراهة ذلك فيما رواه السائب بن يزيد رضي الله عنه، قال: كنت قائمًا في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: اذهب فأتني بهذين، فجئته بهما، قال: من

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يقول إذا دخل المسجد، رقم٧١٣، ١/ ٤٩٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس، رقم٤٤٤، ١/ ٩٦.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي٤/ ١٥.
(٤) زاد المعاد ٢/ ٢٠٨.
(٥) نيل الأوطار، الشوكاني ٣/ ٨٥.
(٦) أخرجه أحمد في مسنده ، رقم١٥٤٢٣، ٢٤/ ١٤٩، والنسائي في سننه، كتاب مناسك الحج، باب إباحة الكلام في الطواف، رقم٢٩٢٢، ٥/ ٢٢٢.
والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم٣٩٥٤ ، ٢/ ٧٣٣.

أنتما- أو من أين أنتما؟ - قالا: من أهل الطائف، قال: (لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم)[1].

وفيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(من سمع رجلًا ينشد ضالة في المسجد فليقل: لا أداها الله إليك، فإن المساجد لم تبن لهذا)[2].

٦. المحافظة على نظافة المسجد.

إن المحافظة على نظافة بيوت الله تعالى من البصاق والروائح الكريهة وغيرها من آداب الداخل إليها؛ لما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:(البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها)[3].

وكذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في غزوة خيبر: (من أكل من هذه الشجرة -يعني: الثوم- فلا يقربن مسجدنا)[4].

ثانيًا: آداب دخول بيت النبوة:

ذكر الله تعالى آداب دخول بيت النبوة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾ [الأحزاب:٥٣].

وهذه الآداب يمكن إجمالها فيما يأتي:

١. النهي عن دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا كانت الدعوة لطعام غير منتظرين إدراكه ونضجه.

والمعنى: أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تدخلوا بيوت نبيه صلى الله عليه وسلم إلا أن تدعوا إلى طعام تطعمونه فلا تدخلوا البيت إلا إذا علمتم أن الطعام قد تم نضجه، وانتهى إعداده، إذ قبل ذلك يكون أهل البيت في شغل عنكم، وقد يلبسن ثياب البذلة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب رفع الصوت في المساجد، رقم٤٧٠، ١/ ١٠١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد، رقم ٥٦٨، ١/ ٣٩٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب كفارة البزاق في المسجد، رقم٤١٥، ١/ ٩١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الثوم النيء والبصل والكراث، رقم ٨٥٣، ١/ ١٧٠.

والعمل فلا يحسن أن ترونهن وهن على هذه الحال، إلى أنه ربما بدا من إحداهن ما لا يحل النظر إليه[1].

٢. الانتشار بعد الطعام.

والمعنى: ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي: ولكن إذا دعاكم الرسول صلى الله عليه وسلم فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله، فإذا أكلتم الطعام الذي دعيتم إلى أكله فتفرقوا واخرجوا ولا تمكثوا فيه لتتبادلوا ألوان الحديث وفنونه المختلفة.

وعلة ذلك ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: إن ذلك اللبث والاستئناس والدخول على هذا الوجه كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه كان يمنعه من قضاء بعض حاجاته، إلى ما فيه من تضييق المنزل على أهله، لكنه كان يستحيي من إخراجكم ومنعكم مما يؤذيه، والله لم يترك الحق وأمركم بالخروج.

وفي هذا إيماء إلى أن اللبث يحرم على المدعو إلى طعام بعد أن يطعم إذا كان في ذلك أذى لرب البيت، ولو كان البيت غير بيت النبي صلى الله عليه وسلم، فالتثقيل مذموم في كل مكان، محتقر لدى كل إنسان[2].

٣. سؤال نساء النبي متاعًا من وراء حجاب.

فإذا سألتم أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين اللواتي لسن لكم بأزواج، شيئًا تتمتعون به من ماعون وغيره فاطلبوا منهن ذلك من وراء ستر بينكم وبينهن.

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾

أي: ذلك الدخول بالإذن وعدم الاستئناس للأحاديث أطهر لقلوبكم وقلوبهن من وساوس الشيطان والريب؛ لأن العين رسول القلب، فإذا لم تر العين لم يشته القلب، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر، وعدم الفتنة[3].

ثالثًا: آداب بيوت سائر المخلوقات:

هناك آداب في دخول بيوت المخلوقين من الإنس والجن:

١. أن يكون الدخول على سنة الإسلام، وهو الإتيان من أبواب البيوت لا من ظهورها.

قال تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا

(١) تفسير المراغي ٢٢/ ٢٨.

(٢) المصدر السابق ٢٢/ ٢٩.

(٣) المصدر السابق ٢٢/ ٣٠.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٨٩﴾ [البقرة:١٨٩].

فقد كان قوم من قريش وجماعة معهم من العرب إذا خرج الرجل منهم في حاجة فلم يقضها ولم تتيسر له رجع، فلم يدخل من باب بيته سنة، يفعل ذلك تطيرًا، فأعلمهم الله عز وجل أن ذلك غير بر، أي: الإقامة على الوفاء بهذه السنة ليس ببر، وقال الأكثر من أهل التفسير: إنهم الحمس، وهم قوم من قريش، وبنو عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة، كانوا إذا أحرموا لا يأقطون الأقط، ولا ينفون الوبر ولا يسلون السمن، وإذا خرج أحدهم من الإحرام لم يدخل من باب بيته، وإنما سموا الحمس لأنهم تحمسوا في دينهم، أي: تشددوا.

وأعلمهم أن البر التقي، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾ والمعنى: ولكن البر بر من اتقى مخالفة أمر الله عز وجل، فقال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ فأمرهم الله بترك سنة الجاهلية في هذه الحماسة[1]، ومن ثم أصبح إتيان البيوت من أبوابها هو السنة والأدب الذي ينبغي في إتيانها.

٢. الاستئذان.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ [النور:٢٧].

ففي الآية هذه آداب شرعية، أدب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان فقد أمرهم أن لا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم حتى يستأنسوا، أي: يستأذنوا قبل الدخول، ويسلموا بعده، وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا انصرف[2].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:٢٧].

يقول: استئناسكم وتسليمكم على أهل البيت الذي تريدون دخوله، خير لكم؛ لأنكم لا تدرون أنكم إذا دخلتموه بغير إذن، على ماذا تهجمون؟ على ما يسوؤكم أو يسركم؟ وأنتم إذا دخلتم بإذن، لم تدخلوا على ما تكرهون، وأديتم بذلك أيضًا حق الله عليكم في الاستئذان والسلام، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول: لتتذكروا بفعلكم ذلك أوامر الله عليكم، واللازم لكم من طاعته، فتطيعوه[3].

٣. السلام.

فمن دخل دارًا وجب عليه أن يسلم على الحاضرين، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج١/ ٢٦٢.
وانظر: البحر المحيط، أبو حيان٢/ ٢٣٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٣٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٤٩.

﴿اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:٦١].

ويدل على وجوب السلام ما يأتي:

الأول: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧].

ولما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفشوا السلام بينكم) والأمر للوجوب[(١)].

الثاني: أن من دخل على إنسان كان كالطالب له، ثم المدخول عليه لا يعلم أنه يطلبه لخير أو لشر، فإذا قال: السلام عليك، فقد بشره بالسلامة وآمنه من الخوف، وإزالة الضرر عن المسلم واجبة، قال صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه)[(٢)] فوجب أن يكون السلام واجبًا، الثالث: أن السلام من شعائر أهل الإسلام، وإظهار شعائر الإسلام واجب، وأما المشهور فهو أن السلام سنة، وهو قول ابن عباس والنخعي[(٣)].

والسلام واجب في دخول عموم البيوت قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:٦١].

فيجب السلام عند الدخول على الأهل والأقارب في البيوت المسكونة، وكذا غير المسكونة، فيسلم المرء فيها على نفسه بأن يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وكذا المساجد، فيسلم على من كان فيها، فإن لم يكن في المساجد أحد، فالسلام أن يقول المرء: السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله إبراهيم النخعي والحسن البصري عن آية: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ أراد: المساجد[(٤)].

قال ابن العربي: «القول بالعموم في البيوت هو الصحيح، ولا دليل على التخصيص»[(٥)]، «وبيانه أن الله سبحانه قال في الآية الأولى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧].

فنص على بيوت الغير، ثم قال في هذه الآية الثانية: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم ٥٤، ١/ ٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم١٠، ١/ ١١، من حديث عبدالله ابن عمرو رضي الله عنه، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل، رقم٤١، ١/ ٦٥، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي١٠/ ١٦٣.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي١٨/ ٣٠٩.

(٥) أحكام القرآن٣/ ٤٢٧.

﴿أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١].

أي: ليسلم بعضكم على بعض، وأطلق القول؛ لأنه قد بين الحكم في بيوت الغير، ليدخل تحت هذا العموم كل بيت، كان للغير أو لنفسه، وقال: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١].

ليتناول اللفظ سلام المرء على عينه، وليأخذ المعنى سلام الناس بعضهم على بعض، فإذا دخل بيتًا لغيره استأذن، وإن دخل بيتًا لنفسه سلم، كما ورد في الحديث يقول: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)؛ قاله ابن عمر، وهذا إذا كان فارغًا.

فأما إذا كان فيه أهله وعياله وخدمه فليقل: السلام عليكم، فإنهم أهل للتحية منه، وإن كان مسجدًا فليقل كما جاء في الحديث: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)[١]، وعليه حمل ابن عمر البيت الفارغ.

والذي اختاره إذا كان البيت فارغًا أنه لا يلزم السلام، فإنه إذا كان المقصود الملك فالملائكة لا تفارق العبد بحال، أما إنه إذا دخلت بيتك يستحب لك ذكر الله»[٢].

وقال الطبري: «أولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال معناه: فإذا دخلتم بيوتًا من بيوت المسلمين، فليسلم بعضكم على بعض، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لأن الله جل ثناؤه قال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ ولم يخصص من ذلك بيتًا دون بيت، وقال: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني: بعضكم على بعض، فكان معلومًا إذ لم يخصص ذلك على بعض البيوت دون بعض، أنه معني به جميعها، مساجدها وغير مساجدها، وقوله: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، بمعنى: تحيون أنفسكم تحية من عند الله السلام تحية فكأنه قال: فليحيي بعضكم بعضًا تحية من عند الله، ووصف جل ثناؤه هذه التحية المباركة الطيبة لما فيها من الأجر الجزيل والثواب العظيم»[٣].

٤. دعاء دخول البيت.

ومن آداب دخول البيت: أن يقول الداخل الدعاء الوراد في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا ولج الرجل بيته فليقل: اللهم إني أسألك خير المولج، وخير المخرج، بسم الله ولجنا، وبسم الله خرجنا وعلى الله ربنا توكلنا، ثم ليسلم على أهله)[٤].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم٣٥١٤، ٢/ ٤٣٤.
قال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ولم يتعقبه الذهبي.
(٢) أحكام القرآن ٣/ ٤٢٦.
(٣) جامع البيان ١٩/ ٢٢٧.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما يقول الرجل إذا دخل بيته، رقم٥٠٩٦، ٤/ ٣٢٥.
والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع

٥. السواك.

فعن المقدام بن شريح، عن أبيه، قال: سألت عائشة، قلت: بأي شيء كان يبدأ النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل بيته؟ قالت: (بالسواك)[(١)].

أما آداب دخول مساكن الجن مبسوطة في السنة فليرجع إليها.

[انظر: الاستئذان: الاستئذان لدخول بيوت الآخرين]

الصغير وزيادته، رقم ٨٣٩، ١/ ٢٠٦.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب السواك، رقم ٢٥٣، ١/ ٢٢٠.

البيوت والفتنة

إن البيوت والفتنة في القرآن الكريم تتمثل في: الاغترار بالبيوت، وأنها سبب للفرار من الجهاد، والبيت قد يكون مكانًا للخلوة بالنساء، وما يظن المنافقون من أن البيوت تمنع الموت، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الاغترار بالبيوت:

من الفتنة بالبيوت الاغترار بها، وهي من صفات الكافرين.

قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ [الشعراء:١٤٩].

أي: وتتخذون تلك البيوت المنحوتة فى الجبال أشرًا وبطرًا من غير حاجة إلى سكناها مع الجد والاهتمام فى بنائها[(٢)].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ [الشعراء:١٤٩].

قال ابن عباس وغير واحد: يعني: حاذقين، وفي رواية عنه: شرهين أشرين، وهو اختيار مجاهد وجماعة، ولا منافاة بينهما، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من

(٢) تفسير المراغي١٩/ ٩١.

حالهم لمن رأى منازلهم[1].

والاغترار بالبيوت يؤدي إلى الأمن المذموم في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر:٨٢].

فقد كان أصحاب الحجر، وهم ثمود قوم صالح، ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين من عذاب الله، وقيل: آمنين من الخراب أن تخرب بيوتهم التي نحتوها من الجبال، وقيل: آمنين من الموت[2].

قال ابن عطية: «وقوله ﴿آمِنِينَ﴾: قيل: معناه: من انهدامها، وقيل: من حوادث الدنيا، وقيل: من الموت لاغترارهم بطول الأعمال، قال القاضي أبو محمد ابن عطية: وهذا كله ضعيف، وأصح ما يظهر في ذلك أنهم كانوا يأمنون عواقب الآخرة. فكانوا لا يعملون بحسبها، بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها»[3].

كما أن الاغترار بالبيوت يؤدي أيضًا إلى كفران النعم والفساد في الأرض، كما قال تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:٧٤].

وذلك؛ لأن بناء البيوت وتشييد القصور ونحت الجبال بيوتًا من النعم التي تستوجب الشكر، فقد ذكر صالح عليه السلام قومه بما أنعم الله به عليهم، وهي جعلهم خلفاء بعد الأمة التي سبقتهم، وما اختصوا به من اتخاذ القصور من السهول ونحت الجبال بيوتًا، ثم طلب منهم شكر هذه النعم بقوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾[4]، أي: نعمه عليكم لتصرفوها إلى ما خلقها لأجله ولا تعثوا في الأرض مفسدين بالمعاصي وعبادة غيره تعالى[5].

ثانيًا: سبب للفرار من الجهاد:

بين الله سبحانه وتعالى أن البيوت فتنة للمنافقين وسبب للفرار من الجهاد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب:١٣].

فقد ذكر الله تعالى أن المنافقين يحرضون بعض المجاهدين على ترك الجهاد والرجوع

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ١٤٠.
وانظر: الوسيط، الواحدي٣/ ٣٦٠، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٣٠، مدارك التنزيل، النسفي٢/ ٥٧٦.

(٢) جامع البيان، الطبري١٧/ ١٢٧.

(٣) المحرر الوجيز٣/ ٣٧٢.

(٤) البحر المحيط، أبو حيان٥/ ٩٣.

(٥) محاسن التأويل، القاسمي٥/ ١٢٧.
وانظر: جامع البيان، الطبري١٢/ ٥٠٦، مفاتيح الغيب، الرازي١٤/ ٣٠٦.

إلى بيوتهم، بل إن بعضهم جعل البيوت سببًا للفرار من الجهاد، والمعنى: لا مقام لكم أي: هاهنا يعنون عند النبي صلى الله عليه وسلم في مقام المرابطة، فارجعوا أي: إلى بيوتكم ومنازلكم[(١)].

ويستأذن بعضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإذن بالانصراف عنه إلى منزله، ولكنه يريد الفرار والهرب من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكذبهم الله تعالى وأعلم أن قصدهم الهرب والفرار، لضعف إيمانهم، وجبن نفوسهم[(٢)].

ثالثًا: البيت قد يكون مكانًا للخلوة:

من فتنة البيوت ما يقع فيها من خلوة محضورة بالنساء وقد صور الله تعالى فتنة البيوت هذه بقوله: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف:٢٣].

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه، فراودته عن نفسه، أي: حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حبًّا شديدًا لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها، وقالت: هيت لك، فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد الكبير، أي: إن بعلك ربي أحسن مثواي أي: منزلي، وأحسن إلي فلا أقابله بالفاحشة في أهله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[(٣)].

والتعبير عن امرأة العزيز بطريق الموصولية في قوله: ﴿ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ لقصد ما تؤذن به الصلة من تقرير عصمة يوسف صلى الله عليه وسلم لأن كونه في بيتها من شأنه أن يطوعه لمرادها، وبيتها بيت سكناها الذي تبيت فيه، فمعنى هو في بيتها أنه كان حينئذ في البيت الذي هي به، ويجوز أن يكون المراد بالبيت: المنزل كله، وهو قصر العزيز، ومنه قولهم: ربة البيت، أي: زوجة صاحب الدار، ويكون معنى هو في بيتها أنه من جملة أتباع ذلك المنزل[(٤)].

ولمنع هذه الفتنة فقد حرم النبي صلى الله عليه وسلم الدخول على النساء، وذلك فيما رواه عقبة بن عامر رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إياكم والدخول على النساء) فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟**

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٤٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٢٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢١٩، الوسيط، طنطاوي ١١/ ١٨٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٢٥.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٥٠.

قال: (الحمو الموت)[(١)].

والحمو أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج ابن العم ونحوه، اتفق أهل اللغة على أن الاحماء أقارب زوج المرأة كأبيه وعمه وأخيه وابن أخيه وابن عمه ونحوهم، والأختان أقارب زوجة الرجل والأصهار يقع على النوعين، وأما قوله صلى الله عليه وسلم: الحمو الموت، فمعناه: أن الخوف منه أكثر من غيره، والشر يتوقع منه، والفتنة أكثر لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن ينكر عليه بخلاف الأجنبي، والمراد بالحمو هنا: أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه فأما الآباء والأبناء فمحارم لزوجته تجوز لهم الخلوة بها ولا يوصفون بالموت وإنما المراد: الأخ وابن الأخ والعم وابنه ونحوهم ممن ليس بمحرم وعادة الناس المساهلة فيه ويخلو بامرأة أخيه، فهذا هو الموت وهو أولى بالمنع من الأجنبي[(٢)].

وكذلك ما رواه جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا لا يبيتن رجل عند امرأة ثيب، إلا أن يكون ناكحًا أو ذا محرم)[(٣)].

قال الإمام النووي: «ومعناه: لا يبيتن رجل عند امرأة إلا زوجها أو محرم لها، قال العلماء: إنما خص الثيب لكونها التي يدخل إليها غالبًا، وأما البكر فمصونة متصونة في العادة مجانبة للرجال أشد مجانبة، فلم يحتج إلى ذكرها؛ ولأنه من باب التنبيه؛ لأنه إذا نهي عن الثيب التي يتساهل الناس في الدخول عليها في العادة، فالبكر أولى، وفي هذا الحديث تحريم الخلوة بالأجنبية وإباحة الخلوة بمحارمها، وهذان الأمران مجمع عليهما»[(٤)].

رابعًا: البيوت لا تمنع الموت:

إن البيوت لا تمنع الموت.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة، رقم٥٢٣٢، ٧/ ٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها، رقم٢١٧٢، ٤/ ١٧١١.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٤/ ١٥٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها، رقم٤/ ١٧١٠، ٢١٧١.

(٤) شرح صحيح مسلم١٤/ ١٥٣.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ [آل عمران:١٥٤].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني بذلك جل ثناؤه: قل، يا محمد، للذين وصفت لك صفتهم من المنافقين: لو كنتم في بيوتكم لم تشهدوا مع المؤمنين مشهدهم، ولم تحضروا معهم حرب أعدائهم من المشركين، فيظهر للمؤمنين ما كنتم تخفونه من نفاقكم، وتكتمونه من شككم في دينكم ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ﴾، أي: لظهر للموضع الذي كتب عليه مصرعه فيه، من قد كتب عليه القتل منهم، ولخرج من بيته إليه حتى يصرع في الموضع الذي كتب عليه أن يصرع فيه»[1].

﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ﴾ أي: لخرج الذين قدر الله عليهم القتل وكتبه في اللوح المحفوظ إلى مصارعهم ولم تنفعهم الإقامة بالمدينة ولم ينج منهم أحد، فإنه قدر الأمور ودبرها في سابق قضائه لا معقب لحكمه.

﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١٥٤].

أي: وليمتحن ما في صدوركم ويظهر سرائرها من الإخلاص والنفاق، ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾، أي: وليكشفه ويميزه أو يخلصه من الوساوس.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بخفياتها قبل إظهارها، وفيه وعد ووعيد وتنبيه على أنه غني عن الابتلاء، وإنما فعل ذلك لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين[2].

والخلاصة: إن الحذر لا يدفع القدر، والتدبير لا يقاوم التقدير فالذين قدر عليهم القتل لا بد أن يقتلوا على كل حال، وإلا انقلب علم الله جهلًا، فقتل من قتل إنما جاء لانتهاء آجالهم كما قدر ذلك فى اللوح المحفوظ، وكتب مع ذلك أنهم هم الغالبون، وأن العاقبة لهم، وأن دين الإسلام سيظهر على الدين كله.

وفى هذا ترغيب وترهيب، وتنبيه إلى أن الله غني عن الابتلاء والامتحان، وإنما يظهر ذلك على هذه الصورة لحكم يعلمها كمران المؤمنين على الصبر وتحمل المشاق وإظهار حال المنافقين؛ لأن الحقائق قد تخفى على أربابها، فينخدعون للشعور العارض بدون تمحيص ولا ابتلاء، كما انخدع الذين تمنوا الموت من قبل أن يلقوه[3].

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٢٤.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٤٤.

(٣) تفسير المراغي ٤/ ١٠٥.

البيوت والعذاب

ذكر القرآن الكريم البيوت والعذاب على صور مثل: خراب البيوت وخوائها، وترك بعضها آية وعبرة، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: خراب البيوت:

ذكر الله تعالى خراب البيوت في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

والمعنى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ أي: في أول حشرهم من جزيرة العرب إذ لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك، أو في أول حشرهم للقتال أو الجلاء إلى الشام، وآخر حشرهم إجلاء عمر رضي الله عنه تعالى عنه إياهم من خيبر إليه، أو في أول حشر الناس إلى الشام وآخر حشرهم أنهم يحشرون إليه عند قيام الساعة فيدركهم هناك، أو أن نارًا تخرج من المشرق فتحشرهم إلى المغرب، والحشر إخراج جمع من مكان إلى آخر، ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: أن حصونهم تمنعهم من بأس الله، وتغيير النظم وتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بحصانتها واعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة بسببها، ويجوز أن تكون حصونهم فاعلًا لـ ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾، ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي: عذابه، وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء، ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ لقوة وثوقهم، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وأثبت فيها الخوف الذي يرعبها أي: يملؤها، ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ ضنًّا بها على المسلمين وإخراجًا لما استحسنوا من آلاتها، ﴿وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم أيضًا كانوا يخربون ظواهرها نكاية وتوسيعًا لمجال القتال، وعطفها على «أيديهم» من حيث إن تخريب المؤمنين مسبب عن نقضهم، فكأنهم استعملوهم فيه[1].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: يهود بني النضير، قاله ابن عباس ومجاهد والزهري وغير واحد: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهدًا وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فأحل الله بهم بأسه الذي لا مرد له، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد، فأجلاهم النبي صلى

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٩٨.

الله عليه وسلم وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيئًا وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم[1].

ثانيًا: خواء البيوت:

إن خواء البيوت من العذاب الواقع عليها قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝﴾ [النمل: ٥٢].

أي: فتلك مساكنهم خاوية خالية منهم، ليس فيها منهم أحد، قد أهلكهم الله فأبادهم بسبب ظلمهم أنفسهم بشركهم بالله وتكذيبهم رسولهم[2].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

أي: أن في فعلنا بثمود ما قصصناه عليك لعظة لمن كان من أولي المعرفة والعلم، فيعلم ارتباط الأسباب بمسبباتها، والنتائج بمقدماتها بحسب السنن التي وضعت في الكون[3].

«خاوية» أي: ساقطة متهدمة، لا أثر لحياة فيها.. والإشارة هنا، لفت للأنظار إلى هذه الديار الخاوية، حيث ينظر المشركون إلى حيث متجه الإشارة، فلا يرون إلا أطلالًا، يرى فيها أولو العلم وأهل النظر، آية من آيات الله، فيما يحل بالظالمين من بأسه، وما يرميهم به من عذابه[4].

وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة، ثلاثة أمور:

الأول: أنه دمر جميع قوم صالح، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾، أي: خالية من السكان لهلاك جميع أهلها، ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾، أي: بسبب ظلمهم الذي هو كفرهم وتمردهم وقتلهم ناقة الله التي جعلها آية لهم، وقال بعضهم: خاوية، أي: ساقطًا أعلاها على أسفلها.

الثاني: أنه جل وعلا جعل إهلاكه قوم صالح آية، أي: عبرة يتعظ بها من بعدهم، فيحذر من الكفر، وتكذيب الرسل، لئلا ينزل به ما نزل بهم من التدمير، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

الثالث: أنه تعالى أنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون من الهلاك والعذاب، وهو نبي الله صالح عليه السلام ومن آمن به من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٨٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٨٠.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١٩/ ١٤٩.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٠/ ٢٥٦.

قومه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل:٥٣][1].

ثالثًا: ترك بعضها آية وعبرة:

ترك الله تعالى بعض البيوت التي وقع عليها العذاب آية وعبرة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص:٥٨].

فتلك دور القوم الذين أهلكناهم بكفرهم بربهم، ومنازلهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا يقول: خربت من بعدهم، فلم يعمر منها إلا أقلها، وأكثرها خراب. ولفظ الكلام وإن كان خارجًا على أن مساكنهم قد سكنت قليلًا فإن معناه: فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا منها، كما يقال: قضيت حقك إلا قليلًا منه[2].

والمعنى: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: فلم يعمر منها إلا أقلها، وأكثرها خراب، قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يومًا أو ساعة ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ نظيره قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم:٤٠].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٨٠][3].

قال ابن عباس رضي الله عنه: في قوله: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القصص:٥٨].

لم يسكنها إلا المسافرون، وماروا الطرق يومًا أو ساعة. والمعنى: لم تسكن من بعدهم إلا سكونًا قليلًا، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص:٥٨].

يعني: لم يخلفهم أحد بعد هلاكهم في منازلهم، فبقيت خرابًا غير مسكونة، كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم:٤٠][4].

فقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: رجعت خرابًا ليس فيها أحد[5].

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات:٣٦-٣٧].

والمعنى: وتركنا في القرية المذكورة، وهي سدوم أثرًا من العذاب باقيًا مؤرخًا لا يفنى ذكره فهو: آية أي: علامة على قدرة الله وانتقامه من الكفرة، ويحتمل أن يكون، المعنى: وتركنا في أمرها، كما قال: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾

---

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ١٢٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦٠٣.
(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٢٥٦.
(٤) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٠٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٣.

﴿٧﴾ [يوسف: ٧][1].

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات: ٣٧].

أي: جعلناها عبرة لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين الذين يخافون العذاب الأليم[2].

وقد عقب الله تعالى على الآيات الواردة في عذاب البيوت بأن جعلها عبرة وعظة للمعتبرين، ففي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم.

﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم[3].

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١٧٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٤.
(٣) انظر: المصدر السابق ٨/ ٨٦.

النساء والبيوت

ذكر القرآن الكريم النساء والبيوت في موضوعات تتعلق بهن مثل: القرار في البيوت، والتعلم والتعليم فيها، وفي لزوم البيوت في قضاء العدة، والحبس في البيوت عند ارتكاب الفاحشة، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: القرار في البيوت:

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣].

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، وذلك فيما يأتي:

١ . القرار في البيوت.

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الزمن فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن وهن تفلات)**[4].

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم؟، رقم ٩٠٠، ٢/ ٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب

وفي رواية (وبيوتهن خير لهن)[1][2].

ولهذا كانت الدعوة إليهن بالقرار في البيوت مقترنة بالدعوة بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله، فهذا هو دأبهن في الحياة.. الاتجاه إلى الله، والعمل لما يرضي الله، ورسول الله صلى الله عليه وسلم[3].

وخص تعالى الصلاة والزكاة، لأهميتهما وخطورتهما وآثارهما الكبرى، فالأولى طهارة النفس وعماد الدين، والثانية طهارة المال وطريق مقاومة الفقر، فهما عمودا الطاعة البدنية والمالية[4].

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ قرئت على وجهين: فقرأ المدنيان، وعاصم بفتح القاف، وقرأ الباقون بكسرها[5].

فأما القراءة الأولى فتحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون من الوقار، تقول: وقر يقر وقارًا أي: سكن، وتأويلها كن أهل وقار وسكينة.

والوجه الثاني: أن يكون من القرار، تقول: قررت بالمكان (بفتح الراء) وأما قراءة أهل المدينة وعاصم، فعلى لغة العرب: قررت في المكان إذا أقمت فيه[6].

ومعنى هذه الآية: الأمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لنساء النبي صلى الله عليه وسلم فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى، هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء، كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة، فأمر الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم بملازمة بيوتهن، وخاطبهن بذلك تشريفًا لهن[7].

وبهذا تكون الآية قد طلبت من النساء القرار في البيوت والإقامة فيها مع لزوم السكينة والوقار في أقوالهن وأفعالهن عملًا بالقراءتين.

٢. النهي عن التبرج.

وهو: إظهار الزينة، وإبراز المرأة محاسنها للرجال[8].

عليه فتنة، وأنها لا تخرج مطيبة، رقم٤٤٢، ١/ ٣٢٧.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٥٤٦٨، ٩/ ٣٣٧، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المسجد، رقم٥٦٧١/ ١٥٥، والحاكم في مستدركه ، رقم٧٥٥، ١/ ٣٢٧.
والحديث صححه الحاكم، والألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم٧٤٥٨، ٢/ ١٢٤٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٣٦٣.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب١١/ ٧٠٦.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي٢٢/ ١٠.

(٥) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٣٤٨.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٧٨.

(٧) انظر: المصدر السابق ١٤/ ١٧٩.

(٨) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٦٠.

قال الشوكاني: التبرج: «أن تبدي المرأة من زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره، مما تستدعي به شهوة الرجل»(١).

والمقصود من الآية: مخالفة من قبلهن من المشية على تغنيج وتكسير وإظهار المحاسن للرجال، إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعًا، وذلك يشمل الأقوال كلها ويعمها فيلزمن البيوت، فإن مست الحاجة إلى الخروج فليكن على تبذل وتستر تام(٢).

والجاهلية الأولى هي: القديمة التي يقال لها: الجاهلية الجهلاء، وهي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام: كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال، وقيل: ما بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام، وقيل: بين إدريس ونوح عليهما الصلاة والسلام، وقيل: زمن داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام والجاهلية الأخرى: ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى: جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام، فكأن المعنى: ولا تحدثن بالتبرج جاهلية في الإسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر(٣).

قال ابن عاشور: «والجاهلية: المدة التي كانت عليها العرب قبل الإسلام والجاهلية نسبة إلى الجاهل؛ لأن الناس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين بالله وبالشرائع، ووصفها بـ(الأولى) وصف كاشف؛ لأنها أولى قبل الإسلام، وجاء الإسلام بعدها ومن المفسرين من جعلوه وصفًا مقيدًا، وجعلوا الجاهلية جاهليتين، فمنهم من قال: الأولى هي: ما قبل الإسلام، وستكون الجاهلية أخرى بعد الإسلام يعني: حين ترتفع أحكام الإسلام والعياذ بالله، ومنهم من قال: الجاهلية الأولى هي القديمة من عهد ما قبل إبراهيم عليه السلام ولم يكن للنساء وازع ولا للرجال، ووضعوا حكايات في ذلك مختلفة أو مبالغًا فيها أو في عمومها، وكل ذلك تكلف دعاهم إليه حمل الوصف على قصد التقييد»(٤).

ثانيًا: التعلم والتعليم:

دل قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٤].
على التعلم والتعليم للنساء أنه يكون في البيوت.

يقول تعالى ذكره لأزواج نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واذكرن نعمة الله عليكن؛

(١) فتح القدير ٤/ ٣٢٠.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٨٠.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٣٧.
(٤) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٣.

بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله على ذلك، واحمدنه عليه، وعني بقوله ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: واذكرن ما يقرأ في بيوتكن من آيات كتاب الله والحكمة، ويعني بالحكمة: ما أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحكام دين الله، ولم ينزل به قرآن، وذلك السنة[1].

ولفظ (الذكر) هنا يحتمل مقصدين كلاهما موعظة وتعديد نعمة: أحدهما: أن يريد ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾، أي: تذكرنه واقدرنه قدره وفكرن في أن من هذه حاله ينبغي أن تحسن أفعاله، والآخر: أن يريد ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ بمعنى: احفظن واقرأن والزمنه الألسنة، فكأنه يقول: واحفظوا أوامر الله ونواهيه، وذلك هو الذي يتلى في بيوتكن من آيات الله، وذلك مؤد بكن إلى الاستقامة[2].

وهذا حث لهن على حفظ القرآن والأخبار، ومذاكرتهن بهما للإحاطة بحدود الشريعة، والخطاب وإن اختص بهن فغيرهن داخل منه؛ لأن مبنى الشريعة على هذين القرآن والسنة، وبهما يؤقت على حدود الله ومفترضاته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ بأوليائه، ﴿خَبِيرًا﴾ بجميع خلقه[3].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٦٧.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٤.
(٣) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٧٠.

ثالثًا: العدة:

نهى الله تعالى الرجال عن إخراج المطلقات من البيوت، كما نهى المطلقات عن الخروج باختيارهن.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝١﴾ [الطلاق:١].

والمعنى: لا تخرجوهن من بيوتهن، ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أي: لا تخرجوا المطلقات من بيوتهن في مدة العدة، فلكل امرأة معتدة حق السكنى على الزوج، ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها، ولا يجوز لها أيضًا الخروج، فليس للمعتدات الزوجات الخروج من تلك البيوت ما دمن في العدة إلا لأمر ضروري، رعاية لحق الزوج، فإذا خرجت المعتدة لغير ضرورة ليلًا أو نهارًا، كان الخروج حرامًا.

وفيه دليل على وجوب السكنى للزوجات المطلقات أو المعتدات ما دمن في العدة، وأضاف البيوت إليهن، وهي لأزواجهن لتأكيد النهي عن الإخراج والخروج، ببيان كمال استحقاقهن للسكنى،

كأنها ملك لهن[(١)].

وقد جعل الله لهن هذا الحق ما لم يأتين بفاحشة، والمعنى: أي لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة فتخرج من المنزل، والفاحشة المبينة تشمل الزنا، كما قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب والشعبي، والحسن وابن سيرين ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو قلابة، وأبو صالح والضحاك وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني والسدي وسعيد بن أبي هلال وغيرهم، وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بذت على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال، كما قاله أبي بن كعب وابن عباس وعكرمة وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: شرائعه ومحارمه، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها، فقد ظلم نفسه أي بفعل ذلك[(٢)].

رابعًا: الإمساك في البيوت:

كان من حكم النساء اللاتي يأتين بالفاحشة ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝١٥﴾ [النساء: ١٥].

قال ابن كثير: «كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة، حبست في بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت، ولهذا قال ﴿وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾ يعني: الزنا من نسائكم ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥].

فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك، قال ابن عباس رضي الله عنه: كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم، وكذا روي عن عكرمة، وسعيد بن جبير والحسن وعطاء الخراساني وأبي صالح وقتادة وزيد بن أسلم والضحاك: أنها منسوخة، وهو أمر متفق عليه»[(٣)].

قال الرازي: «واعلم أنه كان في أول الإسلام عقوبة الزاني الحبس إلى الممات في حق الثيب، والأذى بالكلام في حق البكر، ثم نسخ ذلك فجعل حد الزنا على الثيب الرجم وحد البكر الجلد والتغريب»[(٤)]، والحجة عليه: حديث عبادة ابن الصامت رضي الله عنه: (خذوا عني

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ٢٦٨.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٦٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٠٤، وانظر: نواسخ القرآن لابن الجوزي ٢/ ٣٥٥.
(٤) مفاتيح الغيب ٢٣/ ٣٠٥.

خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا: البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة)[١][٢].

موضوعات ذات صلة:

الاستئذان، بيت النبوة، العذاب، الفتنة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الزنى، رقم ١٦٩٠، ٣/١٣١٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٤٠٦.



عناصر الموضوع

مفهوم التبني

أولًا: المعنى اللغوي:

أصله من بنى: بنا في الشرف يبنو[١]، ويقال: تبنيته، أي: ادعيت بنوته، وتبناه: اتخذه ابنًا[٢].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هو ضم طفل أجنبي إلى أسرة معينة، وجعله بمنزلة الابن الحقيقي أو الصلبي، له ما له، وعليه ما عليه من واجبات، يثبت له النسب كما يثبت للابن الحقيقي[٣].

ولم يرد لفظ (التبني) في القرآن الكريم.

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٨٩.
(٢) الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٢٨٧، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٩١. .
(٣) حقوق الطفولة في الشريعة، هلالي عبدالإله أحمد ص ٧٨٩، المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية، عبدالكريم زيدان، ٩/ ٤٣٧.



الألفاظ ذات الصلة

١ الدّعيُّ:

الدّعيّ لغة:

المتبنّي: الذي تبناه رجل فدعاه ابنه ونسبُه إلى غيره[١]، وادعى فلانًا: صيّره يُدعى إلى غير أبيه، والدّعيُّ: المتهم في نسبه والمنسوب إلى غير أبيه. والدِّعوة بكسر الدال: ادعاء الولد الدَّعِي غير أبيه[٢].

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾[الأحزاب: ٤] أي: من تبنيتموه من أولاد غيركم، جمع دعي، فعيل بمعنى مفعول؛ لأنه مدعو بالبنوة[٣].

وقد يطلق على الدَّعي: المستلاط، أي: المستلحق في النسب، ويدعى له، أي: يُنسب إليه، فيقال: فلان بن فلان، ويدعى به، أي: يكنَّى، فيقال: هو أبو فلان، وهو مع ذلك لا يرث؛ لأنه ليس بولد حقيقي[٤].

الدعيّ اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين التبني والدعي:

غلب في استعمال العرب لفظ (ادعاء) على التبني[٥].

٢ البنوة:

البنوة لغة:

ابن أصله: (بنو) الباء والنون والواو كلمة واحدة، وهو الشيء يتولد عن الشيء، كابن الإنسان وغيره[٦]، والبِنُو عند بعض أهل العربية: أصل بناء الابن والنسبة إليه بنوي[٧]، وسماه بذلك لكونه بناء للأب، فإن الأب هو الذي بناه، وجعله الله بناءً في إيجاده، ويقال

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٦١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) جامع البيان في مفردات القرآن، عبدالحميد هنداوى، ٣/ ١١٩٢، السراج في بيان غريب القرآن، محمد الخضيري، ص٢١٥.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٦١- ٢٦٢.
(٥) انظر: المصباح المنير، الفيومي ص١٩٥.
(٦) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٠٣.
(٧) مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٢٣٦.

لكل ما يحصل من جهة شيء أو من تربيته، أو بتفقده أو كثر خدمته له أو قيامه بأمره: هو ابنه، وجمع ابن: أبناء وبنون[1].

البنوة اصطلاحًا:

قال فيه الراغب: «يقال لكلّ ما يحصل من جهة شيء أو من تربيته، أو بتفقده أو كثرة خدمته له أو قيامه بأمره: هو ابنه»[2].

الصلة بين التبني والبنوة:

الفرق بين البنوة والتبني: أن البنوة ترجع إلى النسب الأصلي، أما التبني فهو ادعاء الرجل أو المرأة من ليس ولدًا لهما[3].

٣ الأبوة:

الأبوة لغة:

الأب بالتخفيف بمعنى الوالد الذي إليه يرجع النسب[4].

الأبوة اصطلاحًا:

قال المناوي «الأب: الوالد، والأبوان: الأب والأم أو الأب والجد أو الأب والعم أو الأب والمعلم، وكذا كل من كان سببًا لإيجاد شيء أو إصلاحه أو ظهوره»[5]، وقال الجرجاني: الأب هو كل من تكون من نطفته شخص آخر من نوعه[6].

الصلة بين التبني والأبوة:

الأبوة هو ما يرجع إليه النسب، ولا يحصل بالتبني، ويحرم على الأب أن يتزوج زوجة ابنه الذي من صلبه و ليس المتبنى، كذا لا يحصل التوارث بالتبني.

(١) جامع البيان في مفردات القرآن، عبدالحميد هنداوي ١/ ١٢٩.
(٢) المفردات ص١٤٧.
(٣) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ١٠/ ١٢٠.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٦.
(٥) التوقيف ص٣٥، وانظر: مفردات غريب القرآن، الأصفهاني، ١/ ٧.
(٦) انظر: التعريفات، ١/ ٧.

٤ الأمومة:

الأم لغةً:

أم الشيء أصله، والأم: الوالدة، وتجمع على أُمَّات، وأصل الأُم: أُمَّهة؛ لذا تجمع على أمهات[(١)].

الأم اصطلاحًا:

اسم لكل أنثى لها عليك ولادة، فيدخل في ذلك الأم دنية، وأمهاتها وجداتها وأم الأب وجداته وإن علون»[(٢)].

وعرف بعض العلماء الأمومة بأنها: «نظام تعلو فِيهِ مكانة الْأُم على مكانة الْأَب فِي الحكم وَيرجع فِيهِ إِلَى الْأُم فِي النّسَب أَو الوراثة»[(٣)].

الصلة بين التبني والأمومة:

المتبنى - إن كان ذكرًا - شخص أجنبي، ولا يحصل المحرمية بمجرد التبني، بل على الأم بالتبني أن تتحجب عنه، كذا لا يحصل التوارث بينهما.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٨٦٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ١٠٨.
(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٧.

تنزيه الله تعالى عن التبني

إن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية[1]. والله سبحانه ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وكل ما أوجب نقصًا أو حدوثًا فإن الله منزهٌ عنه حقيقة، فالله تعالى مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه[2].

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

فهذه السورة تشتمل على معرفة ذاته؛ إذ لا يوجد شيء إلا وُجد من شيء ما خلا الله تعالى، فإن ذاته المقدسة لا تماثل شيئًا من الذوات، وصفاته مختصة به فلا تماثل شيئًا من الصفات، فاسمه ﴿أَحَدٌ﴾ دل على نفي المشاركة والمماثلة، واسمه ﴿الصَّمَدُ﴾ دل على أنه مستحق لجميع صفات الكمال، فهذان الاسمان العظيمان ﴿أَحَدٌ﴾ ﴿الصَّمَدُ﴾ يتضمنان تنزيهه من كل نقص وعيب، وتنزيهه في صفات الكمال أن لا يكون له مماثل في شيء منها، واسمه ﴿الصَّمَدُ﴾ يتضمن إثبات جميع صفات الكمال، فتضمن ذلك إثبات جميع صفات الكمال، ونفي جميع صفات النقص.

لذلك نزّه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الولد كما زعمه اليهود والنصارى والمشركون، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٢].

ما دلت عليه الآيات:

١. قالت اليهود والنصارى[3] والمشركون[4]: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فنسبوه إلى مالا يليق بجلاله، وأساءوا كل الإساءة وظلموا أنفسهم[5].

٢. قال جل ثناؤه مكذّبًا قيلهم ما قالوا من ذلك، ومنتفيًا مما نحلوه، وأضافوا إليه بكذبهم وفريتهم ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزيهًا

(١) تقريب وترتيب شرح العقيدة الطحاوية، خالد فوزي ١/ ١٠٨.

(٢) العقيدة الصافية للفرقة الناجية، سيد سعيد ص ٣٣٠.

(٣) قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: ٣٠].

(٤) قال جل شأنه عن المشركين: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾ [النحل: ٥٧].

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٨.



له أن يكون له ولد؛ لأنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته[1]، وهو سبحانه مالك لجميع المخلوقات، ومن له ملك السموات والأرض، لا يحتاج إلى ولد، ولأنه لو كان له ولد لكان الولد مماثلًا له، والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء[2].

وأصل التسبيح: التنزيه له من إضافة ما ليس له من صفاته إليه والتبرئة له من ذلك[3]، فسبحان من له الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه[4].

٣. أنكر الله تعالى على من زعم أن له ولدًا -تقدس وتنزه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا- فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي: الذي لا منعم غيره، فكل أحد محتاج إليه وهو غني عن كل أحد[5].

٤. ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ أي: عظيمًا، ثقيلًا منكرًا[6]. وهو ردٌّ لمقالتهم الباطلة، وتهويلٌ لأمرها بطريق الالتفات المنبيء عن كمال السخط، وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة[7].

٥. بيَّن الله ثِقل هذا القول من فجرة بني آدم بقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠].

إن السموات على إحكامها مع بُعدها عن أصحاب هذا القول ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ أي: تتشقق فرقًا من عظمة الله وغضبًا له، ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ على تحتها شقًّا نافذًا واسعًا ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ﴾ أي: تسقط الجبال سقوطًا شديدًا ويتكسر بعضها على بعض بالرغم من صلابتها[8].

٦. إن هذه المخلوقات مؤسسة على توحيده عز وجل وأنه لا إله إلا هو، ولا شريك له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفء له، بل هو الأحد الصمد؛ لذلك لم تطق هذه الأجرام العظام هول تلك الكلمة الشنيعة فتفتّت، ولولا حلمه تعالى لخرب العالم وبُدِّدت قوائمه غضبًا على من تفوه بها[9].

٧. ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ استحالة تحقق مضمونها فلا يليق به سبحانه اتخاذ الولد، ولا يتطلب له طلب

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٤٦١.
(٢) تفسير سورة البقرة، ابن عثيمين، ١/ ١٦.
(٣) جامع البيان، الطبري ١/ ٥٠٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٨.
(٥) نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٥٥٨.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٠٢، نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٥٥٨.
(٧) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٤٤٥.
(٨) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٠٣، نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٥٥٨.
(٩) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٠٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٤٤٥.

مثلٍ لاستحالته في نفسه، ووضع (الرحمن) موضع الضمير للإشعار بعلة الحكم بالتنبيه على أن كل ما سواه تعالى إما نعمة أو منعم عليه، فكيف يتسنى أن يجانس من هو مبدأ النعم ومولي أصولها وفروعها حتى يتوهم أن يتخذه ولدًا!؟[1]، فاتخاذ الولد ينافي كمال صمديته عز وجل وغناه وملكه، وتعبيد كل شيء له[2].

إن نسبة مالا يليق بكمال الله وجلاله إليه، تقدست أسماؤه، تغيير لمعالم الحق الذي قامت عليه السموات والأرض، وإحلال للباطل والزيف مكان الحكمة والعدل. إن نسبة هذه الأمور إليه -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- نسبة الحاجة، والنقص، والافتقار، والعجز إلى الكمال المطلق، وهو هدم لنظام الكون الذي يقوم على الحق والعدل والميزان[3].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٤٤٥-٤٤٦.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١ / ٣٥.
(٣) مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص ١٥٩.

التبني في الأمم السابقة

التبني معروف منذ القدم، وقد أشار القرآن الكريم إليه في موضعين:

أولًا: تبني عزيز مصر ليوسف عليه السلام:

قص الله تعالى علينا قصة يوسف عليه السلام ، فقد كان أشرف إخوته وأجلّهم وأعظمهم[4]، رأى رؤيا قبل أن يبلغ الحُلم فقصّها على أبيه يعقوب عليه السلام . قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٤-٥].

فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية، ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة؛ لذلك أمره بكتمانها وألا يقصّها على إخوته؛ كيلا يحسدوه ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر[5].

وقد كان من أمره وأمرهم ما قصّه الله علينا في القرآن الكريم حتى استقر به المقام في بيت عزيز مصر، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١].

(٤) البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢٣١.
(٥) المصدر السابق ١/ ٢٣٢.

وكان الذي اشتراه من أهل مصر عزيزها، وهو الوزير بها، الذي كانت الخزائن مسلمة إليه[(١)]، ومعنى ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أي: منزله ومقامه، والمثوى: موضع الإقامة، وقيل: أكرميه في المطعم والملبس والمقام[(٢)]، ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾ أي: عسى أن ينفعنا ببيعه بالربح إن أردنا البيع، أو يكفينا بعمله بعض أمورنا إذا بلغ[(٣)]. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾أي: نتخذه ولدًا، أي: نتبناه[(٤)]، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد[(٥)]، وكان ذلك لما تفرّس فيه من مخايل الرشد والنجابة[(٦)].

وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه، بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة[(٧)].

ثانيًا: تبني فرعون لموسى عليه السلام:

عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة: أن فرعون رأى في منامه كأن نارًا قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل. فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والسحرة، وسألهم عن ذلك فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان[(٨)]. ثم إن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل خافت القبط أن يُفنى بنو إسرائيل، فيَلُون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة؛ فأمر فرعون بقتل الولدان عامًا وتركهم عامًا، ووُلد موسى عليه السلام في العام الذي يُقتل فيه الولدان، فأُلهمت أمه وأُلقي في خلدها ونُفث في روعها[(٩)]، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وهكذا ذهب به الماء إلى دار فرعون ولما رأته امرأة فرعون أوقع الله محبته في قلبها وقالت لزوجها: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩].

أي: أترجى نفعه لنا لو كان له أبوان معروفان؛ فإن فيه مخايل اليُمن ودلائل النفع لأهله، فقد توسّمت في سيماه النجابة المؤذنة بكونه نفعًا، وقد أنالها الله ما رجت من النفع، أما في الدنيا فهداها الله به، وأما في الآخرة فأسكنها الله جنته بسببه.

أو عسى أن نتبناه إذا لم يعرف له أبوان،

(١) المصدر السابق ١/ ٢٣٥.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٤/ ٢٢٥.
(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٢٥. زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٧/ ٣٨١٣.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٦٣.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢/ ٤٠٦.
(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٩٠.
(٧) البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢٣٥.
(٨) المصدر السابق ١/ ٢٧٤.
(٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٧.

فإنه أهل للتبني؛ لما فيه من الوسامة وجمال المنظر التي تجعله أهلًا لتبني الملوك، وكانت امرأة فرعون لا تلد، ولم يكن لفرعون ولد ذكر[1]، وهكذا تربى موسى عليه السلام في بيت فرعون يركب ركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون[2].

ثالثًا: التبني عند الرومان:

كان التبني معروفًا في القانون الروماني، فمن حق الأب أن يجعل له ابنًا من غير سلالته، ومن غير ذريته، ولو كان المتبنَّى له أب معروف ونسب ثابت[3]، فلم يقتصر التبني على مجهول النسب، وإذا كان من ألحقه بنسبه كبيرًا، كان الإلحاق بما يشبه العقد[4]، وكان للابن بالتبني كافة الحقوق الشرعية في ممتلكات أبيه المتبنِّي، فهو لم يكن يعتبر ابنًا من الدرجة الثانية، بل كان مساويًا لسائر الأبناء.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٦٦، البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢٧٦.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٦٩.
(٣) تنظيم الإسلام للمجتمع، محمد أبو زهرة ص ٧.
(٤) المصدر السابق ص ١٢٥.

التبني عند العرب في الجاهلية

كان المجتمع العربي في الجاهلية كغيره من المجتمعات الأخرى من يونان وروومان وغيرهما، يسير على مزاج ذاتي، وتصورات ضيقة الأفق، مما أدى إلى وجود بعض العادات والتقاليد الموروثة التي تتعارض مع أصول الأخلاق القويمة وسلامة المجتمع، ووحدة الأسرة وانسجامها.

وكان التبني أحد هذه العادات الشائعة المتأصلة فيهم والمتمكنة عندهم، يتوراث به ويتناصر[5]، وكان الرجل يتبنى ولد غيره فتجري عليه أحكام البنوة كلها[6]، وكان هذا يقع بخاصة في السبي؛ حين يؤخذ الأطفال والفتيان في الحروب والغارات، فمن شاء أن يلحق بنسبه واحدًا من هؤلاء دعاه ابنه، وأطلق عليه اسمه، وصارت له حقوق البنوة وواجباتها[7].

أولًا: دواعي التبني في الجاهلية:

كان العربي إذا أعجبه من الفتى قوته ووسامته ضمه إلى نفسه، ونسبه إليه، فيقال: فلان بن فلان. وجعل له نصيبًا من الميراث كأحد أولاده[8]، لا فرق بينه وبين أحد من أبنائه من نكاح أو غيره.

(٥) المصدر السابق ص ١٤.
(٦) ثبوت النسب، ياسين الخطيب ص ٣٣٥.
(٧) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٥٣٥.
(٨) تنظيم الإسلام للمجتمع، أبو زهرة ص ١٤.



للتجاوب مع النـزعة الفطرية في حب الأولاد حال العقم، أو اليأس من الإنجاب، أو الاستلطاف، أو استحسان ولد أو بنت الآخر.

رعاية ولد لقيط، أو مفقود، أو مجهول النسب، أو لا عائل ولا مربي له.

وظل العمل بهذه العادة حتى ظهر الإسلام، نظرًا لأن الله تبارك وتعالى تدرج في التشريع، فالعادات المستهجنة المستحكمة في النفوس، المتشبثة بالأذهان لم تُحرّم في العهد المكي، وإنما أُخّر تحريمها إلى العهد المدني؛ حتى تتعمق العقيدة والوحدانية في القلوب، فتكون الاستجابة والطاعة أسرع وأعمق، ومنها التبني الذي حُرِّم في السنة الخامسة من الهجرة لما نزل قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥].

ومن الصحابة الذين وقع عليهم التبني:

١. المقداد بن عمرو بن ثعلبة البهراوي، المعروف بالمقداد بن الأسود، وهذا الأسود الذي يُنسب إليه هو الأسود بن عبد يغوث الزهري، وإنما نُسب إليه لأن المقداد حالفه[١]، فتبناه الأسود في الجاهلية فنُسب إليه، وهو قديم الإسلام من السابقين، وهاجر إلى أرض الحبشة، وشهد بدرًا، وله فيها مقام مشهور، وشهد المشاهد مع النبي صلى الله عليه وسلم وشهد فتح مصر، كانت وفاته بالمدينة في خلافة عثمان رضي الله عنه، وكان عمره ٧٠ سنة[٢].

٢. سالم مولى أبي حذيفة، وهو سالم بن عبيد بن ربيعة، كان من أهل فارس من اصطخر، وكان من فضلاء الصحابة والموالي وكبارهم، تبناه أبو حذيفة لما أعتقته زوجته ثُبيتة الأنصارية، وكان أبو حذيفة يرى أنه ابنه، فأنكحه ابنة أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة. وشهد سالم المشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم وقُتل يوم اليمامة شهيدًا[٣].

٣. زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، وأمه سعدى بنت ثعلبة من طي[٤]، خرجت أمه لزيارة قومها، فأغارت عليهم خيل، فأسروا زيدًا وباعوه، واشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد[٥]، وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعًا

(١) حالفه: أي: تحالفا بالأيمان أن يكون أمرهما واحدًا بالوفاء.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٥٤.
(٢) أسد الغابة، ابن الأثير ٤/ ٤٧٥-٤٧٨.
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٥٥-١٥٦.
(٤) الروض الأنف، السهيلي ١/ ٢٨٦.
(٥) تاريخ الإسلام، الذهبي ١/ ٣٣.

شديدًا، ولما علم بوجوده بمكة قدم هو وأخوه إلى مكة لفدائه[1]، فاختار زيد البقاء مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أخرجه إلى الحجر فقال: (أُشهدكم أن زيدًا ابني يرثني وأرثه)، فصار يُدعى زيد بن محمد[2].

عن ابن عمر رضي الله عنهما: (إن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾)[3]. أسلم في أول يوم من أيام الدعوة[4]، ويعتبر من كبار السابقين الأولين[5]، رافق النبي صلى الله عليه وسلم في رحلته إلى الطائف للدعوة في السنة العاشرة من البعثة[6].

هاجر إلى المدينة قبل النبي صلى الله عليه وسلم[7]، شهد المشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم باستثناء غزوة بني المصطلق[8]، فإن النبي صلى الله عليه وسلم استخلفه على المدينة[9]، وجعله النبي صلى الله عليه وسلم أميرًا على سبع سرايا. عن سلمة بن الأكوع قال: (غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم تسع غزوات، وغزوت مع ابن حارثة استعمله علينا)[10]، وهو حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: (وأيم الله إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليّ)[11]. وهو الصحابي الوحيد الذي ذُكر اسمه صراحة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا

(1) أسد الغابة، ابن الأثير ٢/ ١٢٩-١٣٠.
(2) زاد المعاد، ابن القيم ٢/ ٤٣.
(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾، ٩/ ٤٧١ رقم ٤٧٨٢.
(4) الرحيق المختوم، المباركفوري، ص ٦٥.
(5) تاريخ الاسلام، الذهبي ١/ ٣٣٠.
(6) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٢/ ٤٦. الرحيق المختوم، المباركفوري ص ١١٣.
(7) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ٤٤٨، الروض الأنف، السهيلي ٢/ ٢٢٠.
(8) كانت في شعبان سنة ست من الهجرة. انظر: الرحيق المختوم، المباركفوري ص ٢٩٨.
(9) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢/ ٦٣.
(10) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب بعث النبي أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة، ٨/ ٣٠٨، رقم ٤٢٧٢. وهذا الحديث ورد في بعث أسامة، لكن ذكر ابن حجر العسقلاني في الفتح في شرح باب غزوة زيد بن حارثة هذا الحديث وعلق بأن الصواب هو زيد بن حارثة بلفظ: غزوت مع زيد بن حارثة سبع غزوات يؤمره علينا. انظر: فتح الباري ٨/ ٢٨٤.
(11) أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله ابن عمر، كتاب فضائل أصحاب النبي، باب مناقب زيد بن حارثة، ٧/ ٤٥٤، رقم ٣٧٣٠.

﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾[الأحزاب: ٣٧].

استُشهد في غزوة مؤتة في السنة الثامنة من الهجرة، وكان أميرًا على الجيش رضي الله عنه وأرضاه[1].

أساليب القرآن في إبطال التبني

أولًا: نفي البنوة عن المتبنَّى:

قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤-٥].

يقول الله تعالى موطئًا قبل المقصود المعنوي أمرًا حسيًّا معروفًا، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله: (أنت عليّ كظهر أمي) أمًّا له، كذلك لا يصير الدَّعي ولدًا للرجل إذا تبناه فدعاه ابنًا له.

فبيّنت الآية أن الأمور الثلاثة باطلة لا حقيقة لها، ولقد ساوت الآية بين شيء محسوس ظاهر بيّن، وهو عدم وجود قلبين في جوف الرجل، وبين عادتين مستعملتين عند العرب وهما الظهار والتبني، وذلك ليبين فظاعتهما وأنهما مخالفتان للواقع[2].

فعندما أراد الله تعالى أن يبطلهما

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، محمد أبو شهبة ٢/ ٤٢٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٠. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٣.

ويزيلهما -الظهار والتبني- قدّم بين يدي ذلك بيان قبحه وأنه باطل وكذب؛ وكل باطل وكذب لا يوجد في شرع الله ولا يتصف به عباد الله[1].

فقد حرص الإسلام على صفاء النسب، فالنسب لا يثبت إلا بولادة حقيقية ناشئة من علاقة غير محرمة؛ لذلك نفى الإسلام أن يكون التبني سببًا لثبوت النسب، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾[الأحزاب: ٤].

فكل موضع علّق الله فيه حكم القول بالفم فإشارة إلى الكذب وتنبيه إلى أن الاعتقاد لا يطابقه، فالبنوة نسب أصيل عريق، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لا غير، ولا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلًا وغير أصيل[2] فذلكم ادعاؤكم بقولكم: هذا ابني ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ فقط من غير أن يكون له مصداق وحقيقة في الأعيان، فإذن هو بمعزل من استتباع أحكام البنوة كما زعمتم[3]، فالتبني حرام؛ لأنه يخلط بين الأنساب وفيه قلب للحقائق وتغيير للحقيقة، وهو يؤدي لمفاسد كثيرة أخرى[4].

وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ إشارة إلى معنى لطيف؛ وهو أن العاقل ينبغي أن يكون قوله إما عن عقل أو عن شرع، وفي الدَّعي لم توجد الحقيقة ولا ورد الشرع به، فهذا خلاف الحق، وقول الله هو الحق لا غير؛ لأن قائله هو الحق تعالى، ولا يصدر عنه إلا الحق؛ لذلك يجب اتباعه[5].

وقوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾أمر تبارك وتعالى بوجوب دعوة الأبناء إلى آبائهم ولادة ونسبًا وتحريم دعوتهم لغير آبائهم، فالإنسان يدعى لأبيه بظاهر فراش أمه، ويثبت به النسب والميراث وتجري به الأحكام، وأن هذا هو العدل والقسط والبر[6]، عدل للوالد الذي نشأ هذا الولد من بضعة منه حية، وعدل للولد الذي يحمل اسم أبيه ويكون امتدادًا له بوراثاته الكامنة، وتمثيله لخصائصه وخصائص آبائه وأجداده، وهذا هو النظام الذي يجعل التبعات في الأسرة متوازنة، ويقيم الأسرة على أساس ثابت دقيق مستمد من الواقع[7].

روى ابن عمر رضي الله عنهما: (ماكنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٤/ ١٣٤.
(٢) حدائق الروح والريحان، الهرري ٢٢/ ٤٠٥.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٣٠٧.
(٤) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين، ٦/ ٧٦-٧٧.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٩٢، التفسير الموضوعي لسور القران الكريم، مجموعة مؤلفين ٦/ ٧٤.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٤، نكت القرآن، القصاب ٣/ ٦٤١.
(٧) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٥٣٦.

نزل القرآن: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾[الأحزاب: ٥][(١)].

وأوضحت الآية وجوب أن يُدعى الإنسان إلى أبيه، ويحرم دعوته إلى غير أبيه لفظًا وحقيقةً، وهو محرم بالإجماع[(٢)]، فالله تعالى يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألحِق نسب زيد بأبيه حارثة ولا تدعه زيد بن محمد، فهذا أعدل عند الله، وأصوب وأصدق من دعائكم إياهم لغير آبائهم، ونسبتكموهم إلى من تبناهم وادعاهم، وليسوا له بنين[(٣)].

قال صلى الله عليه وسلم: (ليس من رجل ادُّعي لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر بالله، ومن ادعى قومًا ليس له فيهم نسب فليتبوأ مقعده من النار)[(٤)]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا ترغبوا عن آبائكم فمن رغب عن أبيه فهو كُفْرٌ)[(٥)].

الحديثان فيهما زجر وتغليظ وتهديد ووعيد أكيد في التبري من النسب المعلوم، فمن استحل هذا القول مع علمه بالتحريم فقد فعل فعلًا شبيهًا بفعل أهل الكفر؛ لأن فيه كذبًا على الله كأنه يقول: خلقني الله من ماء فلان وليس كذلك.

قال العلماء في معنى (كفر): إنه من يعتقد إباحة ذلك فقد كفر وخرج عن الإسلام. وإن لم يعتقد إباحته ففي معنى كفره وجهان:

أحدهما: أنه أشبه فعله فعل الكفار أهل الجاهلية.

ثانيهما: أنه كافر نعمة الله والإسلام عليه[(٦)].

فلو انتمى مُتَّهِم إلى أب من الناس، وهو لا يعلم الحقيقة في ضد ذلك، لم يكن داخلًا في هذا الوعيد؛ وذلك لأن ارتكاب الفاحشة إذا كان منها ما تُعَرُّ له الأعراض، وتنكس له الرءوس وتخجل فيه الوجوه؛ فإنما ذلك كله من أجل نتيجته أن يكون شخص لغير أبيه، فإذا سعى إنسان في أن ينتمي إلى غير أبيه راضيًا بأحوال أولاد الزنا، فقد رضي من الدناءة وسقوط المنزلة بما ينافي أخلاق أهل الجنة[(٧)].

إن تحريم الإسلام وسائر الأديان السماوية للتبني له أسباب:

١. أن التبني مخالف للفطرة الإنسانية وكذب، فإنّ جعل شخص ولدًا وهو

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) منحة الكريم الوهاب، سليمان اللاحم ص ٢١ - ٢٢. ثبوت النسب، ياسين الخطيب ص ٣٣٦.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ٥، ٧/ ٢٢٧، رقم ٣٥٠٨.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض، باب من ادعى إلى غير أبيه، ١٣/ ٥٤٧، رقم ٦٧٦٨.
(٦) تفسير آيات الأحكام، محمد السايس، ص ٦٢٨.
(٧) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، ١/ ٣٣٧.

ليس بمولود له، هو افتراء على الحقيقة وضد الطبيعة الإنسانية؛ ذلك أن الأبوة والأمومة ليست ألفاظًا تُردّد ولا عقدًا يُعقد فحسب، إنما هو ارتباط لحم ودم، وارتباط علاقة الوراثة للخصائص التي تحملها النطفة وعلاقة المشاعر الطبيعية الناشئة عن كون الولد بضعة حية من جسم والده الحي، فهذه هي علاقات الدم والأبوة والبنوة الواقعية؛ لذلك قرر القرآن الكريم أن التبني ليس إلا بنوة بالأفواه، لا بالطبع والفطرة والحقيقة، والكلام لا يغيّر واقعًا، ولا ينشيء علاقة، فإقامة العلاقات الحقيقية لا تكون إلا على أساس الولادة الحقيقية وليس على أساس التبني(١).

٢. منع اغتصاب الأنساب وتجريد الطفل من نسبه الأصلي؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ [الأحزاب: ٥].

٣. الإسلام يقوم في جميع علاقاته الاجتماعية على أساس من الحق والعدل ورعاية الحقيقة، وهذا يقتضي نسبة الولد إلى أبيه الحقيقي، لا لأبيه المزعوم أو المزوّر، والحق أحق أن يُتّبع.

٤. الواجب على الوالد أن ينسب ابنه إليه لا إلى غيره، فيكون التبني ظلمًا للوالد الحقيقي، وإهدارًا لمعنوياته، ومساسًا بكرامته وحقوقه.

٥. التبني مجرد تحقيق نسب مزعوم أو قول باللسان، لا أساس له من شرع أو منطق أو حكمة ثابتة، وحينئذ لا تكون نسبة الولد إلى غير أبيه الصحيح نسبة صحيحة، وإنما هي مزوّرة(٢).

٦. بنسخ نظام التبني وإبطال آثاره بطل النسب عن طريق التبني، فلا يجوز لأحد أن يفعله لأي سبب كان، فما يفعله بعض الناس اليوم من تبني بعض اللقطاء أو مجهولي النسب بحجة الرحمة به والعطف عليه وتربيته أو غيرها من الأسباب، لا تجعله حلالًا؛ بل يبقى حرامًا، ولا يترتب على الولد بالتبني أي آثار شرعية، ولا أيّ حكم من أحكام البنوة الحقيقية(٣).

٧. إن المتبنّى سيكتشف الحقيقة آجلًا أو عاجلًا، ومن ثَمَّ ستتسبب له اضطرابات نفسية، وينشأ نشأة غير طبيعية؛ لأنه يدرك أن أباه الحقيقي تخلى عنه.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٥٣٥، تنظيم الإسلام للمجتمع، أبو زهرة ص١٢٧.

(٢) أحكام اللقيط، عمر السبيل ص١٧٥.

(٣) المفصل في أحكام المرأة، عبدالكريم زيدان ص٤٣٩.

آثار التبني ومفاسده في الماضي والحاضر، تتضح فيما يأتي:

١. أنه مخالف للفطرة البشرية والطبيعة الإنسانية؛ لما فيه من الكذب والزور واختلاط الأنساب.

٢. فيه ظلم للوالدين الحقيقين، وإهدار لمعنوياتهما، ومساس بكرامتهما وحقوقهما.

٣. يؤدي إلى تحريم ما أحل الله من النكاح بتحريم زوجة المتبنَّى على المتبنِّي أو أولاده، وبالعكس.

٤. قد يؤدي إلى الزواج بالمحارم لانقطاع صلة المتبنَّى بأسرته الأصلية.

٥. فيه اعتداء على المحرمات باختلاط زوجة المتبنِّي وبناته وجميع محارمه بهذا المتبنَّى، والخلوة بهن، والسفر معهن.

٦. التبني فيه مشاركة الآخرين حقوقهم المالية من النفقة والميراث، فهو أخذ حق مالي بغير وجه شرعي.

٧. قد يُتخذ التبني ذريعة للكيد بأحد الورثة؛ لحرمانه من حقه الذي خصّصه الشرع له.

٨. المتبنَّى غالبًا لا يوجد لديه انتماء حقيقي لأسرته المتبناة ولا لمجتمعه الذي يعيش فيه؛ لأنه يعرف أنه غريب عنهم، وقد يتخلون عنه لأي ظرف أو عند أول طارئ يطرأ عليهم.

٩. قد يكون التبني بدون موافقة الزوجين (المتبنِّي وزوجته) مما يجعل المتبنَّى في وضع مأساوي؛ لأنه يلاقي من الطرف الذي لا يوافق على تبنيه الذل والهوان، وينشأ نشأة معقّدة.

١٠. تخلّي المتبنَّى عن جنسيته الأصلية؛ لأنه تبع لجنسية المتبنِّي له، وتبعًا لذلك تخلّيه عن الأعراف والتقاليد التي تؤمن بها أسرته الأصلية.

١١. بما أن الله تعالى جعل في كل جسد من جينات مورثة ما هو ظاهر في شكله وأخلاقه وكثير من تصرفاته؛ فإن هذا ينعكس سلبًا على المتبنَّى فيما لو كان متبنيه من بلد آخر، وعادات وتقاليد مختلفة تمامًا، مما يجعله يصطدم بالقيم الاجتماعية والدينية.

١٢. إذا كان المتبنَّى فتاة، فقد يمارس من تبنّاها معها الفاحشة؛ لعدم وجود الحاجز المعنوي الذي يتولد عند المرء بسبب القرابة القريبة المحرّمة، وعندما يكون ذكرًا فقد يقع في الفاحشة مع أحد محارم متبنيه.

ثانيًا: بيان الأم الحقيقية:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

يقول تعالى ذكره: الذين يُحرّمون نساءهم على أنفسهم، فيقولون لهن: أنتن علينا كظهور أمهاتنا، وذلك كان طلاق الرجل امرأته في الجاهلية[(١)] ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ لا تصير المرأة بقول الرجل: أنت عليّ كظهر أمي أو كأمي أمًّا[(٢)]؛ لأن الزوجة محللة، والأم محرّمة، وتشبيه المحللة بالمحرمة في وصف الحل والحرمة كذب[(٣)]. ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾أي: إنما أمه التي ولدته[(٤)]، فأمهاتهم على الحقيقة اللائي ولدنهم، فلا يشبّه بهن في الحرمة إلا من ألحقها الله بهن[(٥)] [(٦)] وهن:

١. أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[الأحزاب: ٦].

قررت الآية الأمومة لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم؛ وذلك حرمة له وتشريفًا لقدره صلى الله عليه وسلم[(٧)]. فهن منزّلات منزلة الأمهات في تحريم نكاحهن، واستحقاق تعظيمهن، ومن حيث وجوب أداء حقوقهن من الاحترام والإكرام والتوقير والإعظام ومحبتهن والدفاع عنهن، وعدم أذيتهن وبغضهن، وأما غير ذلك فهن أجنبيات، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وليس أمومتهن لهم من حيث الميراث، ولا من حيث جواز خلوتهم بهن، ولا كونهم محارم لهن؛ بل حرمتهن عليهم أشد من حرمة غيرهن[(٨)].

٢. الأم من الرضاع.

قال الله عز وجل في شأن المحرمات

---

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٥٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٤٥.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٢٥٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٤٥.

(٥) تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٧٢٠.

(٦) حرم الإسلام النكاح بأصناف من النساء هن سبع من النسب: الأمهات مهما علون، والبنات مهما نزلن، والأخوات، والعمات، والخالات سواء الشقيقات أو لأب أو لأم، وبنات الأخوة والأخوات مهما نزلن، ومثلهن من الرضاع. وسبع من المصاهرة: زوجات الأبناء، وقيد الله تعالى حلائل الأبناء بـ الذين من أصلابكم ليخرج الابن الدعيّ، فهذا تحل حليلته لمن تبناه، وذلك فائدة التقييد، وأمهات الزوجات، وبنت الزوجة المدخول بها، والجمع بين الأختين، وبين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها.
انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٢٥٧، التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ٤/ ٣١٢- ٣١٥.

(٧) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٦/ ٧٧.

(٨) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٧، منحة الكريم الوهاب، اللاحم ص٣٢-٣٣، تفسير آيات الأحكام، السايس ص٦٢٩- ٦٣٠.

من النساء: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء: ٢٣].

أي: وُحُرمت عليكم أمهاتكم اللاتي أرضعنكم، وسواء امتص الطفل من ثدي المرأة مباشرة، أو وضعت اللبن في إناء وأسقته للطفل، فإنها تُسمّى أمه من الرضاع مادام تغذى بلبنها امتصاصًا أو شربًا[١]، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يحرم من الرضاعة مايحرم من النسب)[٢]، وفي رواية: (فإنما الرضاعة من المجاعة)[٣]. والحكمة من التحريم بالرضاعة أن المولود يتكوّن جسمه من جسم التي أرضعته فيكون جزءًا منها، كما هو جزء من أمه التي حملته، وإذا كانت هذه غذّته بدمها في بطنها، فتلك غذّته بلبنها في حجرها، وربما تكون مدة الإقامة في حجرها أطول كثيرًا من مدة الحمل، فكان لابد أن يثبت لهذه الأم الرضاعية ما يثبت للأم النسيبه من حرمة وكرامة، وفي هذا التحريم تنبيه إلى أن يتخير الآباء من يرضعن أولادهم؛ لأنهم إذا علموا أن أولادهم ستكون أجزاؤهم ممن يرضعنهم تخيروهن من ذوات الأجسام القوية، والدماء النقية التي لا يدنّسها مرض ينتقل بالوراثة، ولقد كان العرب والسلف الصالح يتخيرون مراضع أولادهم لهذه المعاني[٤].

أما الأم من التبني فهي أمومة مصنوعة تؤتي ثمارها وتنكشف حقيقتها إذا ما دارت الأيام، قال تعالى عن امرأة العزيز: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣].

ولولا أنه نبي معصوم لوقع في الخطأ أو المحظور ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤].

فألهمه الله أن الفرار من هذا الموقف هو الخير[٥].

هذا ما حدث مع نبي، إذًا فمن يفلت من الوقوع في المعصية مع التبني واستباحة العورات، مع أن أحدهم ليس من محارم الآخر، مما يكون سببًا للوقوع في المعاصي[٦].

(١) تفسير آيات الأحكام في سورة النساء، سليمان اللاحم ١/ ٣٧٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض، ٥/ ٥٨٠، رقم ٢٦٤٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض، ٥/ ٥٨٠، رقم ٢٦٤٧.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٦٣٢.
(٥) تفسير المراغي ٤/ ٣٩٣.
(٦) انظر: التبني في الإسلام، يحيى الشامي ص ٣٧.

ثالثًا: زواج النبي من زينب:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٧-٣٨].

لما زوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة بزينب بنت جحش رضي الله عنهما وكان من أغراض هذا الزواج:

- إلغاء الفوارق الطبقية.
- أنه كان مقدمة لتشريع آخر يقوم عليه، وإن لم تُعلم الحكمة في بداية الأمر للزوجين(١).

فمكثت عنده تقريبًا من سنة أو فوقها(٢)، لكن حياة الزوجين لم تصفُ لهما، فكان زيد مرة بعد مرة يشكو إلى رسول الله اضطراب حياته معها، والنبي صلى الله عليه وسلم يحسّ ثِقل التبعة فيما ألهمه الله من أمر زينب، فيواجه القوم بتحطيم ذلك التقليد العميق(٣).

قال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أعتقه من الرق، وتبنّاه(٤)، ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ الآية، يعاتب الله فيها نبيه صلى الله عليه وسلم؛ لأنه يقول لزيد: أبقِ زوجك زينب بنت جحش ولا تعجل بطلاقها، واتق الله يا زيد في أمرها(٥). ويدل هذا على أنه ينبغي لمن بدا له طلاق زوجته أن لا يتعجل، وأن يستشير من يثق به من أهل العلم والرأي والنصح والشفقة، وأن المستشار عليه أن يأمر بالإمساك مهما أمكن صلاح الحال فهو خير من الفرقة(٦).

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ والذي كان يخفيه النبي صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله تعالى به إليه أن زينب سيطلّقها زيد، ويتزوجها بعدُ النبي صلى الله عليه وسلم والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خوف لوم الناس وتعييرهم بأن يقولوا: تزوج امرأة ابنه، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمر لا أبلغ

(١) انظر: مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي صلى الله عليه وسلم لزينب بنت جحش، زاهر الألمعي ص ٦٤.
(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٣/ ٣١٢.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٥٩٥.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣٤٤.
(٥) انظر: المصدر السابق.
(٦) انظر: منحة الكريم الوهاب، سليمان اللاحم ص ١١١.

في الإبطال منه، وهو تزوُّج امرأة الذي يدعى ابنًا، ووقوع ذلك من إمام المسلمين؛ ليكون أدعى لقبولهم[1]. فقد اختار الله بيت النبوة، بل نبي الرسالة الخاتمة؛ ليتم على يديه وفي بيته الإعلان العملي لإبطال هذه العادة من خلال تشريع يتردد صداه بأقوى قوة في المجتمع، فالتعليم الفعلي، أبلغ من القولي خصوصًا إذا اقترن بالقول، فإن ذلك نور على نور[2].

﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ يشير إلى أن رعاية جانب الحق أحق من رعاية جانب الخلق؛ لأن لله تعالى في إبداء هذا الأمر، وإجراء هذا القضاء حِكمًا كثيرة، فالواجب على النبي صلى الله عليه وسلم -وأمته تبع له في ذلك- إذا عُرض له أمران، في أحدهما رعاية جانب الخلق، وفي الآخر رعاية جانب الحق، أن يختار رعاية جانب الحق على الخلق، فإن للحق تعالى في إجراء حكم من أحكامه، واختيار أمر من أوامره حِكمًا كثيرة، كما قال تعالى في تزويج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٌ﴾[3].

عن أنس رضي الله عنه قال: **(جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: اتق الله وأمسِك عليك زوجك). قال أنس: لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا لكتم هذه)**[4].

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوجها قالوا: تزوج حليلة ابنه، فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ وكان رسول الله تبنّاه وهو صغير فلبث حتى صار رجلًا يقال له: زيد بن محمد؛ فأنزل الله: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾[5].

وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ الوطر: هو الحاجة والأرب، أي: لما فرغ منها وفارقها ولم تبق له بها حاجة، طلّقها باختياره[6]، ولما انتهت عدتها ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ صرّح الله تعالى بأنه هو الذي زوّجه إياها ولم يُحوجه إلى ولي وشهود وعقد وصداق؛ تشريفًا له ولها، قال أنس: **(فكانت زينب تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول: زوَّجكن أهاليكن، وزوَّجني الله تعالى من فوق سبع**

(١) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٠٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٦٥.
(٣) انظر: حدائق الروح والريحان، الهرري ٢٣/ ٢٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء. ١٥/ ٣٦١ رقم ٧٤٢٠.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٨٣.
(٦) أضواء البيان، الشنقيطي، ٦/ ٢٤١.

سماوات)[(١)]. وفي رواية كانت تقول: (إن الله أنكحني في السماء)[(٢)].

وهذا من خصوصياته صلى الله عليه وسلم التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع من المسلمين[(٣)]، وفيه دليل على ثبوت الولي في النكاح[(٤)]، وفيه دليل على أن أولياء النساء وكلاء الله في تزويجهم؛ لأنهن إماؤه فإذا ولي الإنكاح هو جل وعز لم يكن لوكلائه معه ولاية[(٥)].

﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أي: إذا طلقوهن وانقضت عدتهن، وفيه دليل على أن الأمة مساوية للنبي صلى الله عليه وسلم في الأحكام، إلا ما قام دليل على تخصيصه به؛ لأنه صرّح بأنه فعل ذلك لنبيه ليرتفع الحرج عن المؤمنين في مثله[(٦)].

وفيه إشارة إلى أن التزويج من النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن لقضاء شهوة، بل لبيان الشريعة بفعله، فإن الشرع يستفاد من فعل النبي صلى الله عليه وسلم وقوله، كما يستفاد من القرآن الكريم، ثم بيّن أن زواجه صلى الله عليه وسلم بها مع أنه كان مبيّنًا لشرع، مشتملًا على فائدة كان خاليًا من المفاسد[(٧)]، فقال: ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾.

هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة، أعلمهم أنه لا حرج ولا ضيق على رسول الله صلى الله عليه وسلم في نيل ما فرض الله وقسم وقدر له من تزويج زينب بعد زيد، ثم أعلم أن هذا ونحوه هو السنن الأقدم في الأنبياء الذين مضوا من أن ينالوا ما أحل الله لهم ووسع عليهم، فلم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا ردٌّ على من توهم من المنافقين نقصًا في تزويجه صلى الله عليه وسلم امرأة زيد مولاه ودعيِّه الذي كان قد تبنّاه[(٨)] ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ أي: أمرًا وقضاءً وحكمًا مقضيًّا وكائنًا لا محالة، محددًا وقت وقوعه وكيفية وقوعه، لا يتأخر ولا يتقدم ولا يتغير، فلا حرج على أحد فيما أحل له[(٩)]، فما شاء الله كان ومالم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، ١٥/ ٣٦١، رقم ٧٤٢٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، ١٥/ ٣٦١، رقم ٦٤٢١.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٧٠.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ٣٧.
(٥) انظر: نكت القرآن، القصاب ٣/ ٦٥٦.
(٦) الإكليل في استنباط التنزيل، السيوطي، ص ٥١٥- ٥١٦.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٢١٢.
(٨) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١٣/ ٧٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٣٢٣.
(٩) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ١٣/ ٢٦٦،

يشأ لم يكن[(١)].

فوائد مستفادة من قصة زيد وزينب رضي الله عنهما:

١. إظهار صلابة الأنبياء في بيان الأحكام الإلهية، وأن يكون ظاهرهم وباطنهم سواء؛ لأن الله تعالى أعلم نبيه صلى الله عليه وسلم بأن زيدًا سيطلّق زينب وينكحها هو، فما الداعي لوعظه وقوله له ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾[(٢)].

إن هذا الزواج كان امتحانًا قاسيًا للنبي صلى الله عليه وسلم حيث يؤمر به ويعلم نهايته، وزينب تحت مولاه زيد، والحكمة كما نطق القرآن هو تحطيم مبدأ كان معمولًا به ومشهورًا عند العرب، هو تحريم زواج امرأة الابن من التبني كتحريمها إذا كان الابن من النسب[(٣)]، قال تعالى في المحرمات من النساء، ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

أي: من ولدتموه لا من تبنيتموه[(٤)]، فيُفهم منه أن حليلة دعيِّه الذي تبناه لا تحرم عليه[(٥)]؛ لأنه ليس من صلبه، فأما الابن من الرضاعة فمنزل منزلة ابن الصلب شرعًا[(٦)] بقوله صلى الله عليه وسلم: (يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب)[(٧)].

إن نظام التبني كانت له آثار واقعية في حياة الجماعة العربية، ولم يكن إبطال هذه الآثار الواقعية في حياة المجتمع ليمضي بالسهولة التي يمضي بها إبطال تقليد التبني ذاته؛ لذلك شاء الله أن يحمّل نبيه صلى الله عليه وسلم مؤنة إزالة آثار التبني، ويواجه المجتمع بهذا العمل الذي لا يستطيع أحد غيره أن يواجه المجتمع به[(٨)].

ويدل تحرج النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الزواج على أن للأعراف والعادات تأثيرًا كبيرًا في المجتمعات والسلوك[(٩)].

٢. زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب مسألة يتدخل فيها الله تعالى تدخلًا مباشرًا، وفي هذا درس للمؤمنين فيعطوا هذا الموضوع حقه من الفهم والعلم والاحترام والتوقير[(١٠)].

منحة الكريم الوهاب، اللاحم ص١٢١.

(١) انظر: حدائق الروح والريحان، الهرري ٢٣/ ٣٣.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ٣٤-٣٥.
(٣) انظر: النبوة والأنبياء، الصابوني، ص٩٧.
(٤) انظر: نكت القرآن، القصاب ٣/ ٦٥٨.
(٥) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٢٣٢.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٤.
(٧) سبق تخريجه.
(٨) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٥٩٤-٥٩٥.
(٩) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ٣٦.
(١٠) الأساس في التفسير، سعيد حوى، ٥/ ١٤٦.

٣. ينبغي لمن أراد طلاق زوجه أن لا يتعجل، وأن يستشير من يثق به من أهل العلم والرأي والنصح والشفقة؛ لأن زيدًا استشار النبي صلى الله عليه وسلم أنصح الناس للخلق أجمعين، وعلى المستشار تقديم النصيحة والأمر بإمساك الزوجة مهما أمكن صلاح الحال؛ فهو خير من الفرقة(١).

٤. إكرام الله تعالى لزيد رضي الله عنه بأن جعل اسمه يُقرأ على ألسنة المؤمنين إلى يوم الدين(٢).

٥. استخارة الله في الأمور، عن أنس قال: (لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد: (فاذكرها عليّ)، قال: فانطلق زيد، أتاها وهي تخمّر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها؛ فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربي فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن...)(٣).

٦. منقبة عظيمة لزينب بنت جحش رضي الله عنها ، ورفعة لها وإعلاء لشأنها؛ حيث تولى الله عز وجل تزويجها لرسوله صلى الله عليه وسلم بسبب طاعتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كرهت زواجها لزيد، ثم رضيت بما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم(٤). عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (اتق الله، وأمسِك عليك زوجك)، قال أنس: لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا لكتم هذه الآية. قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول: زوَّجكن أهاليكن، وزوَّجني الله تعالى من فوق سبع سماوات). وفي رواية: (إن الله أنكحني في السماء)(٥).

---

(١) منحة الكريم الوهاب، اللاحم ص ١١٨.
(٢) أيسر التفاسير، الجزائري، ٢/ ٧٤٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب واثبات وليمة العرس، ٢/ ١٠٤٨، رقم٨٩.
(٤) انظر: فتح الباري ٩/ ٤٧٩.
(٥) سبق تخريجه.

شبهات وردود على زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش رضي الله عنها:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ﴾

ذكر المفسرون روايات كثيرة في تفسيرها نذكر منها:

- أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل منزل زيد بن حارثة أبصر امرأته قائمة في درع وخمار، وكانت بيضاء جميلة ذات خلق، من أتم نساء قريش. فأعجبته، فقال: **(سبحان مقلّب القلوب)**، فلما سمعت زينب ذلك جلست، وجاء زيد إلى منزله، فذكرت ذلك له زينب، فعلم أنها وقعت في نفسه، فأتى زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «يا رسول الله، ائذن لي في طلاقها، فإن بها غيرة وإذاية بلسانها»، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أمسك أهلك)**، وفي قلبه غير ذلك، فطلّقها زيد[(١)].

- وفي رواية: «فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا يريده، وعلى الباب ستر من شعر، فرفعت الريح الستر فانكشف، وهي في حجرتها حاسرة، فوقع إعجابها في قلب النبي صلى الله عليه وسلم. فلما وقع ذلك كُرِّهت إلى الآخر، قال: فجاء فقال: «يا رسول الله، إني أريد أن أفارق صاحبتي». قال: **(مالك، أرابك منها شيء؟)** قال: «لا والله ما رابني منها شيء يا رسول الله، ولا رأيت إلا خيرًا». فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أمسِك عليك زوجك واتق الله)**، فذلك قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ .. ﴾ تخفي في نفسك إن فارقها تزوجتها[(٢)]. وفي رواية: وتخفي في نفسك محبة فراقه إياها؛ لتتزوجها إن هو فارقها[(٣)].

- وفي رواية: أنه صلى الله عليه وسلم جاء إلى بيت زيد فلم يجده، وعرضت زينب عليه دخول البيت فأبى أن يدخل، وانصرف راجعًا يتكلم بكلام لم تفهم منه سوى **(سبحان الله العظيم، سبحان**

---

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٦٢، أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ١٥٤١.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١١٦.
(٣) المصدر السابق ١٩/ ١١٥.

مصرِّف القلوب)، فجاء زيد فأخبرته بما كان، فأتى رسول الله فقال له: «بلغني يا رسول الله أنك جئت منزلي، فهلا دخلت يا رسول الله، لعل زينب أعجبتك فأفارقها»، فقال عليه الصلاة والسلام: (أمسِك عليك زوجك، واتق الله)، فما استطاع زيد إليها سبيلًا بعد ففارقها[1].

الرد على هذه الشبهة:

قال صاحب الرحيق المختوم: «إن جميع أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والمشركين قرروا أن يشنّوا حربًا دعائية واسعة ضد هذا الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد، وأن يجعلوا شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم أول هدف لهذه الدعاية.

وقد ظهرت خطتهم بعد غزوة الأحزاب، حينما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بأم المؤمنين زينب بنت جحش بعد أن طلّقها زيد بن حارثة، فوجد المنافقون ثلمتين -حسب زعمهم- لإثارة المشاغب ضد النبي صلى الله عليه وسلم.

الأولى: أن زوجته هذه كانت زوجة خامسة، والقرآن لم يكن أذن في الزواج بأكثر من أربع نسوة فكيف صح له هذا الزواج؟

الثانية: أن زينب كانت زوجة ابنه -متبناه- فالزواج بها من أكبر الكبائر، حسب تقاليد العرب، وأكثروا من الدعاية في هذا السبيل، واختلقوا قصصًا وأساطير، قالوا: إن محمدًا رآها بغتة، فتأثر بحُسنها وعلقت بقلبه، وعلم بذلك ابنه زيد فخلّى سبيلها لمحمد، وقد نشروا هذه الدعاية المختلقة نشرًا بقيت آثاره في كتب التفسير والحديث إلى هذا الزمان، وقد أثّرت تلك الدعاية تأثيرًا قويًّا في صفوف الضعفاء حتى نزل القرآن بالآيات البينات فيها شفاء لما في الصدور، وينبيء عن سعة نشر هذه الدعاية أن الله استفتح سورة الأحزاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١]»[2].

أما قولهم: إن النبي صلى الله عليه وسلم رآها فوقعت في قلبه، فباطل وجهل من القائل بالقرآن وبالرسل، وتحميله كلام الله ما لا يحتمله، ونسبته رسول الله إلى ما برّأه الله منه، فإن زينب ابنة عمته، وكان يراها ولم يكن حينئذ حجاب، فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها، ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج، حاشا لذلك القلب المطهّر من هذه العلاقة الفاسدة[3].

إن الله تعالى كان قد أوحى إلى نبيه صلى

(١) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٠٤.

(٢) الرحيق المختوم، المباركفوري ص ٣٠٠-٣٠١.

(٣) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ١٥٤٣.

الله عليه وسلم أن زيدًا يطلّق زينب، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما تشكى زيد للنبي صلى الله عليه وسلم، وأعلمه أنه يريد طلاقها، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على جهة الأدب والوصية: (اتق الله في قولك، وأمسِك عليك زوجك)، وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها، وهذا هو الذي أخفى في نفسه وخشي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد وهو متبناه[(١)] ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: مما أخبرك الله من أنها ستصير إحدى زوجاتك بعد طلاق زيد لها[(٢)] وهو مطابق للتلاوة؛ لأن الله أعلم أنه مبدي ما أخفاه عليه الصلاة والسلام ، وهذا الذي أبداه الله جل وعلا هو زواجه إياها في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ ولم يُبد جل وعلا شيئًا مما زعموه أنه أحبها، ولو كان ذلك هو المراد لأبداه الله تعالى[(٣)].

فإن قيل: فلأي معنى قال له النبي صلى الله عليه وسلم: أمسِك عليك زوجك، وقد أخبره الله أنها زوجته؟

قلنا: إنه أراد أن يختبر منه ما لم يُعلمه الله به من رغبته فيها أو رغبته عنها، فأبدى له زيد من النفرة عنها والكراهية لها ما لم يكن علمه منه في أمرها[(٤)]. ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ تخاف لائمة الناس أن يقولوا: أمر رجلًا بطلاق امرأته ثم نكحها، أو تزوج امرأة ابنه؛ لأن زيدًا كان يُدعى ابنه، والله أحق أن تخشاه من الناس ولا تجمع خشية الناس مع خشية الله في أن تؤخر شيئًا أخبرك به لشيء يشق عليك. قال جمع من الصحابة: «ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هي أشد عليه من هذه الآية»[(٥)].

فمتعلق الخشية على رأي القائلين بالعشق والغرام هو خشيته صلى الله عليه وسلم أن يطّلع الناس على ما في قلبه من الحب والميل إلى زينب. أما على رأي المحققين العارفين بأحوال الأنبياء، فمتعلق الخشية خشيته صلى الله عليه وسلم من وقوع الناس في عِرضه وقولهم: تزوج بزوجة ابنه. والفرق واضح بين متعلق الخشيتين في كلتا الحالتين[(٦)] والعتاب عليه على إظهار ما ينافي الإضمار[(٧)].

وليس معنى الخشية هنا: الخوف، وإنما

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٦٨.
(٢) انظر نظم الدرر، البقاعي ٦/ ١٠٨.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٠٤. أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٤١.
(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ١٥٤٤.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١١٥، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣٥٥.
(٦) انظر: مع المفسرين والمستشرقين، زاهر الألمعي ص٧٨.
(٧) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٠٤.

معناه الاستحياء، أي: يستحي منهم أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه، وأن خشيته صلى الله عليه وسلم من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود وتشغيبهم على المسلمين بقولهم: تزوج زوجة ابنه، بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء، فعتبه الله تعالى على هذا، أو نزّهه عن الالتفات إليهم فيما أحله الله[1]، قال بعض العلماء: «ليس هذا من النبي صلى الله عليه وسلم خطيئة؛ ألا ترى أنه لم يؤمر بالتوبة ولا بالإستغفار منه، وقد يكون الشيء ليس بخطيئة إلا أن غيره أحسن منه، وأخفى ذلك في نفسه خشية أن يفتتن الناس[2]، وأن يقولوا قولًا ويظنوا ظنًّا فيهلكوا، والرسول صلى الله عليه وسلم رءوف رحيم بأمته، فهو يخشى عليها من الوقوع في الهلاك باعتقاد ما يتنافى مع كرامة الأنبياء وعصمتهم»[3].

وخاصة أن في المؤمنين حدثاء الإسلام من لم يرسخ الإيمان في قلوبهم، فكانت خشية رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة بهم أن يلقي الشيطان في أنفسهم شيئًا يأثمون به ويهلكون، فهذه الخشية كانت من قبيل الرحمة والإحسان إلى المؤمنين ليحفظ صلى الله عليه وسلم عليهم إيمانهم[4].

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

هو جواب عن سؤال مقدر، تقديره: أمحمد أبو زيد؟ فأجيب بنفي الأعم المستلزم لنفي الأخص؛ إذ لو اقتصر على قوله: ما كان محمد أبا زيد، لقيل: ماذا يلزم منه؟ فقد كان للأنبياء أبناء، فجيء بنفي الأعم تمهيدًا للاستدراك بأنه رسول الله وخاتم النبيين[5].

والخلاصة في الرد على هذه الشبهة:

١. الروايات في قصة الحب والغرام ضعيفة من حيث السند.

٢. تتنافى مع عصمة النبي صلى الله عليه وسلم ومكانته من حيث المتن.

٣. لو كان الذي أخفاه صلى الله عليه وسلم هو محبته لها لأظهره الله تعالى؛ لأنه تعالى قد وعد باظهاره، ولكن الله تعالى أظهر أنه سيتزوجها.

٤. أن هذا الزواج لحكمة لا تعلوها حكمة في زواج أحد من أزواجه صلى الله عليه وسلم، وهي إبطال بدعة التبني، فما أظهره الله تعالى هو رغبته صلى الله عليه وسلم في تنفيذ أمر الله

(١) محاسن التأويل، القاسمي ١٣/ ٢٦٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٦٩.
(٣) انظر: مع المفسرين والمستشرقين، زاهر الألمعي ص٨٩.
(٤) انظر: آيات عتاب المصطفى صلى الله عليه وسلم في ضوء العصمة والاجتهاد، عويد المطرفي، ص٢٦٧-٢٦٨.
(٥) انظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، زكريا الأنصاري ص٣٣٩.

بالزواج من مطلقة متبنيه (زيد) لإبطال حكم التبني وتحريم زوجة الدّعي على من تبنّاه[1].

٥. قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أخبرهم الله تعالى أن نساء الأدعياء حلال لهم إذا طلقوهن.

وقضاء الوطر: بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء. فليس على رسول الله صلى الله عليه وسلم حرج في هذا النكاح[2].

ففيه أكبر حجة على الذين خاضوا في عِرض رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم، الصابوني ص٤٥-٤٩.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٤٥.

بدائل التبني في الإسلام

شرع الإسلام بدائل للتبني تغني عنه، ومن تلك البدائل:

أولًا: الأخوة والولاء في الدين:

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦].

حرص الإسلام على إقامة المجتمع الإسلامي على أساس الحق والعدل والصدق والواقع، فمن أهم صفات أهل الإيمان: الولاية في الله خاصة[3]، فإن بعضهم أنصار بعض وأعوانهم[4]، يتولى بعضهم بعضًا في النصرة والحماية والمحبة

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٢٢٩.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٥٦.

والتأييد[1]؛ لأنهم جمعتهم الرحمة والمودة، والإخلاص لله تعالى وللحق، وجماعتهم وأسرهم تقوم على الفضيلة، والإخلاص والتراحم، فقلوبهم قد صفت لله تعالى، ولانت أفئدتهم له سبحانه، فهم مرتبطون برباط معنوي لا ينفصهم؛ لأنه مربوط بالعروة الوثقى لا انفصام لها، فهي رباط المؤمنين الذي يستمسكون به[2]، جماعتهم كالجسد الواحد، وهم كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا، بينهم ولاية النصرة في الدفاع عن الحق والعدل وإعلاء كلمة الله[3].

فالولاية تحتاج إلى شجاعة وإلى نجدة، وإلى تعاون وتكافل وتضامن في تحقيق الخير ودفع الشر[4]، يعين فيه المسلمون بعضهم بعضًا في أمورهم الحياتية، وتنتشر المودة والرحمة والبركة بين أفراد المجتمع، وبذلك نحمي المجتمع من الفتن والجرائم، ويعيش الجميع في أمان واطمئنان[5].

فالناس يحتاج بعضهم إلى بعض في كل شئون الحياة، وهم في مجموعهم قوة متماسكة لا تبدو في تمامها واكتمالها إلا بقوة كل فرد من أفرادها وسعادته، أما الذين تحول ظروف الحياة بينهم وبين تمتعهم بالحقوق التي كفلها الإسلام، فاعتبر المجتمع هو المسئول عن تحقيقها لهم[6].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)**[7].

ولا عبرة للتقاليد والعادات المنتشرة بين الناس والجارية على أفواههم إذا ما خالفت الحقيقة أو الشريعة[8].

لذلك قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

أي: أدعياؤكم الذين لم تعلموا آباءهم من هم، فتنسبوهم إليهم، ولم تعرفوهم فتلحقوهم بهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ إن كانوا من أهل ملتكم ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ إن كانوا محرريكم وليسوا ببنيكم[9]، فادعوهم

(١) انظر: أيسر التفاسير، أسعد حومد ١/ ٦٧٥.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٣٧٠-٣٣٧١.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٤/ ١٣٠.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٢-٢٥٣.
(٥) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٣/ ٢٦٨.
(٦) انظر: منهاج الصالحين، عز الدين بليق، ص٤٢٣-٤٢٤.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ١٢/ ٥٠، رقم ٦٠١١، عن النعمان بن بشير.
(٨) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين ٦/ ٧٦.
(٩) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٢.

بالأخوة والمولوية بتأويلهما بالأخوة والولاية في الدين، وكأن دعاءهم بذلك لتطييب قلوبهم؛ ولذا لم يؤمر بدعائهم بأسمائهم فقط[(١)].

ففيه دليل على أن من لا أب له معروف من ولد دعيّ أو لعان لا يتسب إلى أمه ولكنه يقال له: أخو معتقه ومولاه إن كان حرًّا، أو عبده إن كان رقًّا[(٢)].

ولهذا قيل لسالم بعد نزول الآية: مولى أبي حذيفة، وكان قد تبنّاه قبل[(٣)]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لزيد: (أنت أخونا ومولانا)[(٤)].

بمعنى أنه حتى في حال عدم علمكم بآبائهم لا يجوز لكم أن تنسبوهم لغير آبائهم، بل ادعوهم بقولكم إخواننا في الدين ومواليناء لأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض[(٥)].

وظاهر الآية أيضًا يدل على أنه يحرم على الإنسان أن يتعمد دعوة الولد لغير أبيه، وذلك محمول على ما إذا كانت الدعوة على الوجه الذي كان في الجاهلية، وأما إذا لم تكن كذلك كما يقول الكبير للصغير: يا بني، فالظاهر عدم الحرمة، وظاهر الآية أيضًا أنه يباح أن يقال في دعاء من لم يعرف أبوه: يا أخي أو يا مولاي إذا قصد الأخوة في الدين والولاية فيه، بشرط ألا يكون المدعو فاسقًا فمثل هذا يدعى باسمه أو بـ يا عبدالله، أو يا هذا. ونحوه[(٦)].

قال ابن كثير: «وأما دعوة الغير ابنًا على سبيل التكريم والتحبيب، فليس مما نُهي عنه في هذه الآية»[(٧)].

ولذوي الأرحام حق عظيم على الإنسان؛ إذ جعل الله تعالى لهم الأولوية على غيرهم، ومن هنا مدح الإسلام الذين يصلون أرحامهم ويتقون الله فيهم[(٨)].

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾[النساء: ١].

وهذه الآية ناسخة لما كان في صدر الإسلام من الموارثة: بالحلف[(٩)]،

---

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ١٤٦.
(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ١٥٠٦.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ١٤٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان، ٥/ ٦٤٣، رقم ٧٦٩٩.
(٥) انظر: منحة الكريم الوهاب، اللاحم ص٢٣.
(٦) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس ص٦٢٧-٦٢٩.
(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٤.
(٨) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٦/ ٨٠.
(٩) فقد كان الرجل يقول لآخر: دمي دمك وهدمي هدمك وترثني وأرثك وتُطلب بي وأطلب بك، فإذا فعلا ذلك ومات أحدهما كان للحي ما اشترط من مال الميت.
انظر: تفسير المراغي ٢/ ١٦٢.

والهجرة[١]، والتبني، والمعاقدة[٢][٣].

أي: ذوو القرابة من المسلمين بعضهم أحق بميراث بعض في حكم الله وشرعه من الإرث بالايمان والهجرة -كما كان في أول الإسلام- إلا أن تفعلوا -أيها المسلمون- إلى غير الورثة معروفًا بالنصر والبر والصلة والإحسان والوصية[٤].

وولاية المؤمنين بعضهم بعضًا مستمرة، فلا مانع أن تفعلوا إلى من بينكم وبينهم موالاة ومناصرة معروفًا بالإحسان إليهم بالوصية والنصرة والبر والصلة وغير ذلك[٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ويدخل في الآيتين[٦] سائر الولايات من المناكح والأموال والعقل[٧] والموت»[٨].

والاستثناء في فعل المعروف واقع على من كان وليًّا للميت من المؤمنين والمهاجرين، ويكون المعروف وصية يوصى له حيث نسخ الميراث عنه إلى ذي الرحم[٩].

ثانيًا: كفالة اليتامى:

المجتمع الإسلامي مجتمع متعاون على البر والخير، مجتمع يرى أن التكافل الاجتماعي هو القاعدة التي ينبغي أن يرتكز عليها هذا المجتمع، فعلى المسلمين أن يكفلوا ويراعوا مصالح الضعفاء في مجتمعهم، كما يراعون حقوق أقويائهم وأغنيائهم.

واليتامى بفقدهم آباءهم وهم صغار ضعاف، أحوج الناس إلى الرحمة والرفق بهم، والمساهمة الفعالة في تخفيف آلامهم، ودفع ما ينزل بهم من ضر وجور، فإكرام اليتامى فيه تقوية للأمة بإنشاء نشء على الخُلق القويم؛ لذلك:

حث الله تعالى على كفالة اليتامى

(١) فكان المهاجِر يرث من المهاجَر إليه، وإن كان أجنبيًّا عنه، إذا كان بينهما مخالطة وود ولا يرثه غير المهاجر وإن كان من أقاربه.
انظر: تفسير المراغي ٢/ ١٦٢.

(٢) كان الرجل من أهل الجاهلية يعاقد الرجل أي: يحالفه، فيستحق من ميراثه نصيبًا.
انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٥٩١.

(٣) انظر: أحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٥٩، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٥٣.

(٤) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص ٤١٨.

(٥) منحة الكريم الوهاب، اللاحم ص٣٦.

(٦) قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال:٧٥].
وقال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب:٦].

(٧) العقل: الدية، وإنما قيل للدية: العقل؛ لأنهم كانوا يأتون بالإبل فيعقلونها بفناء ولي المقتول، ثم كثر ذلك حتى قيل لكل دية: عقل، وإن كانت دنانير أو دراهم.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٤٦٠.

(٨) مجموع الفتاوى ١٥/ ٤٤٣.

(٩) انظر: نكت القرآن، القصاب ٣/ ٤٥.

والإحسان إليهم:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

وقال جل شأنه: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١-١٥].

والإحسان إلى اليتامى ميثاق وعهد، أخذه الله على بني إسرائيل وليس خاصًّا بهم، بل هو ميثاق النبيين في كل العصور. ولكن بني إسرائيل مع العهود والمواثيق لا يفون، فعلى المسلمين الحذر مما وقع فيه أولئك من مخالفة الميثاق وعدم الوفاء به(١).

ويجب الإحسان إلى اليتيم، وهو الذي مات أبوه قبل أن يبلغ، وإنما أوصى الله به في كثير من الآيات؛ جبرًا لما حصل له من الانكسار بموت الوالد مع صغره، فكان من رحمة الله عز وجل وحكمته أن أوصى بالإحسان إليه(٢)، فمن فقد أباه فقد انفرد في هذا الوجود، والأم وإن كانت هي الحانية العاطفة التي تغذيه بأنبل العواطف لا تحميه، وغالبًا لا تعوله، ولذلك لا تعوض حماية الأب وكلاءته(٣).

عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) وقال بإصبعيه السبابة والوسطى**(٤).

ففيه فضل رعاية اليتيم وكفالته، وإن أجر رعايته كبير، ومحبوب عند الله تعالى(٥).

ويجوز خلط الولي ماله بمال اليتيم، ويجوز التصرف فيه بالبيع والشراء إذا وافق الإصلاح، ويجوز دفعه مضاربة إلى غيره،

---

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٢٨٩-٢٩٢.
(٢) انظر: تفسير سورة البقرة، ابن عثيمين، ٣/ ٤٤.
(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٢٩٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيمًا، ١٢/ ٤٨، رقم ٦٠٠٥.
(٥) انظر: الشرح الميسر لصحيح البخاري، محمد علي الصابوني، ٥/ ١٣٠.

وجواز الاجتهاد في أحكام الحوادث؛ لأن الإصلاح الذي تضمنه الآية إنما يعلم من طريق الاجتهاد وغالب الظن، وفيه دلالة على أنه لا بأس بتأديب اليتيم وضربه بالرفق لإصلاحه[(١)].

فمن علم من نيته أنه مصلح لليتيم، وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء من غير قصد لم يكن عليه بأس. ومن علم الله من نيته، أن قصده بالمخالطة التوصل إلى أكلها، فذلك الذي حرج وإثم، وهذه الرخصة لطف من الله تعالى وإحسان وتوسعة على المؤمنين[(٢)].

وقد أمر أوصياء اليتامى بتسليم أموالهم إليهم، إذا هم بلغوا الحلم وأونس منهم الرشد، وتحريم استبدال الحرام من أموالهم بأموال الأوصياء الحلال لهم أو خلط أموالهم مع أموال اليتامى فتؤكل جميعًا، ففيه تنبيه لقبح أكل مالهم بهذه الحالة، وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم؛ لأن تمام إيتائه ماله، حفظه والقيام به بما يصلحه وينميه وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار[(٣)].

وإن مما يعين على تجاوز أهوال الآخرة ومشقاتها: إطعام الضعفاء في أيام المجاعات، قال قتادة: «في يوم يُشتهى فيه الطعام»[(٤)].

فإن إخراج المال في وقت القحط والضرورة أثقل على النفس وأوجب للأجر، وخاصة إذا كان الإطعام لمن كان جامعًا بين كونه يتيمًا وفقيرًا ذا قرابة، فيجتمع فيه فضل الصدقة وصلة الرحم، وقيل: يدخل فيه القرب بالجوار كما يدخل فيه القرب بالنسب[(٥)]. قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي الرحم اثنان صدقة وصلة)**[(٦)].

وقد نهى الله عز وجل عن إهانة اليتيم وقهره.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٥-١٧].

وقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩].

وقال عز وجل: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ١-٢].

فاوت الله تعالى بين أرزاق الناس لحِكم

(١) انظر: الإكليل، السيوطي ص١٢٣-١٢٤.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٧٦.
(٣) انظر: المصدر السابق ص٣١٠.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٦٥.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٨٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٥/ ٤١٨.
(٦) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزكاة، باب ماجاء في الصدقة على ذي القرابة ٣/ ٤٧. قال الترمذي: «حديث حسن».

منشودة وامتحان مقصود[١]، كلا ليس الأمر كما يقول الإنسان الخاوي من الإيمان، ليس بسط الرزق دليلًا على الكرامة عند الله، وليس تضييق الرزق دليلًا على المهانة والإهمال، إنما الأمر أنكم لا تنهضون بحق العطاء ولا توفون بحق المال، فأنتم لا تكرمون اليتيم الصغير الذي فقد حاميه وكافله حين فقد أباه[٢].

فقد لامهم الله تعالى على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين، فأنتم لا تكرمون اليتيم، بل تهينونه، وهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم وعدم الرغبة في الخير[٣]، وترك إكرام اليتيم على وجوه، منها ترك بره، ودفعه عن حقه الثابت له في الميراث وأكل ماله، وأخذ ماله منه[٤].

وقد نهى الله تعالى عن إساءة معاملة اليتيم، ونهره إذلاله وإهانته، والعبوس في وجهه[٥]، فبعد أن عدّد الله تعالى نعمه على رسوله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي: لا يضيق صدرك عليه ولا تنهره، بل أكرِمه وأعطِه ما تيسر واصنع به كما تحب أن يُصنع بولدك من بعدك[٦]، قال مجاهد: «لا تحقر اليتيم، فقد كنت يتيمًا»، وقال الفراء والزجاج: «لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه، وكذا كانت العرب تفعل في أمر اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم حقوقهم»[٧].

وهذه التوجيهات إلى إكرام اليتيم والنهي عن قهره وكسر خاطره وإذلاله، من أهم إيحاءات الواقع في البيئة الجاحدة المتكالبة، التي لا ترعى حق ضعيف، غير قادر على حماية حقه بسيفه، فالله تعالى يغضب للاعتداء على حقوق عباده الضعاف الذين لا يملكون قوة ولا سيفًا يذودون به عن هذه الحقوق[٨].

وقد وصف الله عز وجل المكذبين بيوم المعاد والجزاء والثواب، الذي لا يؤمن بما جاءت به الرسل بصفات؛ منها: دفع اليتيم بعنف وشدة ولا يرحمه لقساوة قلبه، ولا يطعمه ولا يُحسن إليه[٩].

وحاصل الأمر في دَعِّ اليتيم أمور: دفعه عن حقه وماله بالظلم، وترك المواساة معه وإن لم تكن المواساة واجبة، وزجره

(١) انظر: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي، ص ٥١٨.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٨/ ٥٧٣.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤١٣.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٧٢.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٨٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٠.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٠.
(٧) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٤٥٧.
(٨) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٨/ ٦٠٤.
(٩) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٤٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦٢.

والاستخفاف به والاضرار به[1].

وقد تكون هذه مفاجأة بالقياس إلى تعريف الإيمان التقليدي، إن الذي يكذّب بالدين هو الذي يدفع اليتيم دفعًا بعنف ويهينه ويؤذيه، فلو صدّق بالدين حقًّا، ولو استقرت حقيقة التصديق في قلبه ما كان ليدّع اليتيم، فالتصديق بالدين يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه المحتاجين إلى الرعاية والحماية؛ لأن الله تعالى يريد مع الإيمان أعمالًا تصدقها[2]. فالإيمان أخو العطاء والعدالة، وسورة الماعون ترفض العبادة الصورية، وترى أن إعانة محتاج شرط في الإيمان[3].

ثالثًا: بنوة الرضاعة:

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٣].

قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ هي في التحريم مثل الأم الحقيقية، فإذا أرضعت المرأة طفلًا حُرّمت عليه؛ لأنها أمه، وبنتها، لأنها أخته، وأختها؛ لأنها خالته، وأمها؛ لأنها جدته، وبنت زوجها صاحب اللبن؛ لأنها أخته، وأخته؛ لأنها عمته، وأمه؛ لأنها جدته، وبنات بنيها وبناتها؛ لأنهن بنات إخوته وأخواته[4].

وينتشر التحريم بالرضاع إلى ما حُرِّم بالنسب مع الصهر، إما من جهة نسب الرجل، كامرأة أبيه وابنه، أو من جهة نسب الزوجة، كأمها وابنتها، والجمع بين الأختين، والمرأة وعمتها وخالتها[5]؛ لعموم قوله صلى الله عليه وسلم: (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب)[6].

والتحريم بالرضاع إنما يحصل إذا اتفق الإرضاع في الحولين[7]، ولا فرق بين قليل

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١١٣.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٨/ ٦٧٩-٦٨٠.
(٣) انظر: نحو تفسير موضوعي، محمد الغزالي ص٥٤٣.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٠٤، الأساس في التفسير، سعيد حوى ١/ ٥٠٨-٥٠٩.
(٥) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٤٤٢.
(٦) سبق تخريجه.
(٧) اختلف العلماء في رضاع الكبير، والراجح والله أعلم ما ذكره ابن القيم نقلًا عن شيخ الإسلام ابن تيمية: «هو رخصة للحاجة لمن لا يستغني من دخوله على المرأة ويشق

الرضاع وكثيره إذا وصل الأمعاء[1] وبذلك قال مالك وأبو حنيفة، وذهب الشافعي وأحمد في الصحيح عنه وابن حزم إلى أنه لا تحرِّم إلا خمس رضعات؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (**لا تحرّم الرضعة أو الرضعتان أو المصة أو المصتان**)[2].

وهو اختيار هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية، وسواء كان الرضاع من الثدي مباشرة أو بواسطة إناء يوضع فيه اللبن، فإذا رضع من أحدهما أو منهما جميعًا خمس رضعات ثبت التحريم[3].

والطفل الذي لا يكون له ولي يقوم برعايته يعهد القاضي به إلى رجل صالح يقوم على رعايته، وهذا هو الأصل في الإسلام بدل إيداعه في الملاجيء أو دور الرعاية.

ويستحب للفرد التقدم لطلب رعاية أحد هؤلاء وتربيته وتنشئته بحيث يتربى في أحضان الأسرة، بشرط أن لا يلحقه بنسبه، مع مراعاة أحكام الشريعة من حيث الاختلاط، وإن أمكن إرضاعه من إحدى المحارم لكان أولى؛ حتى يكون كأحد أولادهم من حيث الخلوة والمحرمية[4].

ودليل استحباب ذلك عموم قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[المائدة: ٢].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (**ترى المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**)[5].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (**المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدّ بعضه بعضًا**) ثم شبّك بين أصابعه[6]. ولأن ذلك يعينه في المستقبل، ويكفل للأمة الأمان من شر سوء تربيته.

ورد في فتاوى اللجنة الدائمة: «يجب على من كفل مثل هؤلاء الأطفال أن لا ينسبهم إليه أو يضيفهم معه في بطاقة العائلة؛ لما يترتب على ذلك من ضياع الأنساب والحقوق، ولارتكاب ما حرم الله، وأن يعرف من يكفلهم أنهم إذا بلغوا سن الرشد فإنهم أجانب منه كبقية الناس، لا يحل الخلوة بهم أو نظر المرأة للرجل

احتجابها، كحال سالم مولى أبي حذيفة، وأما ما عداه فلا». انظر: تفصيل المسألة في زاد المعاد ٤/ ١٧٦- ١٨٢.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٠٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب في المصة أو المصتين، ٢/ ١٠٧٤، رقم ١٤٥١، عن أم الفضل.

(٣) تفسير آيات الأحكام في سورة النساء، اللاحم ١/ ٤٠١.

(٤) الفقه الميسر، مجموعة مؤلفين ٥/ ١٥٦.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، ١٢/ ٦٤، عن أبي موسى، رقم ٦٠٢٦.

أو الرجل للمرأة منهم، إلا إن وُجد رضاع محرم للمكفول، فإنه يكون محرمًا لمن أرضعته ولبناتها وأخواتها ونحو ذلك مما يحرم بالنسب»[١].

ومثل هذا الطفل الذي ينشأ في ظل أسرة يعرف قيمة التكافل في محيط الأسرة التي تقوم على عواطف الرحمة والمودة والتعاطف، والستر، والطهر، والحصانة، والميول الثابتة في الفطرة الإنسانية، كما تتشرب نفسه مجموعة من الآداب والأخلاق، وهي في صميمها آداب المجتمع الإسلامي[٢].

فرعاية المولود عمل إنساني كريم أمرنا به الإسلام، فيجب الحفاظ على وجوده، ومعاملته معاملة كريمة تقوم على الود والرحمة، وإرشاده، وتعليمه، وحمايته من الفقر والحاجة، ورعاية ضعفه وغربته.

والأطفال الذين يتربَّون في أُسَر ويكونون فيها بمنزلة الأبناء، لا يُعتبر هذا العمل من قبيل التبني؛ إنما هو من قبيل الرعاية الخاصة؛ لأن الأُسَر التي تضم هؤلاء الأطفال لا تعتبرهم منها دمًا ولحمًا ولا نسبًا ولا إلحاقًا، ولا يكون لهم حقوق الأبناء في حكم الشرع، فلا يثبت تحريم الزواج بهم، ولا يثبت لهم الميراث، ولا يثبت لهمم نفقة شرعية[٣].

على أن تتولى دور الرعاية الإنفاق عليهم وزيارتهم من وقت لآخر، وكل ذلك لمصلحة الطفل وتربيته تربية صحيحة، تجعله مواطنًا صالحًا في مجتمعه، بدلًا من أن يكون عامل هدم لمجتمعه؛ لأنه لم يجد من يتكفل برعايته والعناية به.

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، الأمومة، البنوة

(١) فتاوى اللجنة الدائمة، جمع أحمد بن عبد الرزاق الدويش ١٤/ ٢٥٥.

(٢) انظر: دستور الأسرة في ظلال القرآن، أحمد فايز، ص ٣٥٤- ٣٦٨.

(٣) تنظيم الإسلام للمجتمع، أبو زهرة ص ١٢٩- ١٣٠.



عناصر الموضوع

مفهوم التثبت

أولًا: المعنى اللغوي:

التثبت مأخوذ من الفعل ثبت، ويطلق في اللغة على أمور:

التأنّي أو التريّث وعدم الاستعجال، تقول: تثبّت في الأمر والرأي، واستثبت: تأنّى فيه ولم يعجل، واستثبت في أمره: إذا شاور وفحص عنه[(١)].

١. طلب ما يكون به الثبات على الأمر؛ أي: لزومه وعدم التحوّل عنه أو تجاوزه إلى غيره، وبعبارةٍ أخرى؛ طلب الدليل الموصل إلى الثبات على الأمر، فيقال: فلان ثابت عندي، ونبوة النبي صلى الله عليه وسلم ثابتة[(٢)].

٢. التأكّد من حقيقة ما يعين على الثبات في الأمر، وبعبارة أخرى: فحص الدليل الموصل إلى الثبات في الأمر، تقول: أثبت الأمر: حقّقه، صحّحه، وأثبت الكتاب: سجّله، وأثبت الحقّ: أقام حجّته، وأثبت الشيء: عرفه حقّ المعرفة[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يمكن تعريف التثبت بأنه: التأني وعدم التسرع في كل الأحوال التي يقع للإنسان فيها نوع اشتباه، حتى يتضح له الأمر، ويتبين الرشد والصواب والحقيقة، وإفراغ الجهد والوسع لمعرفة حقيقة الحال المراد[(٤)].

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ١٩١، مختار الصحاح، الرازي ص٤٨، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ١٩.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٧١.
(٣) انظر: أساس البلاغة، الزمخشري ١/ ٦٩، مختار الصحاح، الرازي ص٤٨.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٧٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٨٢، الموسوعة الفقهية الكويتية ١٠/ ١٤٢.



التثبّت في الاستعمال القرآني

ورد لفظ (التثبّت) في القرآن الكريم (٣) مرات، في سورتين، في قراءة حمزة والكسائي وخلف[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
فعل الأمر	٣	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَثَبَّتُواْ﴾ [النساء:٩٤]

وجاء التثبت في القرآن الكريم بمعناه اللغوي الذي يدور حول التأني والتريث وعدم الاستعجال.

(١) انظر: معاني القراءات، الأزهري ١/ ٣١٥، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، عبد الفتاح القاضي ص٨٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ التبين:

التبين لغة:

مصدر تبيّن إذا تثبّت في الأمر. ويقال: تبيّنت الأمر أي: تأمّلته وتوسّمته، واستبنت الشّيء إذا تأمّلته حتّى تبيّن لك. والبيان: ما بيّن به الشّيء من الدّلالة وغيرها. وبان الشّيء بيانًا: اتّضح، فهو بيّن، وكذلك أبان الشّيء فهو مبين. وأبنته أنا أي: أوضحته، واستبان الشّيء: ظهر. واستبنته أنا: عرفته، وتبيّن الشّيء: ظهر[(١)].

التبين اصطلاحًا:

مرتبة من مراتب وصول العلم يراد بها طلب الحقيقة بعد التباسها.

يقول الكفويّ: «اعلم أنّ مراتب وصول العلم إلى النّفس: الشّعور ثمّ الإدراك ثمّ الحفظ ثمّ التّذكّر ثمّ الذّكر ثمّ الرّأي، وهو استحضار المقدّمات وإجالة الخاطر فيها، ثمّ التّبيّن وهو علم يحصل بعد الالتباس، ثمّ الاستبصار وهو العلم بعد التّأمّل... »[(٢)].

الصلة بين التثبت والتبين:

يرى بعض أهل العلم أن التثبت والتبين بمعنى واحد، وذلك عند توجيههم لقراءة ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، و﴿فتثبتوا﴾[(٣)].

ويرى بعضهم أن المعنيين متقاربان؛ لأن من تبيّن فقد تثبّت، ومن تثبّت فقد تبيّن[(٤)].

ويرى بعض أهل العلم أن بينهما فرقًا، فقد ذكر أبو علي الفارسي في توجيهه لقراءة ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، و﴿فتثبتوا﴾ أن التثبّت هو خلاف الإقدام، والمراد: التأنّي، ومما يقوّي ذلك قولهم: تثبّت في أمرك. ولا يكاد يقال في هذا المعنى: تبيّن.

وأما التبيّن فليس وراءه شيء، وقد يكون تبينت أشدّ من تثبّت[(٥)].

ومن الفروق بينهما: أن «المراد من التبين: التعرّف والتفحص، ومن التثبت: الأناة وعدم العجلة، والتبصر في الأمر الواقع، والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر»[(٦)].

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٨٣، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٦٧.
(٢) الكليات، الكفوي ص٨٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٨١، معاني القراءات، الأزهري ١/ ٣١٥.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٨٦، الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه ص١٢٦.
(٥) انظر: الحجة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي ٣/ ١٧٤.
(٦) فتح القدير، الشوكاني ٧/ ١٠.



والراجح أن بينهما فرقًا، فلو لم يكن بينهما فرق لما جاءت القراءة الأخرى باللفظ الآخر، فهناك فرق بينهما، والذي أراه -والله أعلم- أن التبين يكون بالبحث في الوسائل المادية التي من شأنها أن ترى وتبان، بينما التثبت يكون من جهة الأمور المعنوية كالسماع.

٢ النظر:

النظر لغةً:

يقصد به في اللغة التأمل والتفحّص، يقال: نظره، أي: تأمّله بعينه[(١)].

وعبارة الراغب: «نظرت إلى كذا -إذا مددت طرفك إليه-: رأيته أو لم تره، ونظرت فيه: إذا رأيته وتدبرته»[(٢)].

النّظر اصطلاحًا:

تقليب البصر والبصيرة؛ لإدراك الشيء ورؤيته، وقيل: هو التحديق لإدراك الصور، في أول مراتب الإبصار، ثم تليه الرّؤية، وهي من لوازمه.

الصلة بين التثبت والنظر:

يتضح من خلال تعريف التثبت والنظر أن النظر وسيلة من وسائل التثبت.

٣ التبصر:

التبصر لغة:

مصدر قولهم: تبصّر الشّيء إذا نظر إليه هل يعرفه؟ وهو مأخوذ من مادّة (ب ص ر) الّتي تدلّ على العلم بالشّيء، ومعناه: التّأمّل والتّعرّف، أمّا التّبصير فهو التّعريف والإيضاح، يقال: بصّره بالأمر تبصيرًا وتبصرة فهّمه إيّاه[(٣)].

التبصر اصطلاحًا:

يمكن تعريفه بأنه النّظر إلى الشّيء بقصد معرفته[(٤)].

وعرّفه القرطبي بأنه «معرفة الشّيء على الحقيقة من خلال البراهين»[(٥)].

ويمكن تعريفه بأنه: «طلب معرفة الأمور على حقيقتها من خلال البراهين الحسّيّة الّتي

---

(١) المعجم الاشتقاقي، محمد جبل ٤/ ٢٢١٩.
(٢) المفردات ص٨١٢.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٦٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٢٢٣.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٦٥.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٤٣.

يمكن للعين رؤيتها، وللبصيرة (أي: قوّة القلب المدركة) تأمّلها واعتقاد صحّتها»[١].

الصلة بين التثبت والتبصر:

يلاحظ أن التبصر وسيلة من وسائل التثبت.

ولا شكّ بأنّ كلّ لفظة من ألفاظ القرآن الكريم لها كيانها الخاص بها، ومعانيها التي لا يمكن أن تحملها لفظة أخرى من ألفاظ الكتاب العزيز، وإنما يكون الاشتراك بين بعض الألفاظ في جزء من المعاني، لا في كلها.

٤ العجلة:

العجلة لغة:

العين والجيم واللام أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الإسراع، والآخر على بعض الحيوان، والجمع عجل وعجلات، والعجل والعجلة: خلاف البطء[٢].

العجلة اصطلاحًا:

قال الرّاغب: «العجلة: طلب الشّيء وتحرّيه قبل أوانه»[٣].

وقال المناوي: «العجلة: فعل الشّيء قبل وقته اللّائق به»[٤].

الصلة بين التثبت والعجلة:

العجلة من الألفاظ المقابلة للتثبت، فهي ضد التثبت.

(١) نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٨/ ٣٥١٧-٣٥١٨.
(٢) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٦٤٩.
(٣) المفردات ص٣٢٣.
(٤) التوقيف، ص٢٣٧.



أهمية التثبت

إن للتثبت أهمية عظيمة في حياة الناس، فعندما يبني الإنسان تصوراته، ويصدر أحكامه على أساس من العلم، وليس الظن والتخريص، فإن ذلك يحميه من الوقوع في ظلم الناس، واتهامهم في أعراضهم وأموالهم[1].

والتثبت يعدّ من أجل الآداب والأخلاق التي طالب الشرع بالتحلي بها والاتصاف بها. وإن من يتأمل في واقع الناس اليوم، وينظر في الكم الهائل من الأخبار التي نسمعها في كل يوم، ويرى الاختلاف والتباين بين مصادر هذه الأخبار، يدرك عظمة هذا الدين، وسمو هذا المنهج الذي دعا إليه الإسلام، وأمر به القرآن والسنة.

ولذلك يقول سيد قطب: «التثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة، ومن كل حركة قبل الحكم عليها، هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق.

ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل، ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم»[2].

وقد جاء الأمر بالتثبت في نصوص كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

قال الشيخ السعدي: «والتثبت في سماع الأخبار وتمحصيها ونقلها وإذاعتها، والبناء عليها أصل كبير نافع، أمر الله به رسوله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ فأمر بالتثبت، وأخبر بالأضرار المترتبة على عدم التثبت، وأن من تثبت لم يندم، وأشار إلى الميزان في ذلك في قوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ وأنه العلم والتحقق في الإصابة وعدمه، فمن تحقق وعلم كيف يسمع، وكيف ينقل وكيف يعمل، فهو الحازم المصيب، ومن كان غير ذلك فهو الأحمق الطائش الذي مآله الندامة»[3].

وعبر في الآية بحرف «إن» الذي يفيد التشكيك، ولم يقل: «إذا» لأنها تفيد التحقيق؛ ليبرهن على أن وقوع مثل هذا الحدث في المجتمع الإسلامي على سبيل الندرة، وأن الأصل في المؤمن الصدق.

والأمر في الآية بالتثبت من خبر الفاسق

(١) انظر: أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية، عبدالله عودة ص٥٢.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٢٧.

(٣) الفتاوى السعدية ص٦٦-٦٧.

«لأن الفاسق ضعيف الوازع الديني في نفسه، وضعف الوازع يجرؤه على الاستخفاف بالمحظور، وبما يخبر به في شهادة أو خبر يترتب عليهما إضرار بالغير أو بالصالح العام، ويقوي جرأته على ذلك دومًا إذا لم يتب ويندم على ما صدر منه ويقلع عن مثله»[1].

وتتضح أهمية التثبت في العلة والنتائج التي أمر الله من أجلها بالتثبت، فالعلة في قوله: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ «أي: تثبتوا - أيها المؤمنون- من صحة خبر الفاسق؛ لئلا تصيبوا قومًا بما يؤذيهم، والحال أنكم تجهلون حقيقة أمرهم، أو خشية أن تصيبوا قومًا بجهالة؛ لظنكم أن النبأ الذي جاء به الفاسق حقًّا»[2].

وأما النتائج المترتبة على عدم التثبت فذلك قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ أي: فتندموا على ما فرط منكم وتتمنّوا أن لو لم تكونوا فعلتم ذلك.

فالآية ترشدنا إلى وجوب التثبت من الأخبار، والتحذير من الاعتماد على مجرد الأقوال؛ منعًا من إلقاء الفتنة بين أفراد وجماعتهم، وأخذًا بالحيطة والحذر، وعدم إيذاء الآخرين بخطأ فادح، فيصبح المتسرع في الحكم والتصديق نادمًا على العجلة، وترك التأني والتأمل.

وما أحوجنا في هذا الزمان لهذا الأدب الذي سهل فيه انتشار الأخبار بسرعة مذهلة، فبمجرد ضغطة زر ينتشر الخبر على الآلاف بل ملايين البشر، وبعض الناس لا يحتاج أن يضغط زرًّا، بل هو بنفسه مذياع ما أن يسمع الخبر إلا ويطير به طيرانًا، وهو لم يتأكد بعد من صحة الخبر وتفاصيله وأحداثه، وإنما تلقّفه ونشره وأذاعه.

قال ابن الجوزي مبينًا أهمية التثبت: «ما اعتمد أحد أمرًا إذا هم بشيء مثل التثبت، فإنه متى عمل بواقعة من غير تأمل للعواقب، كان الغالب عليه الندم، ولهذا أمر الإنسان بالمشاورة؛ لأن الإنسان بالتثبت يطول تفكيره، فتعرض على نفسه الأحوال، وكأنه شاور، وقد قيل: «خمير الرأي خير من فطيره».

وأشد الناس تفريطًا من عمل مبادرة في واقعة من غير تثبت ولا استشارة، خصوصًا فيما يوجب الغضب، فإنه بنزقه طلب الهلاك واستتبع الندم العظيم، فالله الله، التثبت، التثبت في كل الأمور، والنظر في عواقبها»[3].

وإذا كانت آية سورة الحجرات أمرت بالتثبت في جميع الأحوال، فإن التثبت في حال الحروب آكد من غيرها؛ لكثرة

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٣١.
(٢) الوسيط، سيد طنطاوي ١٣/ ٣٠٥.
(٣) صيد الخاطر، ابن الجوزي ص٣٨٥.

الإشاعات والمغرضات في التثبيط من العزائم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

وببيان سبب نزول الآية يتبين المراد، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رجل في غنيمة له، فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك إلى قوله: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1].

«فإذا كان من خرج للجهاد في سبيل الله، ومجاهدة أعداء الله، وقد استعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم، مأمورًا بالتبين لمن ألقى إليه السلام، وكانت القرينة قوية في أنه إنما سلّم تعوذًا من القتل وخوفًا على نفسه - فإن ذلك يدل على الأمر بالتبين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فيتثبت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر ويتبين الرشد والصواب ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازي كلًّا ما عمله ونواه، بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم»[2].

قال الطبري في تفسير الآية: «فتأنوا في قتل من أشكل عليكم أمره، فلم تعلموا حقيقة إسلامه ولا كفره، ولا تعجلوا فتقتلوا من التبس عليكم أمره، ولا تتقدموا على قتل أحد إلا على قتل من علمتموه يقينًا حربًا لكم ولله ولرسوله»[3].

نرى هنا أهمية التثبت كيف وضّحها الله سبحانه وتعالى، حتى في الحرب طلب منا التثبت، وهي مظنة قتال وخداع وغيره من أمور الحروب التي جرت عليها.

ويزداد هذا الواجب توكيدًا إذا تعلّق الأمر بالدّماء والأعراض والأحكام الشّرعيّة؛ لما في انتشار الأخبار الكاذبة من ضرر عظيم، وشرّ جسيم.

وتتبين أهمية التثبت في ذم الله تعالى المسارعين في نقل الأخبار، فقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

وتتجلى أهمية التثبت في معرفة الأضرار الكثيرة الواقعة على الفرد والمجتمع من جراء عدم التثبت، فـ«المشاهد والواقع أن عدم التثبت وعدم التأني يؤديان إلى كثير من الأضرار والمفاسد، فقد يسمع

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنًا)، رقم ٤٥٩١، ٦/ ٤٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٩٤.

(٣) جامع البيان، الطبري ٩/ ٧٠.

الإنسان خبرًا، أو يقرأ نبأ في صحيفة، أو مجلة، فيسارع بتصديقه، ويعادي ويصادق، ويبني على ذلك التصرفات والأعمال التي يصدرها للمقاومة أو الموافقة، على أساس أنه حق واقع، ثم يظهر أنه كان مكذوبًا، أو محرفًا، أو مزورًا، أو مبالغًا فيه، أو مرادًا به غير ما فهمه الإنسان، ومن هنا يكتوي المتسرع بلهب الندم والحسرة بسبب استعجاله وعدم تثبته»[1].

وتأكيدًا لأهمية التثبت، وزيادة في الحرص على عدم ذيوع الإشاعات والأكاذيب في المجتمع، فقد أمرت الشريعة الإسلامية المؤمنين بالإعراض عن جميع أنواع اللغو وبأية صفة كانت وهيئة تبدّت، فهي من أعمال الجهل المنهي عنها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٣].

فقد بيّنت الآيات أن التثبت والإعراض عن لغو الكلام سبب من أسباب الفلاح، وأن ذلك صفة ملازمة للمؤمنين.

ولأجل ذلك حذر الشارع أشد التحذير من نقل الشخص لكل ما يسمعه، فعن حفص بن عاصم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كفى بالمرء كذبًا أن يحدّث بكل ما سمع)[2].

قال الإمام مالك: «اعلم أنّه ليس يسلم رجل حدّث بكل ما سمع، ولا يكون إمامًا أبدًا وهو يحدّث بكل ما سمع»[3].

قال النووي: «وأما معنى الحديث والآثار التي في الباب ففيها الزجر عن التحديث بكل ما سمع الإنسان، فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب، فإذا حدّث بكل ما سمع فقد كذب؛ لإخباره بما لم يكن، وقد تقدم أن مذهب أهل الحق أن الكذب الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو، ولا يشترط فيه التعمد، لكن التعمد شرط في كونه إثمًا»[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين ما فيها، يهوي بها في النار، أبعد ما بين المشرق والمغرب)[5].

ففي قوله صلى الله عليه وسلم: (ما

(١) الحكمة في الدعوة إلى الله، سعيد بن وهف القحطاني ص١٧١.

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع ١/ ١٠.

(٣) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه ١/ ١١.

(٤) شرح صحيح مسلم ١/ ٧٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق. باب حفظ اللسان، رقم ٦٤٧٧، ٨/ ١٠٠، ومسلم في صحيحه. كتاب الزهد والرقائق، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار، رقم ٢٩٨٨، ٤/ ٢٢٩٠.

يتبين فيها) بيان أنه لا يتثبت من الخبر، ولا ما يدور حوله من معطيات ربما تكذّب هذا الخبر، فيكون أحد الكاذبين؛ لأنه استعجال دون تبين وتروي في الكلام.

ولذلك قال ابن حجر رحمه الله: «لا يتطلب معناها، أي: لا يثبتها بفكره، ولا يتأملها حتى يتثبّت فيها فلا يقولها إلا إن ظهرت المصلحة في القول»[1].

وأخبر سبحانه أن الإنسان مسؤول أمام الله عز وجل ومحاسب عن كل صغير وجليل فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]

وتظهر أهمية التثبت في حثّ النبي صلى الله عليه وسلم على التأني في الأمور كلها، فقال: (التأني من الله، والعجلة من الشيطان)[2].

فقوله: (التأني من الله) أي: مما يرضاه، وأمر به، ويوفّق إليه، ويثيب عليه (والعجلة من الشيطان) أي: هو الحامل عليها بوسوسته؛ لأن العجلة تمنع من التثبت والنظر في العواقب[3].

والشّاهد من هذه النّصوص هو: الأمر بالتثبّت في الأخبار الّتي ينقلها النّاس، هذا في عصر الهدى والنّور، والعلم والإيمان، فكيف بزمن قلّ فيه ذلك كلّه؟!

ومن خلال ما سبق يتضح أن التثبت من كل الأخبار والأحداث قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم ومنهج الإسلام الدقيق، حيث إن تلقّف الأخبار بغير تبين وتروي قد يحيلها أحيانًا إلى غير مقاصدها، وينتج عنها بعد ذلك خطر عظيم، والاستماع إلى الكذب لا يجوز؛ لأن مداومة الاستماع إليه مدعاة لتصديقه وترديده وترويجه بين الناس، وقد يلتقط بعض السامعين الأحاديث الكاذبة، ويرويها دون أن يبين حقيقتها، فيأخذها غيره ويرويها على أنها أحاديث صادقة وحقائق واقعة، وقد يؤدي الاستماع إلى الباطل والأكاذيب إلى استقرار شيء منها في النفس ولو بدون قصد.

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٣١١.
(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، رقم ٢٠٢٧٠، ١٠/ ١٧٨، وأبو يعلى في مسنده، رقم ٤٢٥٦، ٧/ ٢٤٧.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤/ ٤٠٤.
(٣) انظر: فيض القدير، المناوي ٣/ ١٨٤.

مجالات التثبت

التثبت منهج إسلامي واضح المعالم، يقوم على صدقية الخبر وسلامة النقل، وهو أدب اجتماعي عام ضروري للحفاظ على وحدة الأمة، والناظر المتأمل سيجد أن التثبت له علاقة بكل مجالات الحياة المتنوعة، وليس هناك مجال إلا والتثبت أساس فيه، وهذا بيان لبعض المجالات التي يقوم عليها التثبت.

أولًا: المجال العلمي:

إن أوجب ما يدخله التثبت هو المجال العلمي بكل أنواعه وتفاصيله، بل إذا تأملنا لوجدنا أن التثبت هو العلم، والعلم هو معرفة الأمور على حقيقتها، وأخص ما يدخله التثبت في المجال العلمي التثبت في النواحي الدينية.

ويناول البحث في موضوع التثبت في النواحي الدينية أمرين:

الأول: التثبت في نقل كلام الله تعالى.

يقول ابن القيم: «وقد حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فرتّب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريمًا منه وهو الإثم والظلم، ثم ثلّث بما هو أعظم تحريمًا منهما وهو الشرك به سبحانه، ثم ربّع بما هو أشد تحريمًا من ذلك كله، وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه»[(١)].

إن التقول على الله بغير علم ولا دليل «هو سبب تحريف الأديان، والابتداع في الدين الحق، وهو منهج أدعياء التجديد، وتخطي الشريعة باسم الاجتهاد»[(٢)].

إن من أخطر أنواع التثبت: التثبت في القول على الله تبارك وتعالى؛ لأن القول على الله بغير علم من أشد المحرمات، كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

أي: «في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، فكل هذه قد حرمها الله، ونهى العباد عن تعاطيها؛ لما فيها من المفاسد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجرؤ على الله، والاستطالة على عباد الله، وتغيير دين الله وشرعه»[(٣)].

فلابد إذن من الحذر في القول على الله بغير علم، فإنه كذب وحرام، وكثيرًا ما

(١) إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ٣٨.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٨/ ١٩٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٨٧.

نسمع الناس يقولون: قال الله في الحديث القدسي، بدون تثبت من مصدر هذا القول، ناسبين إليه سبحانه ما لم يقله، فلماذا هذه الجرأة على الله؟! ولماذا هذا التسرع وعدم التثبت في القول على الله؟!

ومن هنا كان القول على الله بغير علم سببًا للضلال والإضلال.

إن حاجة العلماء والدعاة وطلاب العلم إلى التثبت في النقل عن الله -خاصة في مجال الفتيا- ماسة وخطيرة؛ لأنهم من يصدر الأحكام، ويطبّق النصوص على الوقائع والأقوال، فلا بد من التثبت من الواقعة وملابسات حدوثها، وصحة صدور القول من قائله، ومراده منه ومقصده، والتحري من توافق ذلك مع النص عند تنزيله عليه.

إنّ ثمة حقيقة لا شك فيها؛ وهي أن الساحة الإسلامية تشهد فوضى فقهية تطاول فيها بعض أدعياء العلم وأنصاف المثقفين على الفتوى، فراحوا يخوضون فيها بدون ورع أو تثبّت، بل تجرؤوا على المسائل الكبار التي لو عرضت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع لها أهل بدر[(١)].

والعجيب أنّ بعض الناس عندما تراجعه في بعض تلك الفتاوى والآراء، يبادرك بضرورة اتساع الصدر للرأي المخالف؛ لأنه ما زال العلماء يختلفون ولا ينكر بعضهم على بعض! وهذا حق لا شك فيه لو أنّه صادر عمن يحق له الفتوى والاجتهاد من أهل العلم الراسخين، أما وإنه صادر في أغلب الأحوال عن غير أهله؛ فكيف يراد منا أن نعذر فيه المخالف؟! ونحسب أن بعض المفتين في هذا الزمان أحق بالسجن من السّرّاق![(٢)].

والأخطر من هذا أن بعض محاضن الصحوة الإسلامية لم تسلم من هذه الفوضى الفقهية والمنهجية، وإذا كان المربون وروّاد العمل الدعوي يتحدثون في وقت مضى عن الموازنة بين العزائم والرّخص؛ فإن بعض المعاصرين تجاوزوا الرّخص إلى الوقوع في بعض المنكرات الواضحات بحجة الواقعية، وتغيّر الزمان، وعموم البلوى، وضرورة تقديم المصالح الدعوية، وإعادة قراءة مقاصد الشريعة، ونحوها من المعاذير الباردة التي أوجدت مناخًا دعويًّا مهيّأً للتفلت من القيود الشرعية، ولا نبالغ إذا قلنا: إن بعض الدعاة أصبحوا لا يتورعون عن ممارسة بعض المناورات السياسية والحزبية، ويقع أحيانًا فيما تقع فيه بعض التجمعات الحزبية العلمانية!

(١) انظر: أدب المفتي والمستفتي، ابن الصلاح ص٧٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٨٥.

الثاني: التثبت في نقل كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

التثبت في النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ضروري، والأصل فيه قوله صلى الله عليه وسلم: (**من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**)(١).

وروى مسلم في صحيحه: أنّ بشير العدوي جاء إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فجعل يحدّث ويقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم... فجعل ابن عباس رضي الله عنهما لا يأذن (أي: لا يصغي) لحديثه، ولا ينظر إليه، فقال: يا ابن عباس! ما لي لا أراك تسمع لحديثي؟ أحدثك عن رسول الله ولا تسمع! فقال ابن عباس: إنّا كنا مرّة إذا سمعنا رجلًا يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بآذاننا؛ فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف(٢).

وهذا النص يفيد أنّ العلماء والأئمة كانوا يتثبّتون أشدّ التثبّت في تلقّي العلم، ويتحرّون في نقلته ورواته، وبخاصة بعد أن ظهرت الفتن وكثر الابتداع؛ ولهذا قال محمد بن سيرين: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد؛ فلما وقعت الفتنة قالوا: سمّوا لنا رجالكم؛ فينظر إلى أهل السنّة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع ولا يؤخذ حديثهم»(٣).

ولأهمية التثبت في النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان السلف يحتاطون ولا يأخذون برواية الضعيف، فعن ابن أبي الزناد: «أدركت بالمدينة مائة مأمون، ما يؤخذ عنهم الحديث، يقال: ليس من أهله»(٤).

وقد كان للصحابة رضي الله عنهم منهج واضح في تلقي الأخبار والروايات، فقد كانوا إذا بلغهم الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتاطون في قبوله بطلب الشهادة أو اليمين؛ لمزيد من التأكيد والتثبت.

فعن قبيصة بن ذؤيب، أنه قال: جاءت الجدة إلى أبي بكر الصديق تسأله ميراثها، فقال: ما لك في كتاب الله تعالى شيء، وما علمت لك في سنة نبي الله صلى الله عليه وسلم شيئًا، فارجعي حتى أسأل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، رقم ١٢٢٩، ١/ ٤٣٤، ومسلم في صحيحه، في المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٣، ١/ ١٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في المقدمة، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء، رقم ٧، ١/ ١٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، في المقدمة، باب إن الإسناد من الدين، رقم ٩، ١/ ١٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، في المقدمة، ١/ ١٥.

الناس، فسأل الناس، فقال المغيرة بن شعبة: حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاها السدس، فقال أبو بكر: هل معك غيرك؟ فقام محمد بن مسلمة، فقال مثل ما قال المغيرة ابن شعبة، فأنفذه لها أبو بكر، ثم جاءت الجدة الأخرى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه تسأله ميراثها، فقال: مالك في كتاب الله تعالى شيء، وما كان القضاء الذي قضي به إلا لغيرك، وما أنا بزائد في الفرائض، ولكن هو ذلك السدس، فإن اجتمعتما فيه فهو بينكما، وأيتكما خلت به فهو لها[(١)].

وعن أسماء بن الحكم قال: سمعت عليًّا يقول: كنت رجلًا إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثًا نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته، فإذا حلف لي صدقته[(٢)].

ومن هنا نشأ علم الجرح والتعديل، وعلم التصحيح والتضعيف، ومعرفة ما صح وما لم يصح من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وشنّ العلماء حملة ضارية على رواة الأحاديث الموضوعة؛ لما في ذلك من كذب صريح على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإن من الإثم العظيم تساهل الناس اليوم في نقل ورواية الأحاديث الموضوعة في أبواب الترغيب والترهيب، والوعظ، وغير ذلك، وهؤلاء سيكون خصمهم يوم القيامة النبي صلى الله عليه وسلم الذي توعّدهم بقوله: (من حدّث عني بحديث يرى أنه كذب، فإنه أحد الكاذبين)[(٣)].

وما أجمل كلام ابن العربي حين يقول: «على الناس أن ينظروا في أديانهم نظرهم في أموالهم، وهم لا يأخذون في البيع دينارًا

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٩٨٠، ٢٩/ ٤٩٩، وأبو داود في سننه، كتاب الفرائض، باب في الجدة، رقم ٢٨٩٤، ٤/ ٥٢١، والترمذي في سننه، أبواب الفرائض، باب ما جاء في ميراث الجدة، رقم ٢١٠٠، ٣/ ٤٩٠، والنسائي في سننه، كتاب الفرائض، باب ذكر الجدات والأجداد، ومقادير نصيبهم، رقم ٦٣٠٥، ٦/ ١١١، وابن ماجه في سننه، كتاب أبواب الفرائض، باب ميراث الجدة، رقم ٢٧٢٣، ٤/ ٢٦، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم ١٢٣٣٧، ٦/ ٣٨٤، والحاكم في المستدرك، رقم ٧٩٧٨، ٤/ ٣٧٦.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». ولم يتعقبه الذهبي. وضعفه الألباني في إرواء الغليل ٦/ ١٢٤.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب أبواب فضائل القرآن، باب في الاستغفار، رقم ١٥٢١، ٢/ ٦٣٠، والترمذي في سننه، كتاب أبواب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة عند التوبة، رقم ٤٠٦، ١/ ٥٢٤، والنسائي في سننه، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يفعل من بلي بذنب وما يقول، رقم ١٠١٧٥، ٩/ ١٥٩. وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، في المقدمة، باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكذابين، رقم ١، ١/ ٨.

معيبًا، وإنما يختارون السالم الطيب؛ كذلك في الدين لا يؤخذ من الروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا ما صح سنده؛ لئلا يدخل في خبر الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينما هو يطلب الفضل إذا به قد أصاب النقص، بل ربما أصاب الخسران المبين»[(١)].

ثانيًا: المجال الأمني:

لا يخفى على أحد أهمية الأمن للفرد والمجتمع والدولة، بل وللعالم أجمع؛ وذلك لما يتحقق في الحياة الآمنة من استقرار وهدوء، ونهضة إنسانية في جميع المجالات الحيوية.

ومن ضمن مقاييس قوة الدولة اليوم هو مدى ما يتحقق فيها من الأمن والأمان للقاطنين والمقيمين فيها.

كما أن الأمن أصبح في العصر الحاضر مطلبًا مهمًّا، وضرورة ملحة، ومبتغى عزيزًا في ظل الظروف القلقة والأحداث الدامية، والعواصف المدمرة التي تشهدها كثير من الدول والمجتمعات العالمية.

ومن هنا تنبع أهمية التثبت في المجال الأمني، وقد أنكر الله سبحانه وتعالى على من نشر كل خبر جاءه في أمن أو خوف دون التثبت ومراجعة أهل الاستنباط بذلك الخبر فقال: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣].

يقول الشيخ السعدي: «هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق. وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها. فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطًا للمؤمنين وسرورًا لهم وتحرزًا من أعدائهم فعلوا ذلك. وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة. وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يولّى من هو أهل لذلك ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ. وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٦/ ٤٤٠.

الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيقدم عليه الإنسان؟ أم لا فيحجم عنه؟ »[1].

وقد ورد من الأسباب التي نزلت لأجلها الآية ما يوضح أهمية التثبت في الناحية الأمنية، وعدم الاستعجال بإذاعة الأخبار التي تضر بأمن واستقرار الأفراد والمجتمعات، فقد ذكر أنها نزلت في أهل النفاق أو ضعفاء الإيمان، كانوا إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف من الأعداء، أذاعوا بالحديث، حتى يبلغ عدوهم أمرهم[2].

ولذلك قال الزمخشري حول هذه الآية:

«هم ناس من ضعفة المسلمين الذين لم تكن فيهم خبرة بالأحوال ولا استبطان للأمور، كانوا إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من أمن وسلامة أو خوف وخلل ﴿أَذَاعُوا بِهِۦ﴾ وكانت إذاعتهم مفسدة، ولو ردوا ذلك الخبر إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وإلى أولى الأمر منهم- وهم كبراء الصحابة البصراء بالأمور أو الذين كانوا يؤمرون منهم- ﴿لَعَلِمَهُ﴾ علم تدبير ما أخبروا به ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ الذين يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها»[3].

ففي الآية إنكار على من يبادر إلى نقل الأمور قبل التحقق منها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها أساس من الصحة.

فنفهم من الآية أنه قد يذاع الخبر عن اضطرابات أمنية من مصادر غير موثوقة إلى الجهلة أو المنافقين، أو ضعفة المسلمين الذين لا خبرة لهم بالقضايا العامة، فيبادرون إلى إذاعته ونشره، وترويجه بين الناس، وهذا أمر منكر يضر بالمصلحة العامة، وتحصل به المفسدة.

«ولا يخفى أنه ينبغي التنبه للآثار السيئة لعدم التثبت على مستوى الأمن الخاص والعام، وأنه يجب تفويت الفرص على مروجي الإشاعات في محاولاتهم اختراق أمن المجتمعات الإسلامية، والعبث في مقوماتها، ومحاولة البعض الفتك بنفسية الأفراد والمجتمعات، وجعلهم فريسة سهلة للآراء والأفكار والدعاوى السيئة؛ لكي يقوموا بتنفيذ أغراضهم وأهدافهم، وينفثوا سمومهم الخبيثة في المجتمعات الآمنة، والسعي لترويج مناهجهم المنحرفة وأفكارهم الفاسدة»[4].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٩٠.
(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٢/ ٦٠١.
(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٤١.
(٤) الإشاعة وآثارها في المجتمع، عبد الرحيم المغذوي ص٢٩٠.

ثالثًا: المجال الاجتماعي:

«ينفرد المجتمع الإسلامي عن سائر المجتمعات الأخرى أنه مجتمع انبثق من العقيدة الإسلامية، فالعلاقة الاجتماعية التي تربط أفراده تقوم على أساس العقيدة الإسلامية»[(١)].

والمجتمع في نظر الإسلام لا يقوم على الروابط المادية فقط، بل هنالك ما هو أهم، وهو الروابط الإيمانية والأخلاقية والأدبية، وهذا ما يفسر لنا قيمة المجتمع المسلم وتميزه عن غيره من المجتمعات، بل إن الإسلام ذهب إلى أبعد من ذلك، حينما «عمل على إقامة ذلك المجتمع الفاضل في كل أنحاء الأرض؛ لأنه دين يخاطب الإنسانية كلها»[(٢)].

«والإسلام يربي أبناءه وأفراد مجتمعه على التحلي بمعاني الإيمان، وما يفرضه عليه من التزام ومسئولية تجاه نفسه أولًا، وتجاه المجتمع الكبير الذي يعيش فيه ثانيًا»[(٣)].

ومن لوازم تلك المسئولية وجوب التثبت فيما يخص العلاقات الاجتماعية من زواج وطلاق، وما يحدث بين الجيران من علاقات سلبية، وما يحدث في المجتمع من مجريات الحياة المتنوعة.

ومن لوازم تلك المسئولية أيضًا: عدم القيام بإيذاء المجتمع بأي نوع من أنواع الإيذاء الحسي والمعنوي، ولعل عدم التثبت وما يجره من نشر الشائعات في العلاقات الاجتماعية من أخطر أنواع الإيذاء الاجتماعي.

وقد ندبت الشريعة الإسلامية إلى كل ما يكفل على المسلمين وحدتهم، ويحقق مقاصدهم، ويحفظ اجتماعهم من الإشاعات المغرضة الفاسدة الناتجة عن عدم التثبت.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وحذرت من كل ما من شأنه أن يشيع الفاحشة في المجتمع ويقطع أوصاله ونسيجه فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

ولعل من أخطر الأمثلة على تأثير عدم التثبت على العلاقات في المجتمع المسلم، ما حدث في قصة الإفك التي رميت بها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وفي هذه

---

(١) مجتمعنا المعاصر، عبدالله المشوخي ص٣٧.
(٢) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، أبو زهرة ص١٢٢.
(٣) الدعوة وصلتها بالحياة، عبد الرحيم المغذوي ص٢٢٢.

الحادثة التي هزت كيان المجتمع الإسلامي حينئذ هزًّا عنيفًا العديد من الدروس والفوائد التي ينبغي لكل فرد في المجتمع المسلم أن يقف عندها ويستفيد منها، ويحذر كل الحذر من عدم التثبت والإشاعات المغرضة.

وهذه القصة يتضح فيها كيف كان تأثير عدم التثبت على علاقة النبي صلى الله عليه وسلم بعائشة رضي الله عنها ، وعلى علاقة الذين خاضوا في الإفك برسول الله صلى الله عليه وسلم وعائشة رضي الله عنها وأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكذلك على علاقة المجتمع الإسلامي ببعضه في ذلك الوقت.

ولعل ما يفسر ذلك ما جاء في الحديث: (فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، وقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي)، فقام سعد بن معاذ، فقال: يا رسول الله، أنا والله أعذرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا، ففعلنا فيه أمرك، فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا ولكن احتملته الحمية - فقال: كذبت لعمر الله، لا تقتله، ولا تقدر على ذلك، فقام أسيد بن حضير فقال: كذبت لعمر الله، والله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج، حتى هموا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فنزل، فخفضهم حتى سكتوا)[(١)].

والمتأمل في أحداث واقعة الإفك يجد «أن مروج شائعة الإفك هذه، والتي هزت كيان المجتمع الإسلامي حينئذ هزًّا عنيفًا، قد اختلق موضوعها وأقامه على أساس جانب ضئيل جدًّا من الحقيقة، وهو رؤية الناس لابن المعطل يقود بعيره وعليه عائشة رضي الله عنها ، ثم عالج هذا القدر الضئيل جدًّا من الحقيقة بالمبالغة، وجسّمه بطريقة انفعالية، ومزجه بجوانب من شطحاته الخيالية، وصاغه صياغة خبيثة يسهل على الذين يوجه إليهم الشائعة استيعابها وترديدها»[(٢)].

فحادثة الإفك كادت تفتك بالمجتمع الإسلامي بأسره، لولا أن النبي صلى الله عليه وسلم عالج هذه القضية بتأنٍّ، وتروٍّ، وتثبّت.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا، رقم ٢٦٦١، ٣/ ١٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب رقم ١٠، رقم٢٧٧٠، ٤/ ٢١٣٠.

(٢) بحوث في الإعلام الإسلامي، محمد فريد ص٤٥.

ومن الأمثلة أيضًا على تأثير عدم التثبت على العلاقات الاجتماعية في المجتمع: ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

فقد كان جماع قبائل الأنصار بطنين: الأوس والخزرج، وكان بينهما في الجاهلية حرب ودماء، حتى منّ الله عليهم بالإسلام وبالنبي صلى الله عليه وسلم، فأطفأ الله الحرب التي كانت بينهم وألّف بينهم بالإسلام. فبينا رجل من الأوس ورجل من الخزرج قاعدان يتحادثان ومعهما يهودي جالس، فلم يزل يذكّرهما بأيامهم والعداوة التي كانت بينهم حتى استبا، ثم اقتتلا، فنادى هذا قومه وهذا قومه، فخرجوا بالسلاح وصفّ بعضهم لبعض، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يزل يمشي بينهم إلى هؤلاء وهؤلاء ليسكنهم حتى رجعوا، فأنزل الله في ذلك القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠](١).

ونلاحظ أن التسرع وعدم التثبت كانا سببين رئيسين في اقتتال المسلمين، ورفع السلاح على بعضهم البعض، فلما تيقنوا أنها نزعة شيطان تعانقوا وألقوا السلاح.

(١) الدر المنثور، السيوطي ٢/ ٢٨٠.

رابعًا: المجال السياسي:

تعد مجالات السياسة وجوانبها المتعددة ومسائلها المتنوعة في الأحوال الداخلية، أو الإقليمية، أو الدولية من أهم المجالات التي يجب التثبت فيها؛ حيث تعد مجالًا خصبًا لانتشار الإشاعات ونموها، وبخاصة في أوقات نشوب الحروب وحدوث الأزمات والتوترات، وفتور العلاقات، وتوالي وقوع الحوادث، مع ما يحيط بتلك الحوادث والوقائع من غموض وأهمية.

وقد كان منهج النبي صلى الله عليه وسلم قائمًا على التثبت في علاقاته السياسية، ممتثلًا في ذلك أمر القرآن بوجوب التثبت، فلما بلغه صلى الله عليه وسلم أن يهود بني قريظة نقضوا عهدهم الذي عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم، بعث سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير، فقال: «انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًّا فألحنوا لي لحنا أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس»(٢).

فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يتسرع في قتال بني قريظة، ولم يأخذ بما بلغه، حتى يتثبت عن طريق من يرسلهم هو صلى الله

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام ٣/ ٣٠٧ بتصرف.

عليه وسلم.

ومن نماذج التثبت الجليلة في العلاقات السياسية: ما حدث من النجاشي عندما أرسلت قريش عمرو بن العاص وعبدالله بن ربيعة إلى الحبشة بعد هجرة المسلمين إليها، وكانا يحملان الهدايا إلى النجاشي وبطارقته، فقابلا النجاشي فقالا له: أيها الملك، إن فتية منا سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم لتردهم إليهم، فهم أعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه. فقالت بطارقته حوله -وقد تسلموا الهدايا مسبقًا- صدقا أيها الملك، قومهم أعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليردوهم إلى بلادهم وقومهم.

فغضب النجاشي ثم قال: لا لعمر الله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

ثم أرسل النجاشي إليهم، فتكلم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فلما سمع النجاشي منهم، والتقى بهم مرة أخرى على أثر وشاية من عمرو بن العاص، وسمع منهم ثانية، قال النجاشي لهم: اذهبوا، فأنتم شيوم[1] بأرضي، من

(١) الشيوم: الآمنون.

سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبرًا[1] من ذهب وأني آذيت رجلا منكم، ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله من الرشوة حين رد علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه، فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقام المسلمون عنده بخير دار مع خير جار[2].

فالنجاشي لم يسارع ويأخذ بكلام عمرو بن العاص ومن معه، وإنما تأنى وأرسل إلى المسلمين واستمع منهم، وتثبت من حالهم.

ويكون التثبت آكد في المجال السياسي حينما يتعلق الأمر بأولياء الأمور والحكام وقادة البلاد، فيجب التثبت مما ينسب إليهم، ويحكى عنهم، من تجريح، واختلاق الأكاذيب، والافتراءات عليهم، ومحاولة تنفير الناس منهم، أو تعميق الفجوة فيما بينهم وبين مواطنيهم.

ومن النماذج المهمة في هذا الأمر: ما ورد أن أهل حمص شكوا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عامله عليهم سعيد بن عامر قالوا: نشكو منه أربعًا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار. ولا يجيب أحدًا بليل. وله يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا. وتصيبه الإغماءة بين الحين والآخر.

فجمع عمر بينهم وبينه وقال: اللهم لا تخيّب ظني فيه اليوم، وسأله عمر عن هذه الشكوى، فقال: لا أخرج إليهم حتى يتعالى النهار لأنه ليس لأهلي خادم فأعجن عجينهم، ثم أجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ ثم أخرج إليهم.

وأما قولهم: إني لا أجيب أحدًا بليل، فإني جعلت النهار لهم، وجعلت الليل لربي عز وجل.

وأما قولهم: إن لي يومًا في الشهر لا أخرج إليهم فيه، فإنه ليس لي خادم يغسل ثيابي، ولا ثياب أبدلها فأجلس حتى تجف، ثم أدلكها، ثم أخرج إليهم من آخر النهار.

وأما قولهم: تصيبني الإغماءة بين الحين والآخر، فإني شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة وقد بضعت قريش لحمه، ثم حملوه على جذع، فقالوا: أتحب أن محمدًا مكانك؟ فقال: والله ما أحب أني في أهلي وولدي وأن محمدًا شيك بشوكة، فكلما ذكرت ذلك اليوم وتركي نصرته في تلك الحال وأنا مشرك لا أؤمن بالله العظيم، إلا ظننت أن الله عز وجل لا يغفر لي بذلك الذنب أبدًا، فتصيبني تلك الإغماءة. فقال عمر: الحمد لله الذي لم يخيب ظني فيه، فبعث إليه بألف دينار ليستعين بها على

انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٢٨٩.

(١) الدبر بلسان الحبشة: الجبل.

انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٢٨٩.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٢٨٩.

حاجته، ففرقها على المحتاجين[1].

فأهل حمص أشاعوا عن أميرهم هذه الأمور، وجعلوها منقصة في حقه دون أن يتثبتوا أو يتبينوا، وشكوا ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي أزاح هذه التهم عن سعيد بن عامر عن طريق التثبت والتبين.

فالواجب على الفرد والمجتمع المسلم أن يتنبه إلى الأخطار المحدقة من جراء الإشاعات وعدم التثبت في الميدان السياسي، والعواقب الوخيمة الناتجة عن ذلك، وأن يتنبه المسلم إلى طبيعة العلاقة المثلى الواجبة بين الحاكم والمحكوم، والراعي والرعية، التي شرعها الإسلام الحنيف، وميّزها عن غيرها من العلاقات.

خامسًا: المجال الاقتصادي:

للاقتصاد أهميته في حياة الفرد والمجتمع، بل وفي العالم أجمع. ويرتبط العالم اليوم بروابط اقتصادية كبيرة، فما يحدث في منطقة أو دولة من دول العالم -غالبًا- تتأثر بها بقية الدول سلبًا أو إيجابًا، وبخاصة في حالات الحروب والكوارث.

وبناء على ذلك فالتثبت في مجال الاقتصاد من الأهمية بمكان، فيجب عدم نشر الإشاعات والأخبار غير الموثوق فيها حول الأمور الاقتصادية، كالمسائل المتعلقة بالبيع والشراء، والأثمان، والسلع المختلفة، وكذا الأمور المالية والنقدية والتجارية بصفة عامة؛ حيث إن أكثر من يتأثر بهذه الأخبار والإشاعات أصحاب الأموال والثروات المالية الكبرى، مما ينعكس سلبًا بالتأثير على اقتصاد الدولة.

ومن الأمور الحيوية الأكثر تأثرًا في المجال الاقتصادي: سوق المال (البورصة)، فهذه السوق تتأثر سلبًا وإيجابًا بالأخبار الصادقة والكاذبة جراء التثبت وعدمه.

ومن صور التأثير السلبي على سوق المال نتيجة لعدم التثبت: «ما يقوم به بعض المضاربين من الاتفاق فيما بينهم من خلال التوصيات عبر الوسائل الحديثة، من: (الجوّال أو المنتديات أو البريد الإلكتروني أو تويتر أو فيس بوك) على شراء سهمٍ من الأسهم المدرجة بغرض رفع قيمته إلى حدٍ معين ثم بيعه بكميات كبيرة، وهو ما يسمى بـ (الجروبات)؛ ولأن الغرض منها إيهام المتداولين بأن هذا هو السعر المناسب للسهم حتى يقبلوا على شرائه بعد ارتفاعه، ثم يصعب خلاصهم منه بعد تصريفه من قبل تلك المجموعات (الجروبات).

والهدف من هذا البيع: إيهام المتعاملين أن تغيّرات سعرية حدثت للورقة المعنية،

(١) صفة الصفوة، ابن الجوزي ١/ ٢٥٧.

وأن تعاملًا نشطًا يجري عليها، ولما كانت البورصات تقوم بنشر كافة المعلومات بشأن الصفقات أولًا بأول، فإن هذه السلسلة من البيوع للأوراق المالية من شأنها أن تؤدي إلى انخفاض قيمتها السوقية بشكلٍ يوحي بتدهور حالة المنشأة المصدرة لها، وهنا يصاب البعض بالذعر مما يدفعهم إلى التخلص مما يمتلكونه من هذه الأسهم، الأمر الذي يترتّب عليه عروض كبيرة بدون طلبٍ موازٍ فيهبط السعر، وعندها يتدخّل المستثمر المخادع مشتريًا، ويحدث عكس ما تقدّم في المضاربة على البيع»[1].

فالتثبت وعدمه في الأمور الاقتصادية له أثر كبير في نمو أو تدهور الحالة الاقتصادية للمؤسسات والشركات والدول.

سادسًا: المجال القضائي:

إن حاجة الإنسانية إلى القضاء بمنزلة حاجتها إلى الشمس والهواء، فلو رفع القضاء من حياتها لهبطت إلى دركة البهائم والعجماوات، وأكل قويها ضعيفها، وكبيرها صغيرها.

ومهمة القضاء في الإسلام هي إرساء دعائم العدل؛ ولهذا كان للقضاء في الإسلام منزلة رفيعة سامية، فهو فريضة من أقوى الفرائض، وعبادة من أشرف العبادات لمن ابتغى به وجه الله تعالى؛ لأنه إظهارٌ للعدل، وإزالةٌ للباطل، وبالعدل قامت الأرض والسموات.

وحاجة القضاء إلى التثبت قبل إصدار الأحكام واضحة جلية، فلا يمكن تحقيق العدل في القضاء إلا بالتثبت والتبين.

ولقد نبه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور إلى أن مجال القضاء هو المجال الأحوج إلى اعتماد منهج التثبت في الحكم، فقال: «الأمر بالتبين أصل عظيم في وجوب التثبت في القضاء، وألا يتبع الحاكم القيل والقال، ولا ينصاع إلى الجولان في الخواطر من الظنون والأوهام»[2]، وذلك لأن خطأ القاضي خاصة في الإدانة والحكم، وهو يقضي في اليوم في أكثر من قضية تضيع به الحقوق، وتتضرر به الأعراض، فكان مطالبًا أكثر من غيره بالتثبت.

ومن لوازم التثبت في القضاء:

أولًا: أن يسمع القاضي من الخصمين، لا أن يسمع كلام خصم دون الآخر؛ فعن **علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال: فقلت: يا رسول الله تبعثني إلى قوم أسن مني، وأنا حدث لا أبصر القضاء؟ قال:**

(١) انظر: صناديق الاستثمار في البنوك الإسلامية، أشرف دوابه ص١٣٣، تطهير الكسب الحرام في الأسهم والصناديق الاستثمارية، عطية فياض ص٣٤.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٣١.

فوضع يده على صدري، وقال: (اللهم ثبت لسانه، واهد قلبه، يا علي، إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء) قال: فما اختلف علي قضاء بعد، أو ما أشكل علي قضاء بعد[(1)].

ثانيًا: طلب البينة والدليل على الدعوى من خلال الشهود، أو طلب اليمين من الطرف الآخر عند النكول[(2)] وعدم البينة، وهي وسيلة من وسائل إثبات الحق الذي يدعيه المدعي[(3)]:

فقد قال صلى الله عليه وسلم: (لو يعطى الناس بدعواهم، لادعى ناس دماء رجال وأموالهم، ولكن اليمين على المدعى عليه)[(4)].

ثالثًا: بناء الأحكام على العلم واليقين، بعيدًا عن الشك والتسرع؛ لأن تبرئة المذنب خير من إدانة البريء.

ومن النماذج التي ذكرها القرآن في وجوب التثبت عند القضاء: ما جاء في قصة داود عليه السلام مع الخصمين، وهو ما ذكره الله في قوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢١ - ٢٦].

فداود عليه السلام عندما سمع القضية من المدّعي عرف أنه مظلوم، وأن خصمه ظلمه وبغى عليه، وتأثر داود بما سمع، وظن أن الأمر لا يتطلب سماع الطرف الآخر[(5)].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٧٤٤، ٢/ ١٤٣، والنسائي في السنن الكبرى. كتاب الخصائص، باب ذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي: (إن الله سيهدي قلبك، ويثبت لسانك)، رقم ٨٣٦٦، ٧/ ٤٢٢، والحاكم في المستدرك، رقم ٧٠٢٥، ٤/ ١٠٥.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) النكول: امتناع من وجبت عليه اليمين، أو له. انظر: شرح حدود ابن عرفة، الرصاع ص٤٧٢.

(٣) انظر: نظام القضاء في الشريعة الإسلامية، عبدالكريم زيدان ١/ ١٥٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب اليمين على المدعى عليه، رقم ١٧١١، ٣/ ١٣٣٦.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١٧٨.

فعاتب الله داود عليه السلام على هذا الأمر؛ لأن مقتضى التثبت أن يسمع من الطرفين، لا أن يسمع طرفًا دون الآخر.

ومن النماذج التي ذكرها القرآن أيضًا في وجوب التثبت عند القضاء، ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٥ - ١٠٩].

وسبب نزول هذه الآيات أن نفرًا من الأنصار- قتادة بن النعمان وعمه رفاعة- غزوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته. فسرقت درع لأحدهم (رفاعة). فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال لهم: بنو أبيرق. فأتى صاحب الدرع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن طعمة بن أبيرق سرق درعي. فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي (اسمه زيد بن السمين). وقال لنفر من عشيرته: إني غيبت الدرع، وألقيتها في بيت فلان. وستوجد عنده. فانطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا نبي الله، إن صاحبنا بريء، وإن الذي سرق الدرع فلان. وقد أحطنا بذلك علمًا. فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس، وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك. ولما عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الدرع وجدت في بيت اليهودي، قام فبرأ ابن أبيرق وعذره على رؤوس الناس. وكان أهله قد قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم قبل ظهور الدرع في بيت اليهودي-: إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت! قال قتادة: فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمته. فقال: (**عمدت إلى أهل بيت يذكر منهم إسلام وصلاح وترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة؟**).

قال: فرجعت، ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك. فأتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: الله المستعان، فلم نلبث أن نزلت: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾

[النساء: ١٠٥](١).

فالله سبحانه يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم: «إن عليك ألا تتهاون في تحري الحق اغترارًا بلحن الخائنين وقوة جدلهم في الخصومة؛ لئلا تكون خصيمًا لهم وتقع في ورطة الدفاع عنهم، والآيات فيها إيماء إلى أن الاعتقاد الشخصي والميل الفطري والديني لا ينبغي أن يظهر لهما أثر في مجلس القضاء، وإلى أن القاضي لا يساعد من يظن أنه صاحب الحق، بل عليه أن يساوى بين المتخاصمين في كل شيء.

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يحكم في هذه القضية قبل نزول الآيات ولم يعمل بغير ما يعتقد أنه تأييد للحق، لكنه أحسن الظن في أمر بيّن له علام الغيوب حقيقة الواقع فيه، وما ينبغي له أن يعامل به ذويه»(٢).

فالآيات السابقة ترشدنا إلى أنه يجب على القاضي أن يجعل الحق والصدق هدفه في جميع مواقفه، وأن يدقّق فيما يعرض عليه، فلا يأخذ بظواهر الأمور، ولا ينخدع بتزويق الخصوم، وعليه أن يحذر تلبيسهم ولا ينساق بأي اعتبار غير اعتبار الحق والعدل والحقيقة. ولا يتسرع في تصديق فريق وتبرئته والدفاع عنه. وأن يرجع عن الخطأ إذا ما ظهر له.

(١) انظر في سبب النزول: جامع البيان، الطبري ٩/ ١٧٦، تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١٠٦٣.

(٢) تفسير المراغي ٥/ ١٤٧-١٤٨ بتصرف.

خطر الإشاعة وضررها

منذ أن خلق الله الخليقة وجد الصراع بين القوى، صراعٌ يستهدف أعماق الإنسانية، ويؤثر في كيان البشرية، وإذا كانت الحروب والأزمات والكوارث والنكبات تستهدف بأسلحتها الفتاكة الإنسان من حيث جسده وبنائه، فإن هناك حربًا سافرة مستترة تتوالد على ضفاف الحوادث والملمّات، وتتكاثر زمن التقلبات والمتغيّرات، وهي أشدّ ضراوة وأقوى فتكًا؛ لأنها تستهدف الإنسان من حيث عمقه وعطائه، وقيمه ونمائه، إنها حرب الشائعات.

الشائعات من أخطر الحروب المعنوية، والأوبئة النفسية، بل من أشد الأسلحة تدميرًا، وأعظمها وقعًا وتأثيرًا، وليس من المبالغة في شيء إذا عدّت ظاهرة اجتماعية عالمية، لها خطورتها البالغة على المجتمعات البشرية. وفيما يأتي بيان لتعريف الإشاعة وخطرها وضررها.

و«الإشاعة: فكرة خاصة تنشر ليؤمن بها الناس، تنتقل من شخص إلى آخر، ويتم هذا عادة بواسطة الكلمة التي يتفوه بها الإنسان، دون أن تستند إلى دليل أو شاهد»(٣).

وقيل: «الإشاعة: أخبار مشكوك في صحتها، ويتعذر التحقق من أصلها، وتتعلق

(٣) الرأي العام، حسنين عبد القادر ص١٤٠.

بموضوعات لها أهمية لدى الجهة الموجهة إليها، ويؤدي تصديقهم أو نشرهم لها إلى إضعاف روحهم المعنوية»[1].

وللإسلام نظرته الحكيمة في الإشاعة حسب طبيعتها، ومن ثم ترتيب الحكم الشرعي والجزاء العادل عليها.

والمتأمل في النصوص المتعددة في القرآن والسنة يجد أن الإسلام يحرم نقل الإشاعات وترويجها بين الناس بغرض الإفساد والتخريب، وهدم الكيان والبنيان الاجتماعي، وصرف الناس عن عبادة الله وعمارة الأرض، وعمل ما ينفع الناس، إلى الاشتغال فيما لا ينفع.

ومعلوم أن نقل الإشاعة وترويجها في المجتمع من أنواع الفحش والإثم والبغي التي حرمها الله عز وجل بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقد توعد سبحانه محبي رواج الإشاعة في المجتمع المسلم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

فإذا كان هذا جزاء من يحب شيوع الفاحشة والإشاعة في المجتمع، فكيف يكون جزاء مروجي الإشاعات في المجتمع المسلم؟!

وتوعده النبي صلى الله عليه وسلم بأفظع عقاب، فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (رأيت الليلة رجلين أتياني، قالا: الذي رأيته يشق شدقه فكذاب، يكذب بالكذبة تحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به إلى يوم القيامة)[2].

وكذلك حذرت الشريعة الإسلامية من الاستماع للإشاعات وتصديقها وقبولها، وأمرت بالتثبت والتروي عند سماعها، فقد تكون تلك الأخبار كاذبة ومضللة، ولها أهداف سامة وبغيضة وهادمة للمجتمع، بل قد تعود بالضرر البالغ على المستمع لها، ومعلوم أن لناقلي الإشاعات ومروجيها أساليب خلابة ووسائل مغرية في عرض ما لديهم، الأمر الذي يجعل المستمع لهم يقع في شباكهم، وتلتف حوله حبائلهم، فلا يستطيع الفكاك منها.

قال تعالى موجهًا النصح لعباده

(١) أساليب مواجهة الشائعات، جمال محفوظ ص١٩٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، رقم ٦٠٩٦، ٨/ ٢٥.

المؤمنين: ﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

قال الشوكاني: «المراد من التبين: التعرف والتفحص، ومن التثبت الأناة وعدم العجلة، والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر»(١).

والشائعات لها خطر عظيم وضرر جسيم على الفرد والمجتمع وعلى مستوى الدول والحكومات (٢)، فبجانب أضرارها المعروفة من:

- اتهام البريء بما ليس فيه.
- تلوث الذمم والألسنة نتيجة الخوض في أمور بلا تثبت.
- انعدام الثقة المتبادلة في المجتمع.
- شماتة الناس، وخاصة إذا كان منشأ الإشاعة من العاملين في حقل الدعوة وشباب الصحوة.

فإن لها أضرارًا وأخطارًا أخرى في مجالات متنوعة، يتجلى ذلك في عدة أمور:

أولًا: أخطار وأضرار تتعلق بالناحية الشرعية:

فالإشاعات يعظم خطرها حينما تتناول موضوعات الشريعة الإسلامية وجوانبها المتعددة، كاتهام عقيدة الإسلام بالتهم الباطلة، وإشاعة الكذب نحوها، كذلك الإشاعات الموجهة إلى الشريعة وما تضمنته من عبادات ومعاملات وأخلاق وحدود وغير ذلك.

ولا شك أنه لتلك الإشاعات المتعددة ضد الشريعة الإسلامية بعض الأضرار والأخطار على أبناء المجتمع المسلم، وبخاصة ممن ليس لديهم حصانة عقدية وفكرية قوية.

وقد حذر الله من الآثار السيئة المتوقع حدوثها من كيد أعداء الإسلام، وإشاعاتهم الخبيثة في المجتمع المسلم.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ثانيًا: أضرار فكرية:

المتأمل في مسيرة التاريخ الإسلامي يجد العديد من الإشاعات التي سرت في المجتمع المسلم، واستهدفت فكره وعقله

(١) فتح القدير، ٥/ ٦٠.
(٢) انظر: الإشاعة وأثرها في المجتمع، عبدالرحيم المغذوي ص٢٥٨، اتجاهات النهضة والتغيير في العالم الإسلامي، عباس حسيني ص٥٣.

وشعوره، وأثرت في معطياته ومنجزاته، وخاصة في العصر الحاضر، وذلك رغبة في الهيمنة الفكرية على العالم الإسلامي، ولتأكيد ذلك فقد استخدم أعداء الإسلام سلاح الإشاعات التي يحملها الغزو الفكري لتحقيق مآربهم، مما أسفر عن كثير من الانحرافات الفكرية في بعض المجتمعات الإسلامية، وولّدت لديها بعض الشكوك والمخاوف من الشريعة الإسلامية دون دليل تستند عليه أو برهان تنطلق منه.

ثالثًا: أضرار نفسية:

تنتظم الإشاعات فيما يسمى بالحرب النفسية، والتي تتوجه بالدرجة الأولى إلى نفسية الفرد والمجتمع المستهدف، فتقوم بمحاولات لاختراقها، ومن ثمّ النفاذ إلى داخلها وتحطيمها والهيمنة عليها، وإلحاق الهزيمة المروعة بها.

وقد أشار القرآن إلى نوعية هذا الأثر النفسي الخطير وأسماه بالأذى فقال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]

ونظرًا لذلك كله يأمر الله تعالى المسلمين بعدم الوهن والحزن، ويذكّرهم بأنهم في علو عن غيرهم إن تمسكوا بإيمانهم، وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

والمتأمل في أحوال المجتمعات الإسلامية اليوم يجد أن الآثار النفسية التي لحقت بها عديدة، من خلال الإشاعات التي شملت الفرد والأسرة والمجتمع.

رابعًا: أضرار اجتماعية:

تقوم الإشاعات بإحداث آثار سلبية عديدة في حياة المجتمع، سواء على مستوى الفرد أو الأسرة أو نطاق النسيج الاجتماعي عامة.

وإذا ما سرت الإشاعة في المجتمع وحملت مضامين سيئة أو مخيفة أو محبطة أو ليست في صالح ذلك المجتمع عامة أو تلك الفئة الاجتماعية خاصة، فإن الإشاعة سوف تنجح في مهمتها، ويستجيب لها الناس، وتحدث الأثر المطلوب.

خامسًا: أضرار اقتصادية:

تقوم الإشاعات بدورها في التأثير على الحياة الاقتصادية، ومحاولة التأثير على المستهلكين أو المنتجين، سواء كانوا أفرادًا أم أسرًا أم مجتمعات أم شركات ومؤسسات أم دولًا ومنظمات.

ولا يخفى أن للمنافسات الاقتصادية

وما يموج به سوق العمل والمال من محاولات للربح والتضخم أمر يساعد على ترويج الإشاعات، ومحاولة كل جهة نشر الإشاعات ضد أعمال ومنشآت ومنتجات الطرف الآخر ورميها بعدم الجودة أو الغش أو ارتفاع الأسعار وما إلى ذلك من إشاعات.

والحقيقة أن تلك الإشاعات مضرة باقتصاد أي مجتمع، وتنعكس سلبًا على أفراده، ولا تخدم بأي حال من الأحوال قضايا المجتمع ومسائله الاقتصادية المتنوعة.

سادسًا: أضرار سياسية:

تكمن خطورة الإشاعات في المجال السياسي حينما تتعلق بشخصيات الحكام وأولي الأمر، ومحاولات تتبع أحوالهم وشئونهم الخاصة والعامة، وتوظيف ذلك بصورة خبيثة تهدف للنيل منهم وزعزعة مكانتهم في قلوب الناس.

كما تهدف الإشاعات إلى محاولة تدمير المجتمع عن طريق توهين رموز النظام السياسي الحاكم، أو التشكيك في مؤسساته وهيئاته، والتشكيك بالمواقف والخطط التي يضعها النظام السياسي، وتعتمد هذه الإشاعات على أسلوب التهويل والتضخيم والتشويش والتشكيك، وأخطرها ما يطلق منها أثناء الحروب والاضطرابات الداخلية.

وهذه الإشاعات السياسية المغرضة تحدث الشكوك، وتعصف بالمجتمع، فينتج عن ذلك الأخطار العظيمة التي تهدد كيان المجتمع بأسره.

يتضح مما سبق أن الإشاعات لها أضرارها الخطيرة في مناحي الحياة الخاصة والعامة، وهي لا تقتصر على مجال محدد، بل تمتد لتشمل كل مجالات النشاط البشري.

فوائد التثبت

إن للتثبت فوائد كثيرة، نذكر منها[١]:

١. التثبت علامة من علامات الإيمان.

فقد وجّه الله النداء لعباده المؤمنين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

فدل ذلك على أن من علامات الإيمان التثبت في الأخبار، وبمفهوم المخالفة فإن عدم التثبت في الأخبار يقدح في الإيمان.

٢. السلامة من الأخطاء.

إن التثبت يجعل الإنسان المسلم قريبًا من الصواب، وسالمًا من الأخطاء والعثرات، فلا يتعجل ولا يتسرع في نشر الأخبار حين سماعها، بل يتأمل ويتبين قبل أن يتكلم، وينظر متفحصًا هل هذا الكلام فيه مصلحة فيقدم عليه، أو فيه مفسدة فيحجم عنه ويتوقف؛ لأنه لم يصدر عن علم[٢].

فالتثبت يحمي الإنسان من الغم والهم اللذين يصاحبان الإنسان صحبة لها دوام، وبه يميز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، ويحميه من الجهل والوقوع في الأخطاء والآثام العظام التي ربما تؤدي إلى تلف النفوس والأموال بغير حق[٣].

لذلك كان توجيه الله للمؤمنين بالتثبت حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

٣. الثقة بالمؤمنين.

فقد اتهمت عائشة رضي الله عنها بأسوأ الكذب والبهتان، وهي صاحبة الطهر والعفاف، ولحق بالمؤمنين هم وكرب من جراء هذا الاتهام الباطل، حتى نزل القرآن يبرؤها من فوق سبع سماوات، ويحرّم على المؤمنين أن يخوضوا في هذا الباطل، ويوجب عليهم أن يثقوا بالمؤمنين، وأن يظنوا بأنفسهم خيرًا[٤]، لذلك قال تعالى لهم: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝ لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٢ - ١٣].

فالظن السيئ وإشاعة الفاحشة في المؤمنين من صفات شرار الخلق، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا

(١) انظر: التثبت والتبين في المنهج الإسلامي، العليمي ص١٠٦، التثبت في القرآن، محمد حسين ص١٠٧.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٦٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٩٠.
(٣) انظر: الكشاف ٤/ ٣٦٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٠٠.
(٤) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٨٦١.

أخبركم بخياركم؟). قالوا: بلى. قال: (الذين إذا رؤوا ذكر الله، أفلا أخبركم بشراركم؟)، قالوا: بلى. قال: (المشّاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبّة، الباغون البرآء العنت)[(١)].

٤ . المحافظة على الدماء والأموال.

فبعض الصحابة قتل نفرًا من الناس، وسلب ماله بغير تثبت، حتى نزلت فيه وفي أمثاله الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٩٤].

وبالتثبت نحافظ على الدماء والأموال والأعراض، وبدون التثبت فإن كل ضرورة من ضرورات الحياة تضيع، ويضيع معها الإنسان.

٥ . الشعور بالسكينة والطمأنينة النفسية.

فإن بعض الصحابة الذين خاضوا في الإفك ونشروه من غير تثبت ولا تبين، وكذلك الذين قتلوا الرجل وأخذوا ماله بعد أن سلّم وشهد أن لا إله إلا الله مثل أسامة بن زيد رضي الله عنه، كل أولئك لم يشعروا بالسكينة والطمأنينة في نفوسهم، بل أصابتهم الحسرة وعمهم الندم لما نزل الوحي من السماء يكشف الموقف، ويضع النقاط فوق الحروف، وتمنوا أن لم يكونوا أسلموا قبل ذلك اليوم[(٢)]، وصدق الله إذ يقول: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

فالتثبت يشعرنا بالسكينة والطمأنينة، ويبعد عنا كل شعور بالحسرة والندامة على أقوال أو أفعال صدرت منا دون أن نتحقق منها.

٦ . نيل محبة الله ورضاه.

فالعجلة من أبواب الشيطان، ومن شأنها أن تمنع صاحبها من الخير والتثبت والوقار والحلم، وتجلب عليه الشرور والندم. وفي المقابل فإن التثبت والتأني من الرحمن، ومن التزم بهذا الخلق العظيم نال محبة الله ورضوانه، وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم: (التأني من الله، والعجلة من الشيطان)[(٣)].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٧٦٠٢، ٤٥/ ٥٧٧، والبخاري في الأدب المفرد، رقم ٣٢٣، ص١٦٨.
وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد ص١٣٣.

(٢) انظر: آفات على الطريق، السيد محمد نوح ٢/ ١٥٣.

(٣) سبق تخريجه.

٧. توثيق عرى الأخوة ووحدة الصف.

فالتثبت يؤدي إلى توثيق عرى الأخوة ووحدة الصف، وحفظ المجتمع من كل أسباب الخلاف والفرقة والعداوة والبغضاء.

وإن عدم الالتزام بهذه الفضيلة يؤدي إلى اضطراب الصف، وإعطاء العدو فرصة للانخراط في الصف المسلم.

وإن أسباب العداوة والفرقة والبغضاء ترجع إلى اتهام المؤمنين بالظنون الضعيفة، والتجسس عليهم، وتتبع عوراتهم، والغيبة التي تأكل لحومهم وأعراضهم، والنميمة التي تفسد عليهم حياتهم، فالتثبت من شأنه أن يحفظ المؤمنين من هذه الأسباب، وأن يقيم مجتمعًا خاليًا من الحقد والحسد والظلم.

٨. حفظ الكرامات والحريات والأعراض والأموال.

فإن من شأن التثبت وعدم التسرع أن يقيم سياجًا متينًا لحفظ كرامات الناس وحرياتهم وأعراضهم وأموالهم، ويبقيها مصونة من عبث العابثين، ويحفظها من الظن الآثم والتخريص الباطل، وذلك من خلال الأمر بالتأني والتثبت، والنهي عن الاستعجال والتخمين، وسوء الظن، والخوض في الباطل، وشهادة الزور.

ومن شأن ذلك كله أن يحفظ المجتمع بما فيه من كرامات وحريات وأعراض وأموال، انطلاقًا من قوله صلى الله عليه وسلم: (فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا)[1].

٩. تحقيق العدل بين الناس.

فالإسلام عندما أمرنا بالتثبت وعدم قبول الأخبار إلا بعد التمحيص والتدقيق، والتروي والتأني في إصدار الأحكام، ونهانا عن اتهام الناس بالظنون الكاذبة، وعن الكذب والغيبة والنميمة، إنما أراد من خلال هذه الأوامر والنواهي تحقيق العدل الإلهي الذي لا تصلح الدنيا والآخرة إلا به، وإعطاء كل ذي حق حقه.

١٠. تطهير المجتمع المسلم من المنافقين.

فالتثبت يطهر المجتمع المسلم من المنافقين وإرجافاتهم التي لا تنفك عن الكذب، وإحداث البلبلة والفتنة، والسعي إلى إيقاع المسلمين في الحيرة والاضطراب.

فالتثبت يعلّم المؤمنين أن يضبطوا ألسنتهم فلا تمتد إلى الناس بأي سوء، ولا يشيعون الفاحشة في المجتمع المسلم، مما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم ١٠٥، ١/ ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ١٢١٨، ٢/ ٨٨٦.

يؤدي إلى التماسك وثقة المؤمنين بعضهم ببعض، وعدم السماح للمنافقين بالتغلغل بين صفوفهم.

هذا الضبط اللساني الشديد أدب وخلق حرصت تعاليم هذا الدين على إيجاده في المسلمين، لذلك قال سبحانه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وسائل التثبت

هناك وسائل عديدة للتثبت بشكل عام، منها[1]:

١ . عدم التسرع في تصديق الأخبار، قبل التأكد من صحتها أو كذبها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

قال ابن القيم: «هاهنا فائدة لطيفة، وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق»[2].

إذًا قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فيه أن أمر الله بالتبين والتثبت في أمر الفاسق يدل على عدم إهمال أمر الفاسق مطلقًا في نفس الوقت الذي لا يعتمد عليه بثقة مطلقًا.

إن مما يسهم اليوم في مجانبة الحق والصواب في المواقف: المسارعة في نقل وتداول الأخبار ونقل الأحداث دون توثيق وتثبت منها، والتعامل معها كأنها صدق وحق لا ريب فيه، ومن ثم تتخذ المواقف

(١) انظر: التثبت والتبين في المنهج الإسلامي، أحمد العليمي ص١٠٢، نحو منهج شرعي في تلقي الأخبار وروايتها، أحمد الصويان ص٤٥ .

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣٦٨.

والأحكام المتسرعة على أساسها، ما ينجم عنه الأحكام والمواقف الجائرة التي قد يندم صاحبها عليها، لكن حين لا ينفع الندم؛ لأنها قد طارت كل مطير. ويشتد خطر هذه المواقف وإثمها إذا كانت قد صدرت من متبوع في علم أو دعوة أو جهاد.

وتتأكد أهمية التثبت والتوثق بصورة أكبر في زماننا اليوم، الذي كثرت فيه وسائل النقل والاتصالات الاجتماعية السريعة، وتسارع الناس في نشر أي خبر والحكم عليه دون أدنى تثبت منه؛ حرصًا من الناشر على السبق والشهرة في نقل الأخبار، أو حرصًا على إلحاق الأذى والتهم بخصمه.

فالتثبّت من كل خبر ومن كل ظاهرة قبل الحكم عليها، هو دعوة القرآن الكريم ومنهج الإسلام القويم، ومتى استقام القلب واللسان على هذا المنهج لم يبق مجال للظن والشبهة في عالم المواقف والأحكام. فكم من مظلوم في دينه وعرضه أو بدنه أو ماله كان سبب ذلك التسرع في نقل الأخبار وتلقيها دون تثبت وتمحيص. وكم من أواصر قطعت بين الأقارب والإخوان كان سببها الظنون الكاذبة وتلقي الأخبار والشائعات دون تثبت.

والتثبت المنشود هنا يعني نوعين من التثبت:

١. التثبت من صحة الخبر المسموع أو المقروء أو المشاهد، والتوثق التام من صحته والاطمئنان إلى صدقه؛ لأنه قد يتبيّن بعد التثبت أنه كذب مختلق، أو فيه زيادة ونقصان، وعند ذلك يرفض الخبر ويسلم الإنسان من نقل الأخبار المكذوبة والشائعات، ويسلم من إثم ذلك.

٢. إذا تبيّن صحة الخبر المنقول فلا يسوغ بناء الأحكام والمواقف منه حتى يقف وقفة أخرى من التثبت، ألا وهي التثبت من خلفيات الخبر والملابسات التي أحاطت به، والظروف التي عاشها من نقل عنه الخبر، ومحاولة إحسان الظن به؛ لأن في ذلك سلامة من المواقف والأحكام الجائرة التي يحكم بها على الخبر في حال عدم معرفة ملابسات حصوله؛ لأنه بمعرفة الملابسات والظروف التي أحاطت بالخبر وتسبّبت في حصوله، يحصل وضع الحكم والموقف منه في حجمه الطبيعي دون جور أو عدوان، وقد يظهر فيه عذر ومبرر شرعي لأصحابه.

وهذا النوع من التثبت هو ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم في مواقفه من الأخبار، أو في مواقفه من الأخطاء التي تنجم عن بعض أصحابه رضي الله عنهم، فقد تكرر في مواقف كثيرة، وقبل أن يتخذ

الرسول صلى الله عليه وسلم موقفًا من صاحب الخطأ، أن يقول لصاحب الخطأ: (ما حملك على ما صنعت)، وهذا تثبت منه صلى الله عليه وسلم من أسباب وملابسات الوقوع في الأخطاء.

وهذا يشمل الأخبار التي تنقل عن الأفراد أو الطوائف.

٢. التأكد من ضبط النقلة وصحة فهمهم.

من القضايا المشكلة التي يغفل عنها بعض الأفاضل أنهم ينظرون إلى عدالة الناقل وأمانته، دون النظر إلى ضبطه وإتقانه في النقل.

وعندما تكون استجابة الإنسان عاطفية، فإنه -عادة - يعجز عن تمييز الحقائق، فقد يكون الناقل قد بلغ الغاية في التقوى والورع، لكنه قليل الضبط، ضعيف الحفظ لما يسمع.

وهذا يذكّرنا بقول ابن أبي الزناد: «أدركت بالمدينة مائة مأمون، ما يؤخذ عنهم الحديث، يقال: ليس من أهله»[1].

ومن الناس من يسمع الخبر، وينقله على غير وجهه، ليس من باب الكذب والخيانة، ولكنه لم يستطع أن يفهم الكلام على وجهه الصحيح، فالله سبحانه لم يرزقه حسن الفهم والتيقظ، ولهذا تراه يقوّل الناس ما لم يقولوا، ويحمّل كلامهم ما لم يحتمل.

إن هناك تفاوتًا كبيرًا بين الناس في الإدراك والقدرة على تفسير الأحداث، وحينما يفهم السامع من كلام القائل شيئًا، ثم ينقل للناس مفهومه هو -لا منطوق القائل ونص كلامه- فإن هذا سوف يؤدي إلى لبس شديد عند الناس.

وعدم مراعاة هذه الجوانب والتنبه لها قد يؤدي إلى التسليم ببعض الأخبار الواهية التي ليس لها أساس من الصحة، ثم تؤدي هذه الأخبار دورها في إثارة الضغائن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكثير من الناقلين ليس قصده الكذب، لكن المعرفة بحقيقة أقوال الناس من غير نقل ألفاظهم وسائر ما به يعرف مرادهم، قد يتعسر على بعض الناس، ويتعذر على بعضهم»[2].

٣. الاعتماد على القرائن في قبول الأخبار وردها.

إذا نقل الخبر عن أحد من العلماء أو الدعاة، ولم يتأكد لنا صحة النقل، أو صحة فهم الدلالة، فينبغي أن يعرض ذلك الخبر على أقواله وأفعاله السابقة واللاحقة، ويقاس بطريقته وأحواله، فإن خالف ذلك الخبر المعروف من سيرته وقوله، كانت هذه قرينة مهمة في رد الخبر، أو حمله على المعروف من حاله.

(١) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، ١/ ١٥.

(٢) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية ٦/ ١٩٣.

وهذا من الوسائل المفيدة جدًّا في تمييز الأخبار وتنقيحها، قال ابن القيم: «والكلمة الواحدة يقولها اثنان، يريد بها أحدهما أعظم الباطل، ويريد بها الآخر محض الحق، والاعتبار بطريقة القائل وسيرته ومذهبه، وما يدعو إليه ويناظر عليه»[(١)].

وقال السبكي: «فإذا كان الرجل ثقة مشهودًا له بالإيمان والاستقامة، فلا ينبغي أن يحمل كلامه وألفاظ كتاباته على غير ما تعوّد منه ومن أمثاله، بل ينبغي التأويل الصالح، وحسن الظن الواجب به وبأمثاله»[(٢)].

ومن الأمثلة التطبيقية على ذلك ما نقل عن الجنيد أنه قال: «انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة»[(٣)].

قال ابن تيمية: «فهذا ما أعرفه من كلام الجنيد. وفيه نظر هل قاله، ولعل الأشبه أنه ليس من كلامه المعهود؛ فإن كان قد قال هذا فأراد عدم العلم بما لم يصل إليه؛ لم يرد بذلك أن الأنبياء والأولياء لم يحصل لهم يقين ومعرفة وهدى وعلم؛ فإن الجنيد أجل من أن يريد هذا، وهذا الكلام مردود على من قاله»[(٤)].

ثم قال ابن تيمية: «كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما ثمّ معصوم من الخطأ غير الرسول؛ لكن الشيوخ الذين عرف صحة طريقتهم علم أنهم لا يقصدون ما يعلم فساده بالضرورة من العقل والدين»[(٥)].

٤ . عدم التسرع في اتخاذ الأحكام والقرارات.

وينبغي التفكر والتبصر في عاقبة التسرع في الحكم، وما يؤدي إليه من الندامة، وتمني عدم وقوعه.

فالعاقل هو الذي يتأنى ويتأمل ويتثبت، ولا يتسرع، ويعرف عاقبة عدم الالتزام بذلك. قال لقمان الحكيم: «إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة»[(٦)].

٥ . الجمع بين طرفي الخصومة والاستماع إليهم، وعدم الحكم لطرف قبل التثبت والسماع من الطرف الآخر.

الجمع بين طرفي الخصومة وسيلة من وسائل التثبت التي من شأنها أن تعطي حكمًا صائبًا صحيحًا خاليًا من الظلم والجور. ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّم أصحابه أسلوب التثبت في القضاء.

فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه **قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال: فقلت: يا رسول الله تبعثني إلى قوم أسن مني، وأنا حدث لا أبصر**

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٤٨١.
(٢) قاعدة في الجرح والتعديل، السبكي ص٩٣.
(٣) مجموع الفتاوى ١١/ ٣٩١.
(٤) المصدر السابق ١١/ ٣٩٢.
(٥) المصدر السابق ١١/ ٣٩٣.
(٦) إحياء علوم الدين، الغزالي ٤/ ٣٩٦.



القضاء؟ قال: فوضع يده على صدري وقال: (اللهم ثبت لسانه، واهد قلبه، يا علي، إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر، كما سمعت من الأول، فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء) قال: فما اختلف علي قضاء بعد، أو ما أشكل علي قضاء بعد[1].

وقال عمر بن عبد العزيز: «إذا أتاك الخصم وقد فقئت عينه، فلا تحكم له حتى يأتي خصمه، فلعله قد فقئت عيناه جميعًا»[2].

فلا يدفعه وجود أحد الخصمين وشعوره بأنه مظلوم أن يحكم له قبل الاطلاع على حجة الفريق الآخر، بل يجب عليه أن يسمع دعوى الخصمين قبل الحكم، فلعل الذي يظهر في هيئة المظلوم يكون قد أوقع على خصمه ظلمًا أكبر من الذي حاق به.

عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا، بقوله: فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها)[3].

(١) سبق تخريجه.
(٢) العقد الفريد، ابن عبد ربه ١/ ٨٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين، رقم ٢٦٨٠، ٣/ ١٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، بابالحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم ١٧١٣، ٣/ ١٣٣٧.

٦. مناقشة صاحب الشأن قبل الحكم.

وخير ما يوضح هذا السبب موقف النبي صلى الله عليه وسلم من حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه لما أخبر أهل مكة بغزو النبي صلى الله عليه وسلم لهم.

فقد روى البخاري عن علي رضي الله عنه يقول: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد بن الأسود قال: (انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[4]، فإن بها ظعينة[5] ومعها كتاب فخذوه منها)، فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة، فإذا نحن بالظعينة فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب. فأخرجته من عقاصها[6]، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا حاطب ما هذا؟)، قال: يا رسول

(٤) منطقة بين مكة والمدينة قرب حمراء الأسد.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي ٢/ ٣٣٥.
(٥) الظعينة: كل جمل يركب، وهذا هو الأصل، وإنما سميت المرأة ظعينة؛ لأنها تركبه.
انظر: غريب الحديث، ابن سلام ٤/ ٤٣٧.
(٦) العقاص الضفيرة.
انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٢١٤.

الله لا تعجل عليّ، إني كنت أمرأ ملصقًا في قريش ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفرًا ولا ارتدادًا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد صدقكم). قال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. قال: (إنه قد شهد بدرًا وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[1].

نلاحظ من خلال هذه القصة أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل حاطبًا عن سبب فعلته، واستمع إلى جوابه وتبريره لما فعل، وناقشه في ذلك، ولم يستعجل في رميه بتهمة الخيانة، وكان صلى الله عليه وسلم يريد من خلال ذلك أن يعلمنا التبين والتثبت، وعدم الاستعجال في إطلاق الأحكام على الناس.

ونستفيد من هذه القصة في واقع حياتنا، عدم الحكم على ظواهر الأمور قبل تبيّن حقيقتها، فربما تحدث حادثة معينة، فيتعجل الإنسان ويحكم على أشخاصها قبل معرفة الأسباب والدوافع، وسماع وجهة نظرهم، فيقع في لحومهم وأعراضهم، وفي ذلك ظلم عظيم، فماذا سيخسر إن أرسل أو اتصل بصاحب الشأن ليتأكد منه شخصيًا دون وسيط، ربما يكون هو سبب الفرقة التي حدثت والكذب الذي نقل إلينا.

٧. الظن الحسن بالمؤمنين.

فينبغي أن يقيس ما يسمعه عنهم على نفسه، فإن استبعده عن نفسه يستبعده عن غيره: وفي هذا يقول الله: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

فمن الناس من يطلق لخياله العنان، ويصوغ شتى التصورات التي تنسب إلى الناس التهم، وتوقعهم في البلاء، وسوء الظن يجعل الإنسان يتجه اتجاهًا مغايرًا لما أراده الناس، ويقوم بتفسير الكلمات والوقائع والأخبار بناء على خلفيات نفسية مبيّتة، فيفرّغ كل كلمة من مضمونها، ويملؤها بمعانٍ أخرى عديدة ليست من مدلولها، ثم يمارس هذا الإنسان -دون وعي- نوعًا من التحليل لما يراه ويسمعه، ثم يضخّم إحساسه تضخيمًا مسرفًا بدون أي تحفّظ.

فالظن السيئ هو ظلم للمؤمنين، بل يتعدى إلى العدوان على أعراضهم وكرامتهم بغير حق، بل لابد من إدانة ظان السوء ليثبت ما يقول أو يتحمل الحكم الشرعي الذي يصدر بحقة فيمن قذفهم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الجاسوس، رقم ٣٠٠٧، ٤/ ٥٩.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليجتنب كثير منه احتياطًا»(١).

وقال القرطبي: «قال علماؤنا: فالظن هنا وفي الآية هو التهمة. ومحل التحذير والنهي إنما هو تهمة لا سبب لها يوجبها، كمن يتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلًا ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك. ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة قول تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداء ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه، ويتبصر ويستمع لتحقق ما وقع له من تلك التهمة. فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك»(٢).

ثم قال القرطبي مبينًا طريقة تمييز الظنون: «والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حرامًا واجب الاجتناب. وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظن الفساد به والخيانة محرم، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث»(٣).

وخلاصة القول: حسن الظن من التثبت، وتحريم سوء الظن بأي مسلم؛ لأنه ينافي التبين والتثبت الذي أمر الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في التخلق بهما ورتب عليهما الأجور.

٨. عدم الالتفات للألفاظ البراقة.

فكثيرًا ما يسمع الإنسان مجموعة من الألفاظ البراقة، والعبارات الخلابة، فيغتر بهذه الألفاظ وتلك العبارات، وتعجبه بما لها من بريق وزخرف، ويتسرع ويأخذ بها دون تثبت. وقد لفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الأمر حين قال: (**إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا، بقوله، فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها**)(٤).

ومعنى (**ألحن بحجته من بعض**) أي: أفصح وأفطن بحجته من بعض، فيزين كلامه حيث أظنه صادقًا في دعواه، وأن

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢١٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٦/ ٣٣١.
(٣) المصدر السابق ١٦/ ٣٣١-٣٣٢.
(٤) سبق تخريجه.

الحق معه وهو كاذب»[١].

وكثيرًا ما نسمع اليوم عبر وسائل التواصل والإعلام المرئي والمسموع من كلمات وأخبار وما هي إلا تنافس القائمين بهذا العمل الإعلامي في نقل الأحداث، فكلًّا يلمع الخبر الذي حصل عليه رغبة بكسب المتابعين أو المشاهدين له، حتى ولو كانت تلك العبارات مجحفة في حق أصحابها، فبعضهم يدس السم بالعسل، وخاصة ما نسمع من مطالبات مستميتة لحقوق المرأة، وكأن الإسلام قد هضم حقها، وليس خلفها إلا أهل النفاق الذين يريدون إشاعة الفاحشة بين المسلمين، بل هم لا يريدون حرية المرأة، هم يريدون حرية الوصول إليها بعد أن صانها الإسلام عن الرذائل، فالتبين من كل خبر وحادثة ومن خلف الخبر مهم لوضوح الحقائق.

٩. الاستماع الجيد، والمراجعة الدقيقة لكل ما يطلب من الإنسان تنفيذه من أوامر.

فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال يوم خيبر: **(لأعطين هذه الراية رجلًا يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه)، قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ، قال: فتساورت[٢] لها رجاء أن أدعى لها، قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، فأعطاه إياها، وقال: (امش، ولا تلتفت، حتى يفتح الله عليك)، قال: فسار علي شيئًا ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: (قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم، إلا بحقها وحسابهم على الله)**[٣].

فنجد أن عليًّا رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم متثبتًا على ماذا يقاتل الناس، ثم مضى مطمئنًّا إلى ما طلب منه على أكمل وجه بعد أن وقف على حقيقة الأمر.

١٠. الحكم على الآخرين من خلال التجربة والمصاحبة والمعايشة.

فقد أثنى رجل على رجل عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عمر: **هل صحبته في سفر قط؟ قال: لا. قال: هل ائتمنته على أمانة قط؟ قال: لا. قال: هل كانت بينك وبينه مداراة[٤] في حق؟ قال: لا. قال: اسكت، فلا أرى لك به علمًا،**

(١) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٧/ ٣٠١.
(٢) فتساورت: أي رفعت لها شخصي.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٨٦.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب، رقم ٢٤٠٥، ٤/ ١٨٧١.
(٤) مداراة: ملاينة.
انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٨٦.

أظنك والله رأيته في المسجد يخفض رأسه ويرفعه[(١)].

١١ . المطالبة بالشهود أو البينة على الدعوى، أو اليمين من الطرف الآخر عند النكول وعدم البينة.

وهي وسيلة من وسائل إثبات الحق الذي يدّعيه المدّعي.

والأصل في ذلك ما ورد عن الأشعث بن قيس قال: كانت بيني وبين رجل خصومة في بئر، فاختصمنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله: (شاهداك أو يمينه)، قلت: إنه إذا يحلف ولا يبالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من حلف على يمين يستحق بها مالًا، وهو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان)، فأنزل الله تصديق ذلك، ثم اقترأ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧][(٢)].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (لو يعطى الناس بدعواهم، لادعى ناس دماء رجال وأموالهم، ولكن اليمين على المدعى عليه)[(٣)].

١٢ . أن لا يقضي القاضي مدفوعًا بشهوة التشفي أو الحقد.

ولا يستعجل في القضاء، وأن لا يقضي وهو غضبان، أو جوعان، أو نعسان، أو مرهق، ولا وهو يدافع الأخبثين (البول والغائط).

١٣ . عدم بناء الأحكام على الشك، بل لابد من اليقين.

فيجب أن يفسر الشك في صالح المتهم؛ ذلك لأن اليقين لا يزول بالشك، ولأن يخطئ القاضي فيبرئ مذنبًا خير له من أن يخطئ ويتسرع بإدانة بريء ومعاقبته.

١٤ . أن يطلب القاضي من الله أن يلهمه الرشد والصواب في الأمر كله.

فلا صواب إلا بالإلهام من الله، وإن العبد البعيد عن عون الله هالك.

١٥ . الاستعانة بأهل العلم والخبرة والورع.

ويستعين بالنظر في اجتهادات السابقين من الأئمة المجتهدين، وما ينتج عن هذه

---

(١) الكفاية في علم الرواية، الخطيب البغدادي ١/ ٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرهن، باب إذا اختلف الراهن والمرتهن، رقم ٢٥١٥، ٣/ ١٤٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، رقم ١٣٨، ١/ ١٢٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب اليمين على المدعى عليه، رقم ١٧١١، ٣/ ١٣٣٦.

الاستعانة من تثبت تقتضيه المسالك الشرعية، ويؤدي إلى أن يكون الرأي أو الحكم أوفق للحق، وأقرب للصواب، وأطيب لنفس الخصوم.

١٦. دراسة النماذج العملية للتثبت من خلال القرآن والسنة.

وكذلك سيرة السلف الصالح، ومعايشتها، والاستفادة منها في الواقع العملي.

نماذج قرآنية في التثبت

ذكر القرآن الكريم نماذج كثيرة للتثبت متمثلة في عدد من القصص، وهذا بيان بعضها:

أولًا: قصة موسى عليه السلام والخضر:

وردت قصة موسى والخضر عليهما السلام في سورة الكهف، في قول ربنا سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ
حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا
(٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ
سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ
ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢)
قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ
وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ
فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ
ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ
ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا
(٦٥) قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا
عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا
(٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا (٦٨) قَالَ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا
(٦٩) قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ
أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى
ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ
جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ

مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا
غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ
جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن
تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ
بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾
فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا
فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن
يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا
﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ
مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ
لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ
وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا
ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا
طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا
خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ
لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا
وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا
وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ
عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾

[الكهف: ٦٠ – ٨٢].

لم يذكر لنا القرآن اسم العبد الصالح الذي ذهب إليه موسى عليه السلام، لكن بيّن لنا النبي صلى الله عليه وسلم أن اسمه الخضر[١]، وسمي بهذا الاسم لأنه جلس على فروة بيضاء[٢]، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء[٣].

ويلاحظ على هذه القصة أنها «قصة تثبّتٍ في صورة عملية؛ ذلك أن الإنسان يبني حكمه على ما يشاهده ويشعر به؛ ولذلك يخطئ ويتعثر كثيرًا، ولو انكشفت له حقائق الحياة، ومواطن الأمور وعواقبها، لتغير حكمه كثيرًا، ونقض ما أبرم، وتثبّت أنه لا ثقة له بأحكامه، وأنه لا يصح الإسراع في الحكم، وأن حياتنا اليومية العامة مليئة بالأخطاء الفاحشة، والأحكام السريعة، والخطوات المتهورة، والآراء المرتجلة، ولو أسندت إليه إدارة هذا العالم الفسيح، لأفسد العالم وأهلك الحرث والنسل؛ لأن نظره قاصر، وعلمه محدود، وخلق من عجل، وفطر على السرعة وقلة البصر»[٤].

وتظهر مواضع التثبت في هذه القصة فيما يأتي[٥]:

أولًا: لقد اختار الله سبحانه وتعالى لتقرير هذه الحقيقة العظيمة أعظم شخصية

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما ذكر في ذهاب موسى في البحر إلى الخضر، رقم ٧٤، ١/ ٤٠.

(٢) الأرض اليابسة.
انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين، الحميدي ١/ ٥٤٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب بدء الوحي، رقم ٣٢٢١، ٣/ ١٢٤٨.

(٤) تأملات في سورة الكهف، أبو الحسن الندوي ص٩٣-٩٤.

(٥) انظر: التثبت في القرآن الكريم، محمد حسين ص١٢٠.

في عصره، وهو موسى عليه السلام، أحد أولي العزم، الذي ظن متعجلًا غير متثبت أنه أعلم الناس، فعاتبه الحق سبحانه؛ لأنه لم يرد العلم إليه، فعن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم: **(أن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه، فقال له: بلى، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك)**[1].

ثانيًا: بعد أن قابل موسى الخضر عليهما السلام، وسأله أن يعلّمه من علمه، وأخبره الخضر أنه لن يستطيع صبرًا على ما يرى، وتعهد موسى عليه السلام أنه سيكون صابرًا، ولا يعصي له أمرًا، أخذ الخضر عليه السلام الشرط على موسى عليه السلام إن أراد صحبته ألا يسأله عن شيء حتى يوضّحه له ووافق موسى عليه السلام ألا يتسرع بالإنكار على الخضر عليه السلام عندما يقوم ببعض الأمور التي يبدو ظاهرها المنكر؛ لأن التسرع ينافي التثبت[2]، فقبل موسى عليه السلام شرطه رعاية لأدب المتعلم مع العالم[3].

قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٦٥ - ٧٠].

ثالثًا: «وتمضي الرحلة، وينكر موسى على الخضر عليهما السلام تصرفات أثارت الاستغراب والدهشة، من خرق للسفينة التي أقلتهما بدون أجر، وقتل للغلام الزكي الذي لم يبلغ الحلم، وبناء للجدار في قرية لم يضيفهما أهلها، لذلك لم يملك موسى عليه السلام نفسه أمام هذه التصرفات الغريبة ونسي وعده، وأسرع بالإنكار والتساؤل قائلًا للخضر عليه السلام: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]»[4].

إذن لم يصبر موسى عليه السلام على ما قام به الخضر عليه السلام، وتسرعه هذا ينافي التثبت، فلو صبر وتأنى لرأى العجب، لكنه أكثر الاعتراض فتعين الفراق[5]، لذلك قال نبينا صلى الله عليه وسلم: **(يرحم الله موسى لو كان صبر لقص علينا من**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾، رقم ٤٤٤٨، ٤/ ١٧٥٢.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٥٥.

(٣) معاني القرآن، النحاس ٤/ ٢٦٩.

(٤) تأملات في سورة الكهف، أبو الحسن الندوي ص٩٥.

(٥) التفسير المنير، الزحيلي ٨/ ٣٢٧.

أمرهما)[1].

وقد «كان على موسى عليه السلام أن يتريث ويتأنى حتى يوضّح له الخضر أسباب ما يقوم به، لكنه تسرع وقال كلامًا يدل على ندمه الشديد ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦].

ولما لم يلتزم موسى عليه السلام بالشرط الذي وضعه على نفسه، وأنكر إنكارًا قائمًا على العجلة وعدم التريث، قرر الخضر عليه السلام مفارقته ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]»[2].

رابعًا: «يمضي الخضر عليه السلام بتؤدة وأناة حتى تنتهي الرحلة إلى غايتها المقدرة، ويكشف القناع عن هذه القضايا الثلاث، التي كانت موضع دهشة واستغراب من موسى عليه السلام ومن كل من يقرأ هذه القصة في القرآن، فيتجلى أن الخضر عليه السلام كان مصيبًا محسنًا، فقد أحسن إلى صاحب السفينة بخرقها؛ إذ حفظها من اغتصاب الملك الظالم ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

وأحسن إلى أبوي الغلام بقتله؛ إذ كان فتنة لهما ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠].

وأن بكاء ساعة أفضل من البكاء طول الحياة، وأن الغلام يعوّض، ولا عوض عن الدين والعافية ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١].

وأصلح الجدار وأقامه؛ لأنه كان ليتيمين من أبوين صالحين، وكان تحته كنز لهما، ولو تهدم الجدار لانكشف الكنز واختطفه الناهبون، فظهر أن صلاح العمل ينفع في الحياة وبعد الممات، وأن البذور الصالحة تظهر نتيجتها كما أن البذور السيئة تظهر نتيجتها»[3]، ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

هذه القصة العظيمة درس لكل المسلمين -وخاصة الدعاة- في التأني والتثبت قبل الإنكار، وهذا يوصلنا إلى الحقيقة والصواب، والعاقبة المحمودة، فكم من قضية أو حكم كنا نجهله أو ننكره، فلما وقفنا على حقيقته تبين لنا خطأ اعتقادنا وتفكيرنا!

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم ٣٤٠١، ٤/ ١٥٤.

(٢) تأملات في سورة الكهف، أبو الحسن الندوي ص٩٥.

(٣) المصدر السابق ص٩٦-٩٧.

ثانيًا: قصة سليمان عليه السلام والهدهد:

وردت هذه القصة في سورة النمل في قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٠ – ٢٨].

تتجلى مظاهر التثبت في هذه القصة من خلال الآتي[(١)]:

أولًا: قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ففي هذه الآية عدة فوائد:

الأولى: أن الخلل لا بد أن يعالج بالعقوبة ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ وهذا يثبت أن سليمان عليه السلام كان على إحاطة تامة وعلم شامل بأمر الجند.

الثانية: لم يتسرع سليمان عليه السلام بعقاب من لم يثبت تقصيره، فربما يكون هناك عذر أو سبب لهذا الغياب، ومن ثمّ قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ فقبل العقوبة لابد من التثبت، ومعرفة سبب الغياب.

الثالثة: دقة كلام الحاكم وإحاطته واختصاره، وإظهار الغضب إذا وجد الخلل، والتهديد بالعقوبة بحيث يسمعها الجند.

يقول سيد قطب: «ومن ثمّ نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ ولكن سليمان ليس ملكًا جبارًا في الأرض، إنما هو نبي، وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاء نهائيًا قبل أن يسمع منه، ويتبين عذره، ومن ثمّ تبرز سمة النبي العادل: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجة قوية توضح عذره، وتنفي المؤاخذة عنه»[(٢)].

«إذن فالسلطان المبين هو العذر البيّن

(١) انظر: الأساس في التفسير، سعيد حوى ٧/ ٤٠٠٨، القصص القرآني، صلاح الخالدي ٣/ ٥٢٧، التثبت في القرآن الكريم، محمد حسين ص١٢٥.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٣٨.

الواضح المقبول، وهذا الاستدراك من سليمان عليه السلام يدل على حزمه وضبطه وعدله وتثبّته، فقد أعطى المتهم فرصة لبيان حجته والدفاع عن نفسه؛ لأن المتهم بريء حتى تثبت إدانته، أما إذا قدّم عذرًا أو حجة فلابد أن يقبل منه»[1].

ونستفيد من فعل سليمان عليه السلام في واقعنا، عدم جواز إصدار الأحكام على الناس المتهمين في نظرنا، حتى يعطوا الفرصة للدفاع عن أنفسهم، والإتيان بالبينات القاطعة التي تشهد ببراءتهم مما نسب إليهم، لكن الناس في هذه الأيام يصدرون الأحكام الجاهزة على الناس دون أدنى تثبت، مما يجعل المجتمع المسلم أسيرًا للشائعات الكاذبة التي تقوّض بنيانه.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ إن قول الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ تدل على تثبته؛ لأن الإحاطة تعني «العلم بالشيء من جميع جهاته»[2]، وقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ يدل على تأكده وتيقّنه مما رأى وشاهد.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ومن دروس التثبت في هذه الآية:

الأول: قوله: ﴿سَنَنظُرُ﴾ وهذا يدل على النظر والتأمل، والتصفح، والتثبت من الأخبار، والكشف عن الحقائق بوجه من وجوه المعرفة والعلم[3].

الثاني: «قوله: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يلاحظ أن سليمان عليه السلام لم يشرع في تصديقه أو تكذيبه، ولم يستخفه النبأ العظيم الذي جاء به، إنما أخذ في تجربة الهدهد ليتأكد من صحة ما قاله ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٢٨]»[4].

الثالث: لا بد للإنسان أن يتمهل، ويتثبت من الأخبار التي ترد إليه، وأن يفحصها ويتأكد منها، فإن ظهر له صدقها أخذ بها، وإن ظهر له كذبها رفضها، ولا يلام على موقفه هذا، وهذا ما فعله سليمان عليه السلام، تثبّت من كلام الهدهد فظهر له صدقه[5].

ثالثًا: قصة داود عليه السلام والخصمين:

وردت هذه القصة في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ

(١) القصص القرآني، صلاح الخالدي ٣/ ٥٢٧.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ٥/ ٤١٤.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٦٧، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٣٦.
(٤) المستفاد من قصص القرآن، عبدالكريم زيدان ١/ ٤٣٠.
(٥) القصص القرآني، صلاح الخالدي ١/ ٥٣٥.

﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢١ - ٢٦].

وبيان هذه القصة «أن داود النبي الملك، كان يخصص بعض وقته للتصرف في شؤون الملك، وللقضاء بين الناس.

ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسبيحًا لله في المحراب. وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس.

وفي ذات يوم فوجئ بشخصين يتسوران المحراب المغلق عليه، ففزع منهم، فما يتسور المحراب هكذا مؤمن ولا أمين! فبادرا يطمئنانه ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وجئنا للتقاضي أمامك ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ ويبدأ أحدهما فيعرض خصومته: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: اجعلها لي وفي ملكي وكفالتي ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي: شدد علي في القول وأغلظ.

والقضية - كما عرضها أحد الخصمين - تحمل ظلمًا صارخًا مثيرًا لا يحتمل التأويل. ومن ثَمّ اندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثًا، ولم يطلب إليه بيانًا، ولم يسمع له حجة. ولكنه مضى يحكم: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ أي: الأقوياء المخالطين بعضهم لبعض ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان، فقد كانا ملكين جاءا للامتحان! امتحان النبي الملك الذي ولاه الله أمر الناس، ليقضي بينهم بالحق والعدل، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم. وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية في صورة صارخة مثيرة، ولكن القاضي عليه ألا يستثار، وعليه ألا يتعجل، وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته، فقد يتغير وجه المسألة كله، أو بعضه، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعًا أو كاذبًا أو ناقصًا!»[1].

ومن دروس التثبت المستفادة من هذه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠١٨.

القصة[1]:

أولًا: لقد ورد في تفسير هذه الآيات كثير من القصص الإسرائيلية التي لا دليل عليها، وفيها ما يقدح في عصمة الأنبياء. ولذلك ردّ كثير من المفسرين هذه القصص الإسرائيلية في تفسير هذه الآيات[2].

ثانيًا: الظاهر من هذه القصة أن داود عليه السلام سمع قول المتظلم من الخصمين وهو المدعي، ولم يخبرنا القرآن عن داود عليه السلام أنه سأل المدّعى عليه عما يقول المدّعي، وهل يقر بدعواه أم لا؟ وهل عنده ما يدفع هذه الدعوى.

ويبدو أن داود عليه السلام عندما سمع القضية من المدّعي عرف أنه مظلوم، وأن خصمه ظلمه وبغى عليه، وتأثر داود بما سمع، وظن أن الأمر لا يتطلب سماع الطرف الآخر، فقال داود عليه السلام مستعجلًا للمتظلم: لقد ظلمك، مع إمكان أنه لو سأل المتظلم منه لنفى ذلك ولم يعترف به[3].

والأصل أن يسمع القاضي من الخصمين، لا أن يسمع كلام خصم دون الآخر؛ لأن قضية التثبت من أصول الحكم التي لا يمكن تجاوزها، ومقتضى التثبت أن يسمع من الطرفين.

ثالثًا: نتعلم من قصة داود عليه السلام عدم جواز إصدار الحكم من غير تثبت ولا إقرار من الخصم؛ إذ هذا محل الفتنة التي كانت لداود عليه السلام، فينبغي التأني في إصدار الأحكام، حتى تسمع الدعوى من الخصمين معًا[4].

رابعًا: إن من قواعد الحكم الأساسية التثبت والعدل في الأحكام، ومن مقتضيات ذلك ألا يحكم القاضي في الدعوى إلا بعد أن ترفع إليه، وألا يميل مع أحد الخصمين لقرابة أو صداقة، أو محبة، أو بغض للآخر؛ فإن ذلك يخرجه عن الصراط المستقيم[5]﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

خامسًا: لا يجوز للحاكم أن يحكم بعلمه الشخصي، إلا إذا كان معه شاهد آخر يعزز هذا العلم، فقد روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: «لو رأيت أحدًا على حد لم أحده، حتى يشهد عندي شاهدان بذلك»[6].

(١) انظر: التثبت في القرآن الكريم، محمد حسين ص١٣٠.

(٢) انظر: معاني القرآن، النحاس ٦/ ٩٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٢، في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠١٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١٧٨.

(٤) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٤٤٤.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧١١.

(٦) انظر: تلخيص الحبير، ابن حجر ٤/ ١٩٧

فهذه القصة تعلمنا وجوب الحكم بالحق والعدل، ومقتضى ذلك التأني والتثبت في إصدار الأحكام، من خلال الوقوف على الطرفين المتخاصمين، وعدم الاكتفاء بسماع طرف دون الطرف الآخر، وعدم الالتفات إلى الشائعات، والاكتفاء بما يشاع منها دون سماع المعنيّ بها، فكم من شائعة انتشرت واشتهرت، لكنها عين الباطل والكذب والزور.

نماذج قرآنية في عدم التثبت

من النماذج القرآنية في عدم التثبت، حادثة الإفك، فقد أظهرت هذه الحادثة مدى خطورة عدم التثبّت والإشاعة على المجتمع المسلم، فقد افترى عبد الله بن أبيّ على عرض رسول الله صلّى الله عليه وسلم، فرمى أحبّ نسائه إلى قلبه، وبنت أحبّ أصحابه إليه بالإفك، واتهم صحابيًّا كريمًا بهذه التّهمة النّكراء، وماجت المدينة شهرًا كاملًا بالفتنة، وانتقل الحديث من لسانٍ إلى لسانٍ ومن بيتٍ إلى بيتٍ، حتى وصل خبره إلى الرّسول صلّى الله عليه وسلم وعلم به أبو بكر الصّديق ثم عرفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

وهذه الحادثة وردت في القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ
لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ
مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ
لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ
﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟
بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ
لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ
تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم
بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

وصحح إسناده مع وجود انقطاع فيه.



وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا
سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن
تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ
أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾
وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى
ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ
وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ
ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ
وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ
يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ
ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ
لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴾ [النور: ١١ - ٢٦].

وجاء تفصيل الحادثة في كتب السنة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا أراد أن يخرج سفرًا أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها، خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزاة غزاها، فخرج سهمي، فخرجت معه بعد ما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودج، وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري، فإذا عقد لي من جزع أظفار[1] قد انقطع، فرجعت، فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، فأقبل الذين يرحلون لي، فاحتملوا هودجي، فرحّلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلن ولم يغشهن اللحم، وإنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج، فاحتملوه وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منزلهم وليس فيه أحد، فأممت منزلي الذي كنت به، فظننت أنهم سيفقدونني، فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة غلبتني عيناي، فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني وكان

(١) جزع أظفار: الجزع اسم مدينة بحمير في اليمن.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥١٧.

يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته فوطئ يدها، فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت بها شهرًا والناس يفيضون من قول أصحاب الإفك، ويريبني في وجعي، أني لا أرى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض، إنما يدخل فيسلم، ثم يقول: (كيف تيكم)[١]، لا أشعر بشيء من ذلك حتى نقهت، فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع[٢] متبرزنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف[٣] قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في البرية أو في التنزه، فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبي رهم نمشي، فعثرت في مرطها[٤]، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلًا شهد بدرًا، فقالت: يا هنتاه[٥]، ألم تسمعي ما قالوا؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم فقال: (كيف تيكم)، فقلت: ائذن لي إلى أبوي، قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيت أبوي، فقلت لأمي: ما يتحدث به الناس؟ فقالت: يا بنية هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر، إلا أكثرن عليها، فقلت: سبحان الله، ولقد يتحدث الناس بهذا، قالت: فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي، يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة، فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم، فقال أسامة: أهلك يا رسول الله، ولا نعلم والله إلا خيرًا، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية

(١) تيكم: هي إشارة بالتنبيه للمؤنث مثل ذا للمذكر.
انظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي عياض ١/ ١٢٥.

(٢) المناصع: موضع بعينه خارج المدينة، وكن النساء يتبرزن إليه بالليل على مذاهب العرب بالجاهلية.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٣٥٦.

(٣) الكنف: المراحيض.
انظر: غريب الحديث، ابن سلام ٣/ ١٤٣.

(٤) المرط: أكسيةٌ من صوف أو خزٍّ كان يؤتزر بها.
انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ١١٥٩.

(٥) هنتاه: لفظة تختص بالنداء. وقيل: معنى يا هنتاه: يا بلهاء، كأنها نسبت إلى قلة المعرفة بمكايد الناس وشرورهم.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ٢٨٠.

تصدقك، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: (يا بريرة هل رأيت فيها شيئًا يريبك؟)، فقالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمرًا أغمصه [1] عليها قط، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن العجين، فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، وقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي)، فقام سعد بن معاذ، فقال: يا رسول الله، أنا والله أعذرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا، ففعلنا فيه أمرك، فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا ولكن احتملته الحمية - فقال: كذبت لعمر الله، لا تقتله، ولا تقدر على ذلك، فقام أسيد بن حضير فقال: كذبت لعمر الله، والله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس، والخزرج حتى هموا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فنزل، فخفضهم حتى سكتوا، وسكت وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، فأصبح عندي أبواي، وقد بكيت ليلتين ويومًا حتى أظن أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينا هما جالسان عندي، وأنا أبكي، إذ استأذنت امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل في ما قيل قبلها، وقد مكث شهرًا لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد، ثم قال: (يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب تاب الله عليه)، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته، قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، وقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيرًا من القرآن، فقلت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس، ووقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم: إني بريئة، والله يعلم إني لبريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر،

(١) أغمصه: أعيبه.
انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ١٠٤٧.

والله يعلم أني بريئة لتصدقني، والله ما أجد لي ولكم مثلًا، إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ثم تحولت على فراشي وأنا أرجو أن يبرئني الله، ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحيًا، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله، فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه الوحي، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات، فلما سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها، أن قال لي: (يا عائشة احمدي الله، فقد برأك الله)، فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: لا والله، لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ الآيات[1].

وقد حملت هذه القصة دلالات كثيرة على عدم التثبت لمن خاض فيها، منها:

أولًا: قصة الإفك الكذب فيها ظاهر جدًّا؛ لأنه لا يمكن أن تكون زوجة نبي الله صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف؛ لأن الله لا يختار لنبيه إلا الطيبات، كما قال: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦].

فمن خاض في هذه الحادثة غاب عنه هذا الأمر بسبب عدم التثبت.

ثانيًا: يظهر عدم التثبت في هذه القصة، في عدم تأمل الخائضين في حال حامل لواء الإفك، إنه عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين والذي كان معهم في غزوة بني المصطلق -وكانت فيها حادثة الإفك- وحدث منه ما حدث في هذه الغزوة مما ذكره القرآن في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٥ - ٨].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا، رقم ٢٦٦١، ٣/ ١٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب رقم ١٠، رقم ٢٧٧٠، ٤/ ٢١٣٠.

فكيف يصدّق بعد ذلك وقد حدث منه ما حدث؟!

يقول الشيخ محمد الغزالي عن موقف ابن سلول في غزوة بني المصطلق وحادثة الإفك: «لم يدر بخاطر أحد أنّ هذه الأوبة المتعجّلة سوف تتمخّض عن أكذوبة دنيئة يحيك أطرافها عبد الله بن أبيّ، ثم يرمي بها بين الناس، فتسير مسير الوباء الفاتك، فقد اختفى كالعقرب الخائنة، ثم شرع يلسع الغافلين، قبع هذا المنافق في جنح الظلام ويبدأ ينفث الإشاعات المريبة.

وتدلّى- في غوايته- إلى حضيض بعيد، فلم يبال أن يتهجّم على الأعراض المصونة، وأن ينسج حولها مفتريات يندى لها جبين الحرائر العفيفات.

في عودة الرسول صلى الله عليه وسلم من غزوة بني المصطلق إلى المدينة، نبت حديث الإفك وشاع، واجتهد خصوم الله ورسوله أن ينقلوا شرره في كل مكان قاصدين- من وراء هذا الأسلوب الجديد في حرب الإسلام- أن يدمّروا على الرسول صلى الله عليه وسلم بيته، وأن يسقطوا مكانة أقرب الرّجال لديه، وأن يدعوا جمهور المسلمين- بعد ذلك- يضطرب في عماية من الأسى والغم! !.

وللوصول إلى هذه الغاية استباح ابن أبي لنفسه أن يرمي بالفحشاء سيدة لمّا تجاوز مرحلة الطفولة البريئة، لا تعرف الشرّ، ولا تهمّ بمنكر، ولا تحسن الحياة إلا في فلك النبوة العالي، وهي التي تربّت في حجر صدّيق، وأعدت لصحبة نبي في الدنيا والآخرة»[(١)].

ثالثًا: الخوض في عرض عائشة رضي الله عنها وعدم الظن بها خيرًا، فهذا من التعجل وعدم التثبت الذي أنكره الله على الخائضين في قوله: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

فهذه الآية فيها عتاب للمؤمنين، إذ كان الواجب عليهم إنكار ما سمعوه من إفك وكذب حول بيت النبوة، وأن يقيس فضلاء المؤمنين الأمر على أنفسهم، فإذا استبعدوه عن أنفسهم، فأم المؤمنين أبعد لفضلها، فقد «كان الأولى أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا، وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم في مثل هذه الحمأة، وامرأة نبيهم الطاهرة وأخوهم الصحابي المجاهد هما من أنفسهم. فظن الخير بهما أولى.

فإن ما لا يليق بهم لا يليق بزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يليق بصاحبه الذي لم يعلم عنه إلا خيرًا»[(٢)].

وقد كان ظن بعض المؤمنين بزوجة

(١) فقه السيرة، محمد الغزالي ص٢٩١ بتصرف.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٠١ بتصرف يسير.

نبيهم صلى الله عليه وسلم خيرًا، كما ورد أن أبا أيوب رضي الله عنه قالت له امرأته أم أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك[(١)].

رابعًا: عدم إقامة البينة على هذا الإفك من الخائضين فيه: وهذا ما ذكره الله في قوله: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَٰٓئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣].

قال الزمخشري: «جعل الله التفصلة بين الرمي الصادق والكاذب: ثبوت شهادة الشهود الأربعة وانتفاءها، والذين رموا عائشة رضى الله عنها لم تكن لهم بينة على قولهم، فقامت عليهم الحجة وكانوا عند الله أي: في حكمه وشريعته كاذبين. وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك فلم يجدوا في دفعه وإنكاره، واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع، من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة، والتنكيل به إذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين، فكيف بأمّ المؤمنين الصدّيقة بنت الصدّيق حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبيبة حبيب الله؟»[(٢)].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٢١٢.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢١٩.

خامسًا: قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

ويتجلى عدم التثبت في هذه الآية في ثلاثة أمور وهي:

الأول: تلقي الإفك بألسنتهم بالسؤال عنه وبإشاعته، لا مجرد السماع عفوًا، وإنما يأخذه بعضهم من بعض، ويذيعه وينشره بدون تحقق.

الثاني: التكلم بما لا علم لهم به، ولا دليل عليه، وهذا ينافي التثبت، وهو حديث باللسان دون القلب «لأن من المعلوم بداهة أن التلقي إنما يكون بالأذن ثم يعرض على العقل والقلب، وحينئذ يكون الكلام باللسان، فإنما هي لفتة إلى السرعة وعدم التأني أو التروي في إصدار الحكم، بل في تداوله والتحرك به كأن الإفك عندما وقع من ابن سلول صمت الأذان، وسترت العقول، وغلفت القلوب، فلم يبق إلا أن لاكته الألسن وتحركت به الشفاه، دون فهم للواقع، ودون معرفة بالظروف والملابسات»[(٣)].

ولقد صوّر صاحب الظلال ذلك تصويرًا بديعًا حين قال: «وهي صور فيها الخفّة والاستهتار، وقلّة الحرج، وتناول أعظم الأمور وأخطرها بلا مبالاة ولا اهتمام: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ لسان يتلقى عن لسان،

(٣) آفات على الطريق، السيد محمد نوح ٢/ ٧٠.

بلا تدبر ولا تروّ، ولا فحص ولا إمعان نظر، حتى لكأن القول لا يمر على الآذان، ولا تتملاه الرؤوس، ولا تتدبّره القلوب، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، بأفواهكم لا بوعيكم، ولا بعقلكم، ولا بقلبكم، إنّما هي كلمات تقذف بها الأفواه قبل أن تستقر في المدارك، وقبل أن تتلقاها العقول...»[1].

الثالث: استصغار ذلك القول، وهو عند الله عظيم الإثم، موجب لشدة العقاب ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ قال الزحيلي: «وهذا يدل على أمور ثلاثة: هي أن القذف من الكبائر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وأن عظم المعصية لا يختلف بظن فاعلها، وإنما بالواقع، فربما كان جاهلًا لعظمها، لقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ وأن الواجب على المكلف في كل محرم أن يستعظم الإقدام عليه، فربما كان من الكبائر»[2].

وهكذا يتبين من هذه القصة أن للإشاعات وعدم التثبت دورًا خطيرًا في تحريك النسيج الاجتماعي، والتأثير في تماسكه، واللعب بعواطفه، وتوجيهه نحو الهاوية إذا لم يتدارك الأمر.

موضوعات ذات صلة:

المسابقة، المسارعة

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٠٢.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ١٨١.





عناصر الموضوع



مفهوم التدبر

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (دب ر) تدل على آخر الشّيء وخلفه، فمعظم الباب أنّ الدّبر خلاف القبل، ودابرت فلانًا: عاديته، وذلك أن يترك كلّ واحدٍ منهما الإقبال على صاحبه بوجهه، ورجلٌ أدابرٌ: يقطع رحمه؛ وذلك أنّه يدبر عنها ولا يقبل عليها[١].

والتدبير: أن يعتق الرجل عبده عن دبر، وهو أن يعتق بعد موته، والتّدبير أيضًا: أن يدبّر الإنسان أمره، وذلك أنّه ينظر إلى ما تصير عاقبته، ودُبُره يعني: آخره[٢].

وتدبّر الكلام: النظر في أوله وآخره، ثم إعادة النظر مرة بعد مرة؛ ولهذا جاء على وزن التفعّل كالتجرّع والتفهّم والتبيّن[٣]، ودبّر الأمر أي: فعله بعناية وعن فكر ورويّة، أو نظر فيه وصرّفه على ما يريد[٤].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «التدبر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور»[٥].

أما ابن القيم فعرّفه: «تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبّره وتعقّله»[٦].

وقيل في معناه: هو التفكر الشامل الموصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة[٧].

وقيل: هو تفهّم معاني ألفاظ القرآن والتفكر فيما تدل عليه آياته، وما دخل في ضمنها وما لا تتم إلا به، مما لم يعرّج اللفظ على ذكره من الإشارات والتنبيهات وانتفاع القلب بذلك بخشوعه عند مواعظه وخضوعه لأوامره، وأخذ العبرة منه[٨].

فبهذا تتضح العلاقة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي، إذا خص التدبر في المعنى الاصطلاحي بالتفكر والتأمل في كلام الله تعالى.

(١) انظر: العين، الفراهيدي، ٨/ ٣١، تهذيب اللغة، الأزهري، ١٤/ ٧٨، الصحاح، الجوهري، ٢/ ٦٥٣، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٣٢٤.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٢٧٣.
(٣) انظر: دستور العلماء، القاضي نكري، ٢/ ٢٦٩.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ١١/ ٢٦٥.
(٥) التعريفات، ص ٥٤.
(٦) مدارج السالكين، ١/ ٤٤٩.
(٧) انظر: قواعد التدبر الأمثل، الميداني، ص ١٠.
(٨) انظر: تدبر القرآن، سليمان السنيدي، ص ٦٤.

التدبر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (دبر) في القرآن الكريم (٤٤) مرة، ويخص مادة التدبر منها (٤) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٤	﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩]

وجاء التدبر في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: التفكر والنظر في أدبار الأمور[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٥٢، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الدال ص ٤٩٦.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢١١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/٥٨٨، تاج العروس، الزبيدي، ١١/ ٢٦٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ التفسير:

التفسير لغةً:

هو بيان الشيء وإيضاحه. من ذلك الفسر، يقال: فسرت الشيء وفسّرته[١].

التفسير اصطلاحًا:

«علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية»[٢].

الصلة بين التدبّر والتفسير:

إن التدبر لا يكون إلا بعد معرفة التفسير الصحيح للآية، وأن المقصود الأصلي للتفسير هو: بيان معاني كلام الله تعالى، ومقصود التدبر هو: الاتعاظ والاعتبار.

٢ التاويل:

التأويل لغةً:

التأويل من (الأول)، أي: الرجوع إلى الأصل، ومنه: (الموئل) للموضع الذي يرجع إليه، وذلك هو ردّ الشيء إلى الغاية المرادة منه، علمًا كان أو فعلًا[٣]، وقيل: من (الإيالة)، وهي السياسة، كأن المؤول للكلام يسوسه ويضع المعنى في موضعه[٤].

التأويل اصطلاحًا:

عند السلف المتقدمين: كانوا يطلقون مصطلح التأويل على التفسير، وعند المتأخرين: (التأويل): هو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله، بما لا يخالف نصًّا من كتاب الله سبحانه و تعالى ولا سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥].

الصلة بين التدبّر والتأويل:

على اعتبار أن التأويل بمعنى التفسير، فيكون الفرق بين التدبر والتأويل نفس الكلام المذكور سابقًا، أما على المعنى الثاني، فيلتقي التأويل مع التدبر في الغايات والمقاصد،

---

(١) انظر: العين، الخليل بن أحمد، ٧/ ٢٤٨.
(٢) مناهل العرفان، الزّرقاني، ٢/ ٣.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٩٩، لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ٣٢.
(٤) انظر: الإتقان، السيوطي، ٤/ ١٩٢.
(٥) انظر: معجم علوم القرآن، إبراهيم الجرمي، ص ٧٨.



لكن التدبر لعامة المؤمنين، والتأويل لأهل العلم والنظر.

٣ الاستنباط:

الاستنباط لغةً:

كلمة تدل على استخراج شيء. واستنبطت الماء: استخرجته، والماء نفسه إذا استخرج نبط. ويقال: إنّ النّبط سموا به لاستنباطهم المياه[١].

الاستنباط اصطلاحًا:

هو استخراج ما خفي من النص بطريق صحيح[٢].

الصلة بين التدبّر و الاستنباط:

إن التدبر أصل الاستنباط، فلا يمكن الاستنباط من النص قبل تدبّره، وأن التدبّر يعم العلماء وغيرهم؛ لأنه متوجه للمقاصد الأصلية للقرآن، والاستنباط خاصٌّ بأولي العلم فقط؛ لأنه يكون لدقائق الأمور.

٤ التفكّر:

التفكّر لغةً:

تردد القلب في الشيء. يقال: تفكر إذا ردّد قلبه معتبرًا. ورجل فكّير: كثير الفكر[٣].

التفكّر اصطلاحًا:

تصرّف القلب في معاني الأشياء؛ لدرك المطلوب، وقيل: هو إحضار ما في القلب من معرفة الأشياء[٤].

الصلة بين التدبّر والتفكّر:

إن التدبر: تصرّف القلب بالنظر في العواقب. والتفكر: تصرّف القلب بالنظر في الدلائل. وأن التفكر أظهر في النظر في الآيات الكونية الواقعة والمشاهدة، أما التدبر فهو أظهر في النظر في الآيات القرآنية[٥].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٣٨١.
(٢) انظر: مفهوم التفسير، مساعد الطيار، ص ١٦٠.
(٣) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٧٠٤.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص٦٣.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص٧٥.

مقاصد التدبر

إنّ التدبّر في القرآن هو الغاية الأسمى من نزوله، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[ص: ٢٩].

وهذا ما دعا العلماء إلى البحث في موضوع التدبر، ومعرفة مقاصد وأهداف التدبر، ولمعرفة مقاصد وأهداف التدبّر نعرضها فيما يلي:

أولًا: زيادة الإيمان:

إنّ أهم مقصد من مقاصد التدبر في القرآن الكريم، هو أنه عندما يتلى القرآن الكريم بتدبّر، يشعر القارئ بزيادة الإيمان في قلبه، بل إن مقياس التدبر يعرف بزيادة الإيمان، فإذا كان المسلم يشعر بزيادة في إيمانه فإنه يتدبّر القرآن، حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

ويقول الإمام السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره، فعند ذلك يزيد إيمانهم؛ لأن التدبر من أعمال القلوب؛ ولأنه لابد أن يبيّن لهم معنًى كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقًا إلى كرامة ربهم، أو وجلًا من العقوبات، وازدجارًا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان»[(١)].

والمراد بـ (زيادة الإيمان): هي زيادة انشراح الصدر، وطمأنينة القلب، وانثلاج الخاطر عند تلاوة الآيات[(٢)]، وقوة اليقين في نفس الموقن، فتلك القوة هي المعبّر عنها بالزيادة، وتفاوتها تدرج في الزيادة، ويجوز أن تسمى: قلة التدرج في الأدلة نقصًا، لكنه نقص عن الزيادة، وذلك مع مراعاة وجود أصل حقيقة الإيمان؛ لأنها لو نقصت عن اليقين لبطلت ماهية الإيمان، وقد أشار البخاري رحمه الله إلى هذا بقوله: (باب زيادة الإيمان ونقصانه)[(٣)]، فإذا ترك شيئًا من الكمال فهو ناقص، وهذا هو المراد من وصف الإيمان بالزيادة[(٤)].

وجاء التعبير بصيغة الفعل المبنى للمفعول في قوله: ﴿ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾، ﴿تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ للإيذان بأن هؤلاء المؤمنين الصادقين إذا كانوا يخافون، ويزداد إيمانهم عندما يسمعون من غيرهم آيات الله، فإنهم يكونون أشد خوفًا، وأكثر زيادةً للإيمان عند

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣١٥.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٣٢٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، ١/ ١٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ٢٥٧.

ذكرهم لله، وعند تلاوتهم لآياته بألسنتهم وقلوبهم. فالمقصود من هذه الصيغة: مدحهم، والثناء عليهم، وبيان الأثر الطيب الذي يترتب على ذكر الله، وعلى تدبر آياته[1].

والقلب المؤمن يجد في آيات القرآن ما يزيده إيمانًا، وما ينتهي به إلى الاطمئنان، فالقرآن يتعامل مع القلب البشري بلا وساطة، ولا يحول بينهما شيء إلا الكفر الذي يحجبه عن القلب، ويحجب القلب عنه، فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن، ووجد في آياته المتكررة زيادة في الإيمان تبلغ إلى الاطمئنان[2].

وكان المؤمنون إذا أنزلت سورة من القرآن ازدادوا إيمانًا وتصديقًا وإقرارًا؛ حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[التوبة: ١٢٤].

وذلك لا يكون إلا بعد التدبر في هذه السورة، ولعل المسلمين كانوا إذا سمعوا القرآن قالوا: قد ازددنا إيمانًا، كقول معاذ بن جبل للأسود بن هلال رضي الله عنهما: (اجلس بنا نؤمن ساعة)[3]، يعني: بمذاكرة القرآن والتدبر في آياته[4]، والتعبير في الآية بقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ يدل على أن أعظم آثار القرآن هو الإيمان، وذلك لا يكون إلا بالتدبر، فالإيمان إذًا مقصد من مقاصد المتدبر للقرآن، فعندما تفهم ما تقرأ وتستشعر عظمة الخطاب الموجّه إليك، فإن ذلك يزيد من إيمانك بربك، ويجعلك مستبشرًا بعظيم فضله ومنته، بعكس المنافق المعرض صاحب القلب المريض؛ إذ لا تزيده السورة إلا شكًّا وإعراضًا.

ومن علامات زيادة الإيمان الناتجة عن تدبر القرآن: البكاء من خشية الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

والقشعريرة خوفًا من الله تعالى، ثم غلبة الرجاء والسكينة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

ومن العلامات أيضًا: السجود تعظيمًا لله عز وجل وزيادة الخشوع، ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟

(١) انظر: الوسيط، طنطاوي، ٦/ ٣٠.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٤٧٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بني الإسلام على خمس، ١/ ١٠.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١١/ ٦٥.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

ثانيًا: العمل الصالح:

إنّ المقصد الثاني من مقاصد تدبر القرآن، هو العمل الصالح، والامتثال لأمر الله ونهيه، وهو ثمرة الإيمان وعاقبة التدبر؛ لذلك حتى يتحقق التدبر في القرآن، يجب أن يكون بنية العمل والامتثال بما فيه، ولو أننا تلونا القرآن، ولم نعمل بما فيه لا يمكن أن نكون قد تدبرناه. ولو تدبرناه لكان القرآن واقعًا عمليًّا في حياتنا وسلوكنا. وهذا ما أكّدته عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: (فإنّ خلق نبيّ الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن)[1]، ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك، فإنّه خيرٌ يؤمر به، أو شرٌّ ينهى عنه»[2]، وذلك استعدادًا لتنفيذ الأوامر.

إن التدبر في القرآن هو الطريق للعمل بما جاء فيه؛ وذلك لأن العمل بالقرآن يتوقف على فهمه، وفهم القرآن لا يمكن إلا بالتدبر في آياته. ولقد حثّنا القرآن على العمل والامتثال لما جاء فيه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

الغالبية العظمى من المفسرين على أن المقصود من قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، أي: يتبعونه حق اتباعه، فيكون: يتلونه من تلاه، يتلوه: إذا اتّبعه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ٢].

أي: اتبعها، فهم يعملون بما فيه، فيحلّون حلاله، ويحرّمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه[3]، ويقول أبو السعود: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، «بمراعاة لفظه عن التحريف وبالتدبّر في معانيه والعمل بما فيه»[4]؛ لأنهم إن تدبروه تدبرًا صادقًا، علموا أنه حق، وأن اتباعه واجب، وتصديق من جاء به لازم[5]. بل إن الفائدة المنشودة من تلاوة القرآن بتدبر هي العمل به، فهو كما ثبت في الحديث الصحيح من حديث أبي مالكٍ الأشعريّ: (والقرآن حجّةٌ لك، أو عليك)[6]، وهذا الذي كان عليه السلف

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب جامع صلاة الليل، رقم ١٦٦٨، ٢/١٦٩.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق، ١/ ١٣.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ١٥٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦٥.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ١٥٣.

(٥) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٥/ ٣٣٩.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة،

الصالح -رضي الله عنهم وأرضاهم-، كما قال الحسن البصري -رحمه الله تعالى-: «إن من قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبّرونها بالليل وينفذونها بالنهار»[1]. ومن يتلو القرآن، وهو معرض عن آياته والعمل به، يكون كالمستهزئ بربه، أما الأميّ فعليه سؤال العلماء؛ لشرح معنى القرآن، وإفهامه مراده: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٤٣][2].

ومن هنا فإن الذين لا يتدبّرون القرآن، سوف يفوتهم تطبيق الكثير من مبادئ الدين في حياتهم العملية، وهم لا يشعرون.

ولقد اقترنت دعوة القرآن الكريم للعمل الصالح بالدعوة للإيمان بالله، فلقد كرر القرآن الكريم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ خمسين مرة، في اثنتين وثلاثين سورة.

ويجعل القرآن العمل الصالح جزءًا من صفات المؤمن وشرطًا لدخول الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[الكهف: ١٠٧].

وهناك ارتباط وثيق في عقيدة أهل السنة والجماعة بين الإيمان والعمل الصالح؛ فالإيمان شرطه العمل الصالح، وإلا كان قولًا لا دليل عليه، والعمل الصالح شرطه الإيمان؛ لكي يكون مقبولًا عند الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[النساء: ١٢٤].

وقال في شأن الذين يقدّمون أعمالًا خيّرة، ولكنهم كفار: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان: ٢٣].

إنّ الاستخلاف في الأرض لا يكون إلا بالعمل الصالح بعد الإيمان، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥][3].

والتدبر في القرآن الكريم يجعل الفرد المؤمن الصالح إيجابيًّا ونافعًا، ويعيش حياة آمنة مطمئنة، وصفها القرآن بالحياة الطيبة، وجعلها لمن عمل صالحًا، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧].

باب الطهور شطر الإيمان، ١/ ١٣٩، رقم ٤٠٤.

(١) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن، النووي، ص ٥٤.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١/ ٢٩٧.

(٣) انظر: فقه النصر والتمكين، علي الصلابي، ص١٨٦.

وبهذا الترابط الوثيق بين الإيمان والعمل الصالح يقدّم الإسلام نموذجًا رائعًا وفريدًا بالتطابق بين النظرية والتطبيق، فليس الإيمان مجرد شعارات وأقوال، بل هو تصديق قلبي ينعكس على عمل المؤمن، وعلاقته بمن حوله، فالإيمان الصحيح يزداد، ويقوى، وينمي، ويترتب عليه آثاره من الأعمال الصالحة، وترك المعاصي والفساد بقدر تدبر القرآن، وينقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبره.

وليس العمل لمجرد النفع الدنيوي البعيد عن الأخلاق، بل هو مرتبط بحياة أخرويّة، هي بالتأكيد الأفضل والأعلى ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤].

ولقد حفّزنا القرآن الكريم بأساليب مختلفة على العمل والامتثال، منها: أسلوب الأمر والنهي، وأسلوب الجزاء والعقاب، وأسلوب الوعد والوعيد، وأسلوب الترغيب والترهيب، وهذه الأساليب وغيرها دالة على أن القرآن أنزل للعمل والامتثال.

ومنهج النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح، وغاية مرادهم من القرآن، العمل الصالح، ويشهد له: ما أخرجه الإمام مسلم عن سعد بن هشام بن عامر قال: **(سألت عائشة رضي الله عنها فقلت: يا أمّ المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإنّ خلق نبيّ الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن، قال: فهممت أن أقوم ولا أسأل أحدًا عن شيءٍ حتّى أموت، ثمّ بدا لي، فقلت: أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ألست تقرأ يا أيّها المزّمّل؟ قلت: بلى، قالت: فإنّ اللّه عز وجل افترض قيام اللّيل في أوّل هذه السّورة، فقام نبيّ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولًا، وأمسك اللّه خاتمتها اثني عشر شهرًا في السّماء، حتّى أنزل اللّه في آخر هذه السّورة التّخفيف، فصار قيام اللّيل تطوّعًا بعد فريضةٍ)**[1].

ففي هذا الحديث دلالة على منهج النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع القرآن، وهو التخلّق بأخلاقه، والعمل بأوامره.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال له عيينة بن حصن: «هي يا ابن الخطّاب، فواللّه ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل»، فغضب عمر حتّى همّ أن يوقع به، فقال له الحرّ بن قيس: «يا أمير المؤمنين، إنّ اللّه تعالى قال لنبيّه صلى الله عليه وسلم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وإنّ هذا من الجاهلين»، واللّه ما جاوزها عمر حين تلاها

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب جامع صلاة الليل، ٢/ ١٦٩، رقم ١٦٦٨.

عليه، وكان وقّافًا عند كتاب اللّه[1].

وقال الحسن البصري رحمه الله: «وما يتدبّر آياته إلّا اتّباعه بعلمه، واللّه يعلمه، أما واللّه ما هو بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتّى أنّ أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كلّه فما أسقط منه حرفًا، وقد أسقطه واللّه كلّه ما بدا له القرآن في خلقٍ ولا عملٍ»[2].

ثالثًا: الهداية إلى الحق والصواب:

قد علم أن المقصد الأول من مقاصد التدبر هو: زيادة الإيمان، وأن المقصد الثاني هو: العمل الصالح، وهو ثمرة ونتيجة الإيمان، وأنهما متلازمان، فلا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان. فالأول مبتور لم يبلغ تمامه، والثاني مقطوع لا ركيزة له، وبهما معا يتحقق المقصد الثالث من مقاصد التدبر وهو: الهداية إلى الحق والصواب.

يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩- ١٠].

فالإيمان والعمل هما القاعدتان الأصيلتان التي تبنى عليهما الهداية.

فأما الذي لا يهتدي بهدي القرآن، فهو لا يتدبّره، بل هو متروك لهواه، والإنسان العجول الجاهل بما ينفعه وما يضره، المندفع الذي لا يضبط انفعالاته، ولو كان من ورائها الشر له، ذلك أنه لا يعرف مصائر الأمور وعواقبها، ولقد يفعل الفعل وهو شر، ويعجل به على نفسه، وهو لا يدري، أو يدري ولكنه لا يقدر على كبح جماحه، وضبط زمامه، فأين هذا من هداية القرآن له إلى الخير والصواب؟ يقول الله سبحانه وتعالى في حقه: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

وإنّه مما يؤكّد على أنّ الهداية مترتبة على العمل والاتّباع: قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

فمن الذي يهتدي بالقرآن؟ إنّه الذي يتّبع ما يرضي الله.

وهذه الهداية حسب الآية لها ثلاث فوائد:

١. إن المتبع لما يرضي الله يهديه إلى الطريق المؤدي إلى النجاة والسلامة من الشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة باتباع الإسلام؛ لأنه دين الحق والعدل والإخلاص والمساواة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾، ٦/ ٦٠، رقم ٤٦٤٢.

(٢) فضائل القرآن، الفريابي، ص ٢٤٧، فهم القرآن ومعانيه، المحاسبي، ص٢٧٦.

٢. إنه يخرج المؤمنين به من ظلمات الكفر والشرك والوثنية والوهم والخرافة إلى نور التوحيد الخالص.

٣. إنه يهدي إلى الطريق الموصل إلى الهدف الصحيح من الدين، وإلى خيري الدنيا والآخرة(١).

ويقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

أي: أن الإنسان إذا اتبع الهدى الوارد من الله سبحانه وتعالى على لسان رسله سلم من أن يعتريه شيء من ضلال في الدنيا، بخلاف من اتبع ما فيه هدى وارد من غير الله، فإنه وإن استفاد منه في بعض الأحوال لا يسلم من الوقوع في الضلال في أحوال أخرى، وهو أيضًا لا يشقى في الآخرة؛ لأنه إذا سلم من الضلال في الدنيا سلم من الشقاء في الآخرة(٢).

إنّ هنالك خيارات صعبة وعديدة تطرح أمام الفرد، وأمام الأمة كل يوم، ولاختيار الطريق السليم بين هذه الخيارات، ونهتدي إلى الصواب لابد من الرجوع إلى القرآن، والتدبر في آياته. ومن هنا يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

فيشمل الهدى أقوامًا وأجيالًا بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كلّ منهج وكلّ طريق، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

إن التدبر في القرآن الكريم للحظات قليلة فقط، كان منعطفًا تغييريًّا كبيرًا، في حياة الكثير من العصاة. فهذا الفضيل بن عياض كان في بداية حياته مجرمًا خطيرًا، وكان ذكر اسمه كافيًا لإثارة الرعب في القلوب، لقد كان يقطع الطريق على القوافل، ويسلب المسافرين كل ما يملكون، وذات يوم وقعت نظراته على فتاة جميلة، وفي تلك الليلة، كان يتسلق جدار ذلك البيت الذي تسكن فيه الفتاة، وفي هذه الأثناء، تناهى إلى مسامعه صوت يتلو هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

فأخذ يفكّر في الآية بضع ثوان، وأخذ يردد مع نفسه: «يا رب قد آن »، ثم هبط من الجدار، وتولى بوجهه شطر المسجد، وجاور الحرم حتّى مات(٣).

انظر ماذا فعل التدبر في آية واحدة، حوّل رجلًا من مجرم متمرس بالجريمة، إلى معتكف في محراب العبادة، فكيف إذا تدبر الإنسان في كل القرآن؟ ألا يتحوّل إلى رجل كامل!.

رابعًا: تحصيل العلم النافع:

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٦/ ١٣٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٦/ ٣٣٠.
(٣) انظر: الرسالة القشيرية، القشيري، ١/ ٤٠.



إنّ المقصد الرابع من مقاصد تدبر القرآن الكريم هو: تحصيل العلم النافع، وهو أمر مهم لتحقيق المقاصد الثلاثة السابقة؛ ليكون الإيمان والعمل والهداية عن علم واتباع لما جاء به الشرع.

ولقد حثّ القرآن الكريم على طلب العلم وتحصيله في أكثر من موضع، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: ١٢٢].

قال العلماء: في هذه الآية مشروعية الخروج لطلب العلم، والتفقّه في الدين، جعله الله سبحانه متصلًا بما دل على إيجاب الخروج إلى الجهاد، فيكون السفر نوعين، الأول: سفر الجهاد، والثاني: السفر لطلب العلم. ولا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون إذا لم يجد الطالب من يتعلم منه في الحضر من غير سفر[1].

وفي السياق ذاته، قال سبحانه أيضًا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٤٣].

فسؤال أهل الذكر والعلم، هو شكل من أشكال طلب العلم.

وطلب العلم فضيلة عظيمة، ومرتبة شريفة لا يوازيها عمل؛ لما رواه الترمذي: عن ابن عبّاسٍ، أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (من يرد اللّه به خيرًا يفقّهه في الدّين)[2].

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهّل اللّه له به طريقًا إلى الجنّة، وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلاّ نزلت عليهم السّكينة، وغشيتهم الرّحمة وحفّتهم الملائكة، وذكرهم اللّه فيمن عنده)[3].

كما مدح الله العلماء في مواضع كثيرة في كتابه العزيز، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[فاطر: ٢٨].

وقال أيضًا: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وذمّ سبحانه الجهل والجاهلين فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٧٤.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب إذا أراد اللّه بعبدٍ خيرًا فقهه في الدّين، ٥/ ٢٨، رقم ٢٦٤٥.
قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن الذّكر، ٨/ ٧١، رقم ١٦٦٨.

﴿الْجَاهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩][1].

وبعد معرفة أهمية طلب العلم، فيجب معرفة أن المنبع الأصيل والمصدر العظيم لطالب العلم هو القرآن الكريم، فهو زاخر بالعلوم النافعة للإنسان في حياته الدنيا وآخرته، ولا يستطيع المسلم أن يحصل عليها إلا من خلال الغوص في هذا البحر المتدفق، والتدبر في آياته؛ لاستخراج الدرر المكنونة فيه؛ حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

أي: في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبيّن فيه أتم تبيين بألفاظ واضحة ومعان جلية، حتى إنه تعالى يثنّي فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت، وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها ويبديها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة؛ لتستقر في القلوب فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس، فلما كان هذا القرآن تبيانًا لكل شيء صار حجة الله على العباد، وانتفع به المسلمون فصار هدى لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة. فالهدى ما نالوه به من علم نافع وعمل صالح[2].

ومن جملة ما أجمله في الكتاب العزيز قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

فأمر في هذه الآية باتباع ما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكل حكم سنه الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته قد ذكره الله سبحانه في كتابه العزيز، بهذه الآية، وبنحو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وبقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥].

فكانت السنة والإجماع والقياس مستندة إلى تبيان الكتاب، فمن ثمّ كان تبيانًا لكل شيء[3]. وفي نفس المعنى قال سبحانه أيضًا: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

أي: ما تركنا في القرآن من شيء من أمر الدين؛ إما تفصيلًا أو إجمالًا[4].

ومن جهة أخرى، فيخشى أن تكون حال من يقرأ ويحفظ دون تدبر كحال من سبقنا

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١١/ ٧٩.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٤٧.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٦٢٨.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٢٢٤.

من الأمم التي عاب الله عليها مثل ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨].

قال ابن عاشور رحمه الله: «الأماني القراءة؛ أي: لا يعلمون الكتاب إلا كلمات يحفظونها ويدرسونها لا يفقهون منها معنًى، كما هو عادة الأمم الضالة؛ إذ تقتصر من الكتب على السرد دون فهم»[(١)].

قال ابن تيمية: «والإنسان يقرأ السورة مرات حتى سورة الفاتحة، ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك حتى كأنها تلك الساعة نزلت، فيؤمن بتلك المعاني، ويزداد علمه وعمله، وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر، بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه»[(٢)].

خامسًا: الجهاد بالقرآن:

مقاصد التدبّر السابقة نفعها ذاتي يعود على المسلم وحده فقط؛ لذلك كان لابد من تسخير هذه المقاصد لأمر يتعدّى فيه النفع إلى الآخرين، وهذا هو المقصد الخامس من مقاصد التدبر؛ وهو: الجهاد بالقرآن، فلا يمكن تحقيق هذا المقصد من دون تحقيق المقاصد السابقة فهي مترتبة بعضها على بعض.

وقد دعانا القرآن لهذا النوع من الجهاد، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وجاء هذا الأمر بعد أن حذّر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم من الوهن في الدعوة، أمره بالحرص عليها والمبالغة فيها، وعبّر عن ذلك بالجهاد، وهو الاسم الجامع لمنتهى الطاقة، وصيغة المفاعلة فيه ليفيد مقابلة مجهودهم بمجهوده فلا يهن ولا يضعف؛ ولذلك وصف بالجهاد الكبير؛ أي: الجامع لكل مجاهدة.

وضمير (به) عائد إلى القرآن؛ أي: جادلهم بالحجج القرآنية والبراهين الربانية أعظم الجهاد وأكبره ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وليس ذلك من العدوان، وإنما هو من الدعوة إلى الله لصالح المخالف؛ ليرجع إلى الحق[(٣)].

وفي قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ لفتة عظيمة أن الكافرين والمنافقين لا يتركون لك القرآن، بل يثيرون على آياته الشبهات، فأنت مطالب أن تتحرك في أكثر من محور، تذود عن القرآن شبه الكافرين والمنافقين.

(١) التحرير والتنوير، ١/ ٥٧٥.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٧/ ٢٣٦.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٩/ ٥٣.

فهذا الدين قام على الدعوة والجهاد، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فلا يجوز للمسلمين ترك البشرية تعيش في ضلالها، وعند المسلمين الهدى والنور، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فهذه الأمة مكلّفة بدعوة غيرها من الأمم؛ لإخراجها من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

وجعل التواصي بالحق والصبر من صفات الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقال سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

والجهاد بالقرآن والحجة والبرهان أفضل أنواع الجهاد؛ لأنه جهاد خواص الأمة، وأتباع الرسل، وورثة الأنبياء، وهو أصعبها؛ لأنه جهاد للمنافقين والمرجفين والذين في قلوبهم مرض من أبناء جلدتنا، وللمستشرقين والمغرضين من الكفار[(١)].

فالدعوة والأمر والنهي والتواصي نوع من الجهاد؛ ولذلك ساغ لنا أن نتعرّف على كثير من جوانب وصفات الدعوة والداعية قياسًا على أحكام جهاد القتال، بل لذلك أيضًا وجب على الداعية -إن حجب عن خوض القتال لأسباب مختلفة- أن يفهم آيات الجهاد وأحاديثها على أنها خطاب له هو أيضًا ، وهو في أمره ونهيه، ولذلك أيضًا يحق للمجاهد بالقرآن أن يمنّي نفسه بثواب المقاتلين -إن شاء الله-. وهذا ما قرّره الإمام ابن تيمية في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥].

فقال: «قالت طائفة من السلف: هذا يدخل فيه من آمن وهاجر وجاهد إلى يوم القيامة، وهكذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

يدخل في معناها كل من فتنه الشيطان عن دينه أو أوقعه في معصية، ثم هجر السيئات وجاهد نفسه وغيرها من العدو، وجاهد المنافقين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك، وصبر على ما أصابه من قول أو فعل»[(٢)].

(١) انظر: موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري، ٣/ ٢٥٠٧.

(٢) مجموع الفتاوى، ١٨/ ٢٨٤.

إن ميادين المقارعة بالحجة في كثير من الأوقات أشد على النفس من ميادين المقارعة بالقوة، وتطويع العقول أصعب بكثير من تطويع الأبدان.

وإنّ حياة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم كلها كانت جهادًا بالقرآن، وموحيات الآيات، وما في طياتها من صور الألم والمعاناة التي لحقت بنفس النبي صلى الله عليه وسلم خلال جهاده بالقرآن يعجز القلم عن بيانها، ويصوّر لنا القرآن ذلك، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

ومن أمثلة الجهاد بالقرآن عند النبي صلى الله عليه وسلم: صعوده صلى الله عليه وسلم جبل الصفا، ومناداته بطون قريش بطنًا بطنًا، ويروي البخاري رحمه الله طرفًا من هذه القصة، فعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: (لمّا نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

صعد النّبيّ صلى الله عليه وسلم على الصّفا، فجعل ينادي: (يا بني فهرٍ، يا بني عديٍّ) -لبطون قريشٍ- حتّى اجتمعوا فجعل الرّجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا؛ لينظر ما هو، فجاء أبو لهبٍ وقريشٌ، فقال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدّقيّ؟) قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلّا صدقًا، قال: (فإنّي نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ) فقال أبو لهبٍ: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد١-٢].

ومن أمثلة الجهاد بالقرآن عند الصحابة: قصة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مع النجاشي ملك الحبشة، عندما قرأ عليه صدر سورة مريم، ثمّ قال النّجاشيّ: «إنّ هذا والّذي جاء به موسى ليخرج من مشكاةٍ واحدةٍ»[(١)].

ومن ميادين الجهاد بالقرآن مناصحة ولاة الأمر بالتي هي أحسن، ولا يخاف في ذلك لومة لائم، فعن أبي سعيدٍ الخدريّ، قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: **(أفضل الجهاد كلمة عدلٍ عند سلطانٍ جائرٍ، أو أميرٍ جائرٍ)**[(٢)].

ومن أشكال الجهاد بالقرآن الكريم:

- الدعوة إلى الإيمان به كلّه، والعمل بمحكمه، وردّ متشابهه إلى المتكلم به سبحانه، وألا نكون كمن قال الله تعالى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند أهل البيت، حديث جعفر بن أبي طالب، ٣/ ٢٦٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/ ١٢٤، رقم ٤٣٤٤. وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ١/ ٨٨٦.

فيه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

❁ الدعوة إلى الاحتكام إليه فيما شجر بين المسلمين من خلافات في كل مجال، والرجوع إليه عند النوازل؛ التماسًا للخروج من الأزمات، وحل المشكلات، والارتقاء بواقع المسلمين. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وتبيين أن القرآن هو المرجع الأوّل للتوحيد والعقيدة والمنهج والتشريع، وأن ما خالف القرآن من عقائد ومناهج وقوانين جاهلية هي باطلة مردودة. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

❁ تأكيد عقيدة الولاء والبراء على القرآن ومن القرآن، فكل من آمن بهذا الكتاب وعظّمه تجب محبته ونصرته وموالاته، وأما من سواه فكيف يحب المؤمن بالقرآن من يكفر بالقرآن أو من ينتقص القرآن ويزدريه بمقاله أو بلسان حاله من أهل الأهواء، ويقول عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١ - ٣٢].

الأسباب المعينة على التدبر

تركّز هذه النقاط على العوامل التي تعين وتساعد العبد على التدبر، وأيّة عبادة من العبادات لاشك أن لها عوامل مساعدة على أدائها، وهذه الأسباب والعوامل تجعل عبادة التدبر في القرآن أيسر وأسهل على المسلم، بل إن الأسباب المعينة تجعل أداء عبادة التدبر تكون على أكمل وجه، وأحسن حال، وهذه الأسباب هي كالآتي:

١. الاستعاذة.

إن أوّل سبب من الأسباب التي تعين على التدبر والتخشّع بالقرآن، هو بدء القراءة بالاستعاذة بالله من الشّيطان الرجيم، فإنّها مطردة ومبعدة له، وما أكثر ما يزعج الشيطان إلا قراءة القرآن بتدبر، فوجب العمل على إبعاده، ولا يكون ذلك إلا بطلب الالتجاء والاحتماء بالله؛ كي لا يكون عدو الإنسان اللدود حائلًا بين المسلم وبين تدبره.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بالاستعاذة من الشيطان في أي وقت يشعر المسلم بمحاولة إفساد الشيطان عليه، أي: أمر من أمور الخير، فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٠- ٢٠١].

أي: إما يصيبنك ويعرض لك وسوسة من الشيطان، فاطلب النجاة من الله[١]؛ لأنّ الله الذي تستعيذ به من نزغ الشيطان سميع لاستعاذتك به من نزغه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان، وغير ذلك من أمور خلقه[٢]، إن الذين اتقوا الله فخافوا عقابه إذا أصابهم عارض من وسوسة الشيطان تذكّروا ما أوجب الله عليهم من طاعته، والتوبة إليه، فإذا هم منتهون عن معصية الله على بصيرة[٣].

وإن أكثر ما يعمل الشيطان على إفساده، هو التدبر في قراءة القرآن؛ لذلك أمرنا الله سبحانه وتعالى بالاستعاذة عند قراءة القرآن، فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٠].

حيث أمر الله عباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم أنهم إذا أرادوا قراءة القرآن أن يلجأوا إلى الله من وساوس الشيطان المرجوم الملعون المطرود من رحمة الله؛

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٣٤٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٣٣٣.

(٣) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ١/ ١٧٦.

حتى لا تلتبس عليهم القراءة، ولتتدبر معاني القرآن[1]، وأنّ وسوسة الشيطان لا أثر لها على المؤمنين الصادقين، فالشيطان مهما تمرد وعتا، فإنه ليس له تسلط واستيلاء واستحواذ بالقهر والغلبة على نفوس الذين آمنوا بالله حق الإيمان، والذين هم على الله وحده يتوكلون. وإنما تسلّط الشيطان وتأثيره على الضالين الفاسقين الذين يتولونه ويطيعونه ويتبعون خطواته[2].

وحكم الاستعاذة: هي مندوبة عند كلّ تلاوة داخل الصّلاة وخارجها؛ للأمر بها في كتاب الله تعالى، والذي صرف الأمر من الوجوب إلى الندب، أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن في الأحوال المختلفة، فلم يرد عنه التزام الاستعاذة، كلّما قرأ القرآن قليلًا منه أو كثيرًا، فدلّ ذلك على استحبابها[3].

وأما صيغتها: الّذي عليه اختيار جميع القرّاء من حيث الرّواية، وعليه عامّة الفقهاء، الصيغة المذكورة في الآية السابقة، وهي: (أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم)، وأمّا الزّيادة على ذلك فقد وردت في خمس صيغ، وهي:

١. أعوذ باللّه السّميع العليم من الشّيطان الرّجيم.

٢. أعوذ باللّه العظيم من الشّيطان الرّجيم.

٣. أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم، إنّ اللّه هو السّميع العليم.

٤. أعوذ باللّه العظيم من الشّيطان الرّجيم، إنّ اللّه هو السّميع العليم.

٥. أعوذ باللّه السّميع العليم من الشّيطان الرّجيم، إنّ اللّه هو السّميع العليم[4].

٢. الدعاء.

إنّ أيّة عبادة من العبادات لابد أن نستعين بالله عز وجل على أدائها بحيث تكون على أكمل وجه، حيث يقول الله سبحانه وتعالى على لسان المؤمنين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

والدعاء والتضرع إلى الله أفضل شيء نستعين بهما على أداء العبادة، وقد حثّنا الله سبحانه على دعائه، والتضرع له، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وأعلم الله سبحانه عباده الذين يدعونه أنه قريب منهم، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٤/ ٢٣٢.
(٢) انظر: الوسيط، طنطاوي ٨/ ٢٣٤
(٣) انظر: المقدمات الأساسية، عبد الله الجديع، ص٤٩٨.
(٤) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٢٤٩

وإن من أجلّ العبادات التي يجب أن نلجأ إلى الله ليوفقنا لها، هي التدبر في كتابه، ولقد حثّنا الرسول صلى الله عليه وسلم على طلب العون من الله سبحانه لأداء عبادة الذكر وتلاوة القرآن.

فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: أخذ بيدي رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فقال: (إنّي لأحبّك يا معاذ)، فقلت: وأنا أحبّك يا رسول اللّه، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (فلا تدع أن تقول في كلّ صلاةٍ: ربّ أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[1]، ومعلوم أن تلاوة القرآن من أفضل الذكر.

وإن العامل الرئيس لتدبر القرآن، وتذوقه، واستخراج كنوزه، هو استشعار الحاجة إليه والرغبة فيه، وهذا الشعور لابد أن يترجم في هيئة دعاء وتضرع إلى الله، بأن ييسّر لنا فهم كتابه، وحسن تدبره، والعمل بما فيه، وندعوه سبحانه وتعالى بأن يمنع عنا كل ما يثبّط عزائمنا، ويبعدنا عن التدبر، ونلحّ عليه بأن يحبّب إلى قلوبنا تدبر القرآن، وأن ينوّر قلوبنا بنوره[2].

ولا ينبغي أن يدفعنا تأخر الإجابة إلى اليأس، وترك الدعاء، وحسبنا في ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي)[3].

وبحسب الاستعداد من العبد، يكون الإمداد من الله، كما قال تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: ٧٠].

فالبداية تكون من العبد: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥].

فلنر الله من أنفسنا خيرًا، ولنكثر من الاستغفار والتوبة، ولنداوم قرع الباب، وإن رددنا.

٣. القراءة في الصلاة مع حضور القلب.

إن من الأسباب المهمة التي تعين العبد على تدبر القرآن الكريم: حضور القلب في أثناء قراءته، وخاصة في الصلاة، ويجب على العبد إذا أراد الانتفاع بالقرآن أن يجمع قلبه عند تلاوته وسماعه، وأن يحضر حضور من يخاطب به، فإنه خطاب من الله للعبد على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم،

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر، ٣/ ٥٣، رقم ١٣٠٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٢٠، رقم ٧٩٦٩.

(٢) انظر: العودة إلى القرآن، مجدي الهلالي، ص٩٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل، ٨/ ٧٤، رقم ٦٣٤٠.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وذلك أن تمام التّأثير يجب أن يكون موقوفًا على مؤثر، ومحل قابل للتأثر، وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الّذي يمنع منه، وقد تضمّنت الآية بيان ذلك كلّه بأوجز لفظ، وأبينه، وأدلّه على المراد[(١)].

وإلقاء السمع: مستعار لشدة الإصغاء للقرآن، ولمواعظ الرسول صلى الله عليه وسلم، كأن أسماعهم طرحت في ذلك، فلا يشغلها شيء آخر تسمعه. والشهيد: صيغة مبالغة للدلالة على قوة المشاهدة، أي: تحديق العين إليه؛ للحرص على فهم مراده، فإن النظر يعين على الفهم[(٢)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال لي النّبيّ صلى الله عليه وسلم: **(اقرأ عليّ). قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (فإنّي أحبّ أن أسمعه من غيري).** فقرأت عليه سورة النّساء، حتّى بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

قال: (أمسك)، فإذا عيناه تذرفان[(٣)].

ومما يعين على تدبر القرآن: القيام به في الليل، وهو من أهم مفاتح تدبر القرآن، وأعظمها شأنًا، وقد ورد عدد من النصوص تؤكد أهميته، من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وعن ابن عمر رضي الله عنه، عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **(وإذا قام صاحب القرآن فقرأه باللّيل والنّهار، ذكره، وإذا لم يقم به نسيه)**[(٤)].

وأهم شيء في تدبر القرآن، هو تذكّر آيات القرآن الكريم، وكونها حاضرة في القلب في كل آن، وخاصة في المواقف الصعبة في الحياة، مواقف الشدة والذهول، المواقف التي يفتتن فيها المرء ويمتحن ويختبر، فمن كان يقوم به آناء النهار فتجد إجابته حاضرة وسريعة وقوية، تجده وقّافًا عند كتاب الله تعالى، تجده آمنًا مطمئنًّا في جميع المواقف، تجده قويًّا متماسكًا حتى في أصعب الظروف.

٤. التفكر في معاني الآيات والتفاعل معها.

وإن مما يعين على تدبر القرآن: التفكر في معاني الآيات والتفاعل معها، والقرآن

(١) انظر: الفوائد، ابن القيم ص ٣

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/ ٣٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد)، ٦/ ٤٥، رقم ٤٥٨٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب مثل صاحب القرآن كمثل الإبل، ٢/ ١٩١، رقم ١٧٩٠.

يحثنا علي التأمل والتفكر، وإعمال العقل، والنظر في هدايات الآيات؛ لننتفع بها في الدنيا والآخرة، حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وفي عطف لعلهم يتفكرون حكمة أخرى من حكم إنزال القرآن، وهي تهيئة تفكّر الناس في معانيه وفهم فوائده، وتأملهم فيما يقرّبهم إلى رضا الله تعالى[(١)].

وأن يستحضر أنّه مخاطب بما يقرأ، فيتأمّل ذكر التّوحيد والإيمان، والأمر والنّهي، والوعد والوعيد، والقصص والأمثال، ويلاحظ ما يلزمه من ذلك من التّصديق والامتثال والاعتبار، ويراعي الجواب في موضع السّؤال، ولا يفوّت ما تقتضيه الآية من تسبيح أو تحميد أو تكبير أو استغفار أو دعاء، ويختتم ذكر الجنّة بالرّغبة إلى ربّه وسؤاله الفوز بدخولها، وذكر النّار بالرّهبة وسؤاله ربّه النّجاة منها.

وفي السنة المطهرة ما يدلنا علي هذا الأمر كذلك، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: (صلّيت مع النّبيّ صلى الله عليه وسلم ذات ليلةٍ، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثمّ مضى، فقلت: يصلّي بها في ركعةٍ، فمضى، فقلت: يركع بها، ثمّ افتتح النّساء، فقرأها، ثمّ افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسّلًا، إذا مرّ بآيةٍ فيها تسبيحٌ سبّح، وإذا مرّ بسؤالٍ سأل، وإذا مرّ بتعوّذٍ تعوّذ)[(٢)].

وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم: كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قال: (سبحان ربّي الأعلى)[(٣)].

وقد أثنى الله ورسوله على من يقرأ القرآن، ويفقه معانيه، ويعمل بما جاء فيه، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

وفي قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال الإمام الطبري: «يعني: الفهم في القرآن»[(٤)].

إن الترتيل والتدبر مع قلة القراءة أفضل من السرعة مع كثرتها؛ لأن المقصود من

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤/ ١٦٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة اللّيل، ١/ ٥٣٦، رقم ٧٧٢.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصّلاة، باب الدّعاء في الصّلاة، ١/ ٢٣٣، رقم ٨٨٣. وصححه الألباني في صحيح أبي داود، الأم، ٤/ ٣٨.

(٤) جامع البيان، ٥/ ٥٧٦.

القرآن فهمه والتفقّه فيه والعمل به، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى التدبر فيه. وقال بعض العلماء: «إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجلّ وأرفع قدرًا، وإن ثواب كثرة القراءة أكثر عددًا»(١).

ولا يجب أن تكون صيغة الجواب توقيفيّة، بل لك أن تجتهد فيه؛ فإنّ عموم الهدي النّبويّ في ذلك يجعل للمتدبّر السّعة في أن يستعمل من الصّيغ ما بدا له ممّا يتحقّق به المقصود، كذلك فهمه السّلف، وذلك في الصلاة وفي غيرها(٢).

وأخيرًا يجب علينا المداومة على استخدام هذه الوسيلة، والتي سنجد لها أثرًا عظيمًا بمشيئة الله في دوام يقظة العقل، وسرعة تجاوب القلب.

٥. اختيار الوقت المناسب.

إنّ من العوامل المساعدة على التدبر في القرآن أيضًا: قراءته وسماعه في موضع سكون، وتجنب القراءة في مواضع اللّغط وارتفاع الأصوات؛ لما يقع بها من التّشويش عليه، فلا يتحقّق له المقصود من التّلاوة على وجهه(٣).

إن أفضل القراءة ما كان في الصلاة، أما القراءة في غير الصلاة، فأفضلها قراءة الليل، والنصف الأخير من الليل أفضل من النصف الأول، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة، وأما القراءة في النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح، ولا كراهية في القراءة في أي وقت من الأوقات(٤).

ويحثنا الله عز وجل على إطالة القراءة في الصلاة، وخاصة صلاة الفجر فقال سبحانه: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨].

و﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ حثًا على تطويل القراءة في صلاة الفجر؛ لأن هذا الوقت يكون مشهودًا تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار(٥).

ولهذين الوقتين خاصّيتهما، وهما إدبار النهار وإقبال الليل، وإدبار الليل وإقبال النهار. ولهما وقعهما العميق في النفس، فإن قدوم الليل وزحف الظلام، كمطلع النور وانكشاف الظلمة، وكلاهما يخشع فيه القلب، وكلاهما مجال للتأمل والتفكر في نواميس الكون التي لا تفتر لحظة، ولا تختل مرة. وللقرآن -كما للصلاة- إيقاعه في الحس في مطلع الفجر ونداوته، ونسماته

(١) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ١/ ٢٠٨.
(٢) العودة إلى القرآن، مجدي الهلالي، ص ٩٩.
(٣) انظر: المقدمات الأساسية، عبد الله الجديع، ص ٤٩٥.
(٤) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن، النووي، ص ١٥٦.
(٥) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ١٨٩.

الرخية، وهدوئه السارب، وتفتّحه بالنور، ونبضه بالحركة، وتنفّسه بالحياة[1].

٦. الإنصات عند سماع القراءة.

وقد أمر الله تعالى من حضر التّلاوة بالإنصات؛ لئلّا يشغل عن القرآن بغيره وهو يسمعه، ولئلّا يرد عليه من التّشويش ما يفوّت عليه التّدبّر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وإن الناس يخسرون خسارة كبيرة عندما ينصرفون عن القرآن، وإن الآية الواحدة لتصنع أحيانًا في النفس -حين تستمع لها وتنصت- أعاجيب من الانفعال والتأثر والاستجابة والإدراك، والطمأنينة والراحة، وإنّ العكوف على هذا القرآن في وعي وتدبر لا مجرد التلاوة والترنم لينشيء في القلب والعقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى، ومن المعرفة المطمئنة المستيقنة، ومن الحرارة والحيوية والانطلاق، ومن الإيجابية والعزم والتصميم ما لا تدانيه رياضة أخرى أو معرفة أو تجريب، وإن رؤية حقائق الوجود، ورؤية الحياة البشرية وطبيعتها وحاجاتها من خلال التصوير القرآني، لهي رؤية واضحة عميقة. وهذا كله أرجى إلى الرحمة، ويكون ذلك في الصلاة وفي غيرها. وليس هناك ما يخصص هذا التوجيه القرآني العام بالصلاة فقط[2].

وقال الإمام السعدي: «والفرق بين الاستماع والإنصات: أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه. وأما الاستماع له: فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبّر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًّا متجددًا، وهدى متزايدًا، وبصيرة في دينه؛ ولهذا رتّب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير»[3].

وقال العلامة ابن قيم الجوزية في معنى السماع في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤]: «والمقصود: أن سماع خاصة الخاصة المقرّبين هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكًا وفهمًا، وتدبرًا، وإجابة، وكل سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمر به أولياءه، فهو هذا السماع»[4].

ولتحقيق هذا المعنى منع المصلّي من

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٢٤٦.

(٢) انظر: المصدر السابق، ٣/ ١٤٢٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣١٤.

(٤) مدارج السالكين، ١/ ٤٨١.

رفع صوته بالقراءة إذا كان مع غيره، كما في حديث عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على النّاس وهم يصلّون. وقد علت أصواتهم بالقراءة، فقال صلى الله عليه وسلم: (إنّ المصلّي يناجي ربّه، فلينظر بما يناجيه به، ولا يجهر بعضكم على بعضٍ بالقرآن)[1].

٧. الخشوع عند سماع القرآن.

ومن الأسباب المعينة على التدبر أيضًا الاجتهاد في الخشوع عند سماع القرآن، ولا بأس بالبكاء، بل هو حسن لمن قدر عليه من غير تكلّف، وأنه تقشعرّ، وتضطرب جلود الذين يخافون ربهم من سماعه؛ تأثرًا بما فيه من ترهيب ووعيد، ثم تلين جلودهم وقلوبهم؛ استبشارًا بما فيه من وعد وترغيب، وذلك كله من تأثير الخشوع، قال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزّمر: ٢٣].

وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧- ١٠٩].

وكما قال عز وجل في وصف الذين أنعم عليهم: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

فهذه الآيات البيّنات واضحة الدّلالة على الأمر بالخشوع، وبيان ما يكون من حال الصّفوة من عباد الله من النّبيّين، وأولي العلم عند سماع الآيات تتلى عليهم من الخضوع والبكاء من خشية الله. وفي حديث ابن مسعود، رضي الله عنه، عندما قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم من سورة النساء، قال: (فإذا عيناه تذرفان)[2].

وهذا معنى يشترك فيه التّالي والمستمع. وعلى هذه الصّفة كان أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (إنّ أبا بكر رجل رقيق، إذا قرأ غلبه البكاء)[3]. وذلك واقع في صلاة وفي غيرها، وهو أمر يجلبه الخشوع للقرآن، ولا يملك الخاشعون ردّه، وهم يتلون آيات الله، أو تتلى عليهم؛ ولذا سيق ذلك عنهم مساق المدح.

(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الصلاة، باب العمل في القراءة، ١/ ٨٠، رقم ٢٩.
وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٤/ ١٢٨.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، بابٌ: أهل العلم والفضل أحقّ بالإمامة، ١/ ١٣٦، رقم ٦٧٨.

وكذلك حكت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما من حال الصّحابة: فعن عبد اللّه بن عروة بن الزّبير، عن جدّته أسماء بنت أبي بكرٍ رضي الله عنها قال: قلت لها: كيف كان أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: «كانوا كما نعتهم اللّه، تدمع أعينهم، وتقشعرّ جلودهم»، قال: فإنّ ناسًا إذا قرئ عليهم القرآن خرّ أحدهم مغشيًّا عليه، قالت: «أعوذ باللّه من الشّيطان»[(١)].

وفي هذا إنكار من أسماء رضي الله عنها أن يبلغ الخشوع بصاحبه إلى الغشيان، وإنّما ذلك بالقشعريرة ودمع العين، كذلك كان حال النّبيّ صلى الله عليه وسلم وحال أصحابه، ولا يعرف ذلك الغشيان فيهم، ولا يثبت عن أحد منهم، أنّه كان يصعق عند القرآن، إنّما ذكر ذلك عمّن بعدهم، وهدي النّبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه أحسن الهدي وأكمله[(٢)].

٨. ترديد الآيات وتكرارها.

إنّ ترديد الآية وتكرارها وإعادتها مع التأمل وزيادة التفهم لها، من الأسباب المعينة على التدبر، وقد استعمل القرآن هذا الأسلوب، فمثلًا في سورة الرحمن كرّر الله سبحانه وتعالى آية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣].

إحدى وثلاثين مرة؛ لتذكير الجن والإنس بهذه النعم؛ كي يشكروا الله تعالى عليها شكرًا جزيلًا[(٣)]. وفي سورة الشعراء كرّر الله سبحانه وتعالى ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٨].

ثماني مرات، مما يجعلنا نتدبرها ونتفكر بها مرة بعد مرة؛ حتى نصل إلى أفضل النتائج من التدبر، والقرآن العظيم متشابهٌ في حسنه وإحكامه وعدم اختلافه، تكرّر فيه القصص والأحكام، والحجج والبينات، وتعاد تلاوته فلا يملّ على كثرة الترداد ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣][(٤)].

وقد ثبت من حديث أبي ذرّ رضي الله عنه قال: (قام النّبيّ صلى الله عليه وسلم حتّى إذا أصبح بآيةٍ)، والآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][(٥)].

وإن النبي صلى الله عليه وسلم قام بهذه الآية طول الليل، وهذا الترديد من أجل أن يعلّم النبي صلى الله عليه وسلم أمته تأمل

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق، ١/ ٣٥٩.

(٢) انظر: المقدمات الأساسية، عبد الله الجديع، ص ٥٠٦.

(٣) انظر: الوسيط، طنطاوي، ١٤/ ١٢٧.

(٤) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ١/ ٤٦١.

(٥) أخرجه النسائي في سننه، كتاب السهو، باب الداء بعد الذكر، ٢/ ١٧٧، رقم ١٠١٠.
وحسنه الألباني في أصل صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم، ٢/ ٥٣٤.

وتفهم خطورة هذه الآية، وتظل هذه الأمة تسأل، وتتوقف عند دلالاتٍ كثيرةٍ في الآية.

يقول ابن القيم: «ولو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية هو محتاج إليها في شفاء قلبه كرّرها ولو مائة مرة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر ولا تفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلى الصباح»[1].

والهدف من التكرار، هو التوقف لاستحضار المعاني، وكلما كثر التكرار زادت المعاني التي تفهم من النص، والتكرار أيضًا قد يحصل لا إراديًّا تعظيمًا أو إعجابًا بما قرأ[2]. ولنعمل على دخول أكبر قدر من النور إلى قلوبنا بترديد تلك الآية مرات ومرات، وعلينا ألا نمل من ذلك طالما وجد التجاوب، وشيئًا فشيئًا ستتبدد الظلمات من القلب ويطرد الهوى، ويصبح النور هو الغالب فيه، فيسهل عليه التأثر بالآيات ويزداد لينه وخشوعه بها[3].

٩ . الترسّل والتمهّل عند القراءة.

ومن الأسباب المعينة على التدبر أيضًا الترسل والتمهل أثناء القراءة، قال الله تعالى: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

والترتيل يعني: الترسل والتمهل، ومن ذلك مراعاة المقاطع والمبادئ وتمام المعنى، بحيث يكون القارئ متفكرًا فيما يقرأ، فمن أسرع القراءة، فقد اقتصر على مقصد واحد من مقاصد قراءة القرآن، وهو: ثواب القراءة، ومن رتّل وتأمل، فقد حقّق المقاصد كلها وكمل انتفاعه بالقرآن، واتبع هدي النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم[4].

قال ابن كثير في تفسيره للآية: «أي: اقرأه على تمهّل؛ فإنه يكون عونًا على فهم القرآن وتدبره»[5]، وعندما سئل أنسٌ كيف كانت قراءة النبيِّ صلى الله عليه وسلم ؟ فقال: (كانت مدًّا، ثمّ قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]. يمدّ ببسم اللّه، ويمدّ بالرّحمن، ويمدّ بالرّحيم)[6].

وقد أمر الله تعالى بالترتيل وأكّده بقوله: ﴿تَرْتِيلًا﴾، وهو مفعول مطلق مؤكّد، وهذا ما يجعله للوجوب، لكن جمهور العلماء

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ١/ ١٨٧

(٢) انظر: علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر، ص ٢٧٨.

(٣) انظر: العودة إلى القرآن، مجدي الهلالي، ص ٩٩.

(٤) انظر: مفاتح تدبر القرآن، خالد اللاحم، ص٤٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٢٥٠.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب مدّ القراءة، ٦/ ١٩٥، رقم ٥٠٤٦.

على أن الأمر للندب، ويقرأ القرآن على منازله: فإن كان يقرأ تهديدًا كان أداؤه كالمتهدّد، وإن كان يقرأ لفظ تعظيم كان أداؤه على التعظيم، وإن كان تساؤلًا كان أداؤه كالمتسائل، وهكذا[(١)].

وقال الإمام النووي: «واتفقوا على كراهة الإفراط في الإسراع ويسمى: الهذّ، قالوا: وقراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جزأين في قدر ذلك الزمن بلا ترتيل، قال العلماء: والترتيل مستحب للتدبر، ولأنه أقرب إلى الإجلال والتوقير، وأشد تأثيرًا في القلب؛ ولهذا يستحب الترتيل للأعجمي الذي لا يفهم معناه»[(٢)].

١٠. المدارسة الجماعية.

ومن المعينات على التدبر كذلك: حلقات المدارسة الجماعية، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

ومعنى هذه الآية: «أنّ الذين يستغرق جميع أوقاتهم قيامهم بذكر الله وبحقّه، وإتيانهم بأنواع العبادات وصنوف القرب فلهم القدر الأجلّ من التقريب، والنصيب الأوفر من الترحيب»[(٣)]، ولا شكّ أن من تمام التلاوة والذكر المدارسة الجماعية لهذا القرآن الكريم بتدبر الآيات، والعيش معها، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلاّ نزلت عليهم السّكينة، وغشيتهم الرّحمة وحفّتهم الملائكة، وذكرهم اللّه فيمن عنده، ومن بطّأ به عمله، لم يسرع به نسبه)[(٤)].

إن وجود حلقات المدارسة القرآنية من الأهمية بمكان لتعليم الناس، كيف يدخلون إلى عالم القرآن فيهتدون بهداه، ويستشفون بشفائه. قال الإمام النووي: «اعلم أن قراءة الجماعة مستحبة بالدلائل الظاهرة، وأفعال السلف والخلف المتظاهرة»[(٥)].

وهذه الحلقات، وإن كانت منتشرة في المساجد هنا وهناك إلا أن مفهومها قد اختزل على تعلم أحكام التجويد، وتصحيح النطق فقط، وهذا الأمر مهم وضروري، ولكنه لا يكفي لتعلم القرآن كما يريد الله عز وجل، بل هو بداية لابد أن يتبعها تعلّم

(١) انظر: علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر، ص ٢٧٩.
(٢) المجموع شرح المهذب، النووي، ٢/ ١٦٥.
(٣) لطائف الإشارات، القشيري، ٣/ ٢٠٣.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن الذكر، ٨/ ٧١، رقم ١٦٦٨.
(٥) التبيان في آداب حملة القرآن، النووي، ص ١٠١.

المعاني وجوانب الهدى والإيمان فيما يتلى من آيات، فيسهل على من يواظب عليها، التعامل مع القرآن بمفرده.

وأما القراءة بالدور: وعبّروا عنها بقولهم (الإدارة بالقرآن)، وهو أن يجتمع جماعة يقرأ بعضهم عشرًا، أو أكثر أو أقل، ثم يسكت ويقرأ الآخر من حيث انتهى الذي قبله، فهذا جائز حسن أيضًا، ولا إشكال فيه، وثوابه عظيم -إن شاء الله-[1].

(١) انظر: علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر، ص ٢٨٤.

صوارف التدبر

تركّز هذه النقاط على الأمور التي تكون مانعًا لتدبّر الإنسان في خلق الله تعالى، أو في القرآن الكريم، ومن ثمّ يصل ذلك الإنسان إلى مراحل متقدمة من الجحود والإنكار لكافة جوانب الدين؛ لأنه لا يمارس هذه العبادة، التي هي من أعظم معينات الطاعة، وصوارف التدبر كثيرة، منها:

أولًا: الطبع والختم على القلوب:

وقد ورد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

فقد بيّنت الآية السابقة أن الله تعالى طرد المنافقين أشدّ الطرد لما ذكر من إفسادهم وتقطيعهم الرحم، ثم بيّن سبب لعنهم، وهو أنهم صمّوا عن الانتفاع بما يسمعون، وعميت أبصارهم عن الارتفاق بما يبصرون، وتأتي هذه الآية الكريمة لتبين السبب الموجب للعن المسبب للصمم والعمى، وذلك من خلال قول الله تعالى المنكر الموبّخ المظهر[2]، «لتاء التفعّل إشارة إلى أن المأمور به صرف جميع الهمة إلى التأمل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾، أي: كل من له أهلية التدبر بقلوب منفتحة منشرحة؛ ليهتدوا إلى كل خير ﴿الْقُرْءَانَ﴾، بأن

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٨/ ٢٤٣.

يجهدوا أنفسهم في أن يتفكروا في الكتاب الجامع لكل خير الفارق بين كل ملبس تفكر من ينظر في أدبار الأمور، وماذا يلزم من عواقبها؛ ليعلموا أنه لا عون على الإصلاح في الأرض، وصلة الأرحام، والإخلاص لله في لزوم كل طاعة والبراءة من كل معصية، مثل الأمر بالمعروف من الجهاد بالسيف وما دونه، وربما دل إظهار التاء على أن ذلك من أظهر ما في القرآن من المعاني، فلا يحتاج في العثور عليه إلى كبير تدبر»[(١)]، ثم تأتي الفاصلة القرآنية لهذه الآية الكريمة فتبدأ بحرف الإضراب ﴿أَمْ﴾ الذي هو بمعنى: بل؛ للانتقال من توبيخ إلى توبيخ، فيكون المعنى: بل إن أولئك المنافقين بلغوا من هول حالهم وفظاعة شأنهم أنّ قلوبهم مطبوعٌ عليها؛ فهم لا يعقلون ولا يسمعون[(٢)].

ثانيًا: اتباع الهوى:

قد ورد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد بيّنت الآيات السابقة أن المؤمن لا يساويه الكافر في درجات السعادة، واستدلّ على صحة هذا القول بأنه خلق السماوات والأرض بالحق، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون، ويقرر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أسباب ضلال المضلّين بقوله: أنظرت يا محمد صلى الله عليه وسلم فرأيت من ترك متابعة الهدى والمداومة عليها، إلى مطاوعة الهوى والعبودية لها من دون الله تعالى، وأضله الله تعالى؛ حيث إن الكافر عالم بأنه ضالٌّ، وأنه يبدّل فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها؛ حتى أصبح مختومًا على سمعه وقلبه؛ فلا يتأثر بالمواعظ، ولا يتفكّر في الآيات والنذر، ولم يكتف بذلك؛ بل جعل على بصره غشاوةً مانعةً من الاستبصار والاعتبار.

وإن الاستفهام استفهام تعجبي، فالله عز وجل في الآية يعجّب محمدًا صلى الله عليه وسلم وكل مخاطب، ولا يقتصر على تعجبه هو عز وجل، وتأتي الفاصلة القرآنية في سؤالٍ يفيد القدرة الإلهية، وأن الله تعالى وحده المتفرد بالهداية التوفيقية، وذلك بقوله: فمن يهدي ذلك الكافر المتبع للهوى من بعد إضلاله تعالى إياه بموجب تعاميه عن ذلك الهدى، وتماديه في الغيّ، وسؤالٌ آخر غرضه الحث والحضّ للكافرين على الانصراف عمّا هم عليه، بقوله: أفلا تلاحظون فتتذكرون واجباتكم والتزاماتكم؟[(٣)].

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي، ١٣/ ٧١.
(٣) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري، ٦/ ١١٣،

ثالثًا: الكبر:

قد ورد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٨-٣٩].

فقد بيّنت الآيات السابقة تكذيب فرعون وقومه لنبي الله موسى صلى الله عليه وسلم؛ فرغم مجيء المعجزات البيان على يد ذلك النبي المؤيّد من الله تعالى، إلا أنهم ردّوا على نبيهم صلى الله عليه وسلم بقولهم: «ما هذا الذي جئتنا به إلا سحرٌ افتريته من قبلك وتخرّصته كذبًا وباطلًا ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي تدعونا إليه من عبادة من تدعونا إلى عبادته في أسلافنا وآبائنا الأولين الذين مضوا قبلنا»[1].

وعندها قال موسى صلى الله عليه وسلم مجيبًا فرعون: ربي أعلم بمن هو على حقٍّ منا يا فرعون من المبطل، ومن الذي جاء بالرشاد إلى طريق الصواب والبيان، من خلال واضح الحجة من عنده، وربي أعلم من الذي له العقبى المحمودة في الدار الآخرة منا[2]، وتأتي هذه الآيات الكريمات لتستأنف الحوار بين موسى صلى الله عليه وسلم وفرعون، فقد بيّنت هذه الآيات مدى فظاعة العلو والاستكبار عند فرعون وقومه، حيث تعمّد الكذب؛ إذ إنه يعلم أن موسى صلى الله عليه وسلم رسول الله، ولكنه بيّن بلسانه أنه ما علم لقومه من إله غيره، فأمر هامان أن يطبخ له آجرًا، وأن يبني له قصرًا، ففعل ذلك، وبنى له صرحًا عاليًا[3].

ولم يكتف فرعون بذلك، بل استكبر استكبارًا عظيمًا هو وجنوده في شتى بقاع الأرض التي يحكمونها عن ظلمٍ كبيرٍ منهم، وإن هذا الكبر صرفهم عن التدبّر في عبادة الله تعالى؛ إذ إنهم ظنّوا أنهم لن يرجعوا إلى الله تعالى، فلم يتدبّروا هذه اللحظات التي سيورد إليها الكل ملكًا كان أو جنديًا.

وقد وردت آيةٌ أخرى تبيّن صرف الله تعالى المتكبرين عن التدبر في آيات الله تعالى، حيث قال جل جلاله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٨/ ٧٣.

(١) جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٥٧٩.

(٢) انظر: المصدر السابق، ١٩/ ٥٨٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ٣/ ٣٢٦.

أي: سأصرفهم أن يتفكّروا في آياتي، وسأمنع قلوبهم من التفكير في أمري؛ إذ إنهم إن يروا الآيات الدالة على صدق النبوة لا يؤمنوا بها، وإن يروا الحق لا يتبعوه، وكذلك إن يروا الباطل يتبعوه، ذلك بأنهم كذبوا بآيات الله تعالى، وغفلوا عن هذه الآيات[(١)].

رابعًا: ارتكاب المعاصي:

قد ورد ذلك واضحًا في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٦].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، ٥/ ١٥٦٧.

هذه الآيات وما قبلها تبيّن مدى غرق فرعون وقومه بالمعاصي الكفرية، من جميع جوانبها، فقد بيّنت الآيات السابقة قصة موسى صلى الله عليه وسلم مع قومه من بني إسرائيل، حيث إنه بعد إيمان السحرة الذين شاهدوا المعجزات برب العالمين، فأيقنوا بنبوته صلى الله عليه وسلم؛ إذ بالنبي موسى عليه السلام يجتهد في إحالة هؤلاء المؤمنين من بني إسرائيل على الله تعالى حاثًّا إياهم على رجوعهم إليه، وتوكلهم عليه، وتعرّضهم لنفحات يسره، فإنه تعالى حكم لأهل الصبر بجميل العقبى، فكان رد هؤلاء المؤمنين من بني إسرائيل، بأنهم توالت عليهم البلايا، ففي حالك يا موسى صلى الله عليه وسلم بلاء، وقبلك شقاء، فما الفضل؟ فأجابهم موسى عليه السلام بما علّق رجاءهم بكشف البلاء، فقال: عسى ربكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون[(٢)].

وتبيّن هذه الآيات أن الله تعالى أراد أن يأخذ آل فرعون المكذّبين ببعض العذابات الدنيا، منها الجدوب لأهل البوادي، والنقص من الثمرات لأهل القرى، وصرّف الله تعالى الآيات وبيّنها لهم من كل نوعٍ؛ لعلهم يتعظون ويتدبّرون بعقولهم وقلوبهم؛ كي يرجعوا إلى ربهم، لكنهم ردّوا على

(٢) انظر: لطائف الإشارات، القشيري، ١/ ٥٥٩.

هذا البلاء بأنهم إذا جاءتهم سعة الرزق والخصب قالوا: إن هذا هو استحقاقنا على العادة التي جرت لنا من النعمة، فينسون بذلك أنه من الله تعالى، ومن ثمّ لا يشكرونه على نعمه، وإن يصبهم قحط وجدب يتشاءموا بنبيهم موسى صلى الله عليه وسلم وقومه، ويقولون: إنما أصابنا هذا الشر بشؤمهم، فيرد الله تعالى عليهم بقوله: ألا إنما شؤمهم جاء بكفرهم بالله تعالى، ولكنهم أكثرهم لا يعلمون أن الذي أصابهم من الله تعالى، ولم يكتف هؤلاء القوم الكافرون بذلك؛ بل قالوا: مهما تأتنا به يا موسى عليه السلام من آية معجزة لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين، فأرسل الله تعالى في سبعة أيام الطوفان والجراد والقمّل والضفادع فاستكبروا وكانوا قومًا مجرمين، ولكنهم لما وقع عليهم ذلك العذاب، إذ بهم يدعون موسى عليه السلام لأن يدعو الله تعالى بما أوصاه به، وهم يظنون أنهم يمنّون على نبيهم موسى عليه السلام، بأنهم إن كشف الله تعالى عنهم هذا العذاب يؤمنوا لموسى صلى الله عليه وسلم، وسيرسلون بني إسرائيل من المؤمنين الضعاف إلى موسى صلى الله عليه وسلم، فلمّا كشف عنهم العذاب إلى الأجل الذي غرّقهم فيه، إذا هم ينقضون العهد، ولا يوفون، فكان لابدّ من الانتقام باستئصال شأفتهم، فسلب الله تعالى نعمتهم بالعذاب، وأغرقهم في البحر، جزاء تكذيبهم وعدم اعتبارهم بآيات الله تعالى، وتفكّرهم بقلوبهم وعقولهم؛ حيث إنهم لم يتوجّهوا إلى الله تعالى بالصدق، ولم يتذكّروا الله تعالى [(١)].

خامسًا: زيغ القلوب:

وقد ورد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

حيث بيّنت هذه الآية ذينكما النوعين اللذين يختصان بالقرآن الكريم، ومعلومٌ أن القرآن الكريم كله محكمٌ إحكامًا عامًّا؛ لقوله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

كما أن القرآن الكريم كله متشابهٌ؛ إذ إنه يشبه بعضه بعضًا في الإحكام والإتقان، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزّمر: ٢٣].

إلا أن هذه الآية التي هي شاهد هذا العنوان تبيّن أن الإحكام المقصود هنا والتشابه، هو ذانكما الإحكام والتشابه

(١) انظر: الوجيز، الواحدي، ص٤٠٩، ٤١٠.

الخاصان[1].

فأما المحكم الخاص هنا فهو بمعنى: الإحكام والإتقان والمنع عمّا لا ينبغي؛ بمعنى: أنه ما لا يحتمل التأويل ولا التخصيص ولا النسخ ولا التدرج، ويكون معناه واضحًا وضوحًا قويًا، وأما المتشابه فقد اختلف العلماء فيه، وليس هذا العنوان هو مقام عرض الخلاف، ولكن يكفي القول بأن المتشابه هو ما استأثر الله تعالى بعلمه، وعلى هذا فإن معنى الآية، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، أي: «طلبًا منهم لفتنة الناس في دينهم، والتلبيس عليهم، وإفساد ذات بينهم، وابتغاء تأويله، أي: طلبًا لتأويله على الوجه الذي يريدونه ويوافق مذاهبهم الفاسد»[2]، ومعنى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، أي: وما يعلم المراد منه إلا الله تعالى، ثم يستأنف الربّ تعالى مقررًا لحقيقةٍ ألا وهي أن الراسخين في العلم يقولون: آمنا به كلٌّ من عند ربنا، وتأتي الفاصلة القرآنية؛ لتبين أنه لا يتدبّر ولا يتذكر آيات الله تعالى ولا محكمه أو متشابهه إلا أصحاب العقول، وعلى هذا فإن الآية تبيّن أن من كان يتصف بالعقل، وأنه صاحب لبٌّ ينبغي أن يسلّم بالمتشابه، ولا يقحم عقله بفهم مراده، فهذا هو التدبّر الذي يكون في غير محله، بل يصرف الإنسان عن التدبر الحق.

سادسًا: التعصب والتقليد:

وقد ورد ذلك واضحًا في آياتٍ، منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

حيث إن هذه الآية تأتي في سياق الحديث عن كفار قريش، فتبيّن أن الله تعالى ذمّهم بأنهم أبطلوا ما خص الله تعالى به الإنسان من الفكر والرويّة، وركزه فيه من المعارف، وذلك أن الله تعالى ميّز الإنسان بالفكر؛ ليعرف به الخير من الشر في الاعتقاد، والصدق من الكذب في المقال، والجميل من القبيح في الفعال[3]، فحال الكافرين إذا قيل لهم -من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام-: اتّبعوا ما أنزل الله تعالى من القرآن، وما شرعت به السنة النبوية، يقولون: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا؛ فهم كانوا أفضل وأعلم منا، ثم تأتي الفاصلة القرآنية في هذه الآية لتبيّن في تساؤلٍ غرضه التوبيخ، كيف يتبعون آباءهم، وآباؤهم لا يعقلون شيئًا، فهم كانوا جهّالًا لا يعرفون شيئًا من أمور الدين، ولا يهتدون

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٧/ ١٣٧، ١٣٨، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٣/ ٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٣٦١.
(٣) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ١/ ٣٦٧.

لاتباع محمد صلى الله عليه وسلم؛ لعدم تعقّلهم[(١)].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

فقد بيّنت الآيات السابقة حال الكافرين من الاستكبار والعلو والبعد عن الطاعة، والإدبار عن التفكّر في آيات الله تعالى، وتأتي هذه الآية الكريمة لتبيّن في تساؤلٍ غرضه التوبيخ، وذلك بما جاء في قول الله تعالى: أفلم يتدبّروا هذا القرآن الذي خوطبوا به، بل جاءهم ما لا عهد لآبائهم به، ولذلك أنكروه وتركوا التدبر به[(٢)].

سابعًا: تعطيل أدوات التدبر:

ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

حيث إن الكفار بعدما وصلوا من ضلال وإضلال؛ إذ بأدوات التدبر عندهم من قلب وعين وأذن تتعطل عن الاستجابة إلى الهدى؛ حتى وصموا بالأنعام، بل هم أضل، وأنهم هم الغافلون[(٣)].

أساليب القرآن في الحث على تدبره

تنوعت أساليب القرآن الكريم في الحث على تدبّره؛ فمنها ما جاء بأسلوب الحض على التدبر في آياته وأحكامه، ومنها ما كان بجعل التدبّر حكمةً لإنزاله، وهذا بيان لهذه الأساليب، من خلال ما يأتي:

أولًا: الحض على التدبر:

وقد ورد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨١-٨٢].

حيث إن الآية الأولى بيّنت أن المنافقين يقولون باللسان: مرنا؛ فإن أمرك طاعة، فإذا خرجوا من عند النبي محمد صلى الله عليه وسلم بدّل طائفة منهم غير الذي تقول، فيخاطب الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، بقوله: إن الله تعالى يحصي ويحفظ ما يبدّلون؛ ليجازي كلٌّ بما قدّم، فعليك ألّا تخبر بأسمائهم -وكان عليه الصلاة والسلام يعرف المنافقين-، وعليك أيضًا أن تتوكل على الله فهو حسيبك وكافيك، وتأتي الآية الكريمة الثانية لتبيّن

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ١/١٩٨-١٩٩.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٢/١٣٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ٢/١٥٤.

في تساؤلٍ غرضه الحث على انصراف المنافقين عمّا هم عليه، والإقبال إلى ما عند الله تعالى، كما وضّح في كتابه الكريم، فيقول تعالى: أفلا يتدبّرون بنظرهم في الأمر إلى آخره، وبالتفكير في هذا القرآن الذي ليس فيه تناقض ولا تفاوت؛ إذ لو كان من عند غير الله تعالى مهما عظمت فصاحته- لما استطاع هذا المفتري على القرآن أن يخبر عن الغيب أو غيره مما هو في القرآن؛ بل لوجد الناس بعضه صدقًا، ومعظمه كذبًا[1].

ولا شكّ أن هذه الآية الكريمة كافية للمؤمن المخاطب بها بطريقة غير مباشرة؛ كي تكون زادًا له في الحث على تدبّر القرآن الكريم آيةً آيةً، بل كلمةً كلمةً، كيف لا؟! وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد.

ثانيًا: جعل التدبّر حكمة إنزال القرآن:

ورد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٧-٢٩].

فقد بيّنت الآيات السابقة أن الله تعالى لم يخلق السماء والأرض وما بينهما هزلًا ولعبًا، وأن ذلك حسبان الذين كفروا؛ فهم الذين أعدّ الله تعالى لهم ويلًا ونارًا، وتساءلت الآية السابقة سؤالًا غرضه التقرير للمؤمنين، والتوبيخ للكافرين، وذلك بقوله: أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعل أصحاب محمد عليه السلام المتقين كالكفار، وتأتي هذه الآية الكريمة بأسلوب استئنافيٍّ؛ لتقرير حقيقةٍ، ألا وهي: أنّ هذا الكتاب الكريم الذي هو القرآن إنما هو منزّلٌ من الله تعالى إلى قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو مباركٌ؛ ليتدبّر الناس هذا القرآن، بل يتوجّب عليهم معرفة معانيه، والترتيل لآياته؛ إذ لا يصح التدبر إلا إذا قرنت أحكام التلاوة، وتأتي الفاصلة القرآنية لتبيّن سببًا آخر لإنزال هذا القرآن المبارك، وهو أن يتعظ ويعتبر أصحاب العقول بما فيه من أحكام وهدايات[2].

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، التفكر، العقل، الغفلة، الفقه، القرآن

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، ١/ ٤٥٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ١٩٢.





عناصر الموضوع



مفهوم التدرج

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الدّال والرّاء والجيم أصلٌ واحدٌ، يدلّ على مضيّ الشّيء، والمضيّ في الشّيء»[1]، وعليه فلفظ (درج) دال على المشي والمضي.

وأما (درّج) بالتشديد فتشير هذه المادة في معاجم اللغة إلى الترقي شيئًا فشيئًا، وصولًا إلى غاية محددة، ومنه يقال -كما في لسان العرب-: «درّجت العليل تدريجًا إذا أطعمته شيئًا قليلًا؛ وذلك إذا نقه حتى يتدرج إلى غاية أكله، كما كان قبل العلة درجة درجة»[2].

فعلى هذا يكون لفظ (درّج) دالًّا على التأني في تناول الشيء أو بلوغه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف معنى التدرج في الاصطلاح عن معناه في اللغة، فجماع دلالات التدرج: أنه أخذ الأمر شيئًا فشيئًا، لا دفعة واحدة.

أو: هو الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى أعلى منها، وأرفع في الحس، أو في المعنى، أو في كليهما، وفي ضوء هذا المعنى قيل لمنازل الجنة: درجات من جهة أن بعضها يرتفع فوق بعض أخذًا من الدرجة التي تعني الرفعة والمنزلة.

والتدرج في الدين يعني: الدخول فيه شيئًا فشيئًا، رويدًا رويدًا، واستدراج الناس إليه درجة درجة.

وقد عرّف الدكتور الزحيلي التدرج بقوله: «التدرج في التشريع: هو نزول الأحكام الشرعية على المسلمين شيئًا فشيئًا، طوال فترة البعثة النبوية، حتى انتهى بتمام الشريعة، وكمال الإسلام»[3].

والتدرج لا يقتصر على مجال التشريع ونزول الأحكام فقط، بل يشمل تطبيق الأحكام بعد اكتمال التشريع، فعندما نطلق كلمة التدرج التشريعي إنما نقصد بها المعنيين:

- في مجال التشريع ونزول الأحكام (التدرج في النزول).
- وفي مجال تطبيق الأحكام بعد اكتمال التشريع (التدرج في التنفيذ).

---

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٢٧٥.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٢٦٧.

(٣) التدرج في التشريع والتطبيق في الشريعة الإسلامية، محمد مصطفى الزحيلي ص ٢٧.

التدرج في الاستعمال القرآني

لم يرد لفظ (التدرج) في القرآن الكريم، وإنما ورد لفظ قريبٌ منه، وهو لفظ (الاستدراج).

وقد ورد في القرآن الكريم في موضعين، وهي:

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٢].

وقال تعالى: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [القلم:٤٤].

ومعناه: نأخذهم درجة فدرجة؛ وذلك إدناؤهم من الشيء شيئًا فشيئًا، كالمراقي والمنازل في ارتقائها ونزولها [١].

وهو قريب من معنى التدرج، الذي هو اقترابٌ من الهدف شيئًا فشيئًا [٢].

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣١١.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٧٥، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٢٧٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الترقي:

الترقي لغة:

ترقّى في العلم وغيره، أي: رقّي درجة درجة[(١)].

الترقي اصطلاحًا:

التنقل في الأحوال والمقامات والمعارف[(٢)].

الصلة بين التدرج والترقي:

أن بينهما تشابهًا كبيرًا؛ إذ إن في كليهما تنقل من حال إلى حال، ومن منزلة إلى أخرى.

٢ الاستعجال:

الاستعجال لغة:

فهو طلب الأمر قبل مجيئه، وتحريه قبل أوانه[(٣)].

واستعجله، أي: حثّه وطلب عجلته، قال الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

الاستعجال اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة الاستعجال والتدرج:

أن الاستعجال نقيض التدرج؛ إذ التدرج الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة، والاستعجال عكسه، وهو طلب الأمر قبل أوانه.

---

(١) شمس العلوم، نشوان الحميري ٤/ ٢٦٠٣.
(٢) التوقيف، المناوي ص ٩٦.
(٣) انظر: التوقيف، المناوي ص ٤٨، دستور العلماء، القاضي نكري ١/ ٧٧.



سنة التدرج وآفة الاستعجال

التدرج في الأمور من سنن الله تعالى، ومن سنن رسله -عليهم الصلاة والسلام-، واستعماله دليل على عمق فقه الرجل لكتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الكريم واضح الدلالة على شرعية التدرج، سواء في طريقة نزوله، أو في تشريعه للأحكام، أو في دعوته، وسيأتي -إن شاء الله- بيان هذه الأنواع.

وفي المقابل فإن الاستعجال آفة عظيمة، توقع المرء في الزلل، وتورده في الخطل، وقد ورد النهي عنها في غير موضع في القرآن، فقد وردت هذه اللفظة (الاستعجال) ومشتقاتها (عجل، وتعجل، وعجّل، وعجَل، وعجّلنا، وأعجل، وأعجلك، وعجلت، واستعجل، ويستعجل، ويستعجلون، وتستعجلون، ويستعجلونك، واستعجالهم، وتستعجلوه، واستعجلتم) في القرآن الكريم في زهاء أربع وثلاثين مرة (٣٤) وكانت بمعنى الذم في الغالب، أو صفة للكافرين والمنافقين، كما في قوله تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٥٤].

وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾[الرعد: ٦].

وقوله تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٤].

وقوله جل شأنه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

وقوله تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

وغيرها من الآيات التي جاءت كلها في النهي عن الاستعجال، والأمر بترك العجلة؛ والتي غالبًا ما توقع في العثرة والزلل، والمقصود أن سياق اللوم والتوبيخ، والأمر بترك العجلة كان ينتظم الاستعمال القرآني لهذه اللفظة.

بل قد جاء النهي للنبي صلى الله عليه وسلم عن استعجال أمر محبوب في الظاهر، وهو الاستعجال في القرآن، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾[طه: ١١٤].

وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦].

والمقصود أن العجلة تنافي التدرج الذي هو سنة من سنن الله سبحانه وتعالى، وقانون من القوانين الكونية التي لا تبديل لها ولا تحويل، وهو سنة من سنن الخلق الإلهي للكون والعالم بسماواته وأراضيه، وهذه السنة الربانية يجب مراعاتها والأخذ بها في التربية والتعليم والدعوة وغيرها من الأمور.

التدرج سنة إلهية في الخلق والتشريع

تحدث القرآن الكريم عن سنة الله في التدرج وعرضها في صور منها: الخلق والتشريع، وسوف نبين ذلك فيما يأتي:

أولًا: التدرج في الخلق:

خلق الله تعالى السماوات والأرض في ستة أيام -وهو قادر على خلقهن بكن فتكون- لحكم عالية أرادها الله تعالى منها: تعليم عباده الأناة والتدرج في إيجاد الأشياء شيئًا فشيئًا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

وقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

قال ابن عاشور: «وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون خلق السماوات والأرض مدرجًا، وأن لا يكون دفعة؛ لأنه جعل العوالم متولدًا بعضها من بعض؛ لتكون أتقن صنعًا مما لو خلقت دفعة؛ وليكون هذا الخلق مظهرًا لصفتي علم الله تعالى وقدرته، فالقدرة صالحة لخلقها دفعة، لكن العلم والحكمة اقتضيا هذا التدرج، وكانت تلك المدة أقل زمن يحصل فيه المراد من التولد بعظيم القدرة؛ ولعل تكرر ذكر هذه الأيام في آيات كثيرة لقصد التنبيه إلى هذه النكتة البديعة من كونها مظهر سعة العلم، وسعة القدرة»[(١)].

وكذلك خلق الله تعالى الإنسان في أطوار مختلفة، وهو قادر سبحانه أن يخلقه دفعة واحدة، فخلقه نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، فخلق المضغة عظامًا، فكسا العظام لحمًا.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ثم إن هذا الخلق الذي يبتدىء بخلق النطفة إلى أن يصير بشرًا سويًّا، يتم في ظلمات ثلاث، كما أشارت إليه الآية في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ

(١) التحرير والتنوير ٨/ ١٦١.

﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

والمراد بالظلمات الثلاث هي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة(١)، ففي تلك الظلمات الثلاث يتم ذلك الخلق العجيب، فعلى الإنسان أن يتصور نفسه وهو في تلك الظلمات الثلاث: لا عين تراه، ولا يد تلمسه، ولا حيلة له في التماس الغذاء.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾[الروم: ٥٤].

أي: إن الله تعالى هو الذي جعل الإنسان يمر في أطوار متفاوتة من الخلق حالًا بعد حال، فجعل أصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم كوّن عظامه، ثم كسا العظام لحمًا، ونفخ فيه الروح، ثم أخرجه من بطن أمه ضعيفًا نحيفًا، واهن القوى، فقوله: ﴿مِنْ ضَعْفٍ﴾ أي: ابتداه ضعيفًا، ثم يشبّ قليلًا قليلًا، فيكون صغيرًا، ثم شابًا بالغًا، وهذا دور القوة بعد الضعف، ثم يأتي دور الضعف من ابتداء الكهولة، إلى الهرم والشيخوخة، وهو الضعف بعد القوة، فتضعف الهمة والحركة، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة.

هذا الانتقال والتدرج والتحول من حال إلى حال دليل على القدرة الإلهية الخالقة، وبرهان على البعث الذي ينكره المشركون، فإن القادر على هذا التغيير والتبديل قادر على الإعادة مرة أخرى إلى الحياة الأولى كما كانت؛ لأن من كانت قدرته تامة شاملة لا يصح مقارنتها بقدرة الإنسان النسبية، ولا يعجزه شيء، سواء في بدء الخلق أم حال إعادته(٢).

قال ابن القيم: «فأعد الآن النظر فيك وفي نفسك مرة ثانية من الذي دبّرك بألطف تدبير، وأنت جنين في بطن أمك في موضع لا يد تنالك، ولا بصر يدركك، ولا حيلة لك في التماس الغذاء، ولا في دفع الضرر، فمن الذي أجرى إليك من دم الأم ما يغذوك، كما يغذو الماء النبات، وقلب ذلك الدم لبنًا، ولم يزل يغذّيك به في أضيق المواضع وأبعدها من حيلة التكسب والطلب حتى إذا كمل خلقك واستحكم، وقوي أديمك على مباشرة الهواء، وبصرك على ملاقاة الضياء، وصلبت عظامك على مباشرة الأيدي، والتغلب على الغبراء، هاج الطلق من أمك، فأزعجك إلى الخروج أيما إزعاج إلى عالم الابتلاء»(٣).

فابن القيم رحمة الله عليه وضّح لنا وجه الدلالة من التدرج في خلق الإنسان

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٥٩.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢١/ ١١٤ بتصرف.

(٣) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٥٥- ٢٥٦.

على أن هناك مدبرًا حكيمًا قادرًا عليمًا وراء هذا الكون، وما فيه من المخلوقات، دبّره فأحسن تدبيره، فسبحانه من إله حكيم أحكم خلقه، وقدره تقديرًا.

وهذه المراحل إنما سيقت؛ لتبيّن لنا كيف خلق الإنسان؟ وكيف نما؟ وكيف تحوّل بحكم المراحل المتعاقبة إلى كائن حيواني؟ ثم كيف انتقل إلى ذلك الإنسان العاقل المدرك الواعي؟ عنده من المؤهلات والاستعدادات ما يجعله يتبوأ عمارة هذه الأرض، ومسئولية بنائها.

ولتبيّن أن ذاك التعريف بخلق الإنسان إنما جاء دليلًا على قدرة الله وعلمه وحكمته، وعندئذٍ يكون التعريف بتلك المراحل إنما هو تعريف بالله وبصفاته اعتمادًا على التعريف بأحد مخلوقاته المعتبرة اعتبارًا أوليًّا[(١)].

وكذا قال في الظل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥-٤٦].

فقد جعل مدّ الظل وقبضه تمثيلًا لحكمة التدريج في التكوينات الإلهية، والعدول بها عن الطفرة في الإيجاد؛ ليكون هذا التمثيل بمنزلة كبرى القياس للتدليل على أن تنزيل القرآن منجّمًا جارٍ على حكمة التدرج؛ لأنه أمكن في حصول المقصود؛ وذلك ما دل عليه قوله سابقًا: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

فكان في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥]، زيادة في التعليل على ما في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢][(٢)].

وانظر كذلك للقمر وهو يبدو صغيرًا، ثم يكبر رويدًا حتى يكمل، ثم يعود إلى النقص، وهو يشبه الإنسان؛ حيث إنه يخلق من ضعف، ثم لا يزال يترقى من قوة إلى قوة، حتى يعود إلى الضعف مرة أخرى، فتبارك الله أحسن الخالقين، قال -تعالى-: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

ومع هذه السنة في الخلق -وهي سنة التدرج- إلا أن الإنسان يتجاهل هذا التدرج، فيبذر البذرة اليوم ويريد النتيجة غدًا، ويعمل العمل اليوم ويريد النتيجة غدًا، وسنة الله عز وجل في الخلق والحياة على الترتيب والتدرج.

فالليل لا يفجؤك بسواده، والنهار لا يفجؤك بضوئه؛ وذلك لأن الله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحديد: ٦] تدريجيًّا.

---

(١) انظر: مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر الشيخ ص ٣٣٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٣٨.

والإنسان لا يولد من بطن أمه فتنبت لحيته، ويكتمل عقله، ويتكلم على المنبر، بل يولد رضيعًا، ثم طفلًا، ثم شابًّا، ثم كهلًا، ثم شيخًا هرمًا، حتى يصل إلى الله، هذه سنة الله.

فهذا التدرج في الخلق لحكمة أرادها الله سبحانه، وإلا فهو قادر على خلق الخلق كلهم في أسرع من لمح البصر؛ لأنه أخبر أنه إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

ثانيًا: التدرج في التشريع:

من خصائص التشريع الإسلامي ومزاياه أنه لم يوجب على المسلمين الشرائع دفعة واحدة، ولكن تدرّج بهم، وأوجبها عليهم مرة بعد مرة، وتدرّج بهم من الأخف إلى الأثقل؛ تكريمًا لهذه الأمة، ورحمة بها، وقد جاء فرض الصلاة والصيام وتحريم الخمر والربا وغيرها على هذا النحو.

ويمكن القول: أن التدرج في التشريع سار وفق طريقين:

الطريق الأولى: التدرج بين الفرائض فيما بينها:

فتدرّج الشارع في فرض العبادات عمومًا، يشرع للناس عبادة، ثم يوجب عليهم أخرى، ثم يفرض عليهم ثالثة، ثم يختم لهم برابعة، وهكذا، ولم تفرض كلها في وقت واحد.

فالصلاة فرضت في السنة العاشرة من البعثة، أي: قبل الهجرة، والصوم شرع بعد ذلك بخمس سنوات، في العام الثاني من الهجرة، والزكاة في السنة الثانية من الهجرة عقب الصوم، والحج بعدهما، في السنة الخامسة أو السادسة أو الثامنة أو التاسعة، على خلاف في ذلك[(١)].

فسنة الله في التشريع كسنته في التكوين، يرى المتأمل فيها من الحكم البالغة ما يبهر النظر؛ فإنه سبحانه بدأ في إنزال أوضاع الشريعة بالضروري الذي لا تصلح الأمة بدونه، ولا تخرج من ظلمة الجاهلية بغيره؛ فشرع لها بمكة ما يكفل ذلك، ثم لما صلب عودها، وبلغت أشدّها، واستعدت العقول لما يكمل ذلك من الأوضاع الشرعية شرع لها بالمدينة ما أكمل به الدين، وأتم به النعمة، ولولا ذلك التدرج لنأت الأمة بالتكاليف، وشرد عن قبولها كثير؛ فلله الحمد والمنة.

الطريق الثاني: التدرج في فرض كل عبادة:

وكذلك تدرج الشارع في فرض كل عبادة على حدة؛ حتى تكتمل كل عبادة بأركانها، وشروطها، وهيئاتها، وأعدادها، فيقيم في كل مرحلة ركنًا، أو يحدّد عدد الفريضة، أو

---

(١) انظر: السراج المنير، الشربيني ٤/ ٤١٣، تاريخ التشريع الإسلامي، مناع القطان ص ١٥١.

يوضّح شرطًا من شروط صحتها، وهكذا.

والحكمة من ذلك أن الشارع الحكيم يراعي مصالح عباده، فلو أنزل الأحكام باتّةً على الوجه الذي تستقر عليه، دون تدرج ومرور بتلك المراحل، لكان ذلك أدعى لعدم الاستجابة، فكان من لطفه وحكمته أن ينزل الأحكام متدرجة على ما ذكرنا، وهذا النوع من التدرج -في التشريع- يتناول:

١ . التدرج في تحريم ما كان مألوفًا عندهم على مراحل.

فحينما يكون الحكم متعلقًا بتحريم عادة متأصلة في النفوس فإن الشريعة حينئذٍ لا تفاجيء الناس بتحريم هذا الأمر مرة واحدة، بل تتدرج بهم على مراحل، في رفق وأناة، وفي تدرج، ففي الخمر بيّن الله أن في الخمر والميسر منافع ومضار، وإثمهما أكبر من نفعهما، فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم حرّم السّكر عند الصلاة في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

ثم لما صارت حالة الإسلام والمسلمين تتحمل ذلك حرم الخمر تحريمًا قطعيًا في المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وفي تحريم الخمر بهذا الترتيب حكمة بليغة؛ وذلك أن القوم ألفوا شرب الخمر، وأصبحت جزءًا من حياتهم، فلو حرّمت عليهم دفعة واحدة لشق ذلك على نفوسهم، فإنه من الصعب جدًّا أن يتركوا شرابًا طالما عاقروه، وشبوا عليه وشابوا.

يقول صاحب المنار: «والحكمة في تحريم الخمر بالتدريج: أن الناس كانوا مفتونين بها حتى إنها لو حرّمت في أول الإسلام لكان تحريمها صارفًا لكثير من المدمنين لها عن الإسلام، بل عن النظر الصحيح المؤدي إلى الاهتداء به؛ لأنهم حينئذٍ ينظرون إليه بعين السخط، فيرونه بغير صورته الجميلة، فكان من لطف الله، وبالغ حكمته أن ذكرها في سورة البقرة بما يدل على تحريمها دلالة ظنية فيها مجال للاجتهاد؛ ليتركها من لم تتمكن فتنتها من نفسه»[(١)].

ومما يدل على أن القوم كانوا متعلقين بها، ما روي عن الأعشى أنه لما توجه إلى المدينة؛ ليسلم لقيه بعض المشركين في الطريق، فقالوا له: أين تذهب؟ فأخبرهم بأنه يريد محمدًا صلى الله عليه وسلم، فقالوا: لا تصل إليه، فإنه يأمرك بالصلاة، فقال: إن خدمة الرب واجبة، فقالوا: إنه يأمرك بإعطاء المال إلى الفقراء، فقال: اصطناع المعروف

(١) المنار ٧/ ٤٢.

واجب، فقيل له: إنه ينهى عن الزنا، فقال: هو فحش وقبيح في العقل، وقد صرت شيخًا فلا أحتاج إليه، فقيل له: إنه ينهى عن شرب الخمر، فقال: أما هذا فإني لا أصبر عليه، فرجع وقال: أشرب الخمر سنة، ثم أرجع إليه، فلم يصل إلى منزله حتى سقط عن البعير، فانكسرت عنقه، فمات[1].

٢. التدرج من الخفيف من الأحكام إلى الثقيل، إلى ما هو أثقل منه.

ومن أمثلة ذلك: الصيام، فالشارع لما أراد أن يفرض على المسلمين صيام شهر رمضان لم يفرضه عليهم دفعة واحدة، بل تدرج في إيجابه والإلزام به على مرحلتين:

المرحلة الأولى: وهي المرحلة التي فرض الله فيها الصوم على الأمة مع التخيير بين الصيام أو الإفطار مع الفدية، بدليل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٨٤].

فكان من أطعم كل يوم مسكينًا ترك الصوم، وهو يطيقه على قول الجمهور[2].

وروي عن قتادة وعطاء ومعاذ بن جبل رضي الله عنه أن فرض الصيام كان أول الأمر ثلاثة أيام من كل شهر مع التخيير بين الصوم والفدية[3].

المرحلة الثانية: وهي مرحلة الإلزام والتحتيم، وإكمال الفرض والإيجاب بصوم شهر رمضان؛ وذلك بنزول قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

أخرج النسائي عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[البقرة: ١٨٤].

كان من أراد منا أن يفطر ويفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها، فنسختها»[4].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٥٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٠٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ٣/ ٤١٤.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصوم، باب نسخ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾، ٢/ ٢٩٦، رقم ٢٣١٥، والترمذي في سننه، أبواب الصوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾، ٢/ ١٥٤، رقم ٧٩٨، والنسائي في سننه، كتاب الصيام، باب تأويل قول الله عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، ٤/ ١٩٠، رقم ٢٣١٦. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ١٥٤.

مجالات التدرج

للتدرج مجالات تحدث عنها القرآن نبيّنها فيما يأتي:

أولًا: التدرج في العبادات:

كان التدرج سنة مرعية ومطردة في الشعائر والعبادات -بما فيها الكثير من أركان الإسلام- وليس فقط في أحكام الواقع والمعاملات، وقد سلك القرآن في ذلك منهجًا فريدًا، ومسلكًا بديعًا، فبدأ الشارع في فرض العبادات عمومًا، يشرع للناس عبادة، ثم يوجب عليهم أخرى، وهكذا التدرج في كل عبادة حتى تمامها وكمالها.

والتدرج في تقرير الشارع للعبادات وفرضها لا يخفى على من قرأ القرآن بتدبر؛ وفي ذلك تنبيه للدعاة، وفتح لعيونهم، وطرق لآذانهم، وإيحاء للمصلحين أن يرتكزوا على التدرج في التغيير والإصلاح، وأن ينتهجوا التدريج في التكليف والتبليغ.

فالصلاة بصورتها التامة والحالية اكتملت فريضتها ليلة الإسراء والمعراج، في السنة الثانية قبل الهجرة، الحادية عشرة من البعثة، والصوم فرض بالمدينة، وكذلك الزكاة والحج إلى بيت الله الحرام، وفيما يلي تفصيل ذلك.

١ . التدرج في تشريع الصلاة.

فلم يكتمل تشريعها إلا بمراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: وكانت الصلاة فيها ركعتين في الغداة، وركعتين في العشي. أخرج ذلك البيهقي، وذكره بعض المفسرين[(١)].

وبهما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم ومن معه في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[غافر: ٥٥].

قال البيضاوي في تفسير هذه الآية: «وقيل: صلّ لهذين الوقتين؛ إذ كان الواجب بمكة ركعتين بكرة، وركعتين عشيًّا»[(٢)].

وقال ابن أبي زمنين: «وهي صلاة مكة قبل أن تفترض الصلوات الخمس، حين كانت الصلاة ركعتين غدوة، وركعتين عشية»[(٣)].

وذكر ابن رجب هذا القول بصيغة التمريض، حيث قال: «لكن قد قيل: إنه كان قد فرض عليه ركعتان في أول النهار، وركعتان في آخره فقط، ثم افترضت عليه الصلوات الخمس ليلة الإسراء، قاله مقاتل

---

(١) أخرجه البيهقي السنن الكبرى في كتاب الصلاة، باب أول فرض الصلاة ١/ ٥٢٩- ١٦٨٨.
وانظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١٤٣، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٣٣، الدر المنثور ١/ ٤٢٩.

(٢) أنوار التنزيل، ٥/ ٦١.

(٣) تفسير القرآن العزيز، ٤/ ١٣٨.

وغيره، وقال قتادة: كان بدء الصلاة ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشي، وإنما أراد هؤلاء: أن ذلك كان فرضًا قبل افتراض الصلوات الخمس ليلة الإسراء»[1].

بينما يقول ابن عاشور: «إن الجمهور على أن الصلوات الخمس فرضت بمكة في أوقاتها، على أنه لا يتعين أن يكون المراد بالتسبيح في تلك الآية الصلوات، بل يحمل على ظاهر لفظه من كل قول ينزّه به الله تعالى»[2].

المرحلة الثانية: وهي مرحلة فرض الصلاة ثلاث مرات في اليوم، الفجر والعصر، وقيام الليل، بإضافة العصر إلى ما كان قد فرض في المرحلة الأولى؛ وذلك بأمر الله تعالى للأمة من خلال نبيهم صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤].

قال ابن كثير: «إنما كان يجب من الصلاة صلاتان، صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة»[3].

المرحلة الثالثة: وهي المرحلة التي اكتمل فيها التشريع، وتم إيجاب الصلوات الخمس؛ وذلك بقوله تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾[الإسراء: ٧٨].

قال الرازي: «أراد بالدلوك زوالها، فدخل فيه صلاة الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، ثم قال: ﴿ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ﴾ أراد صلاة الصبح»[4].

وقالت عائشة رضي الله عنها: (**فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين، ثم أتمها في الحضر، فأقرت صلاة السفر على الفريضة الأولى**)[5].

٢. التدرج في تشريع الصيام.

وكذلك صيام شهر رمضان لما أراد الشارع أن يفرضه على المسلمين لم يفرضه عليهم دفعة واحدة، بل تدرج في إيجابه والإلزام به على مرحلتين، كما سبق.

وعن حكمة التدرج في فرض هذه العبادة، واستكمال تشريعها، يقول العلامة ابن القيم رحمه الله: «ولما كان فطم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور وأصعبها، تأخر فرضه -أي: الصوم- إلى وسط الإسلام بعد الهجرة؛ لما توطنت

(١) فتح الباري، ابن رجب ٢/ ٣٠٤.
(٢) التحرير والتنوير ٢٤/ ٧٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٥٥.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٨٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء؟، ١/ ٧٩، رقم٣٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، ١/ ٤٧٨، رقم ٦٨٥ واللفظ له.

النفوس على التوحيد والصلاة، وألفت أوامر القرآن، فنقلت إليه بالتدريج»[1].

٣. التدرج في فرض الزكاة.

أما فرض الزكاة فقد استمر تشريعه سنين عددًا، حتى اكتمل في السنة الثامنة بعد الهجرة، أخريات سنين الوحي.

فقد جاء ذكر الزكاة والأمر بها في السور المكية الأولى، مما يؤكد أن بدء تشريعها كان في مكة، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الليل، وهي مكية: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ١٧-١٨].

وقوله تعالى في سورة لقمان، وهي مكية: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٤].

وفي سورة الروم: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

ثم يأتي ذكرها في أوائل السور التي نزلت في المدينة بالتشريع والتوجيه، مثل البقرة، فجاء فيها: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وهكذا يستمر تشريع الزكاة وفرضها هذه السنين؛ لتكتمل صورتها في السنة الثامنة من الهجرة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

فتشريع الزكاة لم يكتمل إلا بعد عشر سنين، أو يزيد، وهذا يدل على التأكيد على ضرورة الارتكاز على التدرج كمنهج دعوي حكيم.

التدرج في الدعوة إلى الله:

مراعاة سنّة التدرج في الدعوة والبيان والتعليم والأمر والنهي من الأمور المهمة، وندرك هذه الحقيقة في القرآن الذي هو كتاب الدعوة، فنجد التدرج فيه من ثلاثة جوانب:

١. التدرج في نزوله.

عند الحديث عن نزول القرآن جاء التعبير بالفعل ﴿نَزَّلَ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ١٧٦].

وعند النظر في الفعل (نزّل) في هذه

(١) زاد المعاد ٢/ ٢٩.

الآيات وغيرها نجده جاء على وزن (فعّل) الذي يفيد التكثير والمبالغة غالبًا، نحو: (قطّع وكسّر وفتّح وحرّق وسعّر) ومن مقتضيات التكثير والمبالغة في الحدث استغراق وقت أطول، وأنه يفيد تلبثًا ومكثًا، فـ (نزّل) يفيد استغراق وقت أطول من (أنزل).

فـ(نزّل): يفيد التدرج والتكرار، و(أنزل) عام؛ وذلك هو الأكثر؛ ولذلك يوصف نزول القرآن بالتنزل؛ لأنه لم ينزل جملة واحدة، بل سورة سورة، وآية آية، فلفظ (نزّل): يفيد التفصيل والتنجيم والتفرق في النزول، أما لفظ (أنزل) فلا يقطع بذلك بل يحتمله.

ويؤيد هذا التفريق ما قاله العسكري في معجم الفروق اللغوية، حيث قال: «الفرق بين الإنزال والتنزيل، قال بعض المفسرين: الإنزال: دفعي، والتنزيل: للتدريج...، ويدلك عليه قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

حيث خص القرآن بالتنزيل لنزوله منجمًا، والكتابين بالإنزال لنزولهما دفعة، وأما قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١].

فالمراد هناك مطلقًا من غير اعتبار التنجيم، وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

فإن المراد إنزاله إلى سماء الدنيا، ثم تنزيله منجمًا على النبي صلى الله عليه وآله في ثلاث وعشرين، كما وردت به الروايات»[1].

وقد صرح القرآن بهذا التدرج في النزول في قوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

يقول مناع القطان: «فهذه الآيات ناطقة بأن القرآن الكريم كلام الله بألفاظه العربية، وأن جبريل نزل به على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن هذا النزول غير النزول الأول إلى سماء الدنيا، فالمراد به نزوله منجّمًا، ويدل التعبير بلفظ (التنزيل) دون الإنزال على أن المقصود النزول على سبيل التدرج والتنجيم، فإن علماء اللغة يفرّقون بين الإنزال والتنزيل، فالتنزيل لما نزل مفرقًا، والإنزال أعم.

ومن المعلوم أن القرآن قد نزل منجّمًا في ثلاث وعشرين سنة، منها ثلاث عشرة بمكة على الرأي الراجح، وعشر بالمدينة، وجاء التصريح بنزوله مفرّقًا في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

(١) الفروق اللغوية ص ٧٩.

أي: جعلنا نزوله مفرقًا؛ كي تقرأه على الناس على مهل وتثبت ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ بحسب الوقائع والأحداث.

أما الكتب السماوية الأخرى -كالتوراة والإنجيل والزبور- فكان نزولها جملة، ولم تنزل مفرّقة، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

فهذه الآية دليل على أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة، وهو ما عليه جمهور العلماء، ولو كان نزولها مفرقًا لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن منجّمًا، فمعنى قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ هلّا أنزل عليه القرآن دفعة واحدة كسائر الكتب؟ وما له أنزل على التّنجيم؟ ولم أنزل مفرقًا؟ ولم يرد الله عليهم بأن هذه سنته في إنزال الكتب السماوية كلها، كما رد عليهم في قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]. بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠]»[(١)].

الحكمة من نزوله منجمًا:

ذكر العلماء بعض الحكم من نزول القرآن منجمًا، فقال القرطبي: «ولو أنزل جملة بما فيه من الفرائض؛ لثقل عليهم...، وأيضًا: في تفريقه تنبيه لهم مرة بعد مرة، وهو أنفع لهم، وأيضًا فيه ناسخ ومنسوخ ولو نزل ذلك جملة؛ لنزل فيه الأمر بالشيء وبتركه وهو لا يصح»[(٢)].

وقال النسفي في معنى ﴿لِنُثَبِّتَ﴾: «النقوي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه؛ لأن المتلقي إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئًا بعد شيء، وجزءًا عقب جزء، ولو ألقي عليه جملة واحدة؛ لعجز عن حفظه، أو لنثبّت به فؤادك عن الضجر؛ وذلك بتواتر الوصول، وتتابع الرسول؛ لأن قلب المحب يسكن بتواصل كتب المحبوب»[(٣)].

قال صاحب الغرائب في بيان الحكمة من ذلك: «وتقريره من وجوه:

أحدها: أن محمدًا صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئًا كاتبًا، بخلاف موسى وداود وعيسى عليهم السلام فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ، فأنزله الله عليه منجّمًا -في عشرين سنة، وعن ابن جريج: في ثلاث وعشرين-؛ ليكون أقرب إلى الضبط، وأبعد عن النسيان والسهو.

---

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان ص ١٠٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٩.

(٣) مدارك التنزيل، ٢/ ٥٣٦.

وثاني هذه الحكم: أن الاعتماد على الحفظ أقرب إلى التحصيل من الاعتماد على الكتابة، والحفظ لابد فيه من التدرج.

وثالثها: إن نزول الشرائع متدرجة أسهل على المكلف منها دفعة.

ورابعها: أن نزول جبريل ساعة فساعة مما يقوي قلبه، ويعينه على تحمل أعباء النبوّة والرسالة.

وخامسها: أن نزوله مفرّقًا يوجب وقوع التحدي على أبعاض القرآن وأجزائه، ونزوله جملة يقتضي وقوع التحدي على مجموعه، ولا ريب في أن الأول أدخل في الإعجاز.

وسادسها: أن نزوله بحسب الوقائع والحوادث أوفق في باب التكاليف والاستبصار، وأدل على الأخبار عن الحوادث في أوقاتها.

وسابعها: أن في تجديد منصب السفارة في كل حين مزيد شرف لجبريل»[(١)].

والمقصود أن القرآن نزل منجّمًا مفرقًا على وفق المناسبات والحوادث والوقائع، أخذًا بمبدأ تربوي ناجح ألا وهو التدرج في التشريع لإصلاح المجتمع العربي الجاهلي تدريجيًا، ومراعاة للمصالح، وتمكينًا من التخلص من العادات والتقاليد الموروثة شيئًا فشيئًا، وإعدادًا للحكم الشرعي المستقر بتقبل النفوس له، وتربيتها على وفق الغاية الشرعية بنحو بطيء، واقتناع عقلي ذاتي بأفق التشريع ومراميه البعيدة، فإذا توافرت المصلحة العامة للأمة بقي الحكم، وإن لم تتوافر عدّل أو بدل ونسخ.

والنسخ الذي هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر يكون إما بنسخ لفظ الآية ومعناها أو أحدهما، أو بانتهاء الحكم المستفاد منها مع بقاء نصها، كل ذلك بحسب المصلحة أو الحاجة، كالطبيب الذي ينوّع الأدوية والأغذية باختلاف الأزمنة والأمزجة والأحوال الصحية، والأنبياء صلوات الله عليهم هم أطباء الأمة، ومصلحو النفوس، يوحى إليهم بتبديل الحكم الشرعي لمراعاة الأحوال الحاضرة أو المستقبلية، فما قد يصلح علاجًا في الماضي قد لا يصلح في المستقبل؛ وذلك كله يدل على مرونة الإسلام[(٢)].

٢. التدرج في تشريعاته.

وقد سبق بيان ذلك في نقاط مستقلة.

٣. التدرج في أسلوب في دعوته الناس.

لقد تدرج القرآن الكريم في أسلوبه في الدعوة، حيث اتخذ القرآن في علاج العادات السيئة التي تأصّلت في المجتمع أسلوبين:

الأسلوب الأول: هو تأجيل العلاج حتى

(١) غرائب القرآن ٥/ ٢٣٦.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ٢٦١.

يستقر الإيمان في قلوب المسلمين، بحيث يمكن الاستعانة بقوة الإيمان كدافع قوي يسهّل عملية التخلص من العادات السيئة المستحكمة، وتعلم عادات جديدة بدلًا منها.

أما الأسلوب الثاني: فهو عبارة عن التهيئة المتدرجة لنفوس المسلمين للتخلص من هذه العادات، ومثاله الخمر، وقد مر معنا مثاله.

ولنأخذ مثالًا آخر يبيّن لنا طريقة القرآن في التدرج في أسلوبه الدعوي في علاج العادات السيئة التي تأصّلت في المجتمع وهو تحريم الربا، فقد مر تحريم الربا بأربعة أدوار، كما حدث في تحريم الخمر؛ وذلك تمشيًا مع قاعدة التدرج:

الدور الأول: نزل قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

فالله تعالى يقول في هذه الآية: إن الربا لا ثواب فيه عند الله.

فهذه الآية الكريمة نزلت في مكة وهي -كما يظهر- ليس فيها ما يشير إلى تحريم الربا، وإنما إشارة إلى بغض الله للربا، وإنما الربا ليس له ثواب عند الله.

الدور الثاني: ألقى الله تعالى على المسلمين درسًا وعبرة من سيرة اليهود الذين حرّم الله عليهم أكل الربا فأكلوه، فعاقبهم الله بمعصيتهم، فقد جاء في سورة النساء قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١].

وهذه الآية مدنية، وهي درس قصّه الله سبحانه علينا من سيرة اليهود الذين حرّم عليهم الربا، فأكلوه، واستحقوا عليه اللعنة والغضب، وهو تحريم (بالتلويح) لا (بالتصريح)؛ لأنه حكاية عن جرائم اليهود، وليس فيه ما يدل دلالة قطعية على أن الربا محرّم على المسلمين، وهذا نظير (الدور الثاني) في تحريم الخمر ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩].

حيث كان التحريم فيه بالتلويح لا بالتصريح.

الدور الثالث: جاء فيه النهي الصريح إلا أنه كان نهيًا جزئيًا عن الربا الفاحش الذي يتزايد حتى يصير أضعافًا مضاعفة، حيث نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وهذه الآية مدنية، وفيها تحريم للربا صريح، ولكنه تحريم (جزئي) لا (كلي)؛

لأنه تحريم لنوع من الربا الذي يسمى (الربا الفاحش) وهو الربا الذي بلغ في الشناعة والقبح الذروة العليا، وبلغ في الإجرام النهاية العظمى، حيث كان الدين فيه يتزايد حتى يصبح أضعافًا مضاعفة، يضعف عن سداده كاهل المستدين، الذي استدان لحاجته وضرورته، وهو يشبه تحريم الخمر في المرحلة الثالثة حيث كان التحريم جزئيًّا لا كليًّا في أوقات الصلاة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣].

الدور الرابع: وفي هذا الدور الأخير نزل التحريم الكلي القاطع الذي لا يفرّق بين قليل أو كثير، والذي تدل النصوص الكريمة على أنه قد ختم فيه التشريع السماوي بالنسبة إلى حكم الربا، فقد نزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة ٢٧٨-٢٧٩].

وهذه الآيات الكريمة التي كانت المرحلة النهائية في تحريم الربا، تشبه المرحلة النهائية في تحريم الخمر في المرحلة الرابعة منه، حيث حرّمت الخمر تحريمًا قاطعًا جازمًا في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠].

وبهذا البيان يتضح لنا سر التشريع الإسلامي في معالجة الأمراض الاجتماعية التي كان عليها العرب في الجاهلية بالسير بهم في طريق التدرج[1].

ومن الأمثلة أيضًا على التدرج، التدرج في عقوبة الزنا.

فقد كان شائعًا ومنتشرًا في الجاهلية، وسعى الإسلام إلى اقتلاع هذه الرذيلة بالتربية والتوجيه على طريق التدرج، شأن الطبيب الذي يعالج المريض، ويرعى أحواله شيئًا فشيئًا، ثم نزل تحريم الزنا في عدة آيات بعد أن استقر الإيمان في القلوب، وتهيأت النفوس للقبول، وفرضت العقوبة على سبيل التدرج، فجعل الله تعالى عقوبة الزنا أولًا: الحبس في البيوت في سورة النساء: ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٥].

ولما تأهلت النفوس لتقبّل العقوبة أنزل الله تعالى جلد الزاني غير المحصن (أي: غير المتزوج) في سورة النور ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

(١) انظر: روائع البيان، الصابوني ١/ ٣٩٠.

﴿ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [النـور: ٤].

ثم نزل حكم الزاني المحصن (المتزوج) بالرجم في آية: (الشيخ والشيخة)[١] المنسوخة لفظًا لا حكمًا، حتى كانت التربية الإيمانية تدفع الزاني للاعتراف، وطلب التطهر من دنس الزنا، مثل ماعز[٢] والغامدية[٣] اللذين أقرا بالزنا، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجمهما، فكان للتدرج أثر بالغ في التكليف، وتقرير العقوبة، واجتثاث الفاحشة.

وجاء في السنة ما يؤيد أسلوب القرآن في التدرج، فقد ثبت أنه لما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه واليًا على اليمن، وأرشده إلى ما يجب أن يعمله، وابتداء ذلك بالدعوة إلى توحيد الله، وإفراده بالعبادة فقال: (**فإذا عرفوا الله، فأخبرهم...**)[٤].

فإن عليه أن يخبرهم بأوجب الواجبات بعد التوحيد، وهما الصلاة والزكاة، فإن امتثلوا أمره، فإن عليه أن يراعي فيهم جانب العدل، فلا يضارهم بأخذ خيار أموالهم؛ لأن ذلك ظلم لهم؛ وذلك مما يستثيرهم، فيدعون عليه، ودعوة المظلوم لا تردّ.

وهذا الحديث صريح في التدرج، وأن الشرائع يبنى بعضها على بعض (**فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله**)[٥]، وقوله: (**فليكن أول**) فيه التدرّج في الدعوة، وأنه يبدأ بالأهم فالأهم، وهذه طريقة الرسل أنهم أول ما يبدءون بالدعوة إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله؛ لأنها الأصل والأساس الذي يبنى عليه الدين، فإذا تحققت شهادة أن لا إله إلا الله فإنه يمكن البناء عليها بالأمور الأخرى، أما إذا لم تحقّق شهادة أن لا إله إلا الله فلا فائدة من بقية الأمور، فلا تأمر الناس بالصلاة وعندهم شرك، ولا تأمرهم بالصيام والصدقة والزكاة وصلة الأرحام وغيرها، وهم يشركون بالله؛ لأنك لم تضع الأساس أولًا، وهذا بخلاف كثير من دعاة اليوم الذين لا يهتمون بشهادة أن لا إله إلا

(١) جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٣٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٧٥.

(٢) أخرج حديثه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب هل يقول الإمام للمقر: لعلك لمست أو غمزت، ٨/ ١٦٧، رقم ٦٨٢٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، ٣/ ١٣١٩، رقم ١٦٩٢.

(٣) أخرج قصتها مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، ٣/ ١٣٢١، رقم ١٦٩٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، ٢/ ١١٩، رقم ١٤٥٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، ١/ ٥١، رقم ١٩.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، ٢/ ١١٩، رقم ١٤٥٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، ١/ ٥١، رقم ١٩.

الله، وإنما يدعون الناس إلى ترك الربا، وإلى المعاملات الحسنة...، لكن التوحيد لا يذكرونه، ولا يلتفتون له، وكأنه ليس مفروضًا -ولا حول ولا قوة إلا بالله-، فهؤلاء مهما أتعبوا أنفسهم فإن عملهم لا ينفع؛ حتى يحقّقوا الأصل في الأساس الذي تبنى عليه أمور الدين، من حاكمية، ومن صلاة، ومن زكاة، ومن حج، إلى آخره، هذا منهج الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦][1].

فمن الحكمة والاتّباع أن يراعي الداعية مبدأ التدرج في الدعوة؛ فلقد استقر في المنهج الشرعي النظر إلى المقاصد والغايات ورعايتها، ومما يوصل إلى تحقيق الغايات والمقاصد الأخذ بسنّة التدرج؛ لئلا تثمر الخطوة نتائج عكسيّة غير مرغوبٍ فيها؛ وتطبيقًا لهذا المعنى ينبغي أن يكون معلومًا لدى الداعية أنّ تحصيل الكليات من الدين مقدّمٌ على تحصيل الأمور الفرعية، ولا مانع من تحصيل شيءٍ من الفروع قبل الأصول إذا كانت في الطريق، ولم يكن ذلك على حساب تحصيل الأصول، أما إذا كان تحصيل الفروع على حساب الأصول فإن الحكمة وإن مراعاة سنة التدرج تقتضي تأجيل هذا المقصد إلى وقته المناسب[2].

ثالثًا: التدرج في التربية والتعليم:

سلك القرآن الكريم في تغيير أحوال النفس وتربيتها وتزكيتها وتعليمها منهج التدرج.

ومن الأدلة التي تدل على التدرج في التربية قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وأكد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: **(إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه)**[3].

وقال: **(إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق)**[4].

وقوله صلى الله عليه وسلم: **(والقصد**

---

(١) انظر: إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، صالح الفوزان ١/ ١٠٧.

(٢) انظر: دعوة إلى السنة في تطبيق السنة منهجًا وأسلوبًا، عبد الله الرحيلي ص ٥٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ١/ ١٦، رقم ٣٩.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/ ٣٤٦، رقم ١٣٠٥٢.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٤٤٧، رقم ٢٢٤٦.

القصد تبلغوا»[1].

وكل هذه الأدلة تدل على أن الإسلام لم يكلّف النفس إلا وسعها واستطاعتها، وأن الله لم يرد بها إلا اليسر، ولم يرد بها العسر، وأن من اليسر بها: أنه تدرج بها نحو التزكية والكمال درجة درجة.

وامتدح الله تعالى الذين يسلكون هذا المسلك -التدرج- في تربية الناس، فقال: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

ففي البخاري: (الرّبّانيّ: الّذي يربّي النّاس بصغار العلم قبل كباره)[2].

وقال ابن الأثير رحمه الله: «الربانيّ: قيل: هو من الربّ بمعنى التربية، كانوا يربّون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها»[3].

ويقول الراغب الأصفهاني: «الرب في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حد التمام»[4]. وهذا هو التدرج.

وهذا يعني أن تربية الأمم والمجتمعات لا تتم إلا بهذه السنة الربانية، والطريقة النبوية، وسبب ذلك أن التربية على منهج الإسلام تحتاج إلى جهد كبير ووقت طويل، ولا تتم بين يوم وليلة، يقول سيد قطب: «ولقد جاء هذا القرآن ليربي أمة، ولينشيء مجتمعًا، ويقيم نظامًا، والتربية تحتاج إلى زمن وتأثّر وانفعال بالكلمة، وإلى حركة تترجم التأثّر والانفعال إلى واقع، والنفس البشرية لا تتحوّل تحوّلًا كاملًا شاملًا بين يوم وليلة بقراءة كتاب شامل للمنهج الجديد، إنّما تتأثر يومًا بعد يوم بطرف من هذا المنهج، وتتدرج في مراقيه رويدًا رويدًا، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئًا فشيئًا، فلا تجفل منه كما تجفل لو قدّم لها ضخمًا ثقيلًا عسيرًا»[5].

فالداعية الذي يريد تأثيرًا لكلماته، وثمارًا لدعوته فعليه أن يسلك هذا الطريق القرآني النبوي في الدعوة إلى الإسلام؛ لأنّ بهذه الطريقة بنى النبي صلى الله عليه وسلم دولة الإسلام، يقول ابن تيمية: «فإذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو الأمراء أو مجموعهما كان بيانه كما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم شيئًا فشيئًا، بمنزلة بيان الرسول لما بعث شيئًا فشيئًا، ومعلوم أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لا يبلّغ إلا ما أمكن عمله والعمل به، ولم تأت الشريعة جملة، كما يقال: إذا أردت أن تطاع فامر بما يستطاع»[6].

وقد أشار الإمام النووي لهذا المسلك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، ٨/ ٩٨، رقم ٦٤٦٣.
(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، ١/ ٢٤.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ١٨١.
(٤) المفردات ص ٣٣٦.
(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٦٢.
(٦) مجموع الفتاوى ٣٠/ ٦٠.

التربوي، فقال: «وينبغي أن يؤدّب المتعلم على التدريج بالآداب السنية، والشيم المرضية»[1].

والتدرج في التعليم والتربية هو ما نراه ملموسًا وعمليًّا في تعليم النشء على مراحل، وصفوف، وحصص، وساعات مدرسية وسنوات، وهذا المنهج في التدرج أحد خصائص التشريع الإسلامي الذي أنزله الله تعالى الحكيم في شرعه، الخبير بنفوس عباده، وأشرف على تطبيقه عمليًّا المعلم الأول، والمربي الرحيم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي اصطفاه الله واجتباه، وكلّفه حمل الأمانة، وتبليغ الرسالة، وتربية الأمة، والأخذ بها إلى جادة الصلاح والرشاد، فهو مبدأ تربوي مقبول عقليًّا وواقعيًّا.

والمتأمل في التربية القرآنية للصحابة رضي الله عنهم يجد أنها كانت تربية متدرّجة، فبدأت بتصحيح العقيدة، ونبذ الشرك والأوثان، وإفراد الله تعالى بالعبودية، ثم بعد بضع سنين من تصحيح العقيدة وتثبيتها في قلوب المؤمنين فرضت الصلاة، ثم الصوم، وباقي الأركان، وكذلك التدرج في تحريم المنكرات مثل الخمر كان على مراحل، بدأ بتذكير المؤمنين بما له من مضار ومفاسد، ثم بعد ذلك كان التحريم النهائي على وجه القطع.

بل إن مراعاة التدرج كانت سمة لازمة للتربية النبوية للصحابة في مكة والمدينة؛ لأن تربية النفس الأمارة بالسوء، وغسلها وتزكيتها وتطهيرها حتى يزول ما علق بها من شرك وجبروت وآفات ليس بالخطب الهين، كما أن ما تجذّرت عليه من مألوفاتها لا يمكن إزالتها في وقت وجيز، بل الأمر يحتاج إلى تدرج، ومراحل عديدة.

والذي يمكن التأكيد عليه أن التدرج لازم لتربية النفوس؛ إذ هو سنة من سنن الله في خلقه التي يجب مراعاتها والأخذ بها، فكما بدأت الدعوة النبوية بالتدرج عبر مراحل، فكذلك التربية والدعوة جزء منها، وهذا في غاية الأهمية؛ إذ لا يمكن أن نتصور تغييرًا بين عشية وضحاها، فلو كان الأمر كذلك لكان سيد الوجود أولى به، وقد أخذ بسنة التدرج في كل أنواع الجهاد، من تربية ودعوة وقتال في سبيل الله، وبناء المجتمع الإسلامي؛ لأن التربية عليها مدار كل شيء؛ إذ لا يمكن أن نتصور جهادًا بدون تربية، هذا فضلًا على أن التربية تقوم بمعالجة أشخاص لهم ماضٍ وبيئة اجتماعية مفتونة، واستعدادات، هذه المعالجة تريد من المربي أن يتدرج في التربية، وتريد منه حلمًا كثيرًا وتؤدة، وصبرًا طويلًا، وتنويعًا في الوسائل والأساليب، حتى تنضج الثمرة،

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ص ٤١.

ويشتد عود الغرس.

وقد مكث النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عامًا في مكة، وعشر سنوات في المدينة يربي أصحابه على الإيمان والمحبة والبذل والتؤدة والجهاد، مراعيًا سنة التدرج، وسنة الله في تغيير الأنفس، فتدرجت التربية من صحبة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان بكل أركانه، وذكر الله وعبادته، إلى اختبار الصدق والإخلاص بالابتلاء، إلى البذل والسخاء، إلى ربط العلم بالعمل، إلى التميز عن المشركين ومفارقتهم، إلى الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله، إلى تجديد قصدٍ ومضاءٍ في الطريق، إلى اكتمال الرجولة والجهاد والموت في سبيل الله.

وجدير بالذكر أن إعداد هذا الجيل قد تم تأسيسه على مدى ثلاثة وعشرين عامًا؛ أي: إنه لم يتم ذلك في دفعة واحدة، ولا بجرة قلم، ولا بأوامر واجبة التنفيذ في الحال، ولكنه تم بتدرج؛ مراعاة لأحوال النفس البشرية، فإنها لا تتخلى عن مألوفاتها ومعتقداتها في يوم وليلة، ولكن الله الحكيم العليم الخبير الرحيم، سلك بهم طريق التدرج حتى صار الإيمان في قلب الواحد منهم كالجبل، وصار الدين عند أحدهم أغلى وأعزّ عليه وأحب إليه من ماله وولده ونفسه والناس أجمعين[(١)].

رابعًا: التدرج في الإصلاح والتغيير:

لقد تدرّج القرآن في عملية الإصلاح والتغيير، سواء كان هذا الإصلاح للمجتمع أو للفرد، أيًا كان هذا الفرد، ابنًا أو زوجة أو عبدًا.

ولنأخذ مثالًا على هذا التدرج في عملية الإصلاح والتغيير، وهي من الحالات التي ينبغي التدرج فيها، وهي حالة نشوز وعصيان الزوجة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

فهذه الآية تتحدث عن وسائل ناجعة لعلاج المرأة عند ظهور بدايات النشوز والتمرد عندها، وقبل أن يستفحل النشوز عندها، وتعلن تمرّدها، وهذا لا يصيب كل الزوجات إنما يصيب بعضهن، ومعظم الزوجات المسلمات ملتزمات بأحكام الشرع، تعرف الواحدة منهن واجبها فتؤدّيه، وتعرف حقّها على زوجها فتأخذه، فالآية لا تضع تشريعًا لكل الزوجات وإنما للنسبة القليلة الناشزة منهن!.

وترشد الآية زوج الناشز إلى اتخاذ ثلاث خطواتٍ متدرجة، فإن تم العلاج في الأولى

(١) انظر: القرآن ونقض مطاعن الرهبان، صلاح الخالدي ص٣٨٥.

فبها ونعمت، وإلا انتقل للثانية، والثالثة آخر الخيارات.

وهذا الترتيب بين هذه الأفعال المعطوفة غير متلقّى من صيغة لفظية؛ إذ العطف بالواو وهي مسلوبة الدلالة على الترتيب متمحضة الإشعار بالجمعية فقط، وإنما يتلقّى الترتيب المذكور من قرائن خارجة عن اللفظ، مفهومة من مقصود الكلام وسياقه.

قال القاسمي: «وجمهور العلماء على أن من الواجب على الزوج أن يسلك في معالجته لزوجته تلك الأنواع الثلاثة على الترتيب، بأن يبدأ بالوعظ، ثم بالهجر، ثم بالضرب؛ لأن الله تعالى قد أمر بذلك؛ ولأنه قد رتّب هذه العقوبات بتلك الطريقة الحكيمة التي تبدأ بالعقوبة الخفيفة، ثم تتدرج إلى العقوبة الشديدة، ثم إلى الأكثر شدة»[١].

فالأمور الثلاثة مرتبة؛ لأنها لدفع الضرر كدفع الصائل، فاعتبر فيها الأخف فالأخف، وقيل: إنه لا يهجرها إلا بعد عدم تأثير الوعظ، فإن أثّر الوعظ لم ينتقل إلى الهجر، وإن كفاه الهجر لم ينتقل إلى الضرب.

حتى الطريقة الثالثة وهي: ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ فلابد أن يكون ضرب تأديب غير مبرّح ولا مشين.

قال الرازي: «وبالجملة، فالتخفيف مراعى في هذا الباب على أبلغ الوجوه، والذي يدل عليه أنه تعالى ابتدأ بالوعظ، ثم ترقى منه إلى الهجران في المضاجع، ثم ترقى منه إلى الضرب؛ وذلك تنبيه يجري مجرى التصريح في أنه مهما حصل الغرض بالطريق الأخف، وجب الاكتفاء به، ولم يجز الإقدام على الطريق الأشق»[٢].

وهذه طريقة من قال: حكم هذه الآية مشروع على الترتيب والتدرج، فإن ظاهر اللفظ وإن دل على الجمع إلا أن فحوى الآية يدل على الترتيب.

والتعبير بالخوف في قوله تعالى: ﴿وَالَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ ظاهره أنّ ترتب العقوبات المذكورة يكون بمجرد خوف النشوز وإن لم يقع النشوز بالفعل، إلا أن هذا الظاهر بعيد؛ لذلك أوّل العلماء هذه الآية عدة تأويلات، فمنهم من فسّر الخوف بالعلم، ومنهم من قدّر مضافًا: تخافون دوام نشوزهن، أو أقصى مراتب نشوزهن، ومنهم من قدّر معطوفًا محذوفًا: تخافون نشوزهن ونشزن[٣].

ومنهم من أبقى الخوف على أصله، وجعل جزاءه الوعظ فقط، تخافون نشوزهن بظهور أماراته، كخشونة بعد لين، وتعبيس بعد طلاقة، وإدبار بعد إقبال، ومتى ظهرت

---

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٩٩.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣/ ٢٥.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٧٢.

هذه الأمارات كان للزوج أن يعظها فقط، ويخوّفها عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة، فإن لم تمتثل كان ذلك نشوزًا محققًا، وله فيه الوعظ والهجران والضرب.

والمراد بالوعظ: أن يقول لها مثلًا: اتقي الله! فإنّ لي عليك حقًّا، وارجعي عما أنت عليه، واعلمي أن طاعتي فرض عليك، ونحو ذلك.

واختلفوا في معنى الهجران في المضاجع، فقيل: إنه كناية عن ترك جماعهن، وقيل: المراد: تركهنّ منفردات في حجرهنّ ومحل مبيتهن، فيكون في ذلك ترك جماعهن، وترك مكالمتهن، ولا يزيد في هجر الكلام عن ثلاثة أيام، وفسّر العلماء الضرب المباح بأنه الضرب غير المبرّح[1].

وسنة التدرج في الإصلاح والتغيير تقتضي النظر إلى العواقب، والسير برفق وتأنٍّ، فليس كل منكر تجب إزالته أو تغييره على الفور، وإنما ذلك مشروط بألا يؤدي إلى منكر أكبر منه، فإن أدى إلى منكر أكبر منه وجب التوقف بشأنه، مع الكراهة القلبية له، ومقاطعته، ومع البحث عن أنجح الوسائل لإزالته، والأخذ بها، ومع العزم الصادق على الوقوف في أول الصف حين تتاح فرصة التغيير[2].

(١) تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٢٨٤.
(٢) انظر: آفات على الطريق، السيد محمد نوح ١/ ٣٥.

وفي السنة والسيرة شواهد على ذلك:

فهاهو رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث والأصنام تملأ جوف الكعبة، وتحيط بها وتعلوها من كل جانب، ثم لا يقبل على إزالتها بالفعل إلا يوم فتح مكة في العام الثامن من الهجرة، أي: أنها بقيت منذ بعث إلى يوم تحطيمها إحدى وعشرين سنة؛ ليقينه صلى الله عليه وسلم بأنه لو قام بتحطيمها من أول يوم قبل أن يحطمها من داخل النفوس لأقبلوا على تشييدها وزخرفتها بصورة أبشع وأشنع فيعظم الإثم، ويتفاقم الضرر؛ لذلك تركها، وأقبل يعد الرجال، ويزكي النفوس، ويطهّر القلوب، حتى إذا تم له ذلك أقبل بهم يفتح مكة، ويزيل الأصنام مرددًا: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

وتوقف النبي صلى الله عليه وسلم في شأن تجديد الكعبة، وإعادتها إلى قواعد إبراهيم خوفًا من أن يؤدي ذلك إلى منكر أكبر، وهو الفرقة والشقاق؛ بدليل قوله في رواية أخرى: (**ولولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم**)[3].

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها، ٢/ ١٤٦، رقم ١٥٨٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب جدر الكعبة وبابها، ٢/ ٩٧٣، رقم ١٣٣٣.

بل إن المسلم حين يسكت عن منكر خوفًا من أن يؤدي إلى منكر أكبر مع الرفض القلبي والمقاطعة، ومع البحث عن أفضل السبل للتغيير، ومع العزم الصادق على أنه حين تتاح الفرصة لن يكون هناك توانٍ ولا تباطؤ لا يكون آثمًا بذلك، وصدق الله الذي يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦].

والمقصود أن سنن الله في التغيير وإصلاح المجتمعات جرت على اعتبار سنة التدرج، وسنة الأجل المسمى؛ لأن ما تراكم من الخطأ والانحراف في سنين لا يمكن تغييره بين عشية وضحاها؛ ولذلك وجب التأني والتدرج في علاج الأمور.

وقد قال سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقد جعل الله لكل حال وواقع أجلًا مسمى يمضي فيه؛ ولذلك قال ابن عطاء الله السكندري: «ما ترك من الجهل شيئًا من أراد أن يحدث في الوقت ما لم يظهره الله فيه»[(١)].

ومن أشهر أمثلة التدرج في الإصلاح ما وقع من الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز؛ فإنه جاء إلى الحكم بعد مظالم اقترفها بعض الذين سبقوه، فتدرّج في الإصلاح، ولم يتعجل في التغيير، فدخل عليه ولده عبد الملك، فقال له: يا أبت: ما منعك أن تمضي لما تريده من العدل؟ فو الله! ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك، قال: يا بنيّ! إني إنّما أروّض النّاس رياضة الصّعب، وإنّي أريد أن أحيي الأمر من العدل، فأؤخّر ذلك حتّى أخرج معه طمعًا من طمع الدّنيا، فينفروا من هذه، ويسكنوا لهذه[(٢)].

ومما يبيّن أهمية التدرج في التغيير والإصلاح ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: «فأمّا إذا كان المأمور والمنهيّ لا يتقيّد بالممكن: إمّا لجهله، وإمّا لظلمه، ولا يمكن إزالة جهله وظلمه، فربّما كان الأصلح الكفّ والإمساك عن أمره ونهيه...، فالعالـم في البيان والبلاغ كذلك؛ قد يؤخّر البيان والبلاغ لأشياء إلى وقت التّمكّن، فإذا حصل من يقوم بالدّين من العلماء، أو الأمراء أو مجموعهما؛ كان بيانه لـما جاء به الرّسول شيئًا فشيئًا بمنزلة بيان الرّسول لما

(١) حكم ابن عطاء الله السكندري، الحكمة ١٧ ص٧.

(٢) انظر: الزهد، أحمد بن حنبل، ص ٢٤٣، رقم ١٧٢٩.

بعث به شيئًا فشيئًا، ومعلومٌ أنّ الرّسول لا يبلّغ إلّا ما أمكن علمه والعمل به، ولـم تأت الشّريعة جملةً...، فكذلك الـمجدّد لدينه، والـمحيي لسنّته لا يبلّغ إلّا ما أمكن علمه والعمل به...، ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرّمات، وترك الأمر بالواجبات؛ لأنّ الوجوب والتّحريم مشروطٌ بإمكان العلم والعمل، وقد فرضنا انتفاء هذا الشّرط، فتدبّر هذا الأصل فإنّه نافعٌ»[1].

إنّ هذه المنهجيّة، منهجيّة التدرّج والمرحليّة في التغيير تضع أسسًا علميّة وشرعيّة بين أيدي الدّعاة والعاملين على تغيير المجتمع، من أوضاعه غير الإسلامية إلى أوضاع تقوم على أساس الإسلام، في الفكر والثّقافة والتّشريع والقيم والأعراف والعادات.

فإنّ مجتمعات المسلمين الحاضرة تحمل في أبعادها المختلفة أوضاعًا غير إسلامية؛ ولكي يتمّ استئصال تلك الظواهر وتغييرها واستبدالها بأوضاع إسلاميّة، فهم في حاجة إلى أن يتبعوا منهج القرآن في سنّة التدرّج، رغم إنّ المسلمين جميعًا يؤمنون بالإسلام غير أنّ الغالبية منهم يعوزها فهم الإسلام ووعي مناهجه.

والمشكلة الأخرى هي عدم العمل بالإسلام وتطبيقه شريعةً ونظامًا ومنهج حياة للفرد والمجتمع والدولة؛ لذا فإنّ عمل الدعاة إلى الإسلام يتركّز في التوعية والتثقيف وتعميق الوعي الإسلامي، وتبصير المسلمين بدينهم، متّخذين من الرسول الكريم محمّد صلى الله عليه وسلم أسوة وقدوة، ومن القرآن دليلًا وهاديًا.

إنّ التّغيير كما في ثقافة القرآن ومنهجه يبدأ من أعماق الذات الإنسانية، فما لم تتغيّر الأفكار والثقافة والعواطف والأخلاق لا يتغيّر الوضع الاجتماعي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

جدير ذكره أنّ الأوضاع الاجتماعية الخارجية لها آثارها وبصماتها في سلوك الأفراد وثقافتهم؛ لذا فإنّ إصلاح البيئة الاجتماعية، وحلّ مشاكل الإنسان الماديّة والمعاشيّة هي إحدى أهم الوسائل في إصلاح المجتمع إذا قام الإصلاح المادي على أساس قويم من الإصلاح الفكري والسّلوكي.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٦٠.

ضوابط التدرج

للتدرج ضوابط، نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: البدء بالأهم والأيسر:

لما كانت الشريعة منها ما هو أركان، ومنها ما هو واجبات، ومنها مستحبات، كان لابد عند الأخذ بمبدأ التدرج الانتباه إلى البدء بالأهم والأيسر.

ولهذا نجد أن الشارع قد بدأ في الدعوة بالأهم، ثم المهم، فافترض عليهم أول شيء بعد التوحيد الصلاة؛ وذلك لعظيم أهميتها، فكان فرض الصلاة متقدمًا قبل بقية أركان الشريعة، يدل على ذلك حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث قالت: **(فرضت الصلاة ركعتين، ثم هاجر النبي صلى الله عليه وسلم ففرضت أربعًا، وتركت صلاة السفر على الأولى)**[(١)].

ففي قولها: «ثم هاجر» دليل على تقدّم فرض الصلاة، وأنها فرضت قبل هجرته صلى الله عليه وسلم ؛ مما يدل على مزيتها على سائر الفرائض والعبادات، يؤكد هذه الأهمية أنه صلى الله عليه وسلم كان يبايع عليها بعد التوحيد، يدل على ذلك ما رواه البخاري عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: **(بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم)**[(٢)].

يقول ابن حجر مبيّنًا البدء بالصلاة بعد التوحيد: «وكان النبي صلى الله عليه وسلم أول ما يشترط بعد التوحيد إقامة الصلاة؛ لأنها رأس العبادات البدنية، ثم أداء الزكاة؛ لأنها رأس العبادات المالية، ثم يعلم كل قوم ما حاجتهم إليه أمس»[(٣)].

وكما كان صلى الله عليه وسلم يشترط بعد التوحيد الصلاة قبل غيرها، فقد كان صلى الله عليه وسلم يقدّمها على غيرها في فعله، يدل على ذلك حديث عتبان رضي الله عنه قال: **(أصابني في بصري بعض الشيء، فبعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إني أحب أن تأتيني فتصلي في منزلي فأتخذه مصلى، قال: فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ومن شاء الله من أصحابه...)**[(٤)].

وقد استنبط الإمام النووي فائدة عظيمة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب التاريخ، من أين أرخوا التاريخ؟، ٥/ ٦٨، رقم ٣٩٣٥، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، ١/ ٤٧٨، رقم ٦٨٥، واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب البيعة على إقام الصلاة، ١٣/ ٥٠١، رقم ١٩٦.

(٣) فتح الباري ٢/ ١٨٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، ١/ ٣٣، رقم ٦١.

من هذا الحديث الكريم، حيث قال: «وفيه البداءة بالأهم فالأهم، فإنه صلى الله عليه وسلم في حديث عتبان هذا بدأ أول قدومه بالصلاة، ثم أكل»[(١)].

فدل هذا العمل النبوي الكريم على أهمية التدرج، ومراعاة البدء بالأهم فالأهم في الدعوة إلى الشريعة، وقد نبّه الإمام القرطبي إلى هذا التدرج الحكيم، فقال: «قال ابن عباس رضي الله عنهما: بعث النبي صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدقوه فيها زادهم الصلاة، فلما صدقوه زادهم الزكاة، فلما صدقوه زادهم الصيام، فلما صدقوه زادهم الحج، ثم أكمل لهم دينهم»[(٢)].

ويدل على ذلك أيضًا حديث ابن عباس رضي الله عنهما حيث يقول: (لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى نحو أهل اليمن، قال له: (إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحّدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم، تؤخذ من غنيهم فتردّ على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم، وتوقّ كرائم أموال الناس)[(٣)]، فقرر صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث التدرج في الدعوة إلى هذه الأركان، والبدء بالأهم فالمهم، وإلى هذا يشير النووي بقوله: «ولأنه صلى الله عليه وسلم رتّب ذلك في الدعاء إلى الإسلام وبدأ بالأهم؛ ألا تراه بدأ بالصلاة قبل الزكاة»[(٤)]، فدل على أهمية مراعاة التدرج في الدعوة والتعليم، والبدء بالأهم فالأهم[(٥)].

وكما تدرج الشارع في الدعوة إلى أركان الإسلام مراعيًا بالبدء بالأهم ثم المهم؛ فقد راعى هذا الجانب في الدعوة إلى أخلاق الإسلام؛ حيث ابتدأ بالدعوة إلى أصول الأخلاق من الصدق والعدل وأداء الأمانة والعفة[(٦)] مراعيًا في ذلك جانب التدرج في الوجوب والعلو[(٧)] حيث حاجة الفرد إليها أمس، وأداؤها عليه أوجب، وقد جاءت الأدلة تؤكد اهتمامه صلى الله عليه وسلم

---

(١) شرح صحيح مسلم ٢/ ٢٤٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٦٤.
وهذا الأثر أخرجه الطبري في تفسيره ٢٦/ ٧٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، رقم ٦٩٣٧.

(٤) شرح صحيح مسلم ١/ ١٩٨.

(٥) انظر: التدرج في دعوة النبي، إبراهيم المطلق ص ٥١.

(٦) انظر: الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز ص٨٨، الفضائل الخلقية في الإسلام، أحمد إبراهيم ص١١٩.

(٧) انظر: الفضائل الخلقية في الإسلام، أحمد إبراهيم ص١٣٨.

في هذا الجانب في عهد مبكّر من دعوته، من ذلك ما رواه البخاري عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله، أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان أخبره: «أن هرقل أرسل إليه، فقال: فما يأمركم؟ يعني: النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والصلة»[1]، فدل هذا على أن هذه حاله صلى الله عليه وسلم مع الناس في ابتداء دعوته»[2].

يؤيد هذا حديث جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مع النجاشي، وفيه قوله: (فأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء...)[3]، فلما هاجر صلى الله عليه وسلم وطبّق المسلمون الإسلام، وامتد ميدان الدعوة، واتسعت البيئة أصّل الرسول صلى الله عليه وسلم الدعوة إلى ركائز أخرى في أخلاق المسلم من التآخي والتراحم والتعاون وترك التباغض والتحاسد، حيث حاجة الأمة المسلمة إلى هذه الأخلاق أشد، ممتثلًا قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وكما كان صلى الله عليه وسلم يحث أصحابه على التخلّق بكماليات الأخلاق، فقد كان يحذّرهم من الأخلاق السيئة التي تفضي بهم إلى التشبه بالمنافقين، والتخلّق بأخلاقهم[4]، ويستفاد من هذا أنه صلى الله عليه وسلم كان يركّز في هذا العهد على الدعوة إلى كماليات الأخلاق التي فيها خير وصلاح للأمة الإسلامية[5].

وكذلك من التدرج البدء بالأيسر قبل الأثقل والأصعب، فالحانث مثلًا في اليمين مخيّر في الإطعام أو الكسوة أو العتق، وبدأ الله تعالى عباده بالأيسر فالأيسر.

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

قال الفخر: «وبدأ سبحانه بالإطعام لأنه أعمّ وجودًا، والمقصود منه التنبيه على أنه سبحانه يراعي التخفيف والتسهيل في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب صلة المرأة أمها ولها زوج، ٨/ ٤، رقم ٥٦٣٥.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١/ ٦٤.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢٥٠، رقم ١٧٣٩.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ٢/ ٤٧.

(٥) انظر: التدرج في دعوة النبي، إبراهيم المطلق ص ٥١.

التكاليف»[(١)].

وكذلك في حالة الدفاع عن النفس، فقد قال أهل العلم: «الدافع عن نفسه يجب عليه أن يدفع بالأيسر فالأيسر، وليس له أن يقصد القتل، بل يجب عليه أن يقصد الدفع، ثم إن لم يندفع إلا بالقتل جاز له ذلك».

وقد جاء عن عائشة رضي الله عنها: (ما خيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه)[(٢)].

قال النووي: «فيه استحباب الأخذ بالأيسر والأرفق، ما لم يكن حرامًا، أو مكروهًا، قال القاضي: ويحتمل أن يكون تخييره صلى الله عليه وسلم هنا من الله تعالى فيخيّره فيما فيه عقوبتان، أو فيما بينه وبين الكفار من القتال، وأخذ الجزية، أو في حق أمته في المجاهدة في العبادة أو الاقتصار، وكان يختار الأيسر في كل هذا»[(٣)].

ثانيًا: مراعاة حال المخاطبين:

من ضوابط التدرج ودواعيه مراعاة حال المخاطب، ومستوى فهمه، واستيعابه للأمور، فإن من الناس من يكون حي القلب، تام الفطرة، ومنهم من يكون عكس ذلك.

وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (ما أنت بمحدّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)[(٤)].

وفي صحيح البخاري عن علي رضي الله عنه قال: (حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذّب الله ورسوله؟)[(٥)]، وقوله: «بما يعرفون» أي: بما يفهمون، قال الحافظ: «وزاد آدم بن أبي إياس في كتاب العلم له، عن عبد الله بن داود عن معروف في آخره: ودعوا ما ينكرون، أي: ما يشتبه عليهم فهمه، قال: وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة»[(٦)].

وممن رأى التحديث ببعض دون بعض: أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة في الجرابين، وأن المراد ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة.

قال الشيخ ابن عثيمين: «ولهذا كان من الحكمة في الدعوة ألا تباغت الناس بما لا

(١) مفاتيح الغيب ١٢/ ٦٤-٦٥.
(٢) أخرجه مسلم في صحيح، كتاب الفضائل، باب مباعدته صلى الله عليه وسلم للآثام، واختياره من المباح أسهله، وانتقامه لله عند انتهاك حرماته، ٤/ ١٨١٣، رقم ٢٣٢٧.
(٣) شرح صحيح مسلم ١٥/ ٨٣.
(٤) أخرجه مسلم في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، ١/ ١١.
(٥) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم، كراهية أن لا يفهموا، ١/ ٣٧، رقم ١٢٧.
(٦) فتح الباري، ابن حجر ١/ ٢٢٥.

يمكنهم إدراكه، بل تدعوهم رويدًا رويدًا حتى تستقر عقولهم، وليس معنى: «بما يعرفون» أي: بما يعرفونه من قبل؛ لأن الذي يعرفونه من قبل يكون التحديث به من تحصيل الحاصل... فإن قيل: هل ندع الحديث بما لا تبلغه عقول الناس وإن كانوا محتاجين لذلك؟

أجيب: لا ندعه، ولكن نحدّثهم بطريقة تبلغه عقولهم؛ وذلك بأن ننقلهم رويدًا رويدًا حتى يتقبّلوا هذا الحديث، ويطمئنوا إليه، ولا ندع ما لا تبلغه عقولهم، ويقال: هذا شيء مستنكر لا نتكلم به.

ومثل ذلك: العمل بالسنّة التي لا يعتادها الناس ويستنكرونها، فإننا نعمل بها، ولكن بعد أن نخبرهم بها، حتى تقبلها نفوسهم، ويطمئنوا إليها، ويستفاد من هذا الأثر: أهمية الحكمة في الدعوة إلى الله عز وجل، وأنه يجب على الداعية أن ينظر في عقول المدعوين، وينزّل كلّ إنسانٍ منزلته»[(١)].

فالحاصل أن طالب العلم والواعظ والمعلم يجب عليه أن يراعي أحوال الحاضرين وأحوال الناس، ويعطيهم ما يحتاجون إليه من المسائل، ولا يلقي عليهم المسائل الغريبة التي لم يتوصلوا إليها، فلو أتيت عند طلبة علم مبتدئين، فلا تلق عليهم غرائب المسائل التي لا يعرفها إلا الراسخون في العلم، بل تعلّمهم مبادئ ميسّرة سهلة يتدرّجون بها شيئًا فشيئًا.

ولهذا لما سئل صلى الله عليه وسلم عن الهلال: لم يبدو دقيقًا، ثم يزيد حتى يمتلئ نورًا -أي: يصير بدرًا- ثم يعود دقيقًا كما كان؟! نزل القرآن منبهًا إلى فائدة، دون الإجابة عن الحقيقة العلمية مع أنها محطّ السؤال، قال عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩].

والله سبحانه وتعالى وهو خالق الكون علويّه وسفليّه ومدبّره، والعليم بكل أسراره، كان يعلم الحقيقة العلمية ولا ريب، وكان من الممكن اليسير أن يعلّمها لنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ ليجيب بها، أو لعله أعلمه بها، ولكن جاء القرآن على هذا الأسلوب الحكيم، بالتنبيه إلى الفائدة والغاية من هذا؛ رحمة بالناس، ورفقًا بعقولهم، فليست كل العقول كانت متهيئة في هذا الزمن البعيد لتقبّل الحقيقة العلمية، وقد يكون لبعضهم فتنة، فمن ثمّ ترك ذلك إلى العقول؛ لتصل إلى الحقيقة بعلمها وجدّها وبحثها، والعالم في تقدّمه مدين لهذا المنهج القرآني، فهو الذي فتح للبشرية آفاق العلم، والمعرفة، وقد كان صلى الله عليه وسلم يخاطب الناس على قدر عقولهم، واستعداداتهم،

(١) مجموع فتاوى ابن عثيمين ١٠/ ٧٧٤- ٧٧٥ بتصرف.

وله في ذلك السياسة الحكيمة، والتوجيهات الرشيدة[1].

ومن هنا نستطيع أن نفهم السر في هذه الإجابة التي جاء بها القرآن الكريم للسائلين عن أوجه القمر بصرفهم عن السؤال ولفت أنظارهم إلى فوائد ذلك ومزاياه... (ومنها): أن القرآن الكريم لو عرض لبيان هذه الشئون كلها، واستوعب حقائقها وتفصيلاتها لصعب على الناس حفظه، ولمضت الأزمان الطويلة دون استيعابه نزولًا أو معرفة، ولنسي الناس هديه وإرشاده، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضًا، ولقد يسّره الله تعالى وسهّله؛ ليكون ذلك أدعى إلى تذكّره، وأقرب للوصول إلى مقاصده، والعمل بما فيه: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾[القمر: ١٧].

وهذه من بعض الحكم التي من أجلها لم يتناول القرآن الكريم حقائق العلوم الكونية بالتفصيل والتوضيح، وترك ذلك للعقل البشري يرقى إليه ببحثه المتواصل، ويتذوق لذة معرفته بكفاحه وجهاده، وهناك حكم أخرى لا نطيل القول فيها، وحسبك من القلادة ما أحاط بالجيد، والكلام في أسرار كتاب الله ذو سعة.

ومن ذلك: أن القرآن الكريم جاء بهذه الظواهر واستعرضها وعرضها على الناس في كثير من المواضع لغرض واحد؛ هو العبرة والعظة، ولفت العقل والقلب إلى ما فيها من جمال وروعة ورقة، وإعجاز وإبداع لا يكون إلا عن صانع حكيم[2].

والمقصود أن التدرج ومراعاة أحوال المخاطبين ونفسياتهم وأفهامهم، وبخاصة أن الناس مختلفون، فيراعى في أهل الريف محدودية ثقافتهم، وضعف مستواهم التعليمي، مما يجعل الداعية يستخدم من العبارات ما يتناسب مع قدراتهم الذهنية، وأيضًا فالمتعلمون أنفسهم تتفاوت درجاتهم، فالمتعلم في رحاب جامعة أكاديمية يختلف عن المتعلم في رحاب وسيلة من وسائل الإعلام الأخرى، فالأول لا يخشى عليه عند عرض المادة العلمية من اختلاف المختلفين؛ إذ إنه يعلم عند التعارض والاختلاف كيف يكون الجمع أو الترجيح؟

ولهذا لا ينبغي أن يطرح على العوام بعض أحاديث الصفات -كحديث الصورة- التي لا تصل إليها أفهامهم، أو بعض شبهات المبتدعة والكافرين، أو بعض النصوص التي قد تبدو للجاهل وبادي الرأي متعارضة، أو بعض مسائل الاختلاف، أو الحديث عن

(١) انظر: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، محمد أبو شهبة ص ٤٩.

(٢) انظر: نظرات في كتاب الله، حسن البنا ص ٣٦٠.

مسائل القضاء والقدر، وأطفال المشركين، ووالدي الرسول، ونحو ذلك من المسائل التي قد تكون فتنة للجاهل والعامي؛ ولأجل هذا جاء النهي عن كثير من السلف عن الأغلوطات والمسائل المشكلة، وقد ترجم لهذا المعنى البخاري في صحيحه، فقال: «باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا»[(١)] [(٢)].

فليعلم الداعية إلى الله أن مفاجأة الناس بالسنّة التي يجهلونها، والإنكار عليهم بما يفعلونه؛ قد يسبّب بغضًا للسنّة وأهلها من قبلهم، وهو ما يصنع الحواجز بين الدعاة وبعض الناس في تعليمهم وتبيين السنّة لهم، ولا يعني هذا ترك نصحهم، وإنما المراد التدرج في دعوتهم.

ثالثًا: القدرة:

التدرج في تطبيق الشريعة المحكمة هو التدرج المبني أو المرتبط بالقدرة والعجز، فما قدرنا عليه وجب فعله، وما عجزنا عنه فلا يكلّف الله نفسًا إلا وسعها، ومن المعلوم وجوب امتثال المكلف لأمر الله عز وجل قدر استطاعته، وأن من قدر على فعل المأمور، وترك المحظور لم يسعه المخالفة.

فالتدرج يكون حسب قدرة المكلّف، والله تعالى قد قيّد التكليف بالقدرة والاستطاعة، والوسع والطاقة، فلا تكلّف نفس إلا وسعها، وقد قرّر الله سبحانه وتعالى ذلك المبدأ في كثير من الآيات، فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والحجة تقوم على الإنسان، ويجب عليه العمل إذا كان مستطيعًا له، عالمًا به، يقول الإمام ابن تيمية: «والحجة على العباد إنما تقوم بشيئين: بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله، والقدرة على العمل به»[(٣)].

فإذا عجز المكلّف عن فعل الأثقل، تدرّج به إلى ما هو دونه، وأسهل منه، مع الأخذ في الاعتبار أن العجز نوعان:

- حسي.
- ومعنوي.

فمن صور العجز الحسي: المرض والكبر وغيرهما.

ومن صور العجز المعنوي: ترتب مفاسد أكبر من المصلحة التي تم تحصيلها بإقامة الشرع، وقد قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

ولا يجوز تغيير المنكر بمنكر أعظم منه، فإذا ترتب على فعل المعروف أو النهي عن المنكر ما هو أشد منه فسادًا في عرف الشرع

(١) صحيح البخاري، ١/ ٣٧.
(٢) انظر: حقيقة البدعة وأحكامها، سعيد الغامدي ٢/ ٣٣.
(٣) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٥٩.

كان المكلف في حكم العاجز في هذه الحالة.

ومن هذا الباب امتناع النبي صلى الله عليه وسلم عن هدم الكعبة وبنائها بناءً صحيحًا خشية الفتنة، وأن يرتد الناس عن الإسلام، فهذا من أدلة العجز المعنوي، رغم كونه كان فاتحًا لمكة، ومع ذلك امتنع عن تطبيق بعض المعروف لما ذكرنا.

ومن هذا امتناع النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل بعض المنافقين خشية من الضجيج الإعلامي الذي قد يشوّه صورة الإسلام عند من لا يعرف حقيقته، فيصد عن الدخول فيه؛ إذ سيتنشر الخبر في الشام والعراق وغيرها أن محمدًا يقتل أصحابه[(١)].

وليس من التدرج في شيء: الامتناع عن تطبيق ما قدرت عليه، أو ما ترتب عليه مفسدة أقل من المصلحة المترتبة على الفعل، فقد دل الشرع على إهدار بعض المفاسد، وعدم اعتبارها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٢٨].

ونقل القرطبي الإجماع على أن اللوم والتوبيخ من الفاسق لا يعدّ من الإكراه الذي يسقط وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[(٢)].

وليس من التدرج في شيء: الوقوع في الحرام، أو التوسع فيه وتكثيره أو إقراره! قال ابن رجب: «والتحقيق في هذا أن الله لا يكلّف العباد من الأعمال ما لا طاقة لهم به، وقد أسقط عنهم كثيرًا من الأعمال بمجرد المشقة رخصة عليهم، ورحمة لهم، وأما المناهي فلم يعذر أحد بارتكابها بقوة الداعي والشهوات، بل كلّفهم تركها على كل حال، وأن ما أباح أن يتناول من المطاعم المحرمة عند الضرورة ما تبقى معه الحياة، لا لأجل التلذذ والشهوة، ومن هنا يعلم صحة ما قاله الإمام أحمد: «إن النهي أشد من الأمر»، وقد روي عن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- من حديث ثوبان وغيره أنه قال: (استقيموا ولن تحصوا)[(٣)] يعني: لن تقدروا على الاستقامة كلها»[(٤)].

والحاصل: أنه ينبغي الالتزام بهذه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، ٦/ ١٥٤، رقم ٤٩٠٥، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، ٤/ ١٩٩٨، رقم ٢٥٨٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٤٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧/ ٦٠، رقم ٢٢٣٧٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الطهارة وسننها، باب المحافظة على الوضوء، ١/ ١٠١، رقم ٢٧٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٢٢٥، رقم ٩٥٢.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ١/ ٢٥٥.



الضوابط عند الأخذ بالتدرج، وإلا تحوّل التدرج في تطبيق الشريعة إلى شعار يؤدي لتفريغ الشريعة من مضمونها.

رابعًا: ما لا يجوز التدرج فيه:

التدرج بصفته منهجًا ربانيًا تشريعيًا لا يمكن أن يؤخذ على إطلاقه، بدون ضوابط ولا قيود، بل لابد من معرفة ضوابطه، وما يجوز فيه التدرج وما لا يجوز، ومما لا يدخل فيه التدرج ما يلي:

١. أصول العقيدة.

إن عقيدة المسلم تقوم على الإيمان بالله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وهي تتعلق بالفكر والقلب، وهي أمور نظرية، فلا تخضع للتدرج؛ لأنها جازمة باتة، ولا تقبل المساومة، ولا التجزؤ، ولا المهادنة في إعلانها رسميًا، والنطق بها أمام العالم في الداخل والخارج، وهي في الغالب أمور فردية وشخصية، ولا علاقة لها بالتنظيم والتقنين والتشريع.

وهذا منهج الرسول صلى الله عليه وسلم منذ أول البعثة، وعند تبليغ الدعوة، وهو ما سار عليه الصحابة والتابعون ومن بعدهم[١].

٢. التدرج في الشريع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

إن الأحكام الشرعية الأساسية تثبت بالنصوص القاطعة، وتواتر النقل فيها تواترًا حقيقيًا أو معنويًا، واستقر العمل عليها بالقبول، وأصبحت مسلمات في الدين، فلا تحتاج إلى دليل كأركان الإسلام، وأصول المباحثات والعقود، وكبائر المنهيات والمحرمات، فهذه الأحكام لا تقبل التدرج أيضًا كأمور العقيدة؛ لأنها ثوابت الشرع التي يقوم عليها، وتحدد الإطار العام للشريعة، ومقاصد التشريع، وإن المساس بها يخل بالموازين والأسس التي يقوم عليها المجتمع[٢].

فالأمور المحرمة قطعًا والثابتة في النصوص كالزنا والربا والخمر لا يمكن التدرج بها بإقرارها وإباحتها مبدئيًا، ثم التدرج في إبطالها؛ لأنها تدخل ضمن المعلوم من الدين بالضرورة؛ لذلك يجب الإعلان عنها، والتصريح بتحريمها؛ ولكن يمكن التدرج في تعليم الناس، فيسكت عن بعضها إلى حين تمكن الإيمان من القلب وتعلم الأهم فالمهم.

(١) انظر: التدرج في تطبيق الشريعة، الشريف ص٦٦، والتدرج في التشريع والتطبيق في الشريعة الإسلامية، الزحيلي ص ٩٨.

(٢) التدرج في تطبيق الشريعة، الشريف ص ٦٨.

مقاصد التدرج

شرع الله سبحانه وتعالى التدرج لحكم عظيمة، ومقاصد جليلة، منها:

أولًا: تهيئة النفوس لتقبل التكاليف:

سلك الشرع أسلوب التدرج؛ لترويض النفوس على تقبّل أحكام الله، فلم تفرض التكاليف كلها مرة واحدة، ولم تفرض بشكلها النهائي دفعة واحدة، بل تدرج بهم شيئًا فشيئًا.

فمثلًا: نجد أن الصلاة شرعت في أول الأمر صلاتين فقط، صلاة في الغداة، وصلاة في العشي، واستمر المسلمون على ذلك في مكة حتى نهاية العام العاشر للبعثة، ووقع الإسراء والمعراج وفرض الله خمس صلوات على المسلمين، وكانت صلاة الظهر والعصر والعشاء ركعتين ركعتين، فأقرّت في السفر، وزيدت في الحضر إلى أربع، كما سبق بيان ذلك.

قال ابن القيم: «كان فرض الصلاة أولًا ركعتين ركعتين؛ لما كانوا حديثي عهد بالإسلام، ولم يكونوا معتادين لها، ولا ألفتها طباعهم وعقولهم فرضت عليهم بوصف التخفيف، فلما ذالت بها جوارحهم، وطوّعت بها أنفسهم، واطمأنت إليها قلوبهم، وباشرت نعيمها لذتها وطيبها، وذاقت حلاوة عبودية الله فيها، ولذة مناجاته، زيدت ضعفها، وأقرّت في السفر على الفرض الأول؛ لحاجة المسافر إلى التخفيف، ولمشقة السفر عليه، فتأمل كيف جاء كل حكم في وقته مطابقًا للمصلحة والحكمة! شاهدًا لله بأنه أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، الذي بهرت حكمته العقول والألباب، وبدا على صفحاتها بأن ما خالفها هو الباطل، وأنها هي عين المصلحة والصواب»(١).

وكانت الزكاة في أول الأمر اختيارية، وكان المسلم يخرج ما شاء صدقة لله تعالى؛ لقوله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم فرضت الزكاة في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وكذلك الصيام لم يفرض جملة واحدة، وإنما شرع على التدرج، كان مفروضًا في يوم عاشوراء، وفي بعض الأيام المعدودات، حتى فرض الصيام شهرًا كاملًا في رمضان.

قال ابن القيم في بيان الحكمة من ذلك: «لما كان -أي: الصوم- غير مألوف لهم ولا معتاد، والطباع تأباه إذ هو هجر مألوفها ومحبوبها ولم تذق بعد حلاوته وعواقبه المحمودة، وما في طيّه من المصالح والمنافع فخيّرت بينه وبين الإطعام، وندبت

(١) مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٩.

إليه، فلما عرفت علته -يعني: حكمته- وألفته، وعرفت ما ضمنه من المصالح والفوائد حتّم عليها عينًا، ولم يقبل منها سواه، فكان التخيير في وقته مصلحة، وتعيين الصوم في وقته مصلحة، فاقتضت الحكمة البالغة شرع كل حكم في وقته؛ لأن المصلحة فيه في ذلك الوقت»[١].

وقال ابن حجر الهيتمي: «وحكمته -أي: التدرج في الصوم- الرفق بالأمة؛ لأنهم لما لم يألفوا الصوم كان تعيينه عليهم ابتداء فيه مشقة، فخيّروا بينه وبين الفدية أولًا، ثم لما قوي يقينهم، واطمأنت نفوسهم حتّم عليهم الصوم وحده، ونظير ذلك أنه صلى الله عليه وسلم أول ما بعث لم يكلّف الناس إلا بالتوحيد فقط، ثم استمر على ذلك مدة مديدة، ثم فرض عليهم من الصلاة ما ذكر في سورة المزمل، ثم نسخ ذلك كله بالصلوات الخمس، وكان كلما ازداد ظهورًا وتمكنًا ازدادت الفرائض وتتابعت، كل ذلك لما قررته من الرفق والتدرج في المراتب حتى تؤخذ بحقها»[٢].

ثانيًا: التمهل في استئصال العادات القبيحة المتأصلة في النفوس:

كان التدرّج في تحريم المحرّمات والعادات القبيحة لاسيما العادات المتوارثة على مرّ قرون طويلة مراعاةً لأحوال الناس، ورحمةً بهم، وتيسيرًا عليهم؛ إذ جاء الإسلام والعرب قد تأصّلت في نفوسهم غرائز ألفوها، ولا يسهل اقتلاعها مرة وحدة؛ فتدرج بهم التشريع في تحريمها على مراحل.

وقد جاء الإسلام إلى مكة وكان أهلها قد استحكم فيهم عادات وأعراف، ولم يكن من السهل نهيهم عنها جملة؛ لذلك تدرج بهم حتى تخلّصوا منها.

فمثلًا الخمور كانت منتشرة في المجتمع قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى صار شرب الخمر في البيئة العربية جزءًا من السلوك الاجتماعي الذي يفاخر به، ويتغنى به الشعراء.

قال النعمان بن نضلة العدوي[٣]:

فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني
ولا تسقني بالأصغر المتثلّم

فلم يكن من الحكمة تحريم الخمر مرة واحدة، إنما الأنفع والأصلح هو التدرج في

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٩.
(٢) إتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام ص ٧٨-٧٩.
(٣) البيت للنعمان بن نضلة العدوي، انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٧٢، نهاية الأرب، النويري ٤/ ١٠٢.

التحريم، ومن ثمّ حرّمت الخمر على أربع مراحل كما سبق ذكره.

قال القفال: «والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أنّ الله تعالى علم أنّ القوم كانوا ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم بها كثيرًا، فعلم الله أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق عليهم، فلا جرم استعمل في التحريم هذا التدرج وهذا الرفق»[(١)].

والمقصود أن بعض العادات السيئة التي إذا ألفها الإنسان، واعتاد عليها، واستحكمت في نفسه، لا يمكن تغيّرها إلا بنوع مخصوص من أنواع العلاج، وهو جعل الإنسان يتخلى عنها رويدًا رويدًا.

فكان التدرج هو العلاج الناجع لهذه الأمراض، يقول الشيخ عبد القادر بن ملا العاني: «وذلك أنه صلى الله عليه وسلم بعث والعرب على عادات مستحكمة فيهم، منها ما هو صالح للبقاء، لا ضرر فيه على تكوينها، ومنها ما هو ضار، يجب إبعادهم عنها، فاقتضت حكمته أن يتدرج في نهيهم عنها شيئًا فشيئًا»[(٢)].

ثالثًا: تسهيل الانقياد للحق:

لقد جاء القرآن في بيئة لا تعرف للحق نصرة، وتتخبط في ظلمات الضلال والفساد، ولم يكن إخراجهم من هذه الحياة

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٣٩٦.
(٢) بيان المعاني، العاني ١/ ٢٠.

وهذا الواقع إلى نور الإسلام بالأمر السهل، فراعى التشريع الإسلامي ذلك، فنزلت التشريعات متدرجة حتى يسهل انقيادهم للحق، ويمتثلون الإسلام دينًا ودولة.

يقول الأستاذ مصطفى شلبي: «والحكمة في ذلك التدرج أن هذا النوع من التشريع يكون أقرب إلى القبول والامتثال، خصوصًا مع أولئك العرب الذين كانوا في إباحية مطلقة، تجعلهم ينفرون من التكليف بالجملة»[(٣)].

فإذا كان نزول التشريعات مدرّجة يسهل الانقياد والامتثال، فإن نزولها جملة ينفّر المجتمع، ولا ينقاد إلى هذه التشريعات الجديدة، يقول الإمام القرطبي: «﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

مبالغة وتأكيدًا بالمصدر للمعنى المتقدم، أي: أنزلناه نجمًا بعد نجم، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا»[(٤)].

لأنها تكلّفهم ما لا يستطيعون تحمله، وفي امتثالهم لها عنت ومشقة؛ لأن الإنسان إذا كان في حياة منحلّة عن التدين واعتادت نفسه عليها لا يستطيع أن يكلّف نفسه الخروج من هذه الحياة إلى حياة أخرى مختلفة تمامًا، ويمتثل تشاريع أخرى جديدة بين يوم وليلة، وعدم استطاعته لها سببان:

(٣) المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي، مصطفى شلبي ص ٧٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٤٠.

الأول: أنه لا يستطيع أن يخرج بغتة عن حياة ألفها وانقاد إليها ردحًا من الزمان؛ لأن فطرته تأبى عليه ذلك.

والثاني: أن امتثال تكاليف جديدة جملة واحدة تتكاثر عليه، ولا يستطيع أن يؤديها على وجهها المراد، بخلاف إذا ما كلّف بحكم واحد أو اثنين، ثم لما اعتاد عليهما وأتقنهما كلّف بحكم آخر، يقول الإمام الشاطبي: «فلو نزلت دفعة واحدة لتكاثرت التكاليف على المكلف، فلم يكن لينقاد إليها انقياده إلى الحكم الواحد أو الاثنين»(١).

ومن أول من أشار إلى الحكمة من التدرج في التشريع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث قالت: (... إنما نزل أوّل ما نزل منه -أي: القرآن- سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا...)(٢).

وقد بيّن ابن حجر رحمه الله في شرحه لهذا الحديث الحكمة من هذا التدرّج، فقال: «أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب النزول، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام؛ ولهذا قالت: «ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندعها»، وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف»(٣).

فسهل عليهم قبول الأحكام والالتزام بالتكاليف بعد أن تجهّزوا وتهيّأت نفوسهم لقبولها؛ لأن الإيمان قد خالط قلوبهم، وصاروا طائعين لله، مستجيبين لأوامره.

والخلاصة: أن من دواعي التدرج: أنه جاء تخفيفًا على الناس، وتماشيًا مع فطرة الإنسان التي يتطلب التعامل معها التزام التدرج لتغييرها، وحسن الارتقاء بها، كما أن التدرج يتلاءم مع منهج التغيير بشكل عام؛ إذ لا يمكن تغيير أوضاع المجتمعات لتتفق مع الشريعة إلا بأسلوب التدرج.

موضوعات ذات صلة:

التربية، الدعوة، العلم

(١) الموافقات ٢/ ١٤٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، ٦/ ١٨٥، رقم ٤٩٩٣.
(٣) فتح الباري ٩/ ٤٠.



عناصر الموضوع

مفهوم التربية

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل كلمة التربية: إذا رجعنا إلى معاجم اللغة العربية وجدنا لكلمة التربية أصولًا ثلاثة:

الأول:ربا يربو.

الثاني:ربا يربي على وزن خفى يخفي.

الثالث:ربّ يربّ بوزن مدّ يمدّ[(١)].

وكلمة التربية في المعاجم العربية استخدمت لعدة معان، ويمكن إرجاع تلك المعاني إلى أصول خمسة، وهي:

١. **النماء والزيادة**: من ربا يربو بمعنى زاد ونما، ويقول ابن منظور: «ورب المعروف والصنيعة والنعمة، أي: نماها وأتمها وأصلحها»[(٢)].

٢. **النشأة**: قال ابن منظور: «ربي يربى على وزن خفي يخفى، أي: نشأ وترعرع، وعليه قول ابن الأعرابي: فمن يكون سائلًا عني فإني بمكة منزلي، وبها ربيت»[(٣)].

٣. **الحفظ والرعاية**: قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨]. أي: ألم ننعم عليك ونقم بتربيتك منذ كنت وليدًا في مهدك ولم تزل كذلك. ولبثت فينا من عمرك سنين»[(٤)].

٤. **الإصلاح والتأسيس**: قال ابن سيده: «ربّيت أي: أصلحت»[(٥)]. ويقول أبو هلال العسكري: «والصفة برب أيضًا تقتضي معنى المصلح، ومنه ربّيت النعمة إذا أصلحتها بإتمامها»[(٦)]. ولم نجد غيرهما يذكر هذا المعنى.

٥. **الرسوخ في العلم**: قال ابن منظور:«الرّبّاني من الرب بمعنى التربية، وقال ابن الأعرابي: الرباني: العالم المعلم الذي يغذو الناس بصغار العلوم قبل كبارها. والرباني: الراسخ

(١) انظر: الخلاصة في أصول التربية الإسلامية، علي الشحود،ص ٧-٨، أصول التربية الإسلامية، خالد الحازمي ص ١٧-١٨.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٩٩.

(٣) المصدر السابق ١٤/ ٣٠٤.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ١٩/ ٣٦٧.

وانظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٣٨٢.

(٥) المخصص، ابن سيده ٣/ ١٠.

(٦) الفروق اللغوية ١/ ٢٤٧.



في العلم، أو الذي يطلب بعلمه وجه الله تعالى»[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هناك اختلاف في معنى التربية بين القدماء والمعاصرين:

فالتربية في القديم هي وسيلة لتحصيل المعرفة، ولكن التربية عند المعاصرين أخذت معنى أشمل، فالتربية عندهم طريقة لإعداد الإنسان الصحيح والصالح والمتميز بسلوكه الفكري والإنساني والقادر على توظيف مصادر المعرفة لديه في حل مشاكله ومشاكل مجتمعه[2].

فالتربية هي: «كل عملية أو مجهود أو نشاط تؤثر في سلوك الإنسان أو تكوينه، أيًّا كان مصدر هذه العملية: سواء أكان الإنسان بنفسه، أم البيئة الطبيعية، أم المجتمع الذي يعيش فيه.فالإنسان خاضع باستمرار لعمليات تغيير في تكوينه الجسمي والعقلي والخلقي والنفسي والاجتماعي، وهذه العمليات هي التربية. فغاية التربية هي مساعدة الإنسان على تنمية ملكاته وقدراته واستعداداته ودوافعه جميعها، وتكييفها، وإيجاد التوازن بينها وبين البيئة التي تعيش بها»[3].

(١) لسان العرب، ١/ ٤٠٠.
(٢) انظر: المباديء التربوية في القرآن الكريم، محمد صالح، ص ٤.
(٣) مدخل إلى أصول التربية الإسلامية، محمد الدخيل،ص ١٢.

التربية في الاستعمال القرآني

وردت (التربية) في القرآن الكريم مرتين[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	١	﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء:٢٤]
الفعل المضارع	١	﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾ [الشعراء:١٨]

وجاءت التربية في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: الحفظ والرعاية[2].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الراء، ص٥٦٣.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٣٨٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ التزكية:

التزكية: لغة:

التزكية في مادتها اللغوية تدور حول: الإصلاح، والتطهير، والثناء الجميل والمدح، والنماء والزيادة[١].

التزكية اصطلاحًا:

تخليص النفس الإنسانية من كل ما يتعلق بها من شوائب، ونواقص، وسلبيات، وترسيخ الفضائل والقيم النبيلة والأخلاق السامية فيها، وتوجيهها إلى كل ما فيه الخير والصلاح[٢].

الصلة بين التزكية والتربية:

عن العلاقة بينهما يقول الشيخ محمد الغزالي: «والتزكية أقرب الكلمات وأدلها على معنى التربية، بل تكاد التزكية والتربية تترادفان في إصلاح النفس، وتهذيب الطباع، وشد الإنسان إلى أعلى؛ كلما حاولت المثبطات والهواجس أن تسفّ به وتعوجّ»[٣].

٢ الرعاية:

الرّعاية لغةً:

الحفظ؛ يقال: رعاه يرعاه رعيًا ورعاية: حفظه. وكلّ من ولي أمر قوم فهو راعيهم وهم رعيّته. وقد استرعاه إياهم: استحفظه، واسترعيته الشيء فرعاه: حفظه. وفي المثل: من استرعى الذئب ظلم؛ لأنّ من ائتمن خائنًا فقد وضع الأمانة في غير موضعها[٤].

الرعاية اصطلاحًا:

من معاني الرعاية في مجال التربية والتعليم -كما ذكر أحد الباحثين- المسؤولية والإشراف والحرص والمساعدة والإرشاد والتوجيه ومراقبة الطفل والسهر عليه[٥].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٨، مختار الصحاح، الرازي ١/ ١٣٦، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٥٨.
(٢) مفهوم التزكية، نايف الشريف ص ٢١٩.
(٣) نظرية التربية الإسلامية للفرد والمجتمع، ص١.
(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ١٦٢ - ١٦٤، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٨١ - ١٨٣.
(٥) انظر: مدخل إلى التربية الإسلامية،الغامدي، ص ٦.

الصلة بين الرعاية والتربية:

المربي يشرف على التربية ويرشد ويرعى مراحل التربية.

٣ التاديب:

التأديب لغة:

أصل مادة الكلمة (الهمزة والدال والباء) تدل على (الجمع والدعاء)، يقال: أدبهم على الأمر، أي: جمعهم عليه، ومنه سمي حسن الخلق أدبًا؛ لأنه أمرٌ قد أجمع عليه وعلى استحسانه[(١)].

التأديب اصطلاحًا:

هو التعليم والمعاقبة على الإساءة بقصد الإصلاح، يقال: أدّبه، أي: علّمه الأدب، وعاقبه على إساءته؛ لأنه سبب يدعو إلى حقيقة الأدب، و(التأديب) لفظ يدل على المبالغة والتكثير[(٢)].

الصلة بين التأديب والتربية:

وظيفة المؤدب والمربي واحدة.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٧٤، أساس البلاغة، الزمخشري، ١/ ٣.
(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي ١/ ٩، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٧٥.

الله تعالى المربي لعباده

أضاف الله سبحانه لنفسه كلمة العالمين بقوله:﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يقول الطبري: «والعالمون جمع عالم، والعالم: جمعٌ لا واحد له من لفظه، كالأنام والرهط والجيش، ونحو ذلك من الأسماء التي هي موضوعات على جماعٍ لا واحد له من لفظه. والعالم اسم لأصناف الأمم، وكل صنف منها عالمٌ، وأهل كل قرن من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان. فالإنس عالم، وكل أهل زمان منهم عالم ذلك الزمان. والجنّ عالم، وكذلك سائر أجناس الخلق، كلّ جنس منها عالم زمانه. ولذلك جمع فقيل: عالمون، وواحده جمعٌ»[(١)].

والله سبحانه هو المربي للخلق، كما يدل عليه كلمة (الرب). يقول ابن الجوزي: «فأما الرب فقيل: هو مأخوذ من التربية، يقال: رب فلان صنيعتها يربها ربًّا: إذا أتمها وأصلحها»[(٢)].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «وقيل: إن ربوبية الله تظهر بتربيته إياهم، وهي تربية خلقية بما يكون به نموهم وكمال أبدانهم وقواهم النفسية والعقلية، وتربية شرعية تعليمية للمحافظة على فطرتهم»[(٣)].

(١) جامع البيان، ١/ ١٤٣.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي، ١/ ١٨.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١/ ٥١.

ويذكر الرازي في تفسيره أهم الفروق بين تربية الله تعالى وتربية الخلق بعضهم لبعض،منها:

١. أنه تعالى يربي عبيده لا لغرض نفسه، بل لغرضهم، وغيره يربون لغرض أنفسهم لا لغرض غيرهم.
٢. أن غيره إذا ربى فبقدر تلك التربية يظهر النقصان في خزائنه وفي ماله، وهو تعالى متعال عن النقصان والضرر.
٣. أن غيره من المحسنين إذا ألح الفقير عليه أبغضه وحرمه ومنعه، والحق تعالى بخلاف ذلك.
٤. أن غيره من المحسنين ما لم يطلب منه الإحسان لم يعط، أما الحق تعالى فأنه يعطي قبل السؤال.
٥. أن غيره من المحسنين ينقطع إحسانه إما بسبب الفقر أو الغيبة أو الموت، والحق تعالى لا ينقطع إحسانه البتة.
٦. أن غيره من المحسنين يختص إحسانه بقوم دون قوم ولا يمكنه التعميم، أما الحق تعالى فقد وصل تربيته وإحسانه إلى الكل[(٤)].

وقد قسم العلماء والمربون هذه التربية إلى قسمين: تربية عامة وتربية خاصة، فإن أطلقت فالمراد بها المعنى الأول، مثل قوله

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، ١/ ١٩٩.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ونحو ذلك.

وحيث قيدت بما يحبه ويرضاه، أو وقع السؤال بها من الأنبياء وأتباعهم. فإن المراد بها النوع الثاني. وهو متضمن للمعنى الأول وزيادة؛ لهذا تجد أدعية الأنبياء وأتباعهم في القرآن باسم الرب غالبًا، فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة.

أولًا: تربية عامة.

يقول العلامة السعدي رحمه الله حول تربية لله سبحانه العامة لعباده: «وهي خلقه تعالى للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا»[1].

فالتربية العامة تشمل نقاطًا ثلاثة:

١. خلق الله تعالى المخلوقات: يقول العلامة العثيمين: «الرب هو من اجتمع فيه ثلاثة أوصاف: الخلق والملك والتدبير، فهو الخالق المالك لكل شيء المدبر لجميع الأمور»[2].

٢. رزقهم، بعد أن يذكر الرازي كيفية تكوين الشجرة من الغصن والساق والعروق والثمار، يبين لنا هذا الجانب من تربية الله سبحانه، وهي رزقهم فيقول: «والحكمة في كل هذه التدبيرات تحصيل ما يحتاج العبد إليه من الغذاء والأدام والفواكه والأشربة والأدوية، كما قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٥-٢٦]»[3].

٣. هدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا، يقول الراغب الأصفهاني: «رب العالمين هو المتكفل بمصلحتهم»[4].

ويذكر الرازي رحمه الله في تفسيره وجوهًا كثيرة لتربية الله سبحانه للعبد، منها خلقه للإنسان من نطفة فعلقة فمضغة فعظام، ثم خلق السماوات والأرض والشمس والقمر والأرض والجبال والمعادن، والنبات والحيوان، ثم يعلق على كل ذلك بقوله رحمه الله: «واعلم أنك إذا تأملت في عجائب أحوال المعادن والنبات والحيوان وآثار حكمة الرحمن في خلق الإنسان قضى صريح عقلك بأن أسباب تربية الله كثيرة، ودلائل رحمته لائحة ظاهرة»[5].

فالتربية العامة تكون بالنعم التي أنعمها الله على عباده من رزق وإرسال الرسل، فيهدي بهدايته العامة من ينيب إليه، بعد أن عرف النعمة وأحس بجميع الدلائل الكونية والشرعية على أن الله تعالى هو رب البرية،

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١٤.
(٢) تفسير القرآن الكريم، سورتي الفاتحة والبقرة، ١/ ١٠.
(٣) مفاتيح الغيب، ١/ ٢٠٠.
(٤) تفسير الراغب الأصفهاني، ١/ ٥٤.
(٥) مفاتيح الغيب، ١/ ٢٠٠.



فأناب إليه، ثم هداه تعالى ووفقه[1].

ثانيًا: تربية خاصة.

يقول الشيخ السعدي مبينًا التربية الخاصة: «وهي تربية لأوليائه فيربيهم بالإيمان ويوفقهم له ويكملهم به ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[الشورى:١٣].

والمعنى: الله يجتبي إليه من يشاء أي: يختار من خلقه من يعلم أنه يصلح للإجتباء برسالته وولايته، ومنه أن اجتبى هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وآخرها»[2].

ويقول البيضاوي مفسرًا آية ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: «ثم سمى به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه»[3].

فالله سبحانه هو الحافظ للخلق لأنه مربيهم وخالقهم.

وقيل في قوله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ [غافر:٦٦].

أي: المربي لي تربية خاصة، هي أعلى من كل مخلوق سواي، فأنا أعبده عبادة تفوق عبادة كل عابد[4].

فالتربية الخاصة لله سبحانه، تكون لأنبيائه والصالحين. يقول الشيخ الشعراوي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه:١٢]: «أي: ربك أنت بالذات، لا الرب المطلق، لأن الرسل مختلفون عن الخلق جميعا، فلهم تربية مخصوصة، كما قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[طه:٣٩]. وقال سبحانه: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:٤١]. فالحق تبارك وتعالى يربي الرسل تربية تناسب المهمة التي سيقومون بها»[5].

ويعرف صاحب تفسير التحرير والتنوير كلمة الاصطناع في الآية بأنها: «صنع الشيء باعتناء، واللام للأجل، أي: لأجل نفسي، والكلام تمثيل لهيئة الاصطفاء لتبليغ الشريعة بهيئة من يصطنع شيئًا لفائدة نفسه، فيصرف فيه غاية إتقان صنعه»[6].

فالنبي صلى الله عليه وسلم اصطفاه ربه وتولى أمر تربيته حيث صانه عن أفعال الجاهلية المنكرة، فلم يعبد الأصنام، ولم يلهو كأقرانه ولم يسمع لهوًا قط. فهذه تربية ورعاية ربانية خاصة[7].

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، خالد الحازمي، ص ٢١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٤/ ٤١٤.
(٣) أنوار التنزيل، ١/ ٢٨.
(٤) انظر: السراج المنير، الشربيني، ٣/ ٤٩٥.
(٥) تفسير الشعراوي، ١٥/ ٩٢٣١.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٦/ ٢٢٣.
(٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد، ص ١٢٥-١٢٦.

مما سبق عرفنا أن الله سبحانه يربي أوليائه وأصفيائه تربية خاصة، وهذه التربية تكون بتوفيقهم للإيمان والهداية ودفع الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه.

الأنبياء عليهم السلام والتربية

الأنبياء عليهم السلام صفوة الخلق اختارهم الله تعالى لأداء الأمانة وتبليغ الرسالة وتربية الناس. فهم عليهم السلام أكثر الناس حاجة للتربية نظرًا للمسؤلية الثقيلة عليهم. فالله سبحانه رباهم تربية خاصة ليكونوا أهلًا للحمل الثقيل. وهم بدورهم حملوا أمانة تربية الناس وإصلاحهم. ومن هنا قسمنا هذا المبحث إلى:

أولا: تربية الله سبحانه للأنبياء.

قال تعالى لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:١٢].

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه:٤١].

يقول شيخ المفسرين الإمام الطبري في معنى هذه الآية: «أنعمت عليك يا موسى هذه النعم، ومننت عليك هذه المنن، اجتباء مني لك واختيارًا لرسالتي والبلاغ عني والقيام بأمري ونهيي»[(١)].

ثانيا: تربية الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم.

يقول الدكتور أحمد أبو زيد حول مهمة الأنبياء عليهم السلام في الحياة وكيفية تربيتهم لأقوامهم: «قامت دعوات الأنبياء عليهم السلام على تكوين الإنسان الذي يوحد الله تعالى ويراقبه في سره وعلانيته،

(١) جامع البيان، ١٦/ ٧٢.

ويسارع في الخيرات، لذلك تبدأ بغرس كلمة الإيمان في النفس وتعمل بوسائل شتى على ترسيخها وتثبيت جذورها في القلب، لأن الإيمان إذا تغلغل في القلب كان قوة ذاتية تدفع الإنسان إلى السلوك القويم والتحلي بالأخلاق الحميدة والاستقامة على طريق الصلاح»[(١)].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

ومهمة تكوين الإنسان الموحد لله تعالى المسارع إلى الخيرات، ليست مهمة سهلة.

إن تربية الأنبياء ودعوتهم -كما ذكرها الشيخ التويجري في مختصر الفقه الإسلامي- اشتملت على أربعة أمور: تحصيل الإيمان، وحفظ الإيمان، والاستفادة من الإيمان، ونشر الإيمان.

فالاجتهاد لتحصيل الإيمان بالنظر والتفكر في آيات الله ومخلوقاته، والعبادة والتزكية وكثرة ذكر الله. واجتهادهم لحفظ الإيمان، بلزوم الإيمان والبيئات الصالحة والعمل الصالح، والإكثار من ذكر الله، ومواصلة الدعوة إلى الله وبذل كل جهد في سبيل إعلاء كلمة الله.

ثم اجتهدوا لقضاء حاجاتهم وحاجات الدين بالاستفادة من الإيمان، فيرون أن الله معهم حيثما كانوا، ويطلبون منه وحده كل شيء... وهكذا استفادوا من قدرة الله وخزائنه. ثم اجتهدوا على نشر هذا الإيمان وهذا اليقين بين أقوامهم، ومن أرسلوا إليه، ليعبدوا الله وحده لا شريك له[(٢)].

والدارس لقصص الأنبياء في القرآن الكريم يجد نماذج عديدة لتربية الأنبياء لغيرهم وتعليمهم بشتى الوسائل. وما عانوه في سبيل أداء مهمتهم على أكمل وجه.

(١) الأبعاد التربوية للعبادة في الإسلام، أحمد أبو زيد، ص٧٧.

(٢) نقل بتصرف من: مختصر الفقه الإسلامي في ضوء القرآن والسنة،محمد بن إبراهيم التويجري، ١/ ٧٩-٨٠.

مجالات التربية

أولًا: التربية الإيمانية:

يقصد بالتربية الإيمانية: «ربط المسلم منذ نعومة أظفاره بأصول الايمان وأركانه وترسيخها في خوالج نفسه ابتداءً بوجود الله تعالى وصفاته، مرورًا بعظمة كلام الله تعالى وإعجازه وبيانه بالسنة المشرفة، وإنتهاءًا بالاعتياد على تطبيق أركان الإسلام، وتمثل مبادىء الشريعة الغراء حتى تتسامى روحه إلى الأفق الأعلى بإيمان صادق ويقين ليس بعده كفر. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم: ٣٠]»[(١)].

ويراد بأصول الإيمان: الحقائق الإيمانية والأمور الغيبية الثابتة عن طريق الخبر الصادق: كالإيمان بالله سبحانه، والإيمان بملائكته، والإيمان بالكتب السماوية، والإيمان بالرسل، والبعث والحساب والجنة والنار وسائر المغيبات. وأركان الإسلام هي: كل العبادات البدنية والمالية، وهي: الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج من استطاع إليه سبيلا. ونعني بمبادىء الشريعة: كل ما يتصل بالمنهج الرباني من عقيدة وعبادة وأخلاق وتشريع وأنظمة[(٢)].

فالتربية الإيمانية عملية متدرجة ومقصودة، لتوجيه الإنسان نحو خالقه من خلال مجموعة من المبادىء، والقيم المستمدة من الكتاب، والسنة، والتي تعمل على النمو السليم المتوازن بالروح، والعقل، والنفس، والجسم، وتحدث التكيف الاجتماعي[(٣)].

والناظر للآيات القرآنية التي تبحث في قضية الإيمان يجد أن هذه الآيات تعمل بشتى الوسائل والأساليب بغرس الإيمان في النفس وترسيخها وتثبيت جذورها في قلب الإنسان، والإيمان يدفع الإنسان إلى التحلي بالأخلاق والاستقامة على الطريق الصحيح.

وقد استخدم القرآن الكريم أساليب عدة لغرس هذا الإيمان في النفس، منها:

١ . الأساليب البنائية.

فقد ذكر القرآن الكريم أساليب لتقوية الإيمان وتنميته وغرسه في النفوس، منها:

١ . النظر في الآفاق والأنفس، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ

---

(١) التربية وأساليبها في التشريع الاسلامي، سناء هدلة، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، عدد ٢٥٨، سنة ٢٠١١، ص ٢٠٣١.

(٢) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ١/ ١٤٤.

(٣) انظر: من أساليب التربية في القرآن الكريم، زينب بشارة يوسف، ص ٢٤.



﴿يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

٢. تلاوة آيات القرآن الكريم وتدبر معانيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]. وعن جندب بن عبد الله، قال: كنّا مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ونحن فتيانٌ حزاورةٌ، فتعلّمنا الإيمان قبل أن نتعلّم القرآن، ثمّ تعلّمنا القرآن فازددنا به إيمانًا)[١].

٣. معرفة أسماء الله وصفاته، لاشك أن النظر في الأسماء والصفات بتدبر معانيها ودلالاتها في المخلوقات مما يزيد الإيمان ويقويه. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

٤. العبادة المتمثلة في اتباع الأوامر واجتناب النواهي. قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٢].

٥. التفكر في الموت، فالموت هو الطريق الذي يعبر من خلاله الإنسان، عند انتقاله من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة. قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

٢. الأساليب الوقائية.

فالتربية القرآنية لا تقف عند تنمية الإيمان وتقويته، بل تستمر في المحافظة عليه بأساليب أخرى، منها:

١. التمسك بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٢. التقوى والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

٣. التحلي بالصبر، وللصبر أثر كبير في المداومة على العبادات، قال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

٣. الأساليب العلاجية.

بعد الأساليب البنائية والأساليب الوقائية، يعالج القرآن الكريم ضعف الإيمان حين يقع المؤمن في الأخطاء بأساليب،

(١) أخرجه في سننه، باب في الإيمان، ١/ ٣٧-٣٨.

منها:

١. التوبة، فقد ذكر القرآن الكريم في كثير من الآيات هذا الأسلوب منبهًا لهم أنه لا فلاح ولا نجاة لكل مؤمن إلا بالتوبة من الذنوب صغيرها وكبيرها. قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١].

٢. الاستغفار، من صفات المتقين إذا وقعوا في ذنب المسارعة إلى الاستغفار؛ لإيمانهم بأن الله غفور رحيم. قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥](١).

فالقرآن الكريم -كما رأينا- يولي أهمية خاصة للتربية الإيمانية، مستخدمًا شتى الوسائل والأساليب والطرق. وهذا التنويع في الوسائل كفيل بتحقيق الغاية المنشودة، وهي غرس الإيمان في النفس.

ثانيًا: التربية الأخلاقية:

التربية الأخلاقية هي: «تنشئة الفرد على المبادىء الخلقية والفضائل السلوكية والوجدانية التي توجه الفرد من وقت تمييزه، حتى يعتاد الصلاح وترسخ في نفسه القيم، فتكون دافعًا له إلى كل فضيلة وعونًا له على كمال دينه ومروءته وشخصيته، ومنها بر الوالدين واحترامهم والتزام الأدب في التعامل مع الغير ابتداءًا بالأسرة، وانتهاءًا بمختلف المؤسسات الاجتماعية»(٢).

والمتأمل للقرآن الكريم يرى بوضوح مدى الاهتمام بالتربية الخلقية للإنسان وتوجيهه نحو الخير، وما فيها من توجيهات خير شاهد على ما نقول.

فمن هذه الآيات التي توجه السلوك وترسم خط الاستقامة: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:١-٧].

وفي التربية على القول الحسن يقول تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

وفي الصدق يقول عزوجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ

---

(١) انظر: الفكر التربوي عند بديع الزمان سعيد النورسي، سعيد القرني، ص ١٨٣-٢٢٤.

(٢) التربية وأساليبها في التشريع الاسلامي، سناء هدلة، ص ٢٠٣١-٢٠٣٢.

﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[التوبة: ١١٩].

وحينما يأمرنا بالتواضع يقول: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨ – ١٩].

ويأمرنا بالعفة والاحتشام بقوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠][1].

ويأمرنا سبحانه بالابتعاد عن سوء الظن بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا)[2].

فالتربية الأخلاقية أخذت حيزًا كبيرًا من آيات القرآن الكريم.

ثالثًا: التربية العقلية:

العقل هي الأداة التي عن طريقها يسلك الفرد طريق النجاة في الدارين، وعقول الناس تتفاوت في سلوك هذا الطريق. وهذا ما لا خلاف فيه. ولكن العقول قابلة للنماء والتطور والارتقاء حسب استخدامها في مجالها المقدر لها. والارتقاء بها تكون «بتدريبها على ممارسة العمليات العقلية من تفكر وتدبر وتأمل؛ لذلك نجد أن الكثير من الآيات القرآنية تختم بقوله تعالى: ﴿يَعْقِلُونَ﴾، ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾. وعقول الأفراد مجتمعة تكون عقل المجتمع أو الأمة؛ لذلك كان الاهتمام بالقدرات العقلية ومحاولة تطويرها على النطاق الفردي أو الجماعي عمل في غاية الأهمية»[3].

ويدل على أهمية العقل في القران الكريم أنه حث على التعقل والتفكير في مخلوقات الله تعالى، وأن الانحراف والضلال نتيجة لعدم التعقل والنظر بالحكمة في الأمور. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

لذلك نرى الله سبحانه يشبه الذين لا

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، الحازمي، ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى من التحاسد والتدابر، رقم ٦٠٦٦.

(٣) من أساليب التربية في القرآن الكريم، زينب بشارة يوسف، ص ١٨.

يستخدمون عقولهم بالدواب.

يقول الرازي: «شبههم بالدواب لجهلهم وعدولهم عن الانتفاع بما يقولون، ويقال لهم؛ ولذلك وصفهم بالصم والبكم وبأنهم لا يعقلون. وقيل: بل هم من الدواب؛ لأنه اسم لما دب على الأرض، ولم يذكره في معرض التشبيه، بل وصفهم بصفة تليق بهم على طريقة الذم، كما يقال لمن لا يفهم الكلام: هو شبح وجسد وطلل، على جهة الذم»[(١)].

وفي عملية تربية العقل اتبع القرآن الكريم أساليب تربوية عدة، منها:

١. تربية العقل بالعلم والمعرفة.

٢. تربية العمليات العقلية.

٣. تربية العقل وتزكيته بالقيم والمبادىء الاسلامية.

٤. تربية العقل من خلال علاقة الانسان بالله عزوجل والكون والحياة[(٢)].

وقد حرر القرآن الكريم عقل الإنسان من عوائق عدة تعيقه عن مهامه الموكلة له:

فقد حرره من الخرافة والمعتقدات الباطلة التي تتنافى وتكريم الله له «وقدم الإجابات الواضحة للإنسان عن الكون ومفرداته وفلسفته، وحقيقة خلقه، وكيف تتم إدارته وحركة القوة فيه»[(٣)]. وحرره من التبعية والعبودية لغير الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾

[البقرة: ١٧٠].

يقول الرازي في تفسير هذه الآية: «إن الله تعالى أمرهم بأن يتبعوا ما أنزل الله من الدلائل الباهرة، فهم قالوا: لا نتبع ذلك، وإنما نتبع آباءنا وأسلافنا، فكأنهم عارضوا الدلالة بالتقليد، وأجاب الله تعالى عنهم بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾»[(٤)].

لقد حرر القرآن العقل من إتباع الهوى والشهوات بالعلم والمعرفة ودعا إلى التحرر من عبادة غير الله تعالى فكل الخلق في ميزان العبودية سواء، «فإذا تمكنت عبوديته لله من قلبه، وتحرر من عبودية غير الله، كان أهلًا لأن يأمنه الناس على كل شيء؛ لأنه لا يستجيب لرغبة، ولا يخضع لرهبة، ولا يقوده إغراء ولا شهوة، ولا يتبع هوى، وإنما يستجيب لأمر الله، وأمر الله لا يوجد فيه إلا عمل الخير الذي فيه غاية الأمن لكل البشر»[(٥)].

(١) مفاتيح الغيب، ١٥/ ٤٦٩.
(٢) انظر: منهاج التربية الاسلامية في بناء الشخصية، أحمد الغامدي، ص٤٢.
(٣) أثر التربية القرآنية في آمن المجتمع، عبد الله قادري الأهدل، ص٨٥.
(٤) مفاتيح الغيب، ٥/ ١٨٨.
(٥) أثر التربية القرآنية في آمن المجتمع، عبد الله

والقرآن الكريم دعا من خلال تشريعاته إلى المحافظة على العقل من التلف. «وقد بنى القرآن الكريم تربية العقل على ضرورة ترك كل ما يمكن أن يتلفه أو يضره، فحرم الخمر وجميع المذهبات للعقل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة:٩٠]»[1].

والقرآن الكريم يدعو إلى الحوار والإقناع ويبتعد عن الإكراه. قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦].

قال الزمخشري: «أي: لم يجر الله أمر الإيمان على الإجبار والقسر ولكن على التمكين والإختيار»[2].

ومن أجل احترام العقل وتربيته جعل الإيمان على الإقتناع لا الإجبار، «فإذا كان الدين لا إكراه فيه، فلا إكراه فيما سواه وهي دعوة صريحة في غالب آيات القرآن الكريم تدعوا إلى التفكر والتأمل في كل ما يعرض، وعدم الاغترار بالظواهر، فالحقيقة أهم من المظهر، وعليها المعول والحساب»[3].

مما سبق عرفنا أهم ملامح التربية القرآنية للعقل، وهي: حثه على التفكر في مخلوقات الله، وتحريره العقل البشري من الخرافات والتبعية والجمود واتباع الهوى.

رابعًا: التربية البدنية:

عنى القرآن الكريم عناية بالغة بجسم الإنسان ووضع له منهاجًا للتربية السليمة، تتجلى مفردات هذا المنهج في التشريعات والتوجيهات المذكورة في القرآن الكريم.

والمقصود بالتربية الجسمية: «أنها التربية التي تهتم ببناء وتنمية الجانب الجسمي وكيفية تفاعله الإيجابي مع غيره من الجوانب الأخرى للشخصية الإنسانية، لأداء وظائفه في الحياة، وتحقيق التكيف اللازم مع ما يحيط بها من كائنات ومكونات أخرى وفق منهج الله سبحانه»[4].

والله سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم، وصوره في أحسن صورة، وخلقه فسواه فعدله، وجعل له السمع والبصر والفؤاد. كل ذلك ليدلنا على أهمية البدن والجسم للإنسان. يقول العلامة السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ

قادري الأهدل، ص٨٥.

(١) من أساليب التربية في القرآن الكريم، زينب بشارة يوسف، ص ٢١.

(٢) الكشاف، ١/ ٣٣١.

(٣) من أساليب التربية في القرآن الكريم، زينب بشارة يوسف، ص ٢١.

(٤) مقومات التربية الجسمية في الإسلام، صالح بن علي أبو عراد الشهري، ص ٥٠.

﴿أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾[التين:٤].

أي: «تام الخلق، مستقيمًا، معتدل القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهرًا وباطنًا شيء»[١]. والقرآن كلام الله سبحانه جاء لتربية الإنسان، عقله وقلبه وروحه وبدنه.

ومن خلال تتبعنا للآيات القرآنية التي تهتم بجسم الإنسان وجدنا ملامح أساسية للتربية البدنية أو الجسمية في القرآن. ومن أبرز تلك الملامح:

من حق الطفل أن يرضع رضاعة طبيعية مدة عامين كاملين، حتى ينشأ نشأة سليمة، قال تعالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾[البقرة:٢٣٣].

تناول الحلال من الأطعمة الطيبة لإشباع حاجات الجسم، والبعد عن الحرام. قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾[المائدة:٨٨].

يقول السعدي: «كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم، بما يسره من الأسباب، إذا كان حلالًا لا سرقةً ولا غصبًا ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق، وكان أيضًا طيبًا، وهو الذي لا خبث فيه، فخرج بذلك الخبيث من السباع والخبائث»[٢].

وحفاظًا على سلامة الجسم، يجب الابتعاد عن أكل الميتة ولحم الخنزير وكل ما يضر الجسم أكله، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ﴾[المائدة:٣].

قال سيد قطب: «وسواء وصل العلم البشري إلى حكمة هذا التحريم أم لم يصل، فقد قرر العلم الإلهي أن هذه المطاعم ليست طيبة وهذا وحده يكفي. فالله لا يحرم إلا الخبائث. وإلا ما يؤذي الحياة البشرية في جانب من جوانبها. سواء علم الناس بهذا الأذى أو جهلوه»[٣].

وإشباع الحاجة الجنسية بالطريقة الشرعية كما أمر الله تعالى والبعد عن اللذة المحرمة.

قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾[الروم:٢١].

الاهتمام بممارسة التدريبات الرياضية التي تقوي الجسم، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال:٦٠].

الاهتمام بالرعاية الصحية والنظافة في المأكل والمشرب والملبس، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٢٩.
(٢) المصدر السابق ص ٢٤٢.
(٣) في ظلال القرآن، ٢/ ٨٤٠.

خصائص التربية في القرآن

أولًا: الربانية:

من أهم خصائص التربية في القرآن الكريم: الربانية. فالإنسان من خلق الله سبحانه، وليس هناك أعلم من الله عزوجل به.

قيل في نسبتها أقوال كثيرة ذكرها الراغب الأصفهاني،منها: «إنه منسوب إلى الربان، وقيل: منسوب إلى الرب الذي هو المصدر، وهو الذي يرب العلم كالحكيم، وقيل: منسوب إلى الرب أي: الله سبحانه وتعالى»[1]. والمعنى المراد هنا: الإنتساب إلى الرب، أي: الله سبحانه، ويطلق على الإنسان أنه رباني إذا كان وثيق الصلة بالله عالمًا بدينه وكتابه، معلمًا له. وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[آل عمران:٧٩].

قال ابن كثير في تفسير الآية: «ولكن يقول الرسول للناس: كونوا ربانيين. قال ابن عباس وأبو رزين وغير واحد، أي: حكماء علماء حلماء. وقال الحسن وغير واحد: فقهاء، وكذا روي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة، وعطاء الخراساني، وعطية العوفي، والربيع بن أنس. وعن الحسن أيضًا: يعني: أهل عبادة وأهل تقوى»[2].

معنى الربانية في التربية:

يراد بالربانية أمران:

- **ربانية الغاية والوجهة.**

فالتربية القرآنية «ربانية في غايتها تهدف إلى تربية الإنسان المسلم الذي يحسن صلته بربه، فيعيش في سعادة ورضا تام، يبعده عن الصراعات النفسية والفكرية، فيعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا»[3].

- **ربانية المصدر والمنهج.**

فالقرآن الكريم هو المصدر الرئيسي للتربية القرآنية، تستمد منها أصولها وتوجيهاتها.

«وأساس التربية الربانية أنها تنزيل من الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل:٨٩].

فهي تقوم على أسس ربانية، فتأتي مبرأة من كل عيب وقصور»[4].

ومن معاني الربانية في التربية: تربية الإنسان على التحرر من الأهواء والأشخاص وعدم الخضوع والإنقياد

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص ١٨٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٦٦.

(٣) فصول في تدريس التربية الإسلامية، حسن جعفر الخليفة وكمال الدين محمد، ص ٦.

(٤) المصدر السابق.

إلا لله وحده، انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢].

يقول السعدي: «من أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله. وقوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾أي: ما آتيه في حياتي، وما يجريه الله علي، وما يقدر علي في مماتي، الجميع ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير، وليس هذا الإخلاص لله ابتداعًا مني، وبدعًا أتيته من تلقاء نفسي، بل ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أمرًا حتمًا، لا أخرج من التبعة إلا بامتثاله ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة»[١].

ثانيًا: التدرج:

التدرج سنة كونية ابتداءً في إنشاء هذا الكون؛ فالله سبحانه لم ينشأ الكون دفعة واحدة مع القدرة عليه، بل خلق السماوات والأرض في ستة أيام.

ويعرف المختصون التدرج في التربية بأنه: «الارتقاء التصاعدي في إكساب الفرد معالي الأمور»[٢]. أو «البدء بالسهل ثم الصعب والانتقال في التعلم من البسيط إلى المعقد مراعاة للفروق الفردية بين المتعلمين، وللقدرة العقلية على الفهم والاستيعاب، حيث إن فروقًا كثيرة بين الناس في استعداداتهم وقدراتهم النفسية العقلية»[٣].

والتدرج في التربية أسلوب يدلّ على حكمة صاحبه، وقدرته على التلطف في مخاطبة العقول والأفهام، فينتقل من فكرة إلى فكرة، معتمدًا على المحاكمة العقلية، والحجة المقنعة، والبرهان الواضح.

التدرج في التربية في القرآن الكريم:

نزل القران الكريم منجمًا رحمة للمؤمنين حتى يمكنهم من حفظه وتلاوته وفهمه وإدراك الأمور ويكون ذلك عونًا على ثباته في أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢].

يقول السعدي حول التدرج المشار إليه في الآية الكريمة: «كلما نزل عليه شيء من القرآن إزداد طمأنينة وثباتًا وخصوصًا عند ورود أسباب القلق فإن نزول القرآن عند حدوث السبب يكون له موقع عظيم وتثبيت كثير أبلغ مما لو كان نازلًا قبل ذلك، ثم تذكره عند حلول سببه»[٤].

والتدرج مظهر من مظاهر التبشير

(١) تيسير الكريم الرحمن، ١/ ٢٨٢.
(٢) أصول التربية الإسلامية، خالد الحازمي، ص ٢٧٣.
(٣) منهاج التربية الاسلامية في بناء الشخصية، أحمد الغامدي، ص٤٢٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ١/ ٥٨٢.

والتيسير المذكور في كثير من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

ونزول القرآن الكريم منجمًا حوى عدة حكم تربوية، ذكرها الله سبحانه في الآية الكريمة. ومن هذه الحكم:

الحكمة الأولى: تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

قال القاسمي: «أي: نقوّيه به على القيام بأعباء الرسالة، والنهوض لنشر الحق بين قادة الجهالة. فإن ما يتواتر إنزاله لذلك، أبعث للهمة وأثبت للعزيمة وأنهض للدعوة، من نزوله مرة واحدة»[(١)].

الحكمة الثانية: التدرج في تربية هذه الأمة، وتستمد هذه الحكمة من قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ حيث فسر ذلك سيد قطب بقوله: «الترتيل هنا هو: التتابع والتوالي، وفق حكمة الله وعلمه بحاجات تلك القلوب وإستعدادها للتلقي»[(٢)].

فلو جاءتهم جملة واحدة لثقلت عليهم؛ لأنه من العسير أن يتحول أمة بين ليلة وضحاها إلى حياة أخرى مختلفة تمامًا عن التي إعتادوها.

الحكمة الثالثة: مراعاة مناسبات الأحداث؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣].

والمتأمل للقرآن الكريم يجد جوانب من التدرج، نذكر منها:

أولًا: التدرج في الحفظ والفهم.

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢].

ثانيًا: التدرج في انتزاع الفاسد وتثبيت الصحيح من العقائد والعبادات.

ومن العادات التي علاجها بالقطع الحاسم ما يلي:

- الشرك بكل عاداته وتصوراته من عبادة للاوثان واجتماع حولها وأداء لمراسم معينة من أجلها.
- عادة وأد البنات، لم يكن يمكن مهادنتها وهي تقوم على أساس غير إيماني ولا إنساني.
- العادات النفسية من كذب وغيبة ونميمة وغمز ولمز وكبر وعنجهية..إلخ، كان لابد من مواجهتها مواجهة حاسمة[(٣)].

ثالثا: التدرج في انتزاع المنكر من العادات والأخلاق وتثبيت المعروف.

(١) محاسن التأويل، ٧/ ٤٢٧.
(٢) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٥٦٣.
(٣) انظر: منهج التربية الإسلامية، محمد قطب ١/ ٢٠١.

يقول الدكتور محمد قطب في كتابه القيم (منهج التربية الاسلامية):

«وقد بدأ الاسلام -وهو ينشأ في الجاهلية- بإزالة العادات السيئة التي وجدها سائدة في البيئة العربية، واتخذ لذلك إحدى وسيلتين: إما القطع الحاسم، وإما التدرج البطيء، حسب نوع العادة التي يعالجها، وطريقة تمكنها في النفس»(١).

والقرآن الكريم زاخر بالأمثلة على الأخذ بمبدأ التدرج، منها:

التدرج في تحريم الخمر، والتدرج في تحريم الربا، والتدرج في تعليم الولد الآداب الإجتماعية.

ثالثًا: الشمول والتكامل:

الشمول مصدر شمل، ومعناه العموم، قال ابن فارس: «شمل: شملهم الأمر يشملهم، إذا عمهم»(٢).

والعموم والإتمام وعدم الاحتياج إلى غيره، من أهم خصائص التربية في القرآن الكريم.

فالشمول في التربية القرآنية تعني: أنها تتناول كل جوانب الحياة، وتهتم بالإنسان ككل، روحه وجسمه وعقله ونفسه. وأنها تشمل كل الأزمنة والأمكنة. فالشمول في التربية تعني:

١. أنها تربية شاملة لجميع جوانب الشخصية الإنسانية للمسلم (الجسم، العقل، الروح).

قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨].

يقول الرازي: «قوله ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ يجب أن يكون مخصوصًا ببيان الأشياء التي يجب معرفتها»(٣). فالقرآن الكريم عالج كل جوانب الشخصية الإنسانية فاهتم بالجسم ومتطلباته وبالروح وبالعقل. وفي مبحث (مجالات التربية) فصلنا القول في ذلك.

٢. إنها شاملة لجميع فئات المجتمع.

فلا تقتصرعلى فئة دون أخرى. فالقرآن الكريم اهتم بالطفل كاهتمامه بالشاب، واهتم كذلك بالشيوخ والعجائز. تربيته شملت المرأة كالرجل. فحفاظًا على سلامة الأم أثناء الحمل، دعا لتحقيق حاجاتها ومعاملتها بأحسن ما يمكن.

قال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٦].

٣. إنها تربية شاملة لكل الأزمنة والأمكنة.

فالقرآن الكريم ربى بتوجيهاته الجيل الذي عاش في زمن النبوة وما بعدها،

(١) المصدر السابق.
(٢) مجمل اللغة، ١/ ٥١٢.
(٣) مفاتيح الغيب، ١٢/ ٥٢٦.

ويربي كذلك الإنسان في عصرنا الحاضر والمستقبل. وتنبع شمولية التربية القرآنية من قدرة الواضع لها على إدراك ومعرفة صغائر الأمور وكبائرها، فلم تتخلف قابلية المنهج في التطبيق على زمان دون آخر.

والتربية القرآنية إلى جانب شمولها، متكاملة.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: «فليست التربية مقصورة الغاية على جانب واحد من جوانب الإنسان، التي يهتم بكل واحدة منها أهلها والمختصون بها. إنها لا تضع كل إهتماماتها في الناحية الروحية أو الخلقية التي يهتم بها الفلاسفة والعقليون. ولا تجعل أكبر همها في التدريب والجندية التي يحرص عليها العسكريون. ولا تحصر نشاطها في التربية الإجتماعية كما يصنع المصلحون الإجتماعيون. إنها في الواقع تهتم بكل هذه الجوانب وتحرص على كل هذه الألوان من التربية»[(١)].

والقرآن الكريم يؤكد على هذا التكامل من خلال استنكاره على المنكرين له عدم تدبر تشريعاته وأحكامه وأوامره. ولو تدبروه لوجدوه متكاملًا يكمل بعضه بعضًا.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

(١) التربية الإسلامية، ص ٣٢.

يقول سيد قطب: «والتناسق المطلق الشامل الكامل هو الظاهرة التي لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبدًا.. ومستوياتها ومجالاتها، مما تختلف العقول والأجيال في إدراك مداها. ولكن كل عقل وكل جيل يجد منها -بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه- ما يملك إدراكه، في محيط يتكيف بمدى القدرة والثقافة والتجربة والتقوى. ومن ثم فإن كل أحد، وكل جيل، مخاطب بهذه الآية. ومستطيع -عند التدبر وفق منهج مستقيم- أن يدرك من هذه الظاهرة -ظاهرة عدم الاختلاف، أو ظاهرة التناسق- ما تهيئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه. وتلك الطائفة في ذلك الجيل كانت تخاطب بشيء تدركه، وتملك التحقق منه بإدراكها في حدودها الخاصة»[(٢)].

رابعًا: الواقعية:

الواقعية تعني: «مراعاة الطاقة المتوسطة المقدورة لجماهير الناس والإعتراف بالضعف البشري، وبالدوافع البشرية، وبالحاجات الإنسانية؛ نفسية أو مادية»[(٣)].

والمتأمل للتوجيهات التربوية للقرآن يجد أنها توافق الفطرة وتنسجم مع الواقع؛ لأن الله تعالى هو صاحب القرآن وهو

(٢) في ظلال القرآن، ٢/ ٧٢١.
(٣) الوسطية في القرآن الكريم، علي الصلابي، ٣/ ٨٥.

خالق الإنسان وهو أعلم بمطالبه وحاجاته وطاقاته. قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الملك:١٤].

قال الطبري: «﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ الرب جل ثناؤه ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ من خلقه؟ يقول: كيف يخفي عليه خلقه الذي خلق ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ بعباده ﴿الْخَبِيرُ﴾ بهم وبأعمالهم»[1].

وطاقة الإنسان محدودة، فلم يكلفه الله سبحانه إلا في حدود طاقته. قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦]. وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:٢٦].

والمتأمل في أوامر ونواهي وتوجيهات القرآن الكريم يرى بوضوح هذه الخاصية.

والإنسان ضعيف بطبعه،والله عزوجل يعرف ضعفه إزاء المغريات.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾[آل عمران:١٤].

وللتغلب على هذا الضعف جعل محفزات ومرغبات للعمل الصالح، ومرهبات ومنفرات عن العمل السيء، وهو ما يعرف بمبدأ (الثواب والعقاب).

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:١٣٣].

يقول العلامة السعدي: «أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرته وإدراك جنته التي عرضها السماوات والأرض، فكيف بطولها، التي أعدها الله للمتقين، فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها، ثم وصف المتقين وأعمالهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾[آل عمران:١٣٤].

أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئًا ولو قل»[2].

ومظاهر الواقعية في القرآن الكريم كثيرة، منها: اليسر والتيسير، ورفع الحرج، وتحريم الخبائث، وغيرها من الأمور[3].

خامسًا: الوسطية:

التربية القرآنية تربية متوازنة، حيث يتميز الإسلام بالوسطية، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

«فالتربية الإسلامية توازن بين الأشياء، وتميل إلى أن تكون هناك نقطة توازن بين جوانب الحياة المختلفة، فهي توازن مثلًا

---

(١) جامع البيان، ٢٢/ ٥١١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ١/ ١٤٨.

(٣) انظر: فصول في تدريس التربية الإسلامية، حسن جعفر الخليفة و كمال الدين محمد هاشم، ص ٧-٨.

بين النظرية والتطبيق في التربية، وبين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، كما توازن بين الحياة المادية والحياة الروحية.

قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص:٧٧][1].

فالقرآن الكريم لا يرضى للمسلم أن يهمل الحياة الدنيا بحجة العمل للأخرى.

قال العلامة الطاهر بن عاشور في تفسير الآية: «اطلب بكنوزك أسباب حصول الثواب بالإنفاق منها في سبيل الله وما أوجبه ورغب فيه من القربان ووجوه البر ولا تنس نصيبك من الدنيا»[2].

ما أجمل قول سيد قطب حين يقول: «وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم، المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة. ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة، بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفا، كي لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها»[3].

(١) فصول في تدريس التربية الإسلامية، حسن جعفر الخليفة وكمال الدين محمد هاشم، ص٧.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٠/ ١٧٨.

(٣) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٧١١.

مقاصد التربية في القرآن

التربية في القرآن الكريم تسعى إلى تحقيق غايات ومصالح ومقاصد شتى، نذكر فيما يلي أبرزها:

أولًا: المحافظة على الفطرة من الانحراف:

قال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)**[4].

وفي معنى الفطرة ذكر العلماء عدة أقوال، منها:

١. إن فطرة الله هي ما ركز في الطفل من قوة العقل.

٢. إن الفطرة هي الخلقة التي يخلق عليها المولود من المعرفة بربه. وأنكر الذين قالوا هذا القول أن يكون المولود يفطر على كفر أو إيمان، وإنما يولد على السلامة في الأغلب خلقًا وطبعًا ومنية ليس فيها إيمان ولا كفر.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم ١٣٨٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٣. إن الفطرة هي الإسلام. قال ابن عبدالبر: هو المعروف عند السلف. وأجمع أهل العلم بالتأويل أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]: الإسلام. وقد أمر الله نبيه بلزومها، فعلم أنها الإسلام.

٤. البداءة التي خلقهم عليها، أي: على ما فطر الله تعالى عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ.

٥. ما يقلب الله تعالى قلوب الخلق بما يريد ويشاء، يقول عبدالله بن المبارك: إن المراد أنه يولد على ما يصير إليه من شقاوة أو سعادة. فمن علم الله أنه يصير مسلمًا، ولد على الإسلام ومن علم الله أنه يصير كافرًا ولد على الكفر[(١)].

موقف التربية من الفطرة:

من معاني الفطرة الإسلام، وهو يحتاج إلى تنمية ورعاية ومعرفة بأحكام الشريعة. فوظيفة التربية تجاه الفطرة هي تنمية هذه المعارف وتبصيره بأحكام الشريعة، حتى تبقى الفطرة نقية بيضاء.

ومن معانيها السلامة من العيوب، والتربية يبقي الطفل سليمًا من الإنحراف.

واستخلص سيد قطب من الآية الكريمة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

أن القرآن يربط بين فطرة النفس البشرية وبين طبيعة الإسلام، وأن الله الذي خلق القلب البشري هو الذي أنزل عليه هذا الدين، ليحكمه ويصرفه ويطب له من المرض ويقومه من الإنحراف، وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير. والفطرة ثابتة والدين ثابت ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم يردها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع فطرة البشر وفطرة الوجود[(٢)].

ثانيًا: تربية العقل على التدبر والتفكر:

في مطلب التربية العقلية من هذا البحث ذكرنا اهتمام القرآن الكريم بالعقل وأهم الوسائل التي يتبعها للارتقاء بالعقل البشري.

فقد شرف الله تعالى العقل بأن خاطبه وجعله مناط التكليف، وحثه على البحث والنظر والتفكير والتدبر، ووجه انتباهه إلى خلق السماوات والأرض وما فيهما من نجوم وأفلاك وبحار وأنهار وما فيهما من عجائب المخلوقات، وسنن الكون وأنظمة الوجود.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) انظر: نظرات في التربية الإسلامية، عزالدين التميمي وبدر إسماعيل سمرين، ص٨٩.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، ٦/ ٤٥٤.

﴿وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس:١٠١].

يقول أبو حيان الأندلسي في تفسيره لهذه الآية: «أمر تعالى بالفكر فيما أودعه تعالى في السموات والأرض؛ إذ السبيل إلى معرفته تعالى هو بالتفكر في مصنوعاته، ففي العالم العلوي في حركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها والكواكب، وما يختص بذلك من المنافع والفوائد، وفي العالم السفلي في أحوال العناصر والمعادن والنبات والحيوان، وخصوصًا حال الإنسان. وكثيرًا ما ذكر الله تعالى في كتابه الحض على الفكر في مخلوقاته تعالى وقال: ماذا في السموات والأرض تنبيهًا على القاعدة الكلية، والعاقل يتنبه لتفاصيلها وأقسامها»(١).

فالعقل هو السبيل الذي يوصلنا إلى وجود الله تعالى وإلى قدرته تعالى.

وقد ذم الله تعالى الذين لا يتفكرون بقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥].

يقول أبو حيان: «إنهم لفرط كفرهم يمرون على الآيات التي تكون سببًا للإيمان ولا تؤثر فيهم، وأن تلك الآيات هي في العالم العلوي وفي العالم السفلي»(٢).

(١) البحر المحيط، ٦/ ١٠٩.
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٩١.

ويشير القرطبي إلى القراءات الواردة في الآية، «وقرأ عكرمة وعمروبن فائد (والأرض) رفعًا ابتداء، وخبره ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ وقرأ السدي (والأرض) نصبًا بإضمار فعل، والوقف على هاتين القراءتين على: السماوات وقرأ ابن مسعود: (يمشون عليها)»(٣).

تهدف التربية القرآنية إلى ترقية عقل الإنسان من خلال تأهيله للإيمان بالله كما تؤهله للبحث عن حقائق الأشياء ومعرفة مكانه من هذا الكون، وترتفع به لإدراك الحق.

ومن الأدلة على أن الهدف من التربية القرآنية تربية العقل:

ما ورد في القرآن الكريم من آيات تعلي من شأن العقلاء حين مدحت أولي الألباب، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[آل عمران:١٩١].

إن آيات القرآن تحمل بشدة على الذين لا يرتقون بعقولهم وتفكيرهم، بل يبقون في مراتب هابطة من التفكير، وقد وصفهم الله تعالى بالأنعام.

إن الإيمان بالله ينبع من احترام العقل وحب العلم وتحري الحقيقة: فالله سبحانه

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ٢٧٢.

أعطى الإنسان أكبر منحة وأكبر ميزة ألا وهي العقل. بالعقل يصبح الإنسان إنسانًا[1].

وقد زخرت الآيات القرآنية ببيان إعمال العقل في التفكير، لتعليمنا الدقة وكيفة الاستنتاج والاستدلال والاستنباط، وهذه العمليات العقلية معنية بتربية العقل والذهن، فالقرآن يربي الإنسان على إعمال عقله في التفكير في مخلوقات الله عزوجل، وذلك ليعلمه الدقة وكيفية الاستدلال والاستنتاج، وهذا هو المعني في تربية العقل والذهن ومطالبته بالتدبر والتفكير والاستنتاج القياسي والاستقرار.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد:٢٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الزخرف:٣].

«والقرآن يربي الفكر على عدم قبول شيء بغير حجة أو برهان أو علم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[الحج:٨-٩]»[2].

ثالثًا: إعداد الإنسان الصالح:

تهدف التربية القرآنية إلى إعداد الإنسان الصالح الفاضل ذي الخلق القويم والعزيمة القوية، القادر على التلاؤم مع حياة المجتمع الذي ينتمي إليه وممارسة دوره النافع فيه، وهو الذي يكون بحق خليفة الله في هذه الأرض؛ لذا ينبغي أن يكون هذا الإعداد شاملًا لجوانب حياته كافة الخاصة والعامة في الدنيا والاخرة.

يقول الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧][3].

وهذا الإنسان كرمه الله تعالى وفضله على غيره بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]

وهذا الإنسان سخر الله له جميع الكائنات.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الجاثية:١٣].

والإنسان المفضل على غيره من الكائنات، له دور مهم في الحياة، وإنه ذو

(١) انظر: نظرات في التربية الاسلامية، عزالدين التميمي وبدر اسماعيل سمرين، ص ٦٨.

(٢) التربية الإسلامية وأثرها في الفرد والمجتمع، محمد خلف عساف، ص١٩٢.

(٣) انظر: التربية وأساليبها في التشريع الإسلامي، سناء هدلة، ص ٢٠٢٦.

فطرة خيرة.

وقد دعا القرآن الكريم إلى المحافظة على هذه الفطرة وتربيتها، وذلك من خلال: تنمية جسمه وبدنه، من خلال التربية البدنية، وتثقيف عقله وتسديد أفكاره من خلال التربية العقلية، وتوجيه مستمر لأعماله في الحياة، من خلال التربية الأخلاقية.

وقد حدد الله تعالى معيار الإنسان الصالح في سورة العصر، وجمعه في نقاط أربعة:

١. الإيمان.
٢. العمل الصالح.
٣. التواصي بالحق.
٤. التواصي بالصبر.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر:١-٣].

من أساليب التربية في القرآن

أولًا: القدوة الحسنة:

المراد من القدوة كما يبينه إسماعيل حقي: «هي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره؛ إن حسنًا، وإن قبيحًا، وإن سارًّا، وإن ضارًّا»[(١)].

فالقدوة من حيث هي متابعة من المقتدي للمقتدى به في فعله، ويرادفها في المعنى: الأسوة، والتقليد، والمحاكاة، والتشبه.

والقدوة هي أنجح الوسائل للتربية على الإطلاق وأجداها وأنفعها: لأن من السهل تأليف كتاب أو جملة من الكتب تفضل حبرًا على الورق، ما لم يترجم إلى أفعال وتصرفات ومشاعر.

يقول الأديب المبدع مصطفى صادق الرافعي: «لو أقام الناس عشر سنين يتناظرون في معنى الفضائل ووضعوا في ذلك مائة كتاب ثم رأوا رجلًا فاضلًا وخالطوه وصاحبوه لكان الرجل وحده أكبر فائدة من كل المناظرة وأدل على الفضيلة من ألف كتاب. ولهذا أرسل الله رسولًا مع كل كتاب»[(٢)].

والقرآن الكريم أبدى اهتمامًا بالقدوة الحسنة مبينًا تأثيرها في الإيمان، وأمر

(١) روح البيان، ٩/ ٣٨٥.
(٢) وحي القلم، ٣/ ٣٨.

المسلمين بالتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١].

قال البيضاوي: «قد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ خصلة حسنة من حقها أن يؤتسى بها كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد، أو هو في نفسه قدوة يحسن التأسي به كقولك في البيضة عشرون منًّا حديدًا، أي: هي في نفسها هذا القدر من الحديد، وقرأ عاصم بضم الهمزة، وهو لغة فيه»[(١)].

ويتجلى هذا الأسلوب في القرآن الكريم بإبراز النماذج الحسنة في التأريخ لكي يقتدي بهم المؤمنون، وكذلك تسليط الضوء على النماذج السيئة من أفراد وجماعات للتحذير منهم ومن أفعالهم.

وهذه القدوة ليست محصورة في زمن النبوة، بل هي باقية ما بقيت السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء:١٠٧].

«إن شخصية الرسول هي القدوة الحسنة الدائمة المتجددة على مر الأجيال والعصور. تظل حيويتها دافعة شاخصة ولا تتحول إلى خيال مجرد. حقًّا كان رسول الله بشخصيته وشمائله وسلوكه وتعامله مع الناس ترجمة عملية بشرية حية لحقائق القرآن وتعاليمه

(١) أنوار التنزيل، ٤/ ٢٢٨.

وأدابه وتشريعاته، ولما فيه من أسس تربوية إسلامية وأساليب تربوية قرآنية»[(٢)].

ثانيًا: الحوار:

الحوار هو مبادلة الكلام بين شخصين أو أكثر في صورة سؤال وجواب أو غيره، دون وجود دليل على خصومة بينهما.

وهناك مصطلحات قريبة من معنى الحوار مثل: الجدل والجدال والمجادلة. وفي معنى هذه المصطلحات.

يقول النووي: «الجدل والجدال والمجادلة مقابلة الحجة بالحجة، وتكون بحق وباطل، وأصله الخصومة الشديدة، ويسمى جدلًا؛ لأن كل واحد يحكم خصومته وحجته إحكامًا بليغًا على قدر طاقته تشبها بجدل الحبل، وهو إحكام فتله»[(٣)].

ولكن يبدو أن هناك فروقًا بين هذه المصطلحات، فالجدال يفيد معنى الصراع، لكن الحوار تتسع للصراع ولغيره[(٤)].

الحوار أوسع مدلولًا من الجدال الذي يفيد معنى الصراع بينما تتسع كلمة الحوار للصراع ولغيره مما يراد منه إيضاح الفكرة. فحيثما وجد الجدال وجد الحوار، وليس

(٢) منهج القرآن الكريم في تربية الإنسان، رؤية منظومية، مصطفى محمود حوامدة، ص ٦٩.
(٣) تهذيب الاسماء واللغات، ٣/ ٤٥.
(٤) انظر: منهجية الحوار في القرآن الكريم، محمد عبداللطيف ص ١٨٤.

كلما وجد الحوار وجد الجدال، لأن الجدال ومعه المحاجة يعطيان الحوار قوة العناد للفكرة والإصرار عليها.

وقد وردت مادة حوار في ثلاثة مواضع:

قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف:٣٤].

قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾[الكهف:٣٧].

والحوار هنا وما قبله، يدور بين صاحبين: أحدهما: غني طاغ، والآخر: فقير صابر مؤمن.

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[المجادلة:١].

يقول شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي حول تفسير هذه الآية: «وقوله- سبحانه-: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ جملة حالية، والتحاور: مراجعة الكلام من الجانبين. يقال: حاور فلان فلانا في الكلام إذا راجعه فيما يقوله، أي: والحال أن اللّه تعالى يسمع ما يدور بينك- أيها الرسول الكريم- وبين تلك المرأة، من مراجعة في الكلام، ومن أخذ ورد في شأن قضيتها، والمقصود بذلك: بيان الاعتناء بشأن هذا التحاور، والتنويه بأهميته، وأنه تعالى قد تكرم وتفضل بإيجاد التشريع الحكيم لحل هذه القضية. وعبر- سبحانه- بصيغة المضارع، لزيادة التنويه بشأن ذلك التحاور، واستحضار صورته في ذهن السامع، ليزداد عظةً واعتبارًا»(١).

والقرآن الكريم استخدم في آياته ولأغراض تربوية عدة أسلوب الحوار والجدال، منها: تنبيه الغافل أو إرشاد لمسترشد، أو إفحام لمعاند.

وفي القرآن الكريم كثير من نماذج الحوار في قصص الأنبياء مع أقوامهم، وقصص الأقوام السابقين، والحوار بين الله سبحانه وإبليس، والحوار مع الملائكة حول خلق آدم والسجود له، وكل ذلك يدلنا على أهمية الحوار واستخدامه في الحياة.

ثالثًا: القصص:

اهتم القرآن الكريم بالقصة، ونظرًا للأثر الكبير للقصة على أفهام سامعيها، وكونها وسيلة ناجحة وتربوية، وللميل الفطري للقصة لما لها من تأثير كبير، وذكرها بأساليب متنوعة مستخدمًا كل أنواعها.

يقول محمد قطب: «يدرك الاسلام الميل الفطري إلى القصة ويدرك ما لها من تأثير ساحر على القلوب فيستغلها لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم.. وهو يستخدم كل أنواع القصة»(٢).

(١) الوسيط ١٤/ ٢٤٥.
(٢) منهج التربية الإسلامية، ١/ ١٩٣.

وكون القرآن الكريم كتاب هداية، فقد استخدم أسلوب القصة لهداية الناس وتحذيرهم وتنبيههم من الغفلة ومن مخاطر الدنيا وويلاتها ومصائبها. وأغلب القصص القرآنية من حوادث الغيب المتعلق بالماضي، والمؤمن عليه الإيمان بالغيب. فالقصة تربينا على الإيمان بها. قال تعالى معلقًا على قصة كفالة زكريا لمريم: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[آل عمران:٤٤].

قال الرازي: «كان معلومًا عندهم علمًا يقينيًّا أنه ليس من أهل السماع والقراءة، وكانوا منكرين للوحي، فلم يبق إلا المشاهدة، وهي وإن كانت في غاية الاستبعاد إلا أنها نفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنه لا سماع ولا قراءة، ونظيره ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص:٤٤].

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:٤٦].

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف:١٠٢].

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]»[(١)].

وقد أبرز القرآن الكريم أهمية القصص الإيجابية، وتأثيرها النفسي والأخلاقي في التربية وتهذيب النفس البشرية.

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف:٣].

فقد سمى الله سبحانه قصة يوسف بأحسن القصص لما اشتملت عليه من مواعظ ودروس وعبر في كيفية التعامل الأب مع الأولاد، ومواجهة النفس والشيطان وغيره من العبر.

يقول السعدي: «﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وذلك لصدقها وسلاسة عبارتها ورونق معانيها، ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ أي: بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه إليك، وفضلناك به على سائر الأنبياء، وذاك محض منة من الله وإحسان»[(٢)].

والقرآن مليء بالقصص الهادفة كقصة يوسف ونوح وإبراهيم وأصحاب الكهف ومريم وغيرها. وقد ركزت القصة في القرآن

(١) مفاتيح الغيب، ٨/ ٢١٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ١/ ٣٩٣.

الكريم على الجوانب الروحية والخلقية التي تعمل على تزكية الروح والنفس، وترقية الوجدان وترسيخ الفضائل، وهي تهدف أيضا إلى تثبيت الفؤاد والتفكر والإعتبار[1].

يقول الشيخ محمد عبدة: «إن قصص الأنبياء والأمم الواردة في القرآن الكريم لم يقصد بها سرد الوقائع مرتبة حسب أزمنتها، وإنما المراد بها: الاعتبار والعظة ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب لها وبيان النقم بعللها لتتقي من وجهتها، ومتى ما كان هذا هو الغرض من السياق، فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع في الذكر على الوجه الذي يكون أبلغ في التربية وأدعى إلى التأثير»[2].

رابعًا: الترغيب والترهيب:

آيات الترغيب والترهيب في القرآن الكريم أكثر من أن تحصى.

فقد استخدم القرآن الكريم لكل عمل صالح ترغيبًا فيه بيان ثوابه، وعلى فعل كل سيئة ترهيبًا يتضمن بيان عقابه، سواء كان العقاب في الدنيا أو في الآخرة.

ففي الترغيب في العمل الصالح، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

ما أجمل قول سيد قطب في تفسير الآية حين يقول: «وبمناسبة الحساب والجزاء قرر الله سبحانه ما كتبه على نفسه من الرحمة في حساب عباده، فجعل لمن جاء بالحسنة وهو مؤمن- فليس مع الكفر من حسنة!- فله عشر أمثالها. ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، لا يظلم ربك أحدًا ولا يبخسه حقه»[3].

وفي الترهيب من ترك الصلاة، قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾[الماعون: ١-٧].

قال سيد قطب: «إنه دعاء أو وعيد بالهلاك للمصلين ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾، فمن هم هؤلاء الذين هم عن صلاتهم ساهون!

إنهم ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾.

إنهم أولئك الذين يصلون، ولكنهم لا يقيمون الصلاة.

الذين يؤدون حركات الصلاة، وينطقون بأدعيتها، ولكن قلوبهم لا تعيش معها، ولا تعيش بها، وأرواحهم لا تستحضر حقيقة الصلاة وحقيقة ما فيها من قراءات ودعوات وتسبيحات. إنهم يصلون رياء للناس

(١) انظر: فصول في تدريس التربية الإسلامية. حسن جعفر الخليفة وكمال الدين محمد هاشم، ص ٣١.

(٢) طرق تعليم التربية الإسلامية، محمد عبدالقادر أحمد، ص٦٢ - ٦٣.

(٣) في ظلال القرآن، ٣/ ١٢٤٠.

لا إخلاصًا لله. ومن ثم هم ساهون عن صلاتهم وهم يؤدونها»[1].

خامسًا: ضرب الأمثال:

ضرب المثل من الأساليب التربوية الناجحة، فهو «يعتمد على تصوير المعاني وتحليلها بضرب الأمثلة والتشبيهات، وهذا الأسلوب له دور في التربية أبلغ أثرًا من مجرد التلقين المباشر، لأنه يثير عواطف المتلقي ويحرك مشاعره، ويجسد المعاني مما يجعله تسهل في الفهم وترسخ في الذهن»[2].

وقد أطلق علماء البلاغة على الأمثال بالمصطلح القرآني عبارة (التشبيه التمثيلي).

يقول محمد أبو زهرة: «يعرف علماء البلاغة التشبيه التمثيلي بأنه جعل أحد الشيئين في مقام الشيء الآخر لأمر مشترك بينهما، والأمثال القرآنية باب من أبواب التشبيه التمثيلي، وقد جعلها الله من ينابيع الاستدلال في القرآن»[3].

الأغراض التربوية للأمثال في القرآن الكريم:

١ . استخدام الأمثال لتقريب المعاني.

نزل القرآن الكريم بلغة العرب، ولكن ذكر مسائل صعبة الإدراك على الناس، فاحتاج إلى التوضيح لتقريب هذه المعاني إلى أذهان الناس. يقول الباحث يزيد الحمزاوي: «كانت أغلب الأمثال القرانية في العقائد والإيمانيات، أما المعاملات والسلوكيات فقد كثرت أمثالها في السنة النبوية، فالأمثال تلعب دورًا هامًا في تحويل الغيبيات إلى مشاهد حاضرة أمام العيان، حتى لا يشرد الخيال بعيدًا في إدراك الحقائق كما هي»[4].

٢ . ضرب المثل لإقناع المخاطب واستثارة تفكيره.

القرآن الكريم كتاب هداية للناس، عندما يريد استثارة التفكير للتأمل يستخدم لذلك الأمثال، «فالأمثال ساقها الله في القرآن للناس لتكشف الغامض أمامهم وتقنعهم بما يساق لهم من الدليل الواضح الناتج عن الموازنة الحسية، أو المعنوية الدقيقة التي لا تدع مجالًا للشك»[5].

ومن خلال التفكر في معنى المثل يصل الإنسان إلى معرفة الله بمعرفة آثاره الدالة عليه، فالعقلاء العالمون هم الذين يصلون ببصيرتهم إلى هذه المعرفة، عندئذ يخشونه حق خشيته ويتعظون بالحوادث

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٩٨٥.

(٢) فصول في تدريس التربية الإسلامية، حسن جعفر خليفة وكمال الدين محمد هاشم، ص٢٧.

(٣) القرآن المعجزة الكبرى، ص٢٦٠.

(٤) المدونات التربوية للأمثال القرآنية، ص٤٥-٤٦.

(٥) الأمثال في القرآن الكريم خصائصها التربوية وسماتها التربوية، سامي عطا حسن، ص ١٨.

والأمثال وينتفعون بما فيها من عبر وأحكام، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

ومن الأمثلة عليه قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢].

والنسيان من طبيعة الإنسان، والمثل يعمل على ترسيخ الأفكار في الذاكرة وصعوبة نسيانها. قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:٢٤].

٣. ضرب المثل للترغيب والترهيب.

المتأمل لآيات الترغيب والترهيب يجد في بعضها ضربًا للأمثال، وذلك لكي يتأكد وقوعه في القلب.

يقول الشيخ مناع القطان: «يضرب المثل في الترغيب في الممثل، حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس، ويضرب المثل للتنفير أو الترهيب ويكون الممثل به مما تكرهه النفوس»(١).

ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٦١].

٤. ضرب المثل لإبراز النموذج للإعتبار أو لإبراز القدوة.

استخدم معنى المثل لغرض إبراز نموذج ما، للاقتداء به أو للنفور منه في عدة آيات من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد:٣].

يقول سيد قطب: «وكذلك يضع لهم القواعد التي يقيسون إليها أنفسهم وأعمالهم. فيعلمون المثل الذي يتمون إليه ويقاسون عليه. ولا يحتارون في الوزن والقياس! ذلك الأصل الذي قررته الآية الأولى في السورة، يرتب عليه توجيه المؤمنين لقتال الكافرين. فهم على الحق الثابت الذي ينبغي أن يتقرر في الأرض، ويستعلي ويهيمن على أقدار الناس والحياة ليصل الناس بالحق وليقيم الحياة على أساسه. والذين كفروا على الباطل الذي ينبغي أن يبطل وتذهب آثاره من الحياة»(٢).

---

(١) مباحث في علوم القرآن، ص٢٨٨.

(٢) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٢٨١.

مما سبق عرفنا مدلول المثل وأهميته وتوظيف القرآن الكريم له بأساليب شتى لخدمة أغراض تربوية.

سادسًا: العبر والمواعظ:

اهتم القرآن الكريم بأسلوب الموعظة كعامل محفز وباعث على أعمال الخير:

يقول الدكتور عبدالله ناصح علوان عن هذا الأسلوب: «من أهم الأساليب التي يسلكها القرآن الكريم في نصائحه ومواعظه، وهي أساليب متنوعة لها إيحاءاتها المؤثرة وحساسياتها البالغة واهتزازاتها الضاربة على أوتار القلوب»[1]. وقد راعى القرآن الكريم في أسلوب الموعظة، عدة أمور منها:

١. أن تكون النصيحة بالسر؛ لأن تأثر الكلام والنصيحة بالسر أبلغ وأقوى. قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾[النساء:٦٣].

٢. أن تكون النصيحة بأحسن ما يمكن متخيرًا أحسن الألفاظ. قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[النحل:١٢٥].

٣. أن يكون الناصح من العاملين بالنصيحة قبل أن ينصح به غيره. يقول تعالى مذممًا أشخاصًا يقولون ما لا يفعلون: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤].

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، ٢/ ٣.

التربية بين القرآن والمناهج البشرية

بعد أن سلطنا الضوء على التربية القرآنية وعرفنا خصائصها ووسائلها، استكمالًا للفائدة نبحث عن نقاط الاختلاف والاتفاق بينها وبين التربية في المناهج البشرية قديمها وحديثها، وذلك من حيث النقاط التالية:

١ . المصدر.

فالتربية القرآنية مصدرها الله تعالى خالق الكون وخالق الإنسان، فهي بذلك مبرأة من كل عيب ونقصان يعتري المناهج التربوية البشرية. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

٢ . المبادئ العامة.

يتجلى المبدأ الواضح للتربية في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فالتربية القرآنية تعرف الإنسان بخالقه وتنظم العلاقة بينهما على أساس من ربانية الخالق وعبودية المخلوق. بينما التربيات والأفكار الأخرى تتخبط في أفكارها:

«مبدأ الفلسفة الطبيعية هو أن الطبيعة الذاتية هي التي ترعى وتهذب السلوك للأفراد، أما المثالية فأمنت بوجود أفكار عامة ثابتة مطلقة مستقلة من عالم الخبرات اليومية ومقرها العالم المثالي، والحقيقة النهائية توجد في عالم الأفكار أو عالم الحقيقة المطلقة، ومبدأ الواقعية هو أن الواقع يشمل الحقائق جميعها وهو عالم مستقر وثابت، في حين نظرت البراجماتية إلى أن العالم نسبي غير ثابت وفي حالة تغيير مستمر»[١].

٣ . النظرة إلى التربية.

تربية القرآن الكريم للإنسان تربية شاملة لروحه وعقله وجسده ونفسه، بحيث تخلق التوازن المسمى بالتكامل، بخلاف التربيات الأخرى:

تقول الدكتورة ليلى البيومي: «فالتربية اليونانية مثلًا قد اهتمت اهتمامًا بالغًا بالجانب العقلي للإنسان في الوقت الذي أهملت فيه بقية الجوانب الأخرى، في حين أن التربية الرومانية ركزت اهتمامها على الجانب الجسمي مقابل إهمال غيره من الجوانب. أما التربية المسيحية فقد عنيت كثيرًا بالجانب الروحي للإنسان على حساب غيره من الجوانب الأخرى، وهكذا»[٢].

فالتربية التي ركزت على القوة والجسم

---

(١) التربية من وجهة نظر الفلسفات الفكرية والتربية الإسلامية، المعتصم بالله الجوارنة، بحث منشور في موقع تربيتنا بتأريخ ١٤/ ١/ ١٤٣١هـ.

(٢) نموذج التميز بين التربية الإسلامية والغربية، ليلى البيومي، مقال منشور على موقع المسلم بتأريخ ٢٠/ ٧/ ١٤٢٧هـ.

وحدها، ولم توازن بين طاقة الجسم وطاقة العقل وطاقة الروح، كانت وبالًا على قومها وشرًّا أصاب غيرها [(١)].

٤. النظرة إلى القيم.

المقصود بالقيم والمبادىء الإسلامية: «توجيهات الإسلام في مختلف شؤون الحياة، والتي تقوم أساسًا على التعامل مع الفرد والجماعة والجماد والحيوان. فمن ذلك: الإخلاص والإتقان في العمل، الصدق، الأمانة، الشفقة، الرحمة، الرفق» [(٢)]. فالقيم القرآنية لا تتغير بتغير الزمان والمكان: فقيم الصدق والأمانة والوفاء ثابتة لا تتغير ولا تتبدل.

بينما ترى الفلسفة الطبيعية أن القيم متغيرة، والفلسفة المثالية ترى أن القيم لا تتغير، والفلسفة البراجماتية ترى أن قيم الحق تتغير بتغير الزمان والمكان [(٣)].

٥. أساليب التربية.

رأينا في مبحث أساليب التربية في القرآن تنوعًا وتجددًا في الأساليب من التربية بالقدوة إلى أسلوب القصة والعظة والترغيب والترهيب. وهو ما يميز التربية القرآنية عن غيرها من التربيات. فالأساليب والوسائل التربوية التي أشار إليها القرآن الكريم متعددة ومتنوعة وترك اختيار الأسلوب المناسب لتنفيذها لحكمة المربي وخبرته بما يتوافق والحالة التي يتعامل معها والبيئة المحيطة به والظروف المتغيرة على مر الزمن ووفق قواعد وأسس تقوم على ركائز (العقيدة - العبادات - الأخلاق) [(٤)].

٦. الهدف من التربية.

التربية القرآنية تدعو الإنسان إلى أن يرتبط بخالقه وتسلك سلوكًا يتفق مع عقيدة الإسلام، وهذا معناه اشتمال التربية على العملية التربوية والتعليمية معًا، سواء في البيت أو المدرسة أو المجتمع. ولكن المناهج التربوية الأخرى تفصل بين التربية والتعليم.

تتميز التربية القرآنية عن غيرها في أنها: «تسعى إلى ايجاد الإنسان الصالح بكل ما تحمله هذه الكلمة من المعاني الإنسانية، فهي تنمي في الإنسان المسلم حسن التعامل مع كل الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأوطانهم على أنهم بشر خلقهم الله عزوجل، وأن مقياس التفاضل بينهم ما قرره الله عزوجل في كتابه العزيز ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) انظر: تربية المسلم في عالم معاصر، يوسف عبدالمعطي، ص ٤١.

(٢) التوجيه الإسلامي لأصول التربية، عبدالرحمن الحازمي، ص ٢٠٤.

(٣) انظر: التربية من وجهة نظر الفلسفات الفكرية والتربية الإسلامية، المعتصم بالله الجوارنة، بحث منشور في موقع تربيتنا بتأريخ ١٤/١/١٤٣١هـ.

(٤) انظر: إعداد الإنسان الصالح في ضوء التربية القرآنية، داود درويش حلّس، ص ٢٦.

النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:١٣][1].

فالهدف من التربية في المناهج البشرية هو إعداد المواطن الصالح، أي: الصالح لوطنه ولمجتمعه فقط، وليس صالحًا للمجتمعات الأخرى، بينما يهدف منهج القرآن الكريم إلى إعداد الإنسان الصالح. وفي مبحث الغاية من التربية، تكلمنا عن الإنسان الصالح واهتمام القرآن الكريم بتربيته.

موضوعات ذات صلة

التربية، الدعوة، الترهيب، النصيحة

(١) الخلاصة في أصول التربية الإسلامية، علي بن نايف الشحود، ص ٢٣-٢٤.





عناصر الموضوع



مفهوم الترغيب

أولًا: المعنى اللغوي:

يرجع أصل كلمة الترغيب إلى الفعل الثلاثي (رغب)، ويأتي هذا الفعل على معنيين:

الأول: الإرادة، يقول الراغب الأصفهاني: «والرّغبة والرّغب والرّغبى: السّعة في الإرادة»[(1)]، يقال: رغب في الشيء رغبًا ورغبةً ورغبى، ورغبًا بالتحريك بمعنى أراده وحرص عليه، وأرغبني في الشّيء ورغّبني ورغّبه أعطاه ما رغب، أي: ما أراد، والرغبة إرادة الشيء والسعة في الإرادة، فإذا قيل: رغب فيه وإليه؛ اقتضى الحرص عليه إذا أراده، والرغيبة العطاء الكثير لكونه مرغوبًا فيه.

الثاني: ويأتي بمعنى الترك، يقال: رغب عن الشيء تركه متعمدًا، وزهد فيه ولم يرده، فإذا قيل: رغب عنه اقتضى صرف الرغبة عنه والزهد فيه[(2)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرّفه عبد الكريم زيدان: «كل ما يشوّق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق، والثبات عليه»[(3)].

وقال عبد الرحمن النحلاوي: الترغيب: «وعد يصحبه تحبيب وإغراء، بمصلحة أو لذة أو متعة آجلة، مقابل القيام بعمل صالح أو الامتناع عن لذة ضارة أو عمل سيء؛ ابتغاء مرضات الله، وذلك رحمة من الله لعباده»[(4)].

والتعريف المختار هو: «وعد من الله سبحانه و تعالى لعباده فيه تحبيب وإغراء بمصلحة، أو لذة أو متعة عاجلة أو آجلة، يتبعه حرص وإرادة، مقابل القيام بعمل صالح أو ترك عمل سيء؛ طاعة لله سبحانه وتعالى»[(5)].

فلا يبعد المعنى الاصطلاحي للفظ عن معناه اللغوي الأول، إلا أن المعنى الاصطلاحي فيه زيادة توضيح.

---

(١) المفردات، ص ٣٥٨.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ١/ ٢٦٧،لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٤٢٢، المصباح المنير، الفيومي، ١/ ٢٣١.
(٣) أصول الدعوة، ص٤٣٧.
(٤) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص٢٥٧.
(٥) الترغيب والترهيب ودورهما في استقامة الإنسان ص ٣.



الترغيب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رغب) في القرآن الكريم (٨) مرات، يخصّ موضوع البحث منها (٥) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	١	﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ [النساء:١٢٧]
فعل الأمر	١	﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ [الشرح:٨]
المصدر	١	﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠]
اسم الفاعل	٢	﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التوبة:٥٩]

وجاء الترغيب في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: طلب الشيء، والحرص عليه، والطمع فيه[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الراء، ص٥٩١.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤١٥، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣٥٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٨٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإرادة:

الإرادة لغة:

القصد، يقال: إرادتي بهذا لك، أي: قصدي[١].

الإرادة اصطلاحًا:

ميل يعقب اعتقاد النفع[٢].

الصلة بين الإرادة والترغيب:

الإرادة تعني الميل لتحقيق نفع أو فائدة، والترغيب وعد يصحبه تحبيب وإغراء للحصول على نفع أو فائدة، فكلاهما يحقق النفع والفائدة.

٢ الوعد:

الوعد لغةً:

(الوعد) يستعمل في الخير والشّرّ، يقال: (وعد) يعد بالكسر (وعدًا)، قال الفرّاء: يقال: (وعدته) خيرًا ووعدته شرًّا، فإذا أسقطوا الخير والشّرّ قالوا في الخير[٣].

الوعد اصطلاحًا:

العهد في الخير[٤].

الصلة بين الوعد والترغيب:

الوعد أكثر ما يستعمل في الخير، والترغيب وعد يصحبه حرص وإرادة لحصول متعة أو منفعة، وتكون في الخير.

(١) لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ١٨٨.
(٢) التعريفات، الجرجاني، ص ١٦.
(٣) مختار الصحاح، الرازي، ص ٣٤٢.
(٤) التوقيف، المناوي، ص ٣٣٩.



٣ الحث:

الحث لغةً:

السرعة والتّحرّز[١].

الحث اصطلاحًا:

«التحريض على الشيء، والحمل على فعله بتأكيد وإسراع»[٢].

الصلة بين الحث والترغيب:

الحث يعني: التأكيد على فعل أمر معين والإسراع فيه، والترغيب تحفيز وحث وإسراع لتحقيق منفعة أو لذة في الدنيا أو الآخرة.

٤ الترهيب:

الترهيب لغةً:

رهب الشيء رهبًا ورهبًا ورهبةً خافه[٣].

الترهيب اصطلاحًا:

وعيد وتهديد من الله سبحانه و تعالى بعقوبة عاجلة أو آجلة؛ لتخويف العباد من اقتراف الذنوب والمعاصي، أو التهاون في أداء الفرائض التي أمر الله بها[٤].

الصلة بين الترغيب والترهيب:

أنّ الترغيب من الألفاظ المقابلة للترهيب، فالترغيب وعد وتحبيب وإرادة ولذة ومتعة، أما الترهيب فهو وعيد وتهديد وخوف وفزع.

(١) المفردات، الراغب، ص٢١٨.
(٢) التوقيف، المناوي، ص ١٣٥.
(٣) انظر: المفردات، ص٣٦٧.
(٤) الترغيب والترهيب ودورهما في استقامة الإنسان، أحمد رزق، ص ٣.

أساليب عرض الترغيب

إنّ المتدبر لآيات القرآن الكريم يجد أنّ أسلوب الترغيب جاء على ثلاثة أنواع:

أولًا: الجمع بين الترغيب والترهيب في آية واحدة:

جاء هذا الأسلوب في آيات كثيرة من كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

فهذه الآية الكريمة اشتملت على الترغيب والترهيب معًا، فالترغيب تمثّل في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والترهيب جاء في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾، لأعدائه بإهلاكهم في الدنيا، ثم رغّب من يستحق الترغيب من المسلمين فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: كثير الغفران لأوليائه عظيم الرحمة بجميع خلقه(١).

ثانيًا: الجمع بين الترغيب والترهيب في آيتين منفصلتين متتابعتين:

قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠].

فقد جاء الترغيب في آية مستقلة بذاتها ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، والترهيب في آية أخرى ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾، يقول السعدي: «ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرهبة من مفعولات الله من الجنة والنار، ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى، فقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾ أي: أخبرهم خبرًا جازمًا مؤيدًا بالأدلة، ﴿أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته سعوا في الأسباب الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها، لينالوا مغفرته»(٢).

ومثال آخر على هذا الأسلوب: قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤].

فقد اشتملت الآية الأولى على الترهيب من انتقام الله وبشطه، وجاءت الثانية للترغيب في رحمة الله ومغفرته.

ثالثًا: الجمع بين الترغيب والترهيب في مقطع قرآني:

وهذا الأسلوب يأتي ضمن مجموعة من الآيات تشتمل على الترغيب والترهيب، فقد رهّب سبحانه وتعالى من حال الكافرين وهم يساقون جماعات إلى جهنم، ورغّب بحال المتقين، وهم يدخلون الغرفات

(١) انظر: فتح البيان، القنوجي، ٤/ ٢٩٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٤٣٢.

وبالثواب الذي أعده الله للفائزين بالجنة.

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١-٧٢].

يقول ابن عاشور في تفسيره: «ابتدئ في الخبر بذكر مستحقّي العقاب؛ لأنّه الأهمّ في هذا المقام؛ إذ هو مقام إعادة الموعظة والتّرهيب للّذين لم يتّعظوا بما تكرّر في القرآن من العظات مثل هذه، فأمّا أهل الثّواب فقد حصل المقصود منهم، فما يذكر عنهم فإنّما هو تكرير بشارةٍ وثناءٍ»(١).

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣-٧٤].

ومن الأمثلة على هذا النوع أيضًا: قوله تعالى واصفًا نعيم أهل الجنة: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ٣٤ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٣٨ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٢٧ - ٤٠].

يقول أبو بكر الجزائري في تفسيره: «﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ وهم الذين إذا وقفوا في عرصات القيامة أخذ بهم ذات اليمين وهم أهل الإيمان والتقوى في الدنيا، وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ تفخيم لشأنهم وإعلان عن كرامتهم، ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾ إنهم في هذا النعيم الدائم المقيم، إنهم يتفكّهون بالنبق الذي هو أحلى من العسل، وأنعم من الزبد، شجره مخضود الشوك لا شوك به، ويتفكّهون بالطلح، أي: ثمره وهو الموز، والماء المصبوب الجاري، والفاكهة الكثيرة التي لا تقطع بالفصول الزمانية كما هي الحال في فاكهة الدنيا، يوجد منها في الصيف ما لا يوجد في الشتاء مثلًا، ولا ممنوعة بثمن غال ولا رخيص، وفي فرش مرفوعة عالية علو الدرجات التي هي فيها، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ يعني:

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٤/ ٦٩.

الحور العين﴾[1].

وفي المقابل وصف القرآن صور العذاب الذي أعدّه الله لأهل النار جزاء لهم على كفرهم وعدم إيمانهم، فقال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٥].

يصف الله سبحانه وتعالى حال أهل النار وعذابهم، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ وهم أهل النار، الذين يؤخذ بهم ذات الشمال من موقف الحساب إلى النار ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ ماذا لهم، وماذا أعدّ لهم، ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ تهبّ عليهم ريح شديدة الحرارة، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ وظل من دخان شديد السواد[2].

مجالات الترغيب

القرآن الكريم حافل بالآيات القرآنية المتضمنة للترغيب ومجالاته المتعددة، كالترغيب في الإيمان بالله والأعمال الصالحة والأخلاق، وسوف نتحدث عن كل مجال من هذه المجالات.

أولًا: الترغيب في الإيمان:

الإيمان بالله أول واجب على الإنسان، وعليه يقوم الإيمان ببقية أركان الإيمان؛ إذ لا يصح إيمان أحد بشيء من أركان الإيمان إلا بعد إيمانه بالله؛ حيث إن الله عز و جل هو الذي شرع الأركان الأخرى، وأمر العباد باعتقادها؛ لذا يذكر الإيمان بالله تعالى متقدمًا على بقية الأركان حين يذكر معها، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقد رغّب القرآن الكريم بالإيمان في كثير من الآيات، ومن صور الترغيب ما يأتي:

١ . نيل رضا الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

(١) أيسر التفاسير، ٥/ ٢٤٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ١٢٨.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: «وأما قوله: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فإن معناه: ورضى الله عنهم أكبر من ذلك كله، بذلك جاء الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم»[(١)].

وقال ابن كثير رحمه الله: « ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم»[(٢)]، فهذا الرضوان لا يكون إلا للمؤمنين كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧-٨].

٢. تحصيل الأجر العظيم.

قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

فإن الله أمر بالإيمان به سبحانه وتعالى، ووعد على ذلك الأجر العظيم في الآخرة[(٣)].

وقد ذكر الله عز و جل ثواب الذين آمنوا به سبحانه و تعالى بأن لهم أجورًا عنده قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٢].

وذكر الله أجورهم نكرة ليدل على أنها أجورٌ عظيمة، كل حسب حاله؛ ليجتهد المؤمن فيعمل صالحًا، ويتقرّب إليه سبحانه و تعالى؛ كي يحصّل الأجر والثواب الجزيل، وبذلك يستمر المؤمن على طاعة ربه فيستقيم أمره في الدنيا والآخرة.

٣. الهداية والثبات في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

بيّن الله عز و جل أن من أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فآمن بالله عز وجل وبما كتب له فصبر واحتسب؛ كانت له الهداية القلبية، في جميع أحواله وأقواله وأفعاله وفي علمه وعمله، ويهديه في الآخرة لدخول الجنة، فيستقيم أمره كله[(٤)].

وقال عز و جل: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ

(١) جامع البيان، ١٤/ ٣٥٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٧٧.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٥٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٣٧٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٦٧.

﴿لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فقد بيّن الله أن الذين آمنوا به سبحانه وتعالى فقد استمسكوا بالعروة الوثقى وهي الدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه، فمن يؤمن بالله فقد اعتصم من طاعة الله بما لا يخشى مع اعتصامه خذلانه إياه، كالمتمسك بالوثيق من عرى الأشياء التي لا يخشى انكسار عراها[(١)]، وشبّه الله عز وجل ثبات المؤمن على إيمانه بالعروة القوية التي لا تنفصم؛ لإحكامها وشدة ربطها، فكان المتمسك بذلك على ثقة من أمره فيثبت على هذا الدين.

٤ . الرفعة والعلو في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[المجادلة: ١١].

فإن الله يكرم المؤمن بالثواب في الآخرة، والكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم[(٢)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣/ ١٥.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ٢٥١.

٥ . التمكين في الأرض والأمن.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[النور: ٥٥].

إن الله وعد من آمن به سبحانه و تعالى وعمل الأعمال الصالحات، بالاستخلاف في الأرض -أي: يجعلهم خلفاء فيها، ويثبت لهم دينهم ويظهره على جميع الأديان، ويذهب عنهم أسباب الخوف بحيث لا يخشون إلا الله سبحانه وتعالى[(٣)].

٦ . الحياة الطيبة.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل ٩٧].

إن الله وعد من آمن به سبحانه و تعالى وعمل صالحًا، أن يحييه حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمل في الدار الآخرة، واختلف في تفسير الحياة الطيبة: قيل: الرزق الطيب الحلال، وقيل: القناعة، وقيل: السعادة، وقيل: توفيقه إلى الطاعات، وقيل: الحياة في الجنة[(٤)]، فإنه وإن اختلف

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٧٧.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٧/ ٦٤١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٢٧٢.

في تأويل معنى الحياة الطيبة، فكل المعاني فيها ترغيب للمؤمن بالعمل الصالح؛ حتى يفوز بهذا الوعد، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه)(١).

٧. ولاية الله للمؤمنين,

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

يقول الطبري في تفسيره: «والله ناصر المؤمنين بمحمد، المصدّقين له في نبوّته وفيما جاءهم به من عنده، على من خالفهم من أهل الملل والأديان»(٢).

٨. دخول الجنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

أكد الله سبحانه و تعالى لأولئك الذين آمنوا به، وصدّقوا بما جاء به، أن يدخلهم جنات وليس جنة واحدة، وفي ذلك ترغيب للمؤمن لتحصيلها، وذكر بعض ما فيها من النعيم مثل الأنهار التي تجري من تحتها، والأساور من الذهب والحرير، التي يلبسها الرجال والنساء ويتنعمون بها(٣)، وأعظم فوز للمؤمنين دخول الجنة، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران: ١٨٥].

ثانيًا: الترغيب في الأعمال الصالحة:

الأعمال الصالحة في القرآن الكريم كثيرة، ومن أهم الأعمال الصالحة التي لابد للمسلم أن يحرص عليها: العبادات، كالصلاة والزكاة والحج والصيام؛ لذلك نجد القرآن الكريم حافلًا بالآيات المرغبة بهذه العبادات ومن أهم هذه العبادات:

١ . الترغيب في الصلاة.

إن الله ميّز الصلاة عن غيرها من العبادات بمميزات كثيرة، فهي صلة بين العبد وربه، وأول ما يحاسب عليها العبد يوم القيامة، وفرضت في السماء ليلة المعراج؛ لذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بإقامتها في كثير من الآيات؛ وذلك لأهميتها وعظم منزلتها، وأمرنا بالاستعانة بها في كل الأمور،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، ٢/ ٧٣٠، رقم ٢٤٧٣.
(٢) جامع البيان، ٦/ ٤٩٧.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٥٣٦.

قال سبحانه و تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقال سبحانه و تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

ولقد رغّب القرآن في الصلاة، ومن صور ترغيبه ما يأتي:

أنها سبب للانتهاء عن المعاصي: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[العنكبوت: ٤٥].

فالصلاة سياج للمؤمن من كل منكر، فجمعت طرفي المقصد شرعًا، وهما العون على الخير والحفاظ من الشر؛ ولذا فقد عني بها النبي صلى الله عليه وسلم كـل العناية، كما هو معلوم إلى الحد الذي جعلها الفارق والفيصل بين الإسلام والكفر، فعن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر)[(١)].

تجلب الرزق: حيث إن المحافظة على الصلاة من أعظم الأسباب لتحصيل الرزق، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

يخاطب الله سبحانه وتعالى محمدًا طالبًا منه أن يأمر قومه بالمداومة على الصلاة، وأن يوجّه أهله بتأدية الصلاة في أوقاتها، فإن أول واجبات المسلم أن يحوّل بيته إلى بيتٍ مسلم، ونحن لا نكلّفك رزق أحد، بل نطلب عملًا نؤتيك عليه أجرًا عظيمًا[(٢)].

فهذا الارتباط في الآية بين الصلاة والرزق لدليل على أن إقامة الصلاة، وأمر الأهل بها، باب عظيم من أبواب الرزق.

وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

فلولا صلاة مريم في المحراب ومداومتها على الصلاة، لما نالت هذا الرزق الذي دهش له نبي الله زكريا عليه السلام[(٣)].

٣. تكفير السيئات ودخول الجنات.

قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في ترك الصلاة، ٤/ ٣٦٥، رقم ٢٦٢١.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي ٦/ ١٢١.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ٣٠٤.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٢٨.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ١٢].

لما أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل، أمرهم بإقامة الصلاة، فبيّن لهم ثواب تلك العبادة، بأنها سبب لتكفير السيئات ودخول الجنة، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: (الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن ما لم تغش الكبائر)(١).

تحصيل الرحمة: قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[النور: ٥٦].

يأمر الله سبحانه وتعالى عباده بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وبطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ كي يرحمهم وينجيهم من عذابه يوم القيامة، فالصلاة سبب لتحصيل الرحمة من الله سبحانه و تعالى(٢).

وللصلاة دور كبير في استقامة الإنسان في الدنيا والآخرة، فهي ترشد إلي الخير، وتساعد على ترك الرذيلة والفاحشة، كما أنها سبب للظفر بثواب الله ودخول جنته، والصلاة بما اشتملت عليه من أقوال وأفعال تعوّد الإنسان أن يقرن العلم بالعمل، كما يظهر ذلك في ركوعه وسجوده، كما أن فيها تعويدًا على الإخلاص في العمل، وعلى النظام في الحياة بما فيها من ضبط للأوقات، وتنسيق لأداء أركانها، كما أن فيها تعويدًا على النظافة بما يشترط لها من طهارة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه سمع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول: (أرأيتم لو أنّ نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كلّ يومٍ خمس مرّاتٍ هل يبقى من درنه شيء؟)، قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: (فذلك مثل الصّلوات الخمس يمحو اللّه بهنّ الخطايا)(٣).

وقد ذمّ الله المتخلفين عنها، وتوعّدهم بالوعيد الشديد، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥].

أي: مضيّعون لها، تاركون لوقتها، مفوّتون لأركانها وهم المنافقون؛ وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة، التي هي أهم الطاعات وأفضل القربات،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما، ١/ ١٤٤، رقم ٥٧٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٢١٠.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا، ٢/ ١٣١، رقم ١٥٥٤.

والسهو عن الصلاة، هو الذي يستحق صاحبه الذم واللوم، وأما السهو في الصلاة، فهذا يقع من كل أحد، حتى من النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا وصف الله هؤلاء بالرياء والقسوة وعدم الرحمة[(١)].

٢. الترغيب في الزكاة.

الزكاة الركن الثالث من أركان الإسلام، وفريضة من فرائضه؛ لذلك نجد القرآن الكريم حثّ على فعلها، وأدائها في كثير من الآيات، وهي قرينة الصلاة في مواضع كثيرة من كتاب الله، حيث قرنت الزكاة بالصلاة في اثنتين وثمانين آية، وفي ذلك دلالة على مكانتها عند الله سبحانه وتعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ [البينة: ٥].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بني الإسلام على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله، وإقام الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، والحجّ، وصوم رمضان)[(٢)]، وقد رغّب الله سبحانه وتعالى في أداء الزكاة، فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

«يقول سبحانه مخاطبًا رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن قام مقامه، آمرًا له بما يطهّر المؤمنين، ويتمّم إيمانهم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ وهي الزكاة المفروضة، ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي: تطهّرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة»[(٣)].

فقد شرع الله الزكاة تطهيرًا لنفوس البشرية من الشح والبخل والطمع، ومواساة للفقراء والمساكين والمحتاجين، وتطهيرًا للمال وتنميته، وإحلال البركة فيه، ووقايته من الآفات والفساد، وإقامة المصالح العامة التي تتوقف عليها حياة الأمة وسعادتها.

ولأهمية الزكاة ومكانتها عند الله سبحانه وتعالى، فقد جعلها إحدى الصفات التي يتميّز بها المؤمنون، عن المنافقين الذين وصفهم الله بقوله: ﴿الْمُنَٰفِقُونَ وَالْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَٰفِقِينَ هُمُ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٩٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم، ١/ ١١، رقم ٨.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٥٠.

﴿...الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

يقول الطبري في تفسيره: «ويمسكون أيديهم عن النفقة في سبيل الله، ويكفونها عن الصدقة، فيمنعون الذين فرض الله لهم في أموالهم ما فرض من الزكاة حقوقهم»[(١)].

فهؤلاء المنافقون يقبضون أيديهم حرصًا على المال وشحًا، فاستحقوا نسيان الله لهم، أما أولئك المؤمنون فيبسطون أيديهم بذلًا وإيمانًا، فاستحقوا أن يرحمهم الله، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتال من يمتنع عن دفع الزكاة، ويرفض أداءها، فعن ابن عمر رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يشهدوا أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّدًا رسول الله، ويقيموا الصّلاة، ويؤتوا الزّكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلّا بحقّ الإسلام، وحسابهم على الله)[(٢)].

وقد وصى الرسول صلى الله عليه وسلم معاذًا حينما بعثه إلى اليمن أن يأمر أهلها بالزكاة، فقال صلى الله عليه وسلم: (إنّك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلاّ اللّه وأنّي رسول اللّه، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ اللّه افترض عليهم خمس صلواتٍ فى كلّ يوم وليلةٍ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ اللّه افترض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم فتردّ فى فقرائهم)[(٣)].

وقد رغّب الله في الزكاة حيث إيتاء الزكاة ثمرة من ثمرات التمكين، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى في سورة الذاريات أن من صفات الأبرار الإحسان، وأن مظهر إحسانهم يتجلى في القيام من الليل، والاستغفار في السّحر، كما يتجلى في إعطاء الفقير حقه؛ رحمةً وحنوًّا عليه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٩].

حيث بيّنت هذه الآيات صفات المتقين الذين يستحقون دخول الجنة، بأنهم جعلوا في أموالهم جزءًا معيّنًا خصّصوه للسّائل المحتاج، الذي وضّحه الرسول صلى الله عليه وسلم في وصف المسكين في الحديث الذي رواه أبو هريرة، أنّ رسول الله

(١) جامع البيان، ١٤/ ٣٣٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان، ١/ ١٤، رقم ٢٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين، ١/ ٣٧، رقم ١٣٠.

صلّى اللّه عليه وسلّم، قال: (ليس المسكين بهذا الطّوّاف الّذي يطوف على النّاس، فتردّه اللّقمة واللّقمتان، والتّمرة والتّمرتان، قالوا: فما المسكين؟ يا رسول الله، قال: الّذي لا يجد غنًى يغنيه، ولا يفطن له، فيتصدّق عليه، ولا يسأل النّاس شيئًا)[1].

ويتمثل ترغيب القرآن في الزكاة بما يأتي:

الزكاة تطهر صاحبها من الشّح وتحرّره من عبوديّة المال، وهذان مرضان من أخطر الأمراض النّفسية التي ينحطّ معها الإنسان ويشقى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

يقول أبو السعود في تفسيره: «﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ﴾ الشّح بالضمّ والكسر، وقد قرئ به أيضًا: اللؤم، وإضافته إلى النفس لأنّه غريزةٌ فيها، مقتضيةٌ للحرص على المنع الذي هو البخل، أي: ومن يوق بتوفيق الله تعالى شحّها حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حبّ المال وبغض الإنفاق ﴿فَأُولَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى ﴿وَمَن﴾ باعتبار معناها العامّ المنتظم للمذكورين انتظامًا أوليًّا ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكل مطلوب الناجون عن كل مكروه»[2].

١. الزّكاة تدريبٌ على الإنفاق في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤- ٢٥].

٢. قد ذكر الله تعالى الإنفاق في سبيل الله على أنّه صفةٌ ملازمة للمتّقين في سرّائهم وضرّائهم، في سرّهم وعلنهم، وجعلها من أهمّ صفاتهم على الإطلاق، وقد قرنها بالإيمان بالغيب والاستغفار بالأسحار، والصّبر والصدق، والقنوت، ولا يستطيع الإنسان الوصول إلى الإنفاق الواسع في سبيل الله، إلا بعد أن يعتاد على أداء الزكاة، وهي الحدّ الأدنى الواجب إنفاقه.

٣. الزّكاة شكرٌ لنعمة الله، وعلاجٌ للقلب من حبّ الدنيا، وتزكية للنفس، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

٤. كما أنّها تزكية للمال نفسه ونماءٌ له[3]، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

٥. الزكاة تقرّب الفوارق بين طبقات الناس: حيث إنّ الإسلام يقر التفاوت

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ما جاء في المسألة، ٣/ ٩٥، رقم ٢٣٥٧.
(٢) إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٢٩.

(٣) انظر: العبادة أحكام وأسرار، عبد الحليم محمود، ٢/ ١١.

في الأرزاق؛ لأنّه نتيجة للتّفاوت في المواهب والطّاقات، ولكنه يرفض أن يصير الناس طبقتين، إحداهما: تعيش في النعيم، والأخرى: في الجحيم، ويحرص على أن يشارك الفقراء الأغنياء في النعيم، كما يحرص على أن يملّكهم ما يسدّ حاجاتهم، والزّكاة إحدى الوسائل التي يستعملها الإسلام لبلوغ هذه الغاية، لذلك جعلها لأصناف معينة من الناس، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٦٠].

٦. للزكاة دور كبير في القضاء على ظاهرة التّسوّل، وفي التّشجيع على إصلاح ذات البين، ولو اضطر المصلحون إلى تحمل أعباء مالية، يمكن أن تؤدى من الزكاة.

٧. الزكاة تنجي العبد من الاتصاف بخصال المنافقين، وهي سبب لسعة الرزق، لا كما يعتقد أصحاب القلوب المريضة، قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

٨. الزكـاة سبب لمعية الله عز و جل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[النحل: ١٢٨].

٣. الترغيب في الصيام.

الصيام عبادة من أعظم العبادات، وفريضة من أوجب الفرائض، بل ركن من أركان الإسلام، وقربة من أشرف القربات، وطاعة مباركة، لها آثارها العظيمة والكثيرة العاجلة والآجلة، فالنصوص في فضل الصيام كثيرة، وكلها تحثّ عليه وترغّب فيه، وتبيّن ما للصائم من الثواب عند الله يوم القيامة، فمن ثمرات الصيام ما يأتي:

❁ تحصيل التقوى.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٨٣].

يخبر تعالى بما منّ به على عباده؛ حيث فرض عليهم الصيام، كما فرضه على الأمم السابقة؛ لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق، و فيه تنشيط لهذه الأمة، بأن تنافس غيرها في تكميل الأعمال، والمسارعة إلى فعل الخيرات[1].

جمال الفاصلة في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٦.

﴿تَتَّقُونَ﴾ جملة تعليلية جيء بها لبيان حكمة مشروعية الصيام، فكأنه سبحانه وتعالى يقول لعباده المؤمنين: فرضنا عليكم الصيام كما فرضناه على الذين من قبلكم، لعلكم بأدائكم لهذه الفريضة تنالون درجة التقوى والخشية من الله، وبذلك تكونون ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه»[1].

فالتقوى تتألف من عنصرين:

الأول: عنصر إيجابي، وهو القيام بما أمر الله سبحانه وتعالى به من فروض وواجبات، في القول، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي كان مع الإيمان مناط خيرية الأمة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران: ١١٠].

وكذلك بما أمر الله سبحانه و تعالى في الفعل، كالصلاة والصيام والحج وغيرها من العبادات.

والثاني: وهو الانتهاء عما نهى الله سبحانه وتعالى، كالغيبة والنميمة والغش ونحوهما. فإذا تحقق التقوى بالصوم، فقد تحققت القيم الروحية التي أحبها الله سبحانه وتعالى، وأراد أن يغرسها في قلب المؤمن[2].

الصيام من أسباب استجابة الدعاء.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة: ١٨٦].

المغفرة والأجر والعظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

الصيام يشفع لصاحبه يوم القيامة.

لما روى الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربِّ؛ منعته الطعام والشهوة فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه، قال: فيشفعان**)[3].

فرح الصائم بما يناله في العاجل

(١) الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ١/ ٣٠٠.

(٢) انظر: العبادة أحكام وأسرار، عبد الحليم محمود، ٢/ ٨٥.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢/ ١٧٤، رقم ٦٦٢٦، والحاكم في المستدرك، ١/ ٥٥٤، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ١٩٩٤. وصححه الحاكم على شرط مسلم، ولم يتعقبه الذهبي.

والآجل.

كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه)[(١)].

وهذا من الفرح المحمود؛ لأنه فرح بفضل الله ورحمته، ولعل فرحه بفطره لأن الله منّ عليه بالهداية إلى الصيام، والإعانة عليه حتى أكمله، وبما أحله الله له من الطيبات، ويفرح عند لقاء ربه حين يلقى الله راضيًا عنه، ويجد جزاءه عنده كاملًا موفرًا[(٢)].

شرع الصوم ليحصل الإنسان على التقوى، باعتبارها تركيزًا للإرادة في كلّ كيانه وحفظًا للاستقامة بعيدًا عن خط الانحراف، فالصوم يخلق ضميرًا داخليًّا، يؤدي دور الرقيب الدائم والحسيب المسيطر، وبهذه الرقابة الداخلية تتأكد صفة الإنسان المسلم في كلّ الأحوال والأوقات، فيكون مسلمًا حقيقيًّا، يسلم الناس من لسانه ويده، ويجدون فيه ومنه كلّ ما يدلّ على معاني الإسلام؛ المعاني التي تتحقق من عبادة الصوم، فبالصيام تحفظ النفس البشرية من الوقوع في المعاصي، وفيه تنقية لقلب المؤمن من الأحقاد والشرور، وشهر الصيام يذكّرنا بالفقراء والمساكين، بل ويعود المسلم على البذل والعطاء من تقديم الصدقات للفقراء والمحتاجين، وهو أيضًا حمية للبدن، وصحة الجسد، ويمثّل صوم رمضان دورةً تدريبية للمسلم، تتولى تهيئة الإنسان لأن يكون قادرًا على أداء الصوم الكبير، حيث تتصلّب إرادته فيقوى على ترك المحرمات في كل زمان ومكان، وليس في نهار رمضان فقط، فيكون بذلك إنسانًا مالكًا لكلّ إرادته في طاعة الله وترك معاصيه، ومعايشًا لثمرة التقوى في حياته كلها.

٤ . الترغيب في الحج.

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، تجتمع فيه كل شعائر العبادات، ففيه يعلن الناس الشهادة بالوحدانية لله سبحانه و تعالى.

وفيه تؤدى الصلاة طوعًا لله ورجاء.

وفيه ينفق الناس المال على حبه ابتغاء مرضات الله.

وفيه يجاهد الناس بالمال والنفس، وبكل نفيس في سبيل الفوز بالجنة التي وعد الله بها عباده المؤمنين.

وقد رغّب القرآن الكريم في هذه العبادة؛

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب هل يقول: إني صائم إذا شتم، ٣/ ٢٦، رقم ١٩٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الصوم، باب فضل الصوم، ٣/ ١٥٨، رقم ٢٧٦٣.

(٢) انظر: تذكرة الصوام بشيء من فضائل الصيام والقيام، عبدالله القصير، ص٧٠.

لأنها تحقق أهدافًا وغايات عظيمة، ونذكر منها على سبيل المثال ما يأتي:

❁ **الحج تعويد للنفس على الطاعة والامتثال لأمر الله.**

فرض الحج في العمر مرة على كل مسلم ومسلمة لمن استطاع ذلك، ومن ينكر فرضية الحج فقد كفر، وأصل ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

«يعني: أنه حق واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه، والخروج عن عهدته لمن استطاع إلى ذلك سبيلًا»[١].

ولقد بيّن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضية الحج، فعن أبي هريرة قال: خطب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم النّاس فقال: (إنّ اللّه عز و جل قد فرض عليكم الحجّ، فقال: رجلٌ في كلّ عام؟ فسكت عنه حتّى أعاده ثلاثًا، فقال: لو قلتُ: نعم، لوجبت، ولما قمتم بها، ذروني ما تركتكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بالشّيء فخذوا به ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيءٍ فاجتنبوه)[٢].

فنجد أن الحجاج يؤدون المناسك مثل: الطواف، والوقوف بعرفة، والسعي، والحلق والتقصير، والهدى، وغير ذلك من النسك دون نقاش أو جدل، بل طاعة وامتثالًا واستسلامًا لأمر الله سبحانه وتعالى، وفي هذا تعويد للنفس البشرية على طاعة الله والاتحاد على دعوته، ولقد وعد الله سبحانه وتعالى أصحاب هذه النفوس المطيعة والمستسلمة له بالمغفرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: (من حجّ للّه فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمّه)[٣].

❁ **الحج تزويد للقلوب بالإيمان والتقوى.**

من منافع الحج الروحية التزود بالتقوى، ولقد بيّن الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وقوله جل شأنه: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال أيضًا: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

ولقد ورد في تفسير هذه الآيات أن من أهم مقاصد أداء مناسك الحج هو «استشعار

---

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ٣ / ١٢.

(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب المناسك، باب وجوب الحج، ٥/ ١١٦، رقم ٢٦١٨. وصححه الألباني في كتاب صحيح وضعيف سنن النسائي ١/ ٥٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحج، ٢/ ١٣٣، رقم ١٥٢١.

التقوى والتزود منها»، فقد ورد في ظلال القرآن في هذا الشأن: «والتقوى زاد القلوب والأرواح، منه تقتات، وبها تروى وتشرق، وعليها تستند في الوصول والنجاة، وأولوا الألباب هم أول من يدرك التوجيه إلى التقوى وخير من ينتفع بهذا الزاد»[(١)]، فالحج مناسبة طيبة ومباركة لتزويد القلوب بالتقوى، وهو خير الزاد يتزود به المسلم.

❁ تحصيل المنافع الدنيوية والأخروية.

قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨].

يقول ابن كثير: «أن للناس في الحج منافع في الدنيا والآخرة، أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات»[(٢)].

الحج مدرسة لتربية النفس والسمو بها إلى العلا، فيها يتعلم المسلم كيف يعيش في عبادة خالصة لله سبحانه وتعالى، وأن يكبح جماح الشهوات واللذات، فيها يعوّد الإنسان نفسه على التضحية والجهاد والالتزام بالطريق السوي، وفيها يربّي الإنسان نفسه على حب الله ورسوله والولاء للإسلام كمنهج حياة، فيها يقتدي الإنسان برسول الله وبأصحابه والمجاهدين، الذين جاهدوا في الله حق جهاده حتى أتاهم اليقين، وتركوا لنا راية الإسلام مرفوعة في ربوع العالم، إن من يتعلم في هذه المدرسة، ويحرص على الاستفادة بما فيها من دروس تربوية؛ يكون جزاؤه الجنة، وقد بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الحج من أفضل الأعمال، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (سئل النّبيّ صلى الله عليه وسلم أيّ الأعمال أفضل؟ قال: إيمانٌ بالله ورسوله، قيل: ثمّ ماذا؟ قال: جهادٌ في سبيل الله، قيل: ثمّ ماذا؟ قال: حجٌّ مبرورٌ)[(٣)].

فللحج دور كبير في استقامة الإنسان على الطاعة والطريق المستقيم، وهو فترة تدريب عملي على الكف عن الخطايا والآثام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمّه)[(٤)].

ولهذا كان الترغيب في هذه العبادات لما لها من أجر عظيم يناله العبد عند الله تعالى، ولما لها من أثر على سلوكه مع نفسه وأهله ومجتمعه، فلله الحمد والمنة، أن هدانا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ١٧٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ١٠/ ٤٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، ٢ / ١٣٣، رقم ١٥١٩.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة، ٤/ ١٠٧، رقم ٣٣٥٧.

للعمل بهذا الدين ورغبنا فيه.

ثالثًا: الترغيب في الأخلاق الحسنة:

رغّب القرآن الكريم بالأخلاق الحسنة، وجعل لها مكانة رفيعة، حيث أثنى الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وبعث رسوله لكي يتمّم مكارم الأخلاق، من خلال مبادئ الإسلام الحنيف، فقال عليه الصلاة والسلام: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[(١)].

وأثقل شيء يوضع في ميزان العبد يوم القيامة حسن الخلق، عن أبي الدّرداء، عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (ما من شيءٍ أثقل في الميزان من حسن الخلق)[(٢)].

والأخلاق الحسنة في القرآن الكريم كثيرة، وسوف نتعرف على بعض هذه الأخلاق كخلق الصبر والرحمة والصدق في القرآن الكريم، وبيان ذلك فيما يأتي:

١ . الترغيب في الصبر.

ترجع عناية القرآن البالغة بالصبر لما له من قيمة كبيرة، وأثر في الحياتين الدنيا والأخرى، الصبر من أكثر الأخلاق التي اعتنى بها دين الإسلام؛ لذا تكرر ذكره في القرآن في مواضع كثيرة، قال أبو عبد الله أحمد ابن حنبل: «ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعًا»[(٣)]، فليس هو من الفضائل الثانوية، بل من الضرورات اللازمة التي لا انفكاك للإنسان عنها، فلا نجاح في الدنيا ولا نصر ولا تمكين إلا بالصبر، ولا فلاح في الآخرة، ولا فوز ولا نجاة إلا بالصبر، ولقد رغّب القرآن الكريم في الصبر في العديد من الآيات القرآنية، وبيان ذلك فيما يلي:

❁ الصبر سبب في تحصيل الفلاح.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

يقول السعدي: «حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح وهو: الفوز والسعادة والنجاح، وأن الطريق الموصل إلى ذلك لزوم الصبر، الذي هو حبس النفس على ما تكرهه، من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٥١٢، رقم ٨٩٥٢.
صححه الألباني في الأدب المفرد ١ / ١٢٢.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق ٤/ ٢٥٣.
وصححه الألباني.

(٣) عدة الصابرين، ابن القيم، ص ٧١.

على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك»[1].

❁ ظفر الصابرين بمعية الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

قال الشوكاني في تفسيره للآية: «فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه إلى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب، فمن كان الله معه لم يخش من الأهوال؛ وإن كانت كالجبال»[2].

❁ الصبر سبب في تحقيق النصر.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

«يعني: تصبروا على مصابرة عدوّكم وتتّقوني وتطيعوا أمري، فيتحقق لكم النصر والظفر بالعدو»[3].

❁ فوز الصابرين بمحبة الله.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

فالله يحب هؤلاء الصابرين؛ لأنهم استجابوا لأمره وطاعته وطاعة رسوله في جهاد عدوه[4].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص١٦٢.
(٢) فتح القدير، ١/ ٢٤٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١٧٥.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٧/ ٢٧٠.

❁ فوز الصابرين بالمغفرة والأجر الكبير.

قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [هود: ١١].

بيّن الله سبحانه و تعالى ثواب أولئك الصابرين فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم كل محذور. ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ وهو: الفوز بجنات النعيم، التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين[5].

❁ نجاة الصابرين من الخسران والهلاك.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١-٣].

إن كل إنسان لفي نوع من الخسران؛ لما يغلب عليه من الأهواء والشهوات، إلا الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات، وأقاموا على الطاعات، وأوصى بعضهم بعضًا بالتمسك بالحق اعتقادًا وقولًا وعملًا، وأوصى بعضهم بعضًا بالصبر على المشاق التي تعترض لهم، فهؤلاء ناجون من الخسران، مفلحون في الدنيا والآخرة، وإنما ذكر سبب الربح دون الخسران اكتفاء ببيان المقصود؛ فإن المقصود بيان ما فيه الفوز بالحياة

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٧٨.

الأبدية والسعادة السرمدية[1].

ولما يعلم الإنسان ما أعد الله للصابرين، يحرص على تحصيله، والمداومة عليه، فبالصبر يتغلب الإنسان على شهوات النفس والدنيا، ويمسك عن المعاصي والفتن، ويسارع إلى فعل الطاعات والفوز برضا الله عز و جل، ويشعر بالرضا والطمأنينة بقضاء الله وقدره، فهو يحقّق العزة و والكرامة والاستقامة للفرد والنصر للأمة والمجتمع، وهذه ثمرة عظيمة، وغاية يسعى إليها كل مؤمن صادق، مخلص لله في عبادته؛ لأنه يدرك ما لهذه الثمرة من مكانة عند الله عز و جل.

٢. الترغيب في أسباب تحصيل الرحمة.

الرحمة خلق من الأخلاق التي دعا إليها الإسلام، وأمرنا بالاتصاف بها، فإن الله سبحانه و تعالى وصف نفسه بها، ووصف بها نبيه صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وحث القرآن الكريم على تحصيل هذا الخلق؛ لما له من آثار طيبة تنعكس على حياة المسلم.

ومن أسباب تحصيل الرحمة في القرآن الكريم:

❁ الصبر على المصائب.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

أخبر الله سبحانه و تعالى أن المؤمن إذا سلّم لأمر الله تعالى، وصبر على مصيبته، كتب الله تعالى له ثلاث خصال، الصلاة من الله، والرحمة، وتحقيق سبيل الهدى[2].

❁ القتال في سبيل الله.

قال ابن عاشور في تفسيره للآية: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧-١٥٨].

«ذكر ترغيبًا وترهيبًا، فجعل الموت في سبيل الله والموت في غير سبيل الله، إذا أعقبتهما المغفرة خيرًا من الحياة وما يجمعون فيها، وجعل الموت والقتل في سبيل الله وسيلة للحشر والحساب؛ لحصول المغفرة والرحمة»[3].

❁ الاستماع والإنصات للقرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ

(١) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي، ١٠/ ٣٩١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي، ٤/ ١٤١.
(٣) التحرير والتنوير، ٤/ ١٤٣.

﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

«هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب اللّه يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب اللّه؛ فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًّا متجددًا، وهدىً متزايدًا، وبصيرةً في دينه؛ ولهذا رتّب اللّه حصول الرحمة عليهما»(١).

• إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

قال الشنقيطي في تفسيره: «هذه الآية الكريمة تدل على أن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم سبب لرحمة الله سبحانه و تعالى»(٢).

• الإصلاح بين الناس.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

يقول تعالى ذكره لأهل الإيمان: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ في الدين، ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إذا اقتتلا بأن تحملوهما على حكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وخافوا الله أيها الناس، بأداء فرائضه عليكم في الإصلاح بين المقتتلين من أهل الإيمان بالعدل؛ ليرحمكم ربكم، فيصفح لكم عن سالف إجرامكم، إذا أنتم أطعتموه، واتبعتم أمره ونهيه، واتقيتموه في السر والعلن(٣).

للرحمة آثار طيبة تعود على الفرد والمجتمع، كيف لا، وقد اتصف الرسول صلى الله عليه وسلم بها، عن النّعمان بن بشيرٍ قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: **(مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى)**(٤).

فذكر الرسول صلى الله عليه وسلم من بين صفات المؤمنين التراحم؛ فبالرحمة ترتفع الأحقاد والضغائن، وتختفي الشحناء والبغضاء، ويندحر الشيطان وأعوانه، فيعطف الغني على الفقير، فيقوى فيهم التناصر والتعاون على الخير، ويكونون يدًا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٤.
(٢) أضواء البيان، ٥/ ٥٥٤.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٢٩٧.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ٨/ ٢٠، رقم ٦٧٥١.

واحدةً في الشدائد والمحن، وبذلك تستقيم حياة الإنسان على شرع الله ودينه.

٣. الترغيب في الصدق.

الصدق خلق إسلامي عظيم يدل على إيمان صاحبه بالله، وعلى طهارة قلبه، وسمو أخلاقه، ولما كان الصدق من أشرف السمات الأخلاقية، وأكثرها فضيلة وتكاملًا للنفس الإنسانية؛ كان من البديهي تركيز القرآن الكريم على هذا الخلق، ولقد أمرنا القرآن بالتزامه مرارًا وتكرارًا.

فقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وذلك ليسري إلينا صدقهم.

وبيّن الله عز و جل في كتابه أن من صفات الأنبياء عليهم السلام الصدق، فأثنى عليهم بهذا الخلق، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

ومن ثمرات الصدق في القرآن ما يأتي:

- تحقيق التقوى.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

وقال أبو بكر الجزائري في تفسيره للآية: «هذا إخبار بفريق الفائزين من عباد الله وهم الصادقون في كل ما يخبرون به، والمصدّقون بما أوجب الله تعالى التصديق به، ويدخل في هذا الفريق دخولًا أوليًّا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر الصديق، ثم سائر الصحابة والمؤمنين إلى يوم الدين»[١].

- المغفرة والأجر العظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

قال الشوكاني في تفسير قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ «أي: مغفرة لذنوبهم التي أذنبوها، وأجرًا عظيمًا على طاعاتهم التي فعلوها، ووصف الأجر بالعظم للدلالة على أنه بالغ غاية المبالغ»[٢].

(١) أيسر التفاسير، ٤ / ٤٨٧.
(٢) فتح القدير، ٤ / ٤٠١

❁ الفوز بدخول الجنة.

قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [المائدة: ١١].

قال الطبري في تفسيره: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ «هذا الذي أعطاهم الله من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها مرضيًّا عنهم وراضين عن ربهم، وهو الظفر العظيم»(١).

قال ابن القيم: «الصدق منزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميّز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلًا إلا أرداه، وصرعه، من صال به لم تردّ صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحكّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين»(٢).

(١) جامع البيان، ١١ / ٢٤٥.
(٢) مدارج السالكين، ٢ / ٢٦٨.

وهكذا نجد أن القرآن الكريم اهتم بالأخلاق الحسنة اهتمامًا بالغًا؛ لما لها من آثار إيجابية على سلوك المسلم في حياته، وبما يناله من الأجر العظيم يوم القيامة.

رابعًا: الترغيب في الثواب:

ورد لفظ الثواب في القرآن بمعان مختلفة، وقد عرّفه الراغب الأصفهاني بقوله: «ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله»(٣)، فيسمى الجزاء ثوابًا، وجعل الله تعالى الجزاء من جنس العمل في قوله: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧].

ولم يقل جزاءه، والثواب يقال في الخير والشر، لكن الأكثر المتعارف في الخير، وعلى هذا قوله عز وجل: ﴿ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وتستعمل في الشر كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ٦٠].

والإثابة تستعمل في المحبوب، قال تعالى: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [المائدة: ٨٥].

«الثواب» يعني: «الرجوع»، ويطلق «الثواب» على أفعال العباد وأعمالهم، بمعنى ما يرجع إليهم من جزاء أعمالهم،

(٣) جامع البيان، ١١ / ٢٤٥.

ولفظ (الثواب)، وإن كان في اللغة يطلق على الجزاء الدنيوي والأخروي، إلا أنه قد اختص في العرف بالجزاء الأخروي على الأعمال الصالحة من العقائد الحقة، والأعمال البدنية والمالية.

وقد جاء لفظ الثواب في القرآن على خمسة معانٍ:

الأول: بمعنى الطاعة.

ومنه قوله تعالى: ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

أي: نعم الأجر والثواب الجنة جزاء وفاقًا على جميل أعمالهم، وحسنت منزلًا ومقيلًا[١].

الثاني: بمعنى الفتح والظفر والغنيمة.

قال تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

يقول الطبري في تفسيره: «يعني بذلك تعالى ذكره: فأعطى اللّه الّذين وصفهم بما وصفهم من الصّبر على طاعة اللّه بعد مقتل أنبيائهم، وعلى جهاد عدوّهم، والاستعانة باللّه في أمورهم، واقتفائهم مناهج إمامهم، على ما أبلوا في اللّه ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ يعني: جزاء في الدّنيا، وذلك النّصر على عدوّهم وعدوّ اللّه، والظّفر والفتح عليهم، والتّمكين لهم في البلاد؛ ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ يعني: وخير جزاء الآخرة، على ما أسلفوا في الدّنيا من أعمالهم الصّالحة، وذلك الجنّة ونعيمها»[٢].

الثالث: بمعنى المكافأة.

قال تعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٥].

يقول سيد طنطاوي في تفسيره: «أي: فكافأهم الله تعالى بسبب أقوالهم الطيبة الدالة على إيمانهم وإخلاصهم، جنات تجرى من تحت بساتينها وأشجارها الأنهار خالدين فيها، أي: باقين في تلك الجنات بقاء لا موت معه، وذلك العطاء الجزيل الذي منحه الله لهم جزاء المحسنين، أي: المؤمنين المخلصين في أقوالهم وأعمالهم»[٣].

الرابع: بمعنى المتاع.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤].

أي: متاعها الزائل وحطامها الفاني؛ كالمجاهد الذي يريد بجهاده الغنيمة والفخر، لا الثواب والأجر، والذي يريد بصلاته وحجه الرياء والسمعة، ولا يبتغي بعباداته وجه الله تعالى؛ فقد أخطأوا جميعًا

(١) انظر: تفسير المراغي، ١٥/ ١٤٥.

(٢) جامع البيان، ٦/ ١٢٣.

(٣) الوسيط، ٤/ ٢٥٨.

وجه الصواب، فثواب الله أفضل من ثواب الدنيا الزائل[1].

الخامس: الزيادة على الزيادة.

قال تعالى ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾[آل عمران: ١٥٣].

يقول السيوطي في تفسيره: «الغم الأوّل الجراح والقتل والغم الآخر حين سمعوا أن النّبي صلى الله عليه وسلم قد قتل، فأنساهم الغم الآخر ما أصابهم من الجراح والقتل وما كانوا يرجون من الغنيمة»[2].

(١) انظر: أوضح التفاسير، الخطيب ص١١٦.

(٢) الدر المنثور، ٢/ ٣٥١.

صور الترغيب في القرآن الكريم

ذكر القرآن الكريم صور وطرقًا عديدة تحفّز المؤمن على حصول المنفعة والأجر العظيم في الدنيا، وترغّب المؤمن بصور النعيم الذي أعده الله له في الآخرة، فمن طريقة القرآن الكريم وأساليبه ترغيب المؤمن بملذات ومنافع دنيوية، وأيضًا بملذات أخروية، وكل ذلك حتى يكون المؤمن على طاعة مستمرة لربه، وبذلك يحصل الفوز في الدنيا والآخرة.

أولًا: الترغيب بملذات دنيوية:

رغّب القرآن بملذات دنيوية كثيرة، ومن هذه الملذات ما يأتي:

١ . الحياة الطيبة.

قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

والحياة الطيبة تكون في الدنيا؛ بالراحة والرزق الطيب الحلال والقناعة والسعادة[3].

٢ . الأمن والهداية في الدنيا.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٨٧.

[الأنعام٨٢].

يقول السعدي في تفسيره: «﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا﴾ أي: يخلطوا ﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأمن من المخاوف والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقًا، لا بشرك، حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة، وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها، ومفهوم الآية الكريمة: أن الذين لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم هداية، ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء»[(١)].

حلول الخيرات والبركات:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف٩٦].

يقول ابن كثير في تفسيره: «آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرّسل، وصدّقت به واتّبعته، واتّقوا بفعل الطّاعات وترك المحرّمات، ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: قطر السّماء ونبات الأرض»[(٢)].

الإمداد بالأموال و البنين:

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح:١٠-١٢].

فمن أساليب القرآن في ترغيبه للمؤمنين ترغيبهم بالأعمال الصالحة في الدنيا كالاستغفار الذي هو سبب للمتاع والإمداد بالأموال والبنين في الدنيا، يخبر الله سبحانه وتعالى عن نوح في دعوته لقومه من ترغيبه إياهم بالتوبة والاستغفار.

يقول ابن كثير في تفسيره: «أي: إذا تبتم إلى اللّه واستغفرتموه وأطعتموه، كثر الرّزق عليكم، وأسقاكم من بركات السّماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزّرع، وأدرّ لكم الضّرع، وأمدّكم بأموالٍ وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنّاتٍ فيها أنواع الثّمار، وخلّلها بالأنهار الجارية بينها، وهذا مقام الدّعوة بالتّرغيب»[(٣)].

ثانيًا: الترغيب بملذات الآخرة:

أعد الله سبحانه و تعالى لعباده المؤمنين في الجنة ملذات وصورًا من النعيم؛ وذلك ليرغب المؤمن بالأجر والثواب الذي أعده الله له في الآخرة، ولقد جاءت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، لتصف لنا

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٦٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣ / ٤٥١.
(٣) المصدر السابق ٨/ ٢٣٣.

هذا النعيم، الذي أعده سبحانه وتعالى لمن أطاعه، وتظهر عظمة هذا النعيم في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

فأهل الجنة في سعادة دائمة وفرح مستمر، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨- ٣٩].

فمهما طال نعيم الدنيا فهو زائل لا محالة، أما نعيم الآخرة فهو سرمدي دائم، لا يكتنف صاحبه سقم ولا ألم ولا ملل.

وقد وصف الله تبارك وتعالى هذا النعيم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥١ – ٥٦].

وستحدث عن بعض ملذات الآخرة وصور النعيم الذي أعده الله لعباده، كالنظر لوجه الله الكريم، و درجات الجنة وغرفها، وطعام أهلها وشرابهم، وكل ذلك شحذًا للهمم، وإيقاظًا للغافلين، المتمسكين بنعيم الدنيا الزائل، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من أهلها، إنه ولى ذلك والقادر عليه، وبيان ذلك فيما يأتي:

١ . النظر لوجه الله الكريم.

إن أعظم نعيم أعده الله سبحانه وتعالى لعباده في الجنة، التمتع برؤية وجه الله الكريم، الذي يغمر الوجوه نضارة وإشراقًا، وقد رغّب الله سبحانه في القرآن الكريم بهذا النعيم، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣].

قال الخازن في تفسيره: «هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة»[(١)].

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى ثواب المؤثرين الآخرة على الدنيا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ أي: حسنة بهية، لها رونق ونور، مما هم فيه من نعيم القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: تنظر إلى ربها، على حسب مراتبهم، فمنهم من ينظر كل يوم بكرة وعشيًا، ومنهم من ينظر كل جمعة مرة واحدة، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وجماله الباهر، الذي ليس كمثله شيء، فإذا رأوه نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من اللذة والسرور، ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوههم، فازدادوا جمالًا إلى جمالهم[(٢)].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

---

(١) لباب التأويل، ٢/ ١٦٧.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٩٩.

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح: الحسنى في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك أيضًا.

ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان، من القصور، والحور، والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك، وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم؛ بل بفضله»(١).

فالحسنى هي الجنة.

عن أبي بكرٍ الصّدّيق، في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: ٢٦].

قال: «الزّيادة: النّظر إلى وجه اللّه عز وجل»(٢).

وقال البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾: «يعني: الزيادة لهم في النعيم ما لم يخطر ببالهم وقال جابر وأنس: هو النظر إلى وجه الله الكريم»(٣).

(١) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٣٥٤.
(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده ، ٣/ ٧٩٣، رقم ١٤٢٤.
(٣) معالم التنزيل، ٧/ ٣٦٣.

٢. الترغيب في درجات الجنة.

لقد رغّب القرآن الكريم في الجنة ودرجاتها، وبيّن أن الناس في الجنة يتفاضلون، كما يتفاضلون في الدنيا، كل بحسب إيمانه وعمله، وابتعاده عن المعاصي.

قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

قال السعدي: «﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا بسعة الأرزاق وقلتها، واليسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل والسفه، وغير ذلك من الأمور التي فضّل الله العباد بعضهم على بعض بها، ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه، فكم بين من هو في الغرف العاليات واللذات المتنوعات، والسرور والخيرات، والأفراح، ممن هو يتقلب في الجحيم، ويعذّب بالعذاب الأليم، وقد حل عليه سخط الرب الرحيم، وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحد عده»(٤).

وبيّن الله سبحانه و تعالى أن الذي يفوز بالدرجات العلى في الجنة: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص٤٥٥.

﴿ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

يقول الشنقيطي: «ذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ﴾ يوم القيامة في حال كونه ﴿مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: في الدنيا حتى مات على ذلك ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ﴾ عند الله ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ والعلى: جمع عليا وهي تأنيث الأعلى، وقد أشار إلى هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾، وقوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ ونحو ذلك من الآيات»[(١)].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين بصفات عديدة، وبيّن ما لهم من الدرجات عند ربهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

قال الطبري «﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ أي: لهؤلاء المؤمنين الذين وصف جل ثناؤه صفتهم ﴿دَرَجَٰتٌ﴾، وهي مراتب رفيعة في الجنة»[(٢)].

وفضّل الله سبحانه وتعالى المجاهدين على القاعدين درجة.

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

فنفى سبحانه وتعالى التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد، وبين المجاهدين في سبيله، و أخبر عن تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة، ثم أخبر عن تفضيلهم عليهم درجات، باعتبار المنازل الرفيعة بعد دخول الجنة، والمغفرة باعتبار ستر الذنب، والرحمة باعتبار دخول الجنة[(٣)].

يقول ابن القيم: «ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق؛ عبودية لربه، وأعلمهم به، وأشدهم له خشية، وأعظمهم له محبة، كانت منزلته أقرب المنازل إلى الله، وهي أعلى درجة في الجنة، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أمته أن يسألوها له لينالوا بهذا الدعاء زلفى من الله وزيادة الإيمان»[(٤)].

(١) أضواء البيان، ٤ / ٦٨.
(٢) جامع البيان، ١٣ / ٣٨٩.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان، ٣ / ٣٤٧.
(٤) حادي الأرواح، ص٥٨.

٣. الترغيب في غرف الجنة.

أعد الله في الجنة لعباده غرفًا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، متألقة كأنها النجوم، ولقد ورد لفظ «غرف» في القرآن الكريم مرتين في سورة الزمر، وورد لفظ «غرفًا» مرة واحدة في سورة العنكبوت، وورد لفظ «الغرفات» مرة واحدة في سورة سبأ.

وبيّن الله سبحانه وتعالى صفات من يستحق دخول هذه الغرف وهم:

❁ **المؤمنون الذين يعملون الصالحات لهم في الجنة غرف.**

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

يقول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: «﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أي: لنسكننهم منازل عالية في الجنة، تجري من تحتها الأنهار، على اختلاف أصنافها، من ماء، وخمر، وعسل، ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاءوا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبدًا، لا يبغون عنها حولًا ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ﴾ نعمت هذه الغرف أجرًا على أعمال المؤمنين»(١).

ووصف الله سبحانه وتعالى حال المؤمنين في غرف الجنة بأنهم آمنون، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَلَا أَوْلَٰدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٦].

يخبر سبحانه وتعالى عن حال المشركين المغترين بالمال، والولد، فيقول لهم: وما أموالكم ولا أولادكم بالحال التي تقربكم منا، وتجعلنا نرضى عنكم، وندنيكم منا زلفى، أي: قربى.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: لكن من فعلوا الواجبات والمندوبات.

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ أي: المذكورون لهم جزاء الضعف، أي: جزاء تضاعف لهم حسناتهم فيه، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة، وذلك بسبب عملهم الصالح.

﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ أي: في منازل الجنة العالية، آمنون من الموت، ومن كل بأس، ومكروه، ومنغص لسعادتهم، ومن كل شر وخوف وحزن(٢).

❁ **المتقون لربهم لهم غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار.**

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

(١) تفسير القرآن العظيم، ١٠/ ٥٢٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١١/ ٢٩٢، أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٣٢٦.

وعد الله سبحانه و تعالى عباده السعداء، الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه، واجتناب محارمه، أن لهم غرفًا في الجنة، وهي قصور شاهقة من فوقها غرف مبنية مزخرفات عاليات(١).

❁ الذين يطعمون الطعام، ويفشون السلام، ويصلّون بالليل والناس نيام.

فعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن في الجنة غرفًا، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل، والناس نيام)(٢).

فبيّن النبي صلى الله عليه وسلم، أصناف الناس الذين يدخلون هذه الغرف في الجنة، وهم الذين يطعمون الطعام، ويمدون يد العون والمساعدة للمحتاجين، وكذلك الذين يفشون السلام على من يعرفون ومن لا يعرفون، ومن يصلّون بالليل، والناس نيام.

فهؤلاء أكرمهم الله سبحانه و تعالى بهذا الثواب، جزاءً على أعمالهم الصالحة التي قدموها في دنياهم.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٢٧٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٢/ ١١٩.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب وصف الغرف لمن أطعم الطعام، ٢/ ٢٦٢، رقم ٥٠٩.

٤ . الترغيب في ثمار الجنة وطعام أهلها.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبشّر المؤمنين المستقيمين بما رزقهم من جنات تجري من تحتها الأنهار، كما أخبر عنهم بأنهم إذا قدّم لهم أنواع الثمار المختلفة، قالوا: هذا الذي رزقنا مثله في الدنيا، فهو يشبه طعام الدنيا في اللون، غير متشابه في الطعم، زيادة في حسنه وكماله، وعظيم الالتذاذ به، فدلت الآية على كمال النعيم والسرور الذي أعده سبحانه و تعالى لعباده المؤمنين(٣).

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [محمد: ١٥].

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ولهؤلاء المتقين في هذه الجنة من هذه الأنهار التي ذكرنا من جميع

(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١/ ٤٤٦، أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ٣٦.

الثمرات التي تكون على الأشجار»[(١)]، فرزق الجنة متتابع التدفق على المؤمنين، فكما قال الله سبحانه وتعالى لآدم عندما وضعه في الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

هكذا سيكون حال جميع أهل الجنة الموعودة.

وقد أباح الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين في الجنة أن يتناولوا من خيراتها، وألوان طعامها ما يشتهون، قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس من المآكل والمشارب.

قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وسيأكل أهل الجنة أنواعًا من اللحوم.

قال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢].

وقد خص لحم الطير بالذكر، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١]؛ لأن لحوم الطير أطيب اللحوم وألذها، وقد يتبادر إلى الذهن أن طعام الجنة، ينتج عنه ما ينتج عن طعام أهل الدنيا، من البول والغائط، فالأمر ليس كذلك، فالجنة دار خالصة من الأذى، وأهلها مطهرون من أوشاب الدنيا[(٢)].

وحينما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن بقايا الطعام والشراب، أفاد أنها تتحول إلى رشح كرشح المسك، يفيض من أجسادهم.

فعن جابر رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(إن أهل الجنة يأكلون فيها، ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جشاء ورشح كرشح المسك...)**[(٣)].

وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم، أن أول طعام يتحف به أهل الجنة، زيادة كبد الحوت، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يكفؤها الجبار بيده، كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر، نزلًا لأهل**

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ١٦٨.

(٢) انظر: الجنة والنار، عمر الأشقر، ص٢٢٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها، ٨/ ١٤٧، رقم ٧٣٣١.
انظر: الجنة والنار، عمر الأشقر، ص٢٢٣، والجشاء: تنفس المعدة من الامتلاء.

الجنة، قال: فأتى رجل من اليهود، فقال: بارك الرحمن عليك أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: بلى، قال: تكون الأرض خبزة واحدة - كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: فنظر إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ضحك حتى بدت نواجذه، قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: بلى، قال: إدامهم بالام ونون[1]، قالوا: وما هذا؟ قال: ثور ونون، يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفًا)[2].

٥. الترغيب في شراب الجنة.

أكرم الله سبحانه وتعالى أهل الجنة إلى جانب الطعام الكثير، بأنواع من الشراب اللذيذ، من ماءٍ ولبنٍ وخمرٍ وعسل.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾

[محمد: ١٥].

مثل الجنة التي أعدّها الله لعباده، الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه، أي: نعتها وصفتها أنّ: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غير متغير الطعم والرائحة، لا بمرارة، ولا بكدورة، بل هو أعذب المياه وأصفاها، وأطيبها ريحًا، وألذها شربًا، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ بحموضة ولا غيرها، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: لذيذة الطعم، طيبة الشرب، لا كخمر الدنيا الذي يكره مذاقه، ويصدع الرأس، ويذهب العقل.

قال الشنقيطي: «وقد بيّن تعالى من صفات خمر الجنة، أنها لا تسكر شاربها، ولا تسبّب له الصداع، الذي هو وجع الرأس في آيات من كتابه، كقوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩].

وقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]»[3].

قال الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية: «أهل الجنة يسقون في الجنة كأسًا من الخمر ممزوجة بالزنجبيل، وقد كانت العرب تستلذ مزج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته»[4].

وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم نهر الكوثر في الجنة، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الكوثر نهر في

(١) بالام: الثور معربة عن العبرانية، النون: الحوت.
انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٧/ ١٣٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة الجنة والنار، باب نزل أهل الجنة، ٨/ ١٢٨، رقم ٧٢٣٥.

(٣) أضواء البيان، ٧ / ٢٥٣.

(٤) فتح القدير، ٥ / ٤٩٣.

الجنة، حافتاه من ذهب، والماء يجري على اللؤلؤ، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج)[(١)].

ومن خلال ما سبق تبين لنا أن الله سبحانه وتعالى استخدم أساليب كثيرة ترغّب المؤمن بالثواب العظيم والأجر الكبير الذي أعدّه الله لعباده، سواء في الدنيا أو الآخرة، وهذا يدل على كرم الله لعباده المؤمنين الموحدين.

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٩/ ٥٢٧، رقم ٥٣٥٥.

وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، ٣/ ٢٦١، رقم ٣٧١٩.

أثر الترغيب في سلوك المرء

إنّ المتأمل في القرآن الكريم أمرًا أو نهيًا أو قصصًا عن الأمم الماضية، يجد أن من أهم مقاصده وغاياته العظمى تهذيب سلوك المسلم وأخلاقه، وتزكية نفسه والرقي بها إلى معالي الأمور، ومكارم الأخلاق؛ حتى يصير من أفضل الناس سلوكًا، وأنبلهم أخلاقًا، وأحسنهم سيرةً وتعاملًا، وأكرمهم شيمًا ومروءة.

قال الله جل وعلا: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

ومن أجل ذلك بعث الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم لعباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور وليتمم لهم مكارم الأخلاق، ويزكيهم لأحسن الأقوال والأفعال.

والمسلم إذا تدبر كتاب الله وما اشتملت آياته من الترغيب التي لا تكاد سورة تخلو منه، وعمل بما في هذه الآيات، فاجتنب طريق الضالين المفسدين والمنافقين، واتبع طريق أولياء الله المتقين، وتقرّب إلى الله في السر والعلن بصالح العمل، وأدى العبادات من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج كما شرع الله كاملة بأركانها وواجباتها

مخلصًا بذلك وجهه لله تعالى، وأحسن معاملته للناس، واقتدى بأخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم، فإن نفسه تسمو، وهمته تعلو، وتتطلع إلى معالي الأمور ومكارم الأخلاق، وتعزف عن سفساف الأمور ورذائل الأخلاق، وينعكس ذلك على سلوكه وأخلاقه، ويكون ذلك سببًا لاستقامته ظاهرًا وباطنًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

يقول السعدي في تفسيره: «اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم، علمًا وعملًا فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة»[(١)].

فإذا استقام المرء على الطاعة، ينال بذلك رضا المولى جل وعلا ومحبته والقرب منه، ويفوز بالدرجات العلا من الجنة.

فوائد الترغيب في التربية والدعوة

لاشك أن الترغيب في القرآن له فوائد كثيرة على جميع المناحي ومختلف الأصعدة، لاسيما في التربية والدعوة إلى الله، وسوف نقتصر في هذا المبحث على الحديث عن فوائد الترغيب في التربية والدعوة إلى الله.

أولًا: فوائد الترغيب في التربية:

الترغيب منهج تربوي قرآني، يجب على المربّين اعتماده وأن لا يهملوه، خاصة إذا كان الأمر المراد بيانه أمرًا شرعيًا دينيًا، وردت فيه نصوص شرعية صريحة ترغّب فيه أو ترهّب منه؛ ذلك أن النفس البشرية بطبعها تميل إلى الثمرات الطيبة للأعمال وتطمع في الثواب، وتكره النتائج السيئة وتخاف من العقاب.

ويمثل هذا الأسلوب ينشأ المرء على محبة الله تعالى والحرص على طاعته، ويغرس في قلبه الخوف منه والرجاء فيه سبحانه وتعالى، فهذا الأسلوب يغرس الفضائل الإسلامية والقيم النبيلة.

وأما من نشأ بعيدًا عن هذه المعاني فإنه من العسير جدًّا التحكم في أخلاقه وتقويم سلوكه إذا ما وقع في بعض الانحراف.

وإنّ التربية الحقة إنّما تكون في تدريب الفرد وترغيبه على أعمال الخير وإرشاده

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٤٨.

إلى الصّراط المستقيم، وتعليمه الأخلاق الطّيبة، وذلك كله لا يتحقّق إلّا بالإيمان باللّه وحده وعدم الشّرك به تعالى؛ ولذلك كان أول نصائح لقمان لابنه البعد عن الشرك والإيمان بالله وحده.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

فمن الآية الكريمة يتبيّن أن الأصل الأول لهذه التربية الإيمان باللّه وعدم الشّرك به تعالى؛ ولهذا يجب أن تكون عظة لقمان لابنه نبراسًا يستضيء به الآباء في توجيه أبنائهم وسراجًا يقودهم من الظّلمات إلى النّور.

ثانيًا: فوائد الترغيب في الدعوة:

إنّ الترغيب في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى من أجلّ الأفعال، وأعظم الأعمال التي يؤديها المسلم في دنياه، فالدعاة إلى الله يقومون بمهمة بالغة الشأن، عظيمة الأهمية، ولما كانت الدعوة إلى الله أمرًا عظيمًا، فقد تولاها الله سبحانه وتعالى بنفسه.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

وأرسل بها رسله مبشرين ومنذرين، يدعون الناس إلى كل خير وينهونهم عن كل شر، يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله، وأقام من بعدهم عباده الصالحين من ورثة الأنبياء الصادقين، الذين جعلهم حجة على الناس في كل وقت وحين، ينشرون دين الله بين الأنام ويدعونهم إلى الجنة دار السلام.

فكم من أرض أناروها بنور الإسلام، وكم من أمم أخرجوها من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

وأعظم فضائل الدعوة على هذه الأمة هي الخيرية المطلقة التي نالت بها السبق على كل الأمم.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١١٠].

أي: عند الله في اللّوح المحفوظ، يعني: أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ثمّ مدحهم بما فيهم من خصال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهم خير الأمم وأنفع الناس للناس، وهذا شرف لأمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم قاموا بتبليغ الرسالة المحمدية للناس(١).

ويكفي الدعاة شرفًا أن قولهم من أحسن الأقوال، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٩٣.

﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ومن صور الدعوة إلى الله تحبيب العبد في ربه، بذكر تفاصيل نعمه، وسعة جوده، وكمال رحمته، وأوصاف كماله، ونعوت جلاله، ومن الدعوة إلى الله: الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك، بكل طريق موصل إليه.

ومن ذلك: الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر الوالدين.

ومن ذلك الوعظ لعموم الناس، في أوقات المواسم، والعوارض، والمصائب، بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك، مما لا تنحصر أفراده، مما تشمله الدعوة إلى الخير كله[1].

فالحاجة ماسة إلى الدعوة في هذه الأزمان بسبب كثرة التضليل، وانتشار الذنوب والمعاصي، وأمراض القلوب والشبهات والشهوات.

ومن هنا تظهر فوائد الدعوة إلى الله بأنها تقوّم السلوك، وتربي النفس على حب الطاعة لله والابتعاد عن المعصية، فقد بيّن سبحانه وتعالى أنّ من أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة الدعوة إلى الله.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

والخير المذكور في الآية هو كل شيء يرغب فيه من الأفعال الحسنة، وقيل: هو هنا كناية عن الإسلام.

والمعنى: لتكن أمة، أي: جماعة دعاة إلى الإسلام وإلى كل فعل حسن يستحسن في الشرع والعقل، وقيل: الدعوة إلى فعل الخير يندرج تحتها نوعان:

أحدهما: الترغيب في فعل ما ينبغي، وهو الأمر بالمعروف.

والثاني: الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر.

فذكر الحسن وهو الخير، ثم أتبعه بنوعيه مبالغة في البيان، والمعروف اسم لكل فعل يعرف بالعقل والشرع حسنه، والمنكر ضد ذلك، وهو ما عرف بالعقل والشرع قبحه[2].

يقول السعدي في تفسير قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: «الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب»[3].

فمن خلال ما سبق ظهر لنا أنّ الترغيب له فوائده التربوية، التي تعود على الفرد بالنفع

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٤٩.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن، ١/ ٢٨١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٤٢.

والخير والصلاح في الدنيا والآخرة، وكذلك أهمية الترغيب في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى فهي مهنة الأنبياء، والدعاة إلى الله موعودون بالفلاح في الدنيا والآخرة.

موضوعات ذات صلة:

التربية، الترهيب، الدعوة، النصيحة





عناصر الموضوع



مفهوم الترف

أولًا: المعنى اللغوي:

تطلق كلمة (ترف) ومشتقّاتها في اللغة العربية على عدة معانٍ، تدور كلها حول التنعّم، والتّرفّه، والرفاهية، فالتّرف والإتراف: النّعمة. والتّنعّم، والتّرفة: الطّعام الطّيّب[(١)]، وقيل: التوسّع في النّعمة[(٢)].

والمترف كـ(مكرم): المتروك يصنع ما يشاء لا يمنع منه[(٣)]، يقال: رجلٌ مترفٌ منعّمٌ، وترّفه أهله إذا نعّموه بالطّعام الطّيّب والشّيء يخصّ به[(٤)]، وصبيٌّ مترفٌ، كـ(مكرمٍ): إذا كان منعّم البدن مدلّلًا، ورجلٌ مترّفٌ، كـ(معظّم): موسّعٌ عليه[(٥)].

والمترف: الّذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش. وأترفته النّعمة، أي: أطغته[(٦)]، وإنّما سمّي المتنعّم المتوسّع في ملاذّ الدّنيا وشهواتها مترفًا؛ لأنّه مطلقٌ له، لا يمنع من تنعّمه، وأترف فلانٌ: أصرّ على البغي[(٧)].

فمعاني الترف تدور حول: النعمة، والمتعة، والدعة، والشهوة، والسلطة، وما تستعذبه النفس، وتستريح إليه من ملاذ الحياة وشهواتها[(٨)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الترف هو: مجاوزة حدّ الاعتدال في التنعّم وإشباع رغبات النفس[(٩)]. فالمترفون إذن حريصون على الزيادة في أحوالهم وعوائدهم، وساعون إلى بلوغ الغاية في حاجات النفس الحسية من المآكل، والمشارب، والمساكن، والمراكب.

---

(١) انظر: المحكم، ابن سيده، ٩/ ٤٧٦.
(٢) انظر: الدر المصون، الحلبي، ٦/ ٤٢٥.
(٣) انظر: الدر المصون، الحلبي، ٦/ ٤٢٥.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٤٥.
(٥) انظر: تاج العروس، الزّبيدي، ٢٣/ ٥٤.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٩/ ١٧.
(٧) انظر: تاج العروس، الزّبيدي، ٢٣/ ٥٤.
(٨) انظر: الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي، نادر فرج زيادة، ص٩.
(٩) عرّف الترف بعدة تعريفات، كلها متقاربة.
انظر: الترف وأثره في المجتمع، ناصر العمار ص ٩، الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي، نادر فرج زيادة ص٤٥.



الترف في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ت ر ف) في القرآن الكريم (٨) مرات[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون:٣٣]
اسم المفعول	٥	﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥﴾ [الواقعة:٤٥]

وجاء الترف في القرآن بمعناه في اللغة: التوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها[2].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٥٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص١٦٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإسراف:

الإسراف لغةً:

السين والراء والفاء أصلٌ واحدٌ يدلّ على تعدّي الحدّ والإغفال أيضًا للشيء. تقول: في الأمر سرفٌ، أي: مجاوزة القدر[(١)].

الإسراف اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «صرف الشيء فيما ينبغي زائدًا على ما ينبغي»[(٢)].

وقال الطاهر ابن عاشور: «والإسراف: الإفراط والإكثار في شيءٍ غير محمودٍ»[(٣)].

الصلة بين الإسراف والترف:

العلاقة بين الترف والإسراف علاقة وثيقة مترابطة، فالسّرف هو أوّل ظواهر الترف وأولى لبناته، والإسراف يجرّ حتمًا إلى الترف، وهو من الأخلاق التي تنهار معها أخلاق الفرد وأخلاق المجتمع.

٢ التبذير:

التبذير لغةً:

بذّره تبذيرًا: خرّبه وفرّقه إسرافًا. وتبذير المال: تفريقه إسرافًا، وإفساده[(٤)].

التبذير اصطلاحًا:

هو «صرف الشيء فيما لا ينبغي»[(٥)].

وقيل: هو إنفاق المال في المعاصي أو في غير حق.

الصلة بين التبذير والترف:

إذا تفاقم الترف في تجاوزه للحدّ فإنه يصل إلى حدّ التبذير، وإضاعة الأموال في أمور ضارّة، أو لا حاجة لها.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ١١٩.
(٢) التعريفات، ص٢٤.
(٣) التحرير والتنوير، ١١/ ١١٢.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٦/ ٦٧.
(٥) التعريفات، الجرجاني، ص٢٤.

٣ التقتير:

التقتير لغة:

من قتر، وفلان قتر ضاق عيشه، وضيق على عياله في النّفقة[١].

التقتير اصطلاحًا:

عرفه المناوي بقوله: هو «تقليل النفقة، ويقابله الإسراف، وهما مذمومان»[٢].

الصلة بين التقتير والترف:

كما هو واضح، فإن العلاقة بينهما علاقة تضادّ، فالتقتير تضييق في النفقة، والترف مجاوزة الحدّ في الإنفاق.

٤ الشح:

الشح اللغة:

«البخل مع حرص»[٣]. وقال ابن منظور رحمه الله تعالى: «الشح أشد البخل»[٤].

والشح اصطلاحًا:

هو: «حرص النفس على ما ملكت وبخلها به، وما جاء في التنزيل من الشح، فهذا معناه كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

وقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]»[٥].

قال الراغب رحمه الله تعالى: «الشح: بخل مع حرص، وذلك فيما كان عادة»[٦].

وقال الجرجاني رحمه الله تعالى: «بخل الرجل من مال غيره»[٧].

الصلة بين الشح والترف:

العلاقة بينهما أيضًا علاقة تضادّ، فالشّح فيه منع الإنفاق، والترف مجاوزة الحدّ فيه.

---

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٧١٤.
(٢) التوقيف، ١/ ١٠٥.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٧٨.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٤٩٥.
(٥) المصدر السابق ٢/ ٤٩٦.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٤٦.
(٧) التعريفات ص ٤٢.

أسباب الترف ومظاهره

للترف أسباب ومظاهر بيّنها القرآن الكريم سوف نتناولها فيما يأتي:

أولًا: أسباب الترف:

الترف ظاهرة اجتماعية، وآفة إنسانية خطيرة، تنشأ وتظهر لأسباب ودواعٍ كثيرة، منها:

١ . بسط الدنيا ووفرة النعم.

انفتاح الدنيا على الناس، ووفرة النعم يكون غالبًا من أكبر دواعي الترف وأسبابه؛ وذلك لأنه يدعو إلى الركون والمتعة والراحة، ويدفع إلى البذخ والإنفاق في غير حاجة، وواقع المجتمعات يشهد بذلك، فإنه كلما بسطت الدنيا على الناس اقتربوا من الترف والبطر.

وقد أوضح الله تعالى في كتابه هذه الحقيقة في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٧].

وقوله سبحانه: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦- ٧].

ومن أجلى صور الطغيان وأوضحها البطر بالنعمة والإنفاق في غير حاجة ترفًا ومباهاة وحبًّا للظهور.

وهذا ما خشيه النبي صلى الله عليه وسلم علينا، فقال محذرًا لنا: **(فو اللّه ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدّنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم)**(١).

وقد بيّن الله تعالى أن التوسعة في النّعم على العباد في الدنيا إنما هو امتحان وابتلاء، وليس رضًا عليهم ولا محبة لهم بخلاف ما يعتقدونه؛ فإنهم يعتقدون أو يظنون بأن النّعم التي تأتيهم علامة على رضا الله عنهم، وليس هذا في الحقيقة، فمن عاش في حياة الترف وألهاه التنعّم بالانغماس فيه والاستكثار منه عن التعبد لله تعالى وأشغلته هذه الأمور عن طاعة الله تعالى فهذا مسكين.

قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ -٥٦].

قال قتادة: «مكرٌ والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح»(٢). إن هؤلاء: «يحسبون

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا، ٧/ ١٧٢- ١٧٣، رقم ٦٤٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، ٤/ ٢٢٧٤، رقم ٢٩٦٢، من حديث عمرو بن عوف.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤١٧.

أن الإملاء لهم بعض الوقت، وإمدادهم بالأموال والبنين في فترة الاختبار، مقصود به المسارعة لهم في الخيرات وإيثارهم بالنعمة والعطاء: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ وإنما هي الفتنة، وإنما هو الابتلاء ﴿ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ لا يشعرون بما وراء المال والبنين من مصير قاتم ومن شر مستطير! »[(١)].

ويزداد تأثير كثرة النعم ووفرتها على الإنسان، وجرّه إلى الترف وغاية الرفاهية حين يكون مولودًا في النّعم، لم تمرّ به حالات بؤس، ولم يعرف شدّة البلاء ومعاناة الفقر، بل جاءه المال وتوفرت لديه النّعم بسهولة ويسر من دون ما كسب أو بذل جهد.

٢. حب النفس للشهوات.

«حبّب الله تعالى للبشر زينة الحياة الدنيا وزخرفها، فقال الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وليست المشكلة في ذلك الحب الذي وضعه الله تعالى في القلوب، بل إنه فطري، وضروري لاستمرار الحياة والقيام بواجب الخلافة في الأرض، ولكنها تكمن في تقديم حبّ تلك الأشياء على محبوبات الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وما ينتج عن ذلك من التشاغل بها والركون إليها، حتى يصير الإنسان كأنه مسترقٌ لها لا يستطيع عمل ما يخالفها، وإن كانت في ذلك سعادته ونجاحه، وقد حذّر الله تعالى في كتابه عباده من تقديم حبّهم لشهواتهم وملذّاتهم على حبّه وحبّ رسوله صلى الله عليه وسلم، والعمل لدينه، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

فليحذر الإنسان من الترف الذي يجعل نفسه عرضةً لعبودية الهوى والشهوات، ويردّ الحقّ ويكذّب به، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤].

وقال: ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٧٢.

﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١]»[1].

٣. طول الأمل ونسيان الموت.

«الانشغال بمتاع الدنيا وشهواتها ناتج عن طول الأمل، ونسيان الإنسان كونه في رحلة إلى الدار الآخرة تكتمل بنزول ملك الموت لقبض الروح، ونظرًا لخطورة تلك الغفلة عن ذلك المصير وما تنتجه من ضعف الخوف من الله تعالى وقلّة الخشية له، وبالتالي عدم المحاسبة للنفس والمراقبة لعملها.

قال تعالى محذّرًا من ذلك: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

قوله: ﴿وَيُلۡهِهِمُ﴾ أي: يشغلهم أملهم في الدنيا والتزيّد منها عن النظر والإيمان بالله ورسوله»[2]، ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ «أي: عاقبة أمرهم»[3].

وقال صلى الله عليه وسلم موصيًا ابن عمر: (كن في الدّنيا كأنّك غريبٌ أو عابر سبيلٍ)[4].

«وذلك لأن الغريب لا تعلق له ببلد الغربة، ولا تشاغل لديه بملذاتها وملهياتها، بل قلبه معلّق بوطنه الذي يرجع إليه»[5] «والمسافر لا همّ له في الاستكثار من متاع الدنيا أثناء قطعه لمنازل السفر، وإنمـا يكتفي بتحصيل زاد السفر له و لراحلته لا غير»[6].

٤ . الاغترار بالمال والسلطان.

« قال الله تعالى عن قارون أنه قال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨].

أي: فضّلت به على النّاس واستوجبت به التفوق عليهم بالمال والجاه»[7]. «إنها قوله المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال ويعميه الثراء. وهو نموذج مكرر في البشرية. فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه. ومن ثم فهو غير مسؤول عما ينفق وما يمسك، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله حسابًا، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه!»[8].

«إنّ الجاه والمنصب قد يحمل على الظلم، والتعدّي، وعدم المبالاة بحقوق الآخرين، كما هي عادة المترفين»[9].

(١) الترف وخطره على الدعوة والدعاة، فيصل البعداني، مجلة البيان، بتصرف يسير.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٥٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (كن في الدّنيا كأنّك غريبٌ أو عابر سبيلٍ)، ٨/ ٨٩، رقم ٦٤١٦، من حديث عبد الله بن عمر.
(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٣٧٨ بتصرف.
(٦) المصدر السابق ٢/ ٣٨١.
(٧) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٥.
(٨) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١٢.
(٩) الترف وذمه في القرآن الكريم، محمد المحيميد ص٢٣٤.

«ومن مضار الجاه أن يستخدمه فيما يسوء الخلق، فالأمير قد يظلم المأمور بتوقيفه بحجّة باهتة، أو بالاستيلاء على ماله، أو بمنعه من دخول البلاد، والموظف -وهو أمير على من تحته- قد يظلمهم...»، ولا يعمل تلك الأعمال إلا المترفون المنعمون بحصول الجاه لهم»[1].

٥. ضعف الإيمان.

من أبرز أسباب الترف: ضعف الإيمان أو انعدامه، وقلة الوازع الديني؛ فإن «الترف مرتبط بالبعد عن دين الله ارتباطًا وثيقًا؛ ولذا فإن الترف إنما ورد ذكره في السور المكية، وفي ذمّ القوم المعاندين للرسل الذين أبطرتهم النعمة وصدتهم عن الإذعان للحق النازل من عند الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

إنّ النعمة إذا لم تصادف قلبًا مؤمنًا خاشعًا فإنها تتحول في كثير من الأحيان والأحوال إلى أداة للترف والبطر والطغيان.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤-٣٥].

ولا يعني ذلك أن الترف خاصّ بالكفار والمكذبين، بل هو خلقٌ عامّ ينطبق على كل من اتصف به، والله تعالى يذكر صفات القوم ليحذّرنا من الوقوع فيها، وقد وقع كثير من المسلمين في الترف، وهذا راجع إلى ضعف الإيمان، وقلة الوازع، والانغماس في المعاصي، والاغترار ببريق الدنيا وزخارفها»[2].

٦. التقليد.

إنّ الإنسان يتأثر ببيئته تأثرًا كبيرًا، فمن نشأ في بيئةٍ مترفةٍ لا تهتم بتربية النّشء على الجلد والخشونة، ولا توجهه في كيفية التعامل مع فتنة الحياة الدنيا وزخرفها، فإنّه يتأثر بذلك حتمًا إلا من رحم الله.

وقد جاء في بعض آيات الترف الإشارة إلى تأثر المترفين ببيئتهم وأسلافهم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

يقول المترفون: «وجدنا آباءنا في نعمةٍ من الله وهم يعبدون الأصنام، فذلك دليل رضاه عنهم، وكذلك اهتدينا نحن بذلك

---

(١) الترف وأثره في المجتمع، ناصر العمار ص ١٨.

(٢) الترف وذمه في القرآن الكريم، محمد المحيميد ص٢٣٦.

على آثارهم﴾[1].

ثانيًا: مظاهر الترف ومجالاته:

المتأمل لحقيقة الترف يجد أنّ صوره وأشكاله قد تعدّدت وتنوّعت في القرآن مما يدّل على خطورته وأثره في سلوك العبد مسلمًا كان أم كافرًا، وهذه المظاهر حينما يتأملها المسلم في الآيات يشعر بمدى عظم ذلك الجرم، ويرى في ثنايا الآيات رحمة الله بعباده المسلمين حيث حذّرهم من هذه الآفات التي أهلكت الأمم السابقة، فيدفعه ذلك إلى شكر نعم الله تعالى عليه، والتحدّث بها ظاهرًا والإقرار بها باطنًا، وتصريفها في مرضاته.

وللترف مظاهر كثيرة، من أبرزها ما يلي:

١ . الترف في مواجهة الأنبياء.

للترف أثرٌ بالغ في الدول والمجتمعات، بل هو معول هدمٍ لطاقاتها وقدراتها؛ فهو يغري صاحبه بالإخلاد إلى الأرض والخوض في الدنيا، والتعلّق بالمناصب والجاه والمال، ونسيان معالي الأمور وعدم المخاطرة بالنفس في طلب العلم والجهاد؛ ولهذا عدّ المترفون أعداءً للأنبياء والمرسلين؛ لأنهم يقفون في طريق الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

❁ المترفون وعقيدة التوحيد.

ما من رسول إلا دعا قومه إلى توحيد الخالق سبحانه وتعالى وإفراده بالعبودية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومن خلال تتبع قصص الأنبياء في القرآن الكريم وجد أن الصفة التي تكاد تطّرد في جميع مكذبيهم هي الترف الحامل على رفع لواء العتوّ والاستكبار والإباء، فالمترفون «هم الذين يبادرون إلى تكذيب الأنبياء»[2]، وهم الملأ الذين يتولون كبر معارضة الرسل، كما ورد في آيات كثيرة من القرآن.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٥ - ٢٧].

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٥١.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٦٧.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٣٤].

وحينما دعا نبي الله هود عليه السلام قومه لدعوة التوحيد أجابوه بقولهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

ومثل ذلك وقع من قوم نبي الله صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥ - ٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٤-٦].

* المترفون وجحد الرسالات.

واجه المترفون رسلهم أيضًا في أصل رسالتهم ونبوّتهم من الله تعالى، وأخذوا يشكّكون في ذلك، ويرفضون قبول أنهم مرسلون من الله تعالى مبلّغون عنه، مما زاد من الضيق والحرج في صدور أنبياء الله، وقد بيّن القرآن هذه المواجهة في آيات كثيرة، منها:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٣٤].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في هذين الوصفين إيماء إلى أنهما الباعث على تكذيبهم رسولهم؛ لأن تكذيبهم بلقاء الآخرة ينفي عنهم توقّع المؤاخذة بعد الموت، وثروتهم ونعمتهم تغريهم بالكبر والصلف؛ إذ ألفوا أن يكونوا سادةً لا تبعًا.

وجملة: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كناية عن تكذيبه في دعوى الرسالة؛ لتوهمهم أن البشرية تنافي أن يكون صاحبها رسولًا من الله، فأتوا بالملزوم وأرادوا لازمه.

وجملة: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ في موقع التعليل والدليل للبشرية؛ لأنه يأكل مثلهم ويشرب مثلهم ولا يمتاز فيما يأكله وما يشربه[1].

ولذلك لم يتقبلوا ما دعاهم إليه رسولهم من اتقاء عذاب يوم البعث وطلبهم النجاة باتباعهم ما يأمرهم به، فقال بعضهم لبعض: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ فلما أنكروا رسالته وردوها، أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت، والمجازاة على الأعمال.

* المترفون وعقيدة البعث.

رفض المترفون الإقرار والإذعان بعقيدة البعث بعد الموت، واستهزءوا برسولهم فيما قال، وواجهوا هذه العقيدة بالسخرية، فقالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٥ - ٣٨].

قال ابن عاشور رحمه الله: «والاستفهام في قوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ للتعجب، وهو انتقال من تكذيبه في دعوى الرسالة إلى تكذيبه في المرسل به، وجعلوا موجب الاستبعاد هو حصول أحوال تنافي أنهم مبعوثون بحسب قصور عقولهم، وهي حال الموت المنافي للحياة، وحال الكون ترابًا وعظامًا المنافي لإقامة الهيكل الإنساني بعد ذلك»[2].

وبيّن سبحانه وتعالى أن ذلك التكذيب من أسباب عذابهم يوم القيامة.

فقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٥٠].

فقد «كانوا يقيمون على الكفر بالله والإشراك به ومعصيته، ولا ينوون التوبة من ذلك، وكانوا يقولون إنكارًا للبعث: أنبعث إذا متنا وصرنا ترابًا وعظامًا بالية؟ وهذا استبعاد منهم لأمر البعث وتكذيب له»[3].

قال البيضاوي رحمه الله: «﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ كررت الهمزة للدلالة على إنكار البعث مطلقًا وخصوصًا في هذا الوقت، كما دخلت العاطفة في قوله:

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨/ ٥٢-٥٣ باختصار.

(٢) المصدر السابق.

(٣) التفسير الميسر لنخبة من العلماء ١/ ٥٣٥.

﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ للدلالة على أن ذلك أشد إنكارًا في حقهم لتقادم زمانهم، وللفصل بها حسن العطف على المستكن في ﴿ لَمَبۡعُوثُونَ ﴾»[1].

ولذلك جاءت الآيات لتواسي النبي صلى الله عليه وسلم في مواجهته لعتو قومه من المترفين وكفرهم بدعوته.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ۝٢٣ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣- ٢٤].

٢. الترف في متاع الحياة الدنيا.

من أبرز مظاهر الترف في الحياة الدنيا ما يلي:

- الترف في المال.

الإنسان بطبعه يحب المال حبًّا كثيرًا؛ فهو وسيلته للعيش في الحياة الدنيا، وللزينة فيها كثرت أو قلّت، قال الله تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴾ [الفجر: ٢٠].

وقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨].

وقال تعالى: ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾ [الكهف: ٤٦].

وقد جعل الله الأموال قيامًا للناس، وقسمها بين عباده كما يشاء، قال تعالى: ﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وكان هذا المال مجالًا لطاعة الله وعبادته لأهل الإيمان والدين، ينفقونه في مرضات الله بعدما يكتسبونه مما أحلّ الله، وأما أهل الشر والفساد؛ فإنهم يكتسبونه من الحرام، أو ينفقونه في الحرام، أو هما معًا.

وقد قال تعالى عن إبليس: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٤].

ومشاركة إبليس للعباد في أموالهم هو ما يأمرهم به من إنفاقها في معاصي الله تعالى، فكل مال عصي الله فيه بإنفاق في حرام، أو اكتساب في حرام، فهو من مشاركات إبليس لعنه الله، والله تعالى لا يحب الفساد.

والمال في الأصل هو مال الله، أعطاه للإنسان وديعة؛ لينفقه على نفسه، وعلى مجتمعه في سبيل الخير، وهذا ما صرّح به

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٨٠.

القرآن، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ [النور: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

فإسراف الغني في إنفاق المال وتبذيره بغير الطرق المشروعة هو اعتداء على مجموع الأمة؛ لأن المال عصب الحياة، ومصدر قوّة الأمّة.

ولقد وصف الله المبذرين بالسفه، وأمر بالحجر على أموالهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ [النساء: ٥]. يعني: لئلا يضيعوها.

وإضاعة المال تكون بإنفاقه في غير وجوهه الشرعية، وكذلك تعريضه للتلف.

ولقد راج التبذير في مجتمعنا في الطبقة الغنية والطبقة المتوسطة، وهذا ما ينذر بأوخم العواقب.

ومن صور الترف في المال ما ذكره الله تعالى في قصة قارون؛ فهذا الرجل قد أعطاه الله من الخير المال الكثير والرزق العميم، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنه، ولكنه لم يشكر الله تعالى، وبدّل نعمته تعالى كفرًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ۝٨١ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٢ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٧٦ - ٨٣].

هذه الآيات قد فصّلت حاله، وبيّنت مآله، وكشفت شيئًا من ترفه في المال، فمن ذلك:

- أن مفاتح كنوزه تعيي المجموعة من أقوياء الرجال ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾.
- أنه لم يتصح بما أسداه إليه قومه من نصح، بل استعد وتجمّل بأعظم ما

يمكنه ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ مريدًا بذلك إظهار عظمته وكثرة أمواله. فكان مآله: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾.

وهنا يجب مراعاة أمر مهم ألا وهو أن ما سبق لا يعني محاربة أو رفض الحياة الهانئة، بل إن الأمر يتعلق بمدى الانغماس في النعيم، فلا يجب إنكار هذا التنعم إذا ما وقع في إطار الاعتدال.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

أما ما كان منه في إطار المبالغة التي تصل إلى حدّ الإسراف والتبذير فإنه ولا شك مذموم مرفوض.

- الترف في الطعام.

لا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

لكن البعض يأكل ليس لأجل الحاجة للأكل، بل لأجل التعوّد، فهو مثلا تعوّد على نظام الوجبات الثلاث، والتوسّع في المآكل والمشارب، والتفنّن في إعداد الطعام وتزيينه، والإكثار من الحديث عنه والتفاخر به، والبحث عن أطايبه، والتنادي إلى كل ذلك، والاجتماع عليه والتواصي به، وذلك من مظاهر الترف الذي جعل الجم الغفير من الناس يعانون بسببه من السمنة وكثيرٍ من الأمراض الناشئة عن التّخمة.

ومعظم أمراض الإنسان ناتجة عما يدخله الإنسان إلى جوفه، وقد نهى الحكماء عن إدخال الطعام على الطعام، وقالوا: «إن ذلك أساس المرض». «والذي يضبط لك هذا الباب، ويحفظ قانونه على الميزان: أن تأكل ما وجد، طيبًا كان أو قفارًا، ولا تتكلف الطيب وتتخذه عادة»[(١)].

وينبغي أن يكون القصد من الأكل عند الإنسان أن يكون بلغة إلى الآخرة، ومعينًا على عبادة الله، وتحقيق الموازنة القائلة: لا ضرر ولا ضرار. فالقصد هو الاعتدال دون التّخمة في الأكل. وهذه قاعدة نافعة، مبعدة للآخذ بها عن الترف، وقد أمرنا بعدم الإسراف في الطعام.

قال الله تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

والمقصود بالإسراف في الطعام «إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي والشره

(١) قمع الحرص بالزهد والقناعة، القرطبي ص ٢٠٥ بتصرف.

في المأكولات الذي يضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفّه في المآكل والمشارب واللباس»[(١)].

❁ الترف في المسكن والبناء.

من مظاهر الترف صرف الأموال الضخمة في بناء المنازل والدور، والتباهي في إعدادها وتصاميمها البديعة في الشكل الخارجي والداخلي، مع الحرص على تعدّد مواقعها، فبعضها للشتاء والآخر للصيف، وبعضها للسكن وبعضها للنزهة، ومع الحرص على سعتها وكثرة غرفها ووجود ملحقات لها ووفرة وسائل الترفيه فيها، مع الإكثار من الفرش الوثيرة والأواني الفاخرة والمتاع الراقي، مع أن الذي يكفي الإنسان من ذلك الشيء القليل، وأيام العمر تقصر، وتأبى أن تتسع للعبد لكي ينتفع بها ويستخدمها.

وكلامنا هذا لا يعني أن لا نبني بيوتنا بوسائل البناء الحديثة، بل نستفيد مما هو موجود في حدود الاعتدال، مع البعد عن المفاخرة والتظاهر، ومع تذكر أننا راحلون إلى دار آخرة هي خير من هذه، فلا نتمادى في تشييد المباني، بل القصد هو الخير.

والقرآن ذكر لنا صورًا من ترف الأمم المترفة السابقة في المسكن والبناء، من هذه الصور:

الصورة الأولى: قوم (عاد) المترفون: حيث أنكر نبي الله هود عليه السلام عليهم هذا الترف في المساكن بقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨].

قال ابن كثير رحمه الله: «ولهذا قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾ أي: معلمًا بناء مشهورًا، ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي: وإنما تفعلون ذلك عبثًا لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة؛ ولهذا أنكر عليه نبيهم عليهم السلام ذلك؛ لأنه تضييع للزمان، وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة»[(٢)].

«فبناء قوم عاد للمساكن يبدو من الآيات أنه كان ترفًا، وأن القصد من ذلك كان هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة، ومن ثمّ سماه عبثًا، ولو كان لهداية المارة، ومعرفة الاتجاه ما قال لهم: ﴿تَعْبَثُونَ﴾ فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد، وتنفق البراعة، وينفق المال فيما هو ضروري ونافع، لا في الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة»[(٣)].

الصورة الثانية: قوم ثمود: فهؤلاء القوم المترفون ذكر القرآن عنهم على لسان نبيهم صالح عليه السلام أنه قال لهم: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

قال ابن كثير رحمه الله: «قال ابن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٨٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ١٥٢.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٠٩ بتصرف.

عباس وغير واحد: «يعني: حاذقين»، وفي رواية عنه: «شرهين أشرين» وهو اختيار مجاهد وجماعة، ولا منافاة بينهما؛ فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا، من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها»[1].

فنخلص من هذا إلى أنّ البناء إذا كان للترف والمفاخرة، وعدم الحاجة فهو المنهي عنه، والمذموم صاحبه، أما إذا كان البناء للحاجة مع الاعتدال، وعدم المفاخرة والتباهي فلا شيء في ذلك، والشرع لم ينه عنه، والله أعلم.

• الترف في الملبس.

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

عندما أمر الله تعالى بالزينة في الملبس قصد من ذلك أن تضمن لصاحبها مظهرًا مقبولًا، يستر ما تحته من عورة، ويقي من البرد في فصل الشتاء، ويمنع الحرّ في فصل الصيف، وأن لا يكون في ذلك الملبس أي نوع من الخيلاء؛ لأن من سلك مسلك المترفين فلا شك أنه أصيب بالمخيلة، وهو مرض عضال، يسقط صاحبه من حيث رفعه، فهو في نفسه رفيع، وفي نظر الله والناس وضيع، وإن اغترّ به البعض.

ومن مظاهر الترف جعل المال في الملابس الراقية، والاكتفاء بلبس الجديد والفاخر، حتى كثرت بسبب ذلك الملابس غير المستخدمة في المنازل، وتكدست مع وجود تنوع في الاستعمال حسب تعدد فصول العام، واختلاف أوقات اليوم، ويبرز ذلك الجانب أكثر لدى النساء.

قال صلى الله عليه وسلم: (**إن من شرار أمتي الذين غذوا في النعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب يتشدّقون بالكلام**)[2].

وليس معنى هذا أن نترك زينة الدنيا ونحرّمها على أنفسنا ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ولكن الأساس في هذا النوع من التنعم وغيره من سائر وجوه التنعم أن ينضبط بحد القصد والاعتدال.

ومن صور الترف في الملبس: لبس الحرير للرجال، فقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: (**لا تشربوا في إناء الذّهب والفضّة، ولا تلبسوا الدّيباج والحرير، فإنّه لهم في الدّنيا، وهو لكم في الآخرة يوم القيامة**)[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ١٥٦.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص ٧٧.
وصححه الألباني بمجموع طرقه، في السلسلة الصحيحة ٤/ ٥١٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس

٣. الافتخار بالنفر والجاه.

مما درج عليه المترفون في حياتهم افتخارهم بالنفر والجاه، والاستعلاء بهما على الناس، وهذا أمر مطرد بين كل الأمم المترفة، والقرآن ذكر لنا من حال هؤلاء المترفين في افتخارهم بالنفر والجاه عدة آيات، منها: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤- ٣٥].

«هذا هو رد المترفين على كل دعوة إلى الإيمان بالله، وتلك هي حجتهم عند أنفسهم وعند الناس، إنهم بما يملكون من كثرة في الأموال، وما عندهم من كثرة في الأولاد والرجال لن يكونوا تابعين لغيرهم، ولن يجعلوا لأحد كلمة عندهم، حتى ولو كان رسولًا من رسل الله، يدعوهم إلى الله، ويكشف لهم معالم الطريق إلى الحق والهدى! إنهم أكثر أموالًا وأولادًا من هذا الرسول، فكيف يقوم فيهم مقام الناصح ذي الرأي والسلطان؟! وكيف يتفضّل إنسان على من كان أكثر منه مالًا وولدًا؟!

وفي قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ إشارة إلى أنهم بما لهم من كثرة في المال والأولاد، لن ينزلوا عن مقام السيادة لأحد، ثم إنهم إذا عذّب غيرهم من الفقراء والمستضعفين لن يعذبوا هم؛ فإن الله ما أعطاهم هذا الوفر في المال والكثرة في الأولاد إلا لأنهم أهل للكرامة، وموضع للفضل عنده، وكما كانوا في الدنيا في هذا المقام بين الناس، فهم في الآخرة -إن كانت هناك عندهم آخرة- في هذا الموضع أيضًا، حيث يعذّب الفقراء والمستضعفون، أما هم فلن يعذّبوا، بل ينزلوا منازل الإكرام والإعزاز؛ ذلك ظنهم بأنفسهم»[(١)].

والمتمعن في الآية يستطيع أن يستنبط السبب الرئيس للتكذيب من قبل المترفين لأنبيائهم، ألا وهو خوفهم من زوال النعم والشهوات التي نعّموا بها، من قبيل كثرة الأموال والأولاد، واستعلاؤهم بما آتاهم الله من فضله ونعمائه، حيث اعتقدوا أنّ الفيصل في المفاضلة بين الناس هو الثروة وكثرة النسل من الذكور.

وقد ذكر لنا القرآن مثالًا عمليًّا من تكبّر المترفين بنفرهم، واعتزازهم بأولادهم في قصة صاحب الجنتين، حيث قال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا

والزينة، باب تحريم الشرب في آنية الذهب وخاتم الذهب والحرير على الرجل، ٣/ ١٦٣٧، رقم ٢٠٦٧، عن البراء بن عازب.

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٨٢٩-٨٣٠٩ بتصرف يسير.

﴿خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٢ - ٣٦].

فصاحب الجنتين «تمتلئ نفسه بهما، ويزدهيه النظر إليهما، فيحس بالزهو، وينتفش كالديك، ويختال كالطاووس، ويتعالى على صاحبه الفقير: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين، وملء نفسه البطر، وملء جنبه الغرور وقد نسي الله، ونسي أن يشكره على ما أعطاه وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبدًا، أنكر قيام الساعة أصلًا، وهبها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار! أليس من أصحاب الجنان في الدنيا فلا بد أن يكون جنابه ملحوظًا في الآخرة! ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾.

إنه الغرور يخيّل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ»[1].

والقرآن الكريم لم يترك هذا الاعتقاد عند المترفين دون ردٍّ عليهم وبيان لخطئهم، بل بيّن لهم موازين القيم، وأنها مرتبطة بالإيمان والعمل الصالح، وليس بكثرة النفر والأولاد، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقد بيّن الله تعالى أن التوسعة في النعم على العباد في الدنيا إنما هو امتحان وابتلاء، بخلاف ما يعتقدونه، فقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

وكما ذكر القرآن مثالًا عن افتخار المترفين بالنفر فإنه ذكر لنا مثلًا على الافتخار بالجاه يتجلّى في موقف قريشٍ من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم حيث قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

«أي: هلا كان إنزال هذا القرآن على

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٠.

رجلٍ عظيمٍ كبير في أعينهم من القريتين! يعنون: مكّة والطائف»[(١)]، «فهم يرون أنفسهم أحق بالرسالة لعظم جاههم، وهذا الجاه النابع عن المادة مردٍ، ويزول بزوال صاحبه، أما الجاه النابع عن الروح -وهو ما يضطر الإنسان إليه- فإنه منجٍ، وباقٍ ولو توفي صاحبه»[(٢)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٢٥ بتصرف يسير.

(٢) الترف وأثره في المجتمع، ناصر العمار ص ١٨ بتصرف.

أخلاق المترفين وعاقبتهم

تحدث القرآن الكريم عن المترفين وأخلاقهم وعاقبتهم، وهو ما نتناوله فيما يأتي:

من أخلاق المترفين وسلوكهم:

أولًا: من أخلاق المترفين:

١. الكبر.

المتأمل في نصوص القرآن الكريم يجد أن الله تعالى ذمّ الترف والمترفين، وذكر للمترفين أخلاقًا عرفوا بها في القرآن الكريم، ومن هذه الأخلاق الكبر، وهو بطر الحقّ، وغمط النّاس[(٣)(٤)].

ونجد الكبر ورفض الحقّ واضحًا جليًّا في مقابلة الملأ المترفين لدعوة رسلهم وأنبيائهم.

فمنذ عهد نوحٍ عليه السلام نجد هؤلاء الملأ المترفين المستكبرين يقفون في وجه الدعوة، مستقلّين شأن المتبعين لها من الفقراء الذين لا مال لهم ولا جاه، بل ويطلبون أن يطرد هؤلاء الأراذل في رأيهم؛ قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ

(٣) بطر الحق: أي دفعه وأنكره وترفّع عن قبوله.
غمط الناس: احتقارهم والتهاون بحقوقهم.
انظر: فيض القدير، المناوي ٥/ ٦٢.

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ١/ ٩٣، رقم ٩١ عن عبد الله بن مسعود.

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

فانظر إلى هؤلاء المترفين للتعرف على كبرهم ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ «فهم يسمون الفقراء من الناس أراذل كما ينظر الكبراء دائمًا إلى الآخرين الذين لم يؤتوا المال والسلطان»[1].

فزينة الحياة الدنيا ومتاعها، أخذت بعقول هؤلاء، فقادهم الترف فيها إلى الكبر، وهذا تجده في القرآن عامًّا في جميع الرسالات، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤ - ٣٥].

فـ«الترف يفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر على الهدى وتصر على الباطل، ولا تتفتح للنور»[2].

٢. الحرص على الشهوات والمتع.

من أخلاق المترفين التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم، الحرص على الشهوات والمتع والزينة.

فأهل الترف يؤثرون الشهوات والمتع في الدنيا -وإن كانت على حساب الشرع- على الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

قال الطبري: «اتبعوا ما أنظروا فيه من لذات الدنيا، فاستكبروا عن أمر الله وتجبروا وصدوا عن سبيله»[3]. وهذه الآية تنعي على القرى المهلكة عدم وجود جماعة أولي «عقل ورأي وصلاح ينهونهم عن الفساد في الأرض باتباع الهوى والشهوات التي تفسد عليهم أنفسهم ومصالحهم، فيحولون بينهم وبين الفساد»[4].

فهؤلاء المترفون «صبّ عليهم النعمة صبًّا، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات»[5]، حتى فجأهم العذاب ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾[6].

وهذا يوحي بأن المرء متى تجرّد للحق فإنه لا يملك إلا اتباع الكتاب والسنة، ما لم يصب بآفة الترف التي تقطعه عن هذا الاتباع المحمود، وتجعله يركن إلى الشهوات ويألف التمرّد والعصيان، ومن ثم تخرجه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٨٧٢.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٩١٠ بتصرف.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٢٩.
(٤) تفسير المراغي ١٢/ ٩٧.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٧/ ٢٤.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٦١.

عن حدّ الاعتدال إلى حدّ الإسراف والظلم للآخرين.

وبذلك يظهر شؤم الترف وأنه «هو الباعث على الفسوق والعصيان والظلم والإجرام، ويظهر ذلك أول ما يظهر في السادة والرؤساء، ومنهم ينتقل إلى العامة والدهماء فيكون ذلك سببًا في الهلاك بالاستئصال، أو في فقد العزّة والاستقلال، وتلك هي سنّة الله في خلقه، كما قال: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]»[1].

ثانيًا: من سلوك المترفين:

الترف آفة مفسدة ومتى استوطنت كيانًا نخرته ونشرت فيه شتى العلل والأوبئة، وأظهرت عليه الكثير من السلوكيات السيئة، ولقد أشار القرآن الكريم إلى شيء من سلوك المترفين:

١. التمرد على أحكام الشرع.

من النماذج القرآنية التي يتجلّى فيها سلوك التمرّد على الشرع وتعاليم السماء عند المترفين هو ما قصّه الله علينا في شأن قوم ثمود.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٣٤].

ففي هذه الآيات يظهر سلوك التمرد عند الملأ المترف[2]، وكيف أنهم استقبلوا دعوة نبيهم لا بالطاعة والإذعان، ولكن بالرفض والإنكار والتكذيب.

ويقص علينا القرآن في موضع آخر كيف أنهم طلبوا من نبيهم أن يأتيهم بآية: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٤].

قال ابن كثير: «اقترحوا عليه آية يأتيهم بها؛ ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم فطلبوا منه -وقد اجتمع ملؤهم- أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة -وأشاروا إلى صخرة عندهم- ناقة عشراء من صفتها كذا وكذا، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح عليه السلام العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليصدقنه وليتبعنه، فأنعموا بذلك، فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى، ثم دعا الله تعالى أن يجيبهم

(١) المصدر السابق ١٢ / ١٥٨.

(٢) الأظهر أن المراد بهم: قوم ثمود؛ لأنهم من أهلكوا بالصاعقة، كما جاء في خاتمة الآيات. انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٤٩.

إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء، على الصفة التي وصفوها، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم»[1].

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل دفعهم ترفهم إلى مزيد من التمرّد، فقد قال لهم نبيهم: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

يعني: «ترد ماءكم يومًا، ويومًا تردونه أنتم»[2] ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ «بعقر أو غيره فخرجت واستمرّت عندهم بتلك الحال فلم يؤمنوا واستمرّوا على طغيانهم»[3]، وفي النهاية قاموا بعقرها ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ ۝١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧-١٥٨].

وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على شدة عتوّهم وتمرّدهم، فآية الناقة آية عظيمة لا يملك الإنسان أمامها إلا الإيمان والتصديق، ولا غرو فقد وصفها الله بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩].

«إشارة إلى أنها كانت آية واضحة، تعيش في الناس، وتتمشّى بينهم، يمرّون بها مصبحين وممسين»[4].

ولكن هكذا الترف «يغلظ المشاعر، ويسد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر وتستجيب فتغدو قاسية عاصية متمردة، والعياذ بالله»[5].

٢. الجزع والفزع عند المصيبة.

قد ظهر في العنصر السابق كيف أن التمرد هو مسلك أهل الترف، والمرء قد يخال أن المترفين لفرط تمردهم أقوياء، وأنهم لعتوّ عصيانهم أشداء، ولكن على العكس تمامًا فهم خوّراون جبناء لا ثبات لهم إذا دهمتهم مصيبة، ولا صبر لهم إن نزل بساحتهم بلاء.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُوا وَٱرْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

وفي هذه الآيات يظهر مدى شدة فزع المترفين والذعر الذي يملأ نفوسهم إذا حلت بهم الكوارث وكيف أنهم يولون هاربين، ويظهر اشتداد فزعهم عند حلول البأس من خلال أمور:

التعبير بـ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا﴾ والإحساس هو: الإدراك بالحسّ فيكون برؤية ما يزعجهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦ / ١٥٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١ / ٥٩٦.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٨ / ٥٠٩.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٤٦٧ بتصرف.

أو سماع أصوات مؤذنة بالهلاك كالصواعق والرياح[١]. فإذا كانوا يفرون هاربين لمجرد رؤية العذاب ومشاهدة بوادره، فهذا لا شك يكشف عن شدة فزعهم.

التعبير بـ﴿يَرْكُضُونَ﴾ والركض هو: سرعة سير الفرس، وأطلق الركض في هذه الآية على سرعة سير الناس على وجه الاستعارة تشبيهًا لسرعة سيرهم بركض الأفراس[٢]. ففرارهم بهذه السرعة يدل حتمًا على الفزع الكبير الذي يتملكهم ويسكن نفوسهم عند نزول المصائب.

التعبير بـ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ﴾ أي: ما زالت تلك المقالة وهي الاعتراف بالظلم هجّيراهم حتى حصدناهم حصدًا، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خمودًا[٣]، فاستمرار هذه المقالة معهم حتى إهلاكهم يدل على اشتداد جزعهم.

ومما يدل على جزعهم أيضًا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٤].

ومعنى: ﴿يَجْـَٔرُونَ﴾ يصرخون، وهو كناية عن شدة ألم العذاب بحيث لا يستطيعون صبرًا عليه، فيصدر منهم صراخ التأوّه والويل والثبور[٤].

وهذا يدل على غاية الضعف والخور؛ فالإنسان لا يصرخ إلا إذا كان في محنة لا تقدر أسبابه على دفعها، فيصرخ طلبًا لمن ينجده، ويرفع صوته ليسمع كلّ من حوله.

وهكذا يظهر سلوك المترفين، وكيف أنهم يكونون أشدّ ما يكونون خوفًا وفزعًا عند المصائب، وأنهم «لا يصبرون على الابتلاء، بل يخرّون صاغرين أمام أي شدة، أو كارثة تصيبهم»[٥].

ثالثًا: عاقبة المترفين:

«المترفون هم آفة المجتمع في كل أمة، وفي كل جيل؛ إذ فيهم ينشأ الفسق، والمجون، وكل ما من شأنه أن يغذي العواطف الخسيسة»[٦].

ومتى تركوا في المجتمع دون ردع وضرب على أيديهم «عاثوا في الأرض فسادًا، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثمّ تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتطوى صفحتها»[٧].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧ / ٢٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٣٣٥.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨ / ٨٤.
(٥) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠ / ٥٠٩٠ بتصرف.
(٦) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١ / ٨٢٩.
(٧) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٢١٧.

ولذلك توعّدهم الله بعقاب أليم كما أنه نوّع عقوبتهم، فمنها ما هو دنيوي، وما هو أخروي.

١ . العقاب الدنيوي.

ذكر الله صورًا لعقاب المترفين في الدنيا منها:

* التدمير والإهلاك.

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وها هنا يخبر الرب تبارك وتعالى أنه إذا أرد إهلاك قرية لظلمهم وفجورهم أمر مترفيهم «بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة»[١]. وحقّ عليهم بذلك الهلاك والدمار.

وإنما خصّ المترفين بالذكر؛ لأن «العامة والدهماء يقلدونهم فيما يفعلون؛ ولأنهم أسرع إلى الفجور وأقدر على الوصول إلى سبله»[٢].

وهكذا يجلب الترف الهلاك والدمار ليس على أصحابه فحسب، بل على المجتمع بأسره، وتأمّل كيف أن العذاب طال القرية بأكملها وما ذلك إلا «لأنها لم تضرب على أيدي المترفين، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين، فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلّطهم الله عليها ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك، وما سلّط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك»[٣].

وخاتمة الآية تظهر بجلاء حجم الدمار الذي يلحق أهل الترف فالله تعالى أكد التدمير بمصدره «للمبالغة في العذاب الواقع بهم»[٤]، ولإظهار شدة الهلاك الواقع على تلك القرية.

وتظهر هذه العقوبة المؤلمة للمترفين في الدنيا أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

وهذه الآية تبين مدى شدة العقاب الذي يحل بالمترفين في الدنيا، ويظهر ذلك من خلال التعبير بالقصم الذي هو «الكسر الشديد الذي لا يرجى بعده التئام ولا انتفاع، واستعير للاستئصال والإهلاك القوي»[٥].

وفي النهاية تذكر الآيات كيف أنهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٦١.

(٢) تفسير المراغي ١٥ / ٢٦.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٢١٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠ / ٢٣٤.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧ / ٢٥.

ذكروا ظلمهم واستفاقوا بعد فوات الأوان ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤ - ١٥].

«والمراد: أنهم أهلكوا بذلك العذاب حتى لم يبق لهم حس ولا حركة، وجفّوا كما يجفّ الحصيد، وتخمّدوا كما تخمد النار»[(١)]. وهذا لا شك يظهر شدة الأخذ والإهلاك الذي أصابهم وقطع دابرهم.

❁ **انقطاع الذكر.**

قال الله تعالى عن قوم ثمود: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٤١].

«والغثاء ما يجرفه السيل من حشائش وأعشاب وأشياء مبعثرة لا خير فيها، ولا قيمة لها، ولا رابط بينها.

وهؤلاء لما تخلوا عن الخصائص التي كرّمهم الله بها، وغفلوا عن حكمة وجودهم في الحياة الدنيا، وقطعوا ما بينهم وبين الملأ الأعلى، لم يبق فيهم ما يستحق التكريم، فإذا هم غثاء كغثاء السيل، ملقى بلا احتفال ولا اهتمام. ويزيدهم على هذه المهانة الطرد من رحمة الله، والبعد عن اهتمام الناس ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بعدًا في الحياة، وفي الذكرى في عالم الواقع، وفي عالم الضمير»[(٢)].

٢. العقاب الأخروي.

إذا كانت عاقبة المترفين في الدنيا هي الإهلاك والتدمير، وانقطاع الذكر، فما لهم في الآخرة أعظم وأشد، قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٥].

وهذه صورة عصيبة لعذاب المترفين في الآخرة، إنهم ﴿فِي سَمُومٍ﴾ والسّموم: الرّيح الحارّة الّتي تدخل في مسامّ البدن، والمراد هنا: حرّ النّار ولفحها، ﴿وَحَمِيمٍ﴾ أي: ماء حارّ قد انتهى حرّه، إذا أحرقت النّار أكبادهم

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢ / ١٢٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٤٦٨.

وأجسادهم فزعوا إلى الحميم، كالّذي يفزع من النّار إلى الماء ليطفئ به الحرّ فيجده حميمًا حارًا في نهاية الحرارة والغليان[1].

ونلحظ هنا أنه ذكر السموم والحميم دون النار، وذلك «إشارة بالأدنى إلى الأعلى، فإن هواءهم إذا كان سمومًا، وماءهم الذي يستغيثون به حميمًا، مع أن الهواء والماء من أبرد الأشياء وأنفعها، فما ظنّك بنارهم، فكأنه قال: إن أبرد الأشياء لديهم أحرّها، فما بالك بحالهم مع أحرّها؟!»[2].

وهم من شدة ما يلقونه من هذا السموم وذاك الحميم يفزعوا إلى الظّلّ كما يفعل أهل الدنيا؛ ولكنهم يجدونه ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ أي: من دخان جهنّم أسود شديد السّواد[3].

ووصف الله هذا الظل بأنه ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ «أي: ليس طيب الهبوب، ولا حسن المنظر ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي: ولا كريم المنظر»[4]. والمقصود «أن هناك الهمّ والغمّ والحزن والشرّ الذي لا خير فيه؛ لأن نفي الضد إثبات لضده»[5].

أما الذي أنزلهم هذا المنزل المشئوم، وألقى بهم في هذا البلاء العظيم، فهو ترفهم في الحياة الدنيا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ أي: متنعّمين في ترك أمر الله، فشغلهم ترفهم عن الاعتبار والتعبّد[6].

ونلحظ هنا أن عذابهم جاء مطابقًا لحالهم، فالله أفاض عليهم بالنعم التي كان من حقها «أن تفتح لهم طريقًا إلى الله، فيحمدوا له ويشكروه، ولكنهم بطروا، وأشروا واستكبروا في الأرض، وعتوا عن أمر ربهم، وصدّوا عن سبيله»[7]. فأبدلهم الله به السموم والحميم والظل الذي لا هو بارد ولا كريم.

ومن الآيات الدالة على عقوبة المترفين في الآخرة قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم.

وقوله تعالى: «﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: رويدًا»[8]. وقد جاء وصفهم بـ﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾ «توبيخًا لهم بأنهم كذبوا لغرورهم وبطرهم بسعة حالهم»[9].

وقد ذكرت الآيات بعد ذلك من ألوان

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧ / ٢١٣.
(٢) تفسير المراغي ٢٧ / ١٤١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧ / ٢١٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١ / ٨٣٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧ / ٥٣٨.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩ / ٢٦٩.
(٧) زاد المسير، ابن الجوزي ٤ / ٢٢٥.
(٨) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤ / ٧١٩.
(٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨ / ٢٥٦.

العذاب المعدّ للمترفين في الآخرة أمورًا أربعة:

أولًا: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ أي: «إن لدينا لهؤلاء المكذبين بآياتنا قيودًا ثقيلة توضع في أرجلهم كما يفعل بالمجرمين في الدنيا إذلالًا لهم»[(١)].

قال الشعبي: أترون أن الله تعالى جعل الأنكال في أرجل أهل النار خشية أن يهربوا؟ لا والله! ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا استفلت بهم[(٢)].

ثانيًا: ﴿وَجَحِيمًا﴾ وهي السعير المضطرمة.

ثالثًا: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ قال ابن عباس: ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج[(٣)].

رابعًا: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: موجعًا مفظعًا[(٤)].

ومما يكشف عن شدة العذاب المعدّ لهم أن أجناس العذاب الأربعة جاءت منكرة وذلك «لقصد تعظيمها وتهويلها»[(٥)].

ويكفي أن نستحضر أنّ عذابهم في الآخرة أيضًا جاء مضادًّا لأصول النعمة التي خوّلوها، فبطروا بها «فالأنكال مقابل كفرانهم بنعمة الصحة والمقدرة؛ لأن الأنكال القيود، والجحيم وهو نار جهنم مقابل ما كانوا عليه من لذة الاستظلال والتبرد، والطعام ذو الغصة مقابل ما كانوا منهمكين فيه من أطعمتهم الهنيئة من الثمرات والمطبوخات والصيد»[(٦)].

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الإنفاق، المال

(١) تفسير المراغي ٢٩ / ١١٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩ / ٤٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨ / ٢٥٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١ / ٨٩٣.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩ / ٢٧١.
(٦) المصدر السابق ٢٩/ ٢٧١.





عناصر الموضوع



مفهوم الترهيب

أولًا: المعنى اللغوي:

يرجع أصل الترهيب إلى الفعل الثلاثي (رهب) بالكسر يرهب رهبةً، ورهبًا بالضم ورهبًا بالتحريك، أي: خاف، ورهب الشيء رهبًا ورهبًا ورهبةً: خافه، والاسم الرّهب والرّهبى والرّهبوت والرهبوت، يقال: رجلٌ رهبوتٌ بفتح الهاء أي: مرهوب، وأرهبه واسترهبه أخافه[1].

قال تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. أي: تخوفونهم.

قال تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]. أي: فخافون، الرهبة والرهب مخافة مع تحرز واضطراب، وتعني: الخوف والفزع، قال سبحانه: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣].

فيرجع معنى الترهيب إلى التخويف بالعقاب والفزع والاضطراب[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرّفه عبد الرحمن النحلاوي بتعريفين:

«وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب، مما نهى الله عنه، أو التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به».

وعرّفه أيضًا بقوله: «تهديد من الله يقصد به تخويف عباده، وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية؛ ليكونوا دائمًا على حذر من ارتكاب الهفوات والمعاصي»[3].

وقيل: «وعيد وتهديد من الله سبحانه و تعالى بعقوبة عاجلة أو آجلة؛ لتخويف العباد من اقتراف الذنوب والمعاصي، أو التهاون في أداء الفرائض التي أمر الله بها»[4].

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي؛ إذ يرجع معنى الترهيب لغة إلى التخويف بالعقاب والفزع والاضطراب.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٤٣٧، القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ١/ ١١٨، مختار الصحاح، الرازي، ١/ ٢٦٧، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٤١، التعاريف، المناوي، ١/ ٣٧٥.

(٢) انظر: المفردات، ص٣٦٧

(٣) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص٢٥٧.

(٤) الترغيب والترهيب ودورهما في استقامة الإنسان، أحمد رزق ص٤.



الترهيب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رهب) في القرآن الكريم (١٢) مرة، يخص موضوع البحث منها (٨) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف:١١٦]
الفعل المضارع	٢	﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف:١٥٤]
فعل الأمر	٢	﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة:٤٠]
مصدر	٣	﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص:٣٢]

وجاء (الترهيب) في القرآن الكريم بمعناها اللغوي، وهو الخوف والفزع، أو مخافة مع تحرز واضطراب[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠]. يعني: طمعًا وخوفًا[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٣٢٥.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٣٦٦.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٤٦٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ التخويف:

التخويف لغة:

الإخافة، وهو إدخال الخوف في نفس المخاطب[١].

التخويف اصطلاحًا:

إدخال الفزع في قلب المخاطب[٢]؛ حثًّا على التّحرّز من ارتكاب محظور[٣].

الصلة بين الترهيب والتّخويف:

الترهيب أعم من التخويف، فالترهيب يكون بالتخويف وبغيره.

٢ التهديد:

التهديد لغة:

التّخويف[٤]، والتوعّد بالعقوبة[٥].

التهديد اصطلاحًا:

زعزعة أمن المخاطب بالوعيد[٦]، وتخويفه بأمر مكروه مفسد لحاله.

الصلة بين الترهيب والتهديد:

التهديد: الوعيد والتّخويف بالعقوبة[٧]، فيتعلق بالعقوبة المحققة لمن أعرض عن الإنذار، والترهيب أعم.

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٩٨.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٩/ ٩٩.
(٣) انظر: المفردات، الأصفهاني ، ص٣٠٣.
(٤) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٣٢٥.
(٥) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٩٧٦.
(٦) انظر: المفردات، الأصفهاني، ص٨٣٤.
(٧) لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٣٣.

٣ الوعيد:

الوعيد لغة:

التّهديد بالشّرّ[(١)].

الوعيد اصطلاحًا:

إنذار بما سيحدث من دمار ونكبات[(٢)].

الصلة بين الترهيب والوعيد:

الوعيد يكون حاصلًا عن غضبٍ، قد يسكن ويزول[(٣)] بزوال سببه، أما الترهيب فهو أعم.

٤ الترغيب:

الترغيب لغة:

يقول الراغب الأصفهاني: «والرّغبة والرّغب والرّغبى: السّعة في الإرادة»[(٤)]، والرغبة إرادة الشيء والسعة في الإرادة، فإذا قيل: رغب فيه وإليه؛ اقتضى الحرص عليه إذا أراده، والرغيبة العطاء الكثير لكونه مرغوبًا فيه.

الترغيب اصطلاحًا:

«وعد من الله سبحانه و تعالى لعباده فيه تحبيب وإغراء بمصلحة، أو لذة أو متعة عاجلة أو آجلة، يتبعه حرص وإرادة، مقابل القيام بعمل صالح أو ترك عمل سيء؛ طاعة لله سبحانه و تعالى»[(٥)].

الصلة بين الترهيب والترغيب:

أن الترهيب فيه إثارة للخوف والقلق، ويؤثّر في النفس تنغيصًا، بينما الترغيب يعزز الأمن والاطمئنان، ويؤثر في النفس سرورًا، وعليه فإن اللفظين متضادان.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٩/ ٣٠٩، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر مختار، ٣/ ٢٤٦٧.
(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر مختار، ٣/ ٢٤٦٧.
(٣) انظر: المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٦٦٥.
(٤) المفردات، ص ٣٥٨.
(٥) الترغيب والترهيب ودورهما في استقامة الإنسان، أحمد رزق ص٣.

أساليب عرض الترهيب

إنّ المتدبر لآيات القرآن الكريم يجد أنّ أسلوب الترهيب جاء على أربعة أنواع:

أولًا: أن يأتي الترهيب في آية واحدة مستقلة:

وقع هذا النوع في كثير من الآيات القرآنية التي جاء الترهيب فيها بآية مستقلة بذاتها، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

يقول الشنقيطي في تفسيره: «نهى اللّه جل وعلا في هذه الآية الكريمة جميع البشر عن أن يعبدوا إلهًا آخر معه، وأخبرهم أنّ المعبود المستحقّ لأن يعبد وحده واحدٌ، ثمّ أمرهم أن يرهبوه، أي: يخافونه وحده؛ لأنّه هو الّذي بيده الضّرّ والنّفع، لا نافع ولا ضارّ سواه»[(١)]، ومن الأمثلة على هذا النوع أيضًا قوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

ذكر الشوكاني ما أجمع عليه أهل التأويل في بيانه لهذه الآية: «إنّ المراد بالسّيّئة هنا الشّرك، ووجه التّخصيص قوله: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ فهذا الجزاء لا يكون إلّا بمثل سيئة الشّرك، ومعنى: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أنّهم كبّوا فيها على وجوههم وألقوا فيها وطرحوا عليها، يقال: كببت الرّجل: إذا ألقيته لوجهه فانكبّ وأكبّ، وجملة ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بتقدير القول: أي: يقال ذلك، والقائل: خزنة جهنّم، أي: ما تجزون إلّا جزاء عملكم»[(٢)]، ومن الآيات الدالة على هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

فهذا نوع من أنواع الترهيب إلى أولئك الذين فسقوا وخرجوا عن طاعة الله، فهؤلاء مقرّهم النار التي جمعت الشقاء والعذاب، فكلما ظنوا بأنهم سوف يخرجون منها أعيدوا وردّوا للعذاب مرة أخرى، واشتد عليهم الكرب، فيقال لهم -إذلالًا وإهانة-: ذوقوا العذاب الذي كنتم تكذبون به في دنياكم بسبب إنكاركم البعث والحساب[(٣)].

ثانيًا: أن يأتي الترهيب في آيتين متتابعتين:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

(١) أضواء البيان، ٢/ ٣٨٢.

(٢) فتح القدير، ٤/ ١٧٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ٢٣١، أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٢٣٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٥٦.

﴿لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: ٣ - ٦].

يقول الإمام الطبري: «إن الذين لا يصدّقون بالدار الآخرة، وقيام الساعة، وبالمعاد إلى الله بعد الممات والثواب والعقاب، ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يقول: حبّبنا إليهم قبيح أعمالهم، وسهّلنا ذلك عليهم. ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يقول: فهم في ضلال أعمالهم القبيحة التي زيّناها لهم يتردّدون حيارى يحسبون أنهم يحسنون»(١)، فكان جزاء هؤلاء العذاب كالقتل والأسر في الدنيا، وفي الآخرة كانوا أشد الناس خسارة لفوات المثوبة واستحقاق العقوبة(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦ - ٧].

«﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى﴾ ما يلهي عن طاعة الله، ويصد عن سبيله، مما لا خير ولا فائدة فيه ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: ليضل الناس عن طريق الهدى، ويبعدهم عن دينه القويم، بغير حجة ولا برهان ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي: ويتخذ آيات الكتاب المجيد سخرية واستهزاءً، وهذا أدخل في القبح، وأغرق في الضلال ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: لهم عذاب شديد مع الذلة والهوان ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: وإذا قرئت عليه آيات القرآن ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: أعرض وأدبر متكبرًا عنها كأنه لم يسمعها، شأن المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام، ويجعل نفسه كأنها غافلة ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي: كأن في أذنيه ثقلًا وصممًا يمنعانه عن استماع آيات الله ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أنذره يا محمد بعذاب مؤلم، مفرطٍ في الشدة والإيلام، ووضع البشارة بأشد العذاب»(٣).

وهكذا نجد أن القرآن الكريم ذكر آيات كثيرة في كتابه تندرج تحت هذا النوع من أنواع الترهيب؛ حتى يكون المسلم على حذرٍ من الوقوع في أي معصية أو ذنب، يستحق بسببهما العذاب سواء في الدنيا أو الآخرة.

ثالثًا: أن يأتي الترهيب في مقطع قرآني:

قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ

(١) جامع البيان، ١٩/ ٤٢٦.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٣٣٧، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ١٥٤.
(٣) صفوة التفاسير، الصابوني، ٢/ ٤٤٨.

﴿حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٢١ - ٣٠].

يقول الزحيلي في تفسيره: «﴿مِرْصَادًا﴾ موضع رصد، يرصد فيه خزنة النار للطّاغين الكافرين، الذين طغوا بمخالفة أوامر ربهم، ﴿مَآبًا﴾ مرجعًا ومأوى، لابثين مقيمين، ﴿أَحْقَابًا﴾دهورًا لا نهاية لها، جمع حقب، وواحدها حقبة، وهي مدة مبهمة من الزمان، ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ برودة الهواء، ويطلق أيضًا على النوم، ﴿وَلَا شَرَابًا﴾أي: ما يشرب تلذذًا لتسكين العطش، ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ الحميم: الماء الحارّ الشديد الغليان، ﴿وَغَسَّاقًا﴾ قيح وصديد أهل النار الدائم السيلان من أجسادهم، ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ أي: جوزوا بذلك جزاء موافقًا لأعمالهم وكفرهم، فلا ذنب أعظم من الكفر، ولا عذاب أعظم من النار، ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ لا يخافون أو لا يتوقعون ﴿حِسَابًا﴾محاسبة على أعمالهم لإنكارهم البعث، ﴿بِآيَاتِنَا﴾ القرآن ﴿كِذَّابًا﴾ تكذيبًا كثيرًا، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: من الأعمال ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ ضبطناه، ﴿كِتَابًا﴾أي: ضبطناه بالكتابة، ﴿فَذُوقُوا﴾أي: فيقال لهم في الآخرة عند وقوع العذاب عليهم: ذوقوا جزاءكم، ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أي: فوق عذابكم»[1].

ومن الأمثلة على الترهيب في مقطع قرآني، ما وصفه الله سبحانه وتعالى من العذاب لأهل النار، في قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾[الواقعة: ٤١ - ٤٤].

يقول جلال الدين المحلي: «﴿فِي سَمُومٍ﴾ ريح حارّة من النّار تنفذ في المسامّ ﴿وَحَمِيمٍ﴾ ماء شديد الحرارة ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ دخان شديد السّواد، ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ كغيره من الظّلال ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ حسن المنظر»[2].

وبعد هذه الآيات ذكرت لنا السورة أسباب استحقاق هؤلاء الكفار للعذاب في أنهم كانوا منعّمين بالحرام في الدنيا، وكانوا يصرّون على الشرك بالله، وأنكروا البعث والجزاء، ثم جاءت الآيات لتصف لنا أنواعًا أخرى من العذاب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٦].

يقول القاسمي في تفسيره: «﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾أي: الجاهلون المصرّون على جهالاتهم، والجاحدون للبعث، ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾وهو من أخبث شجر

---

(١) التفسير المنير، ٣٠/ ١٦.

(٢) تفسير الجلالين، ص٧١٥.

البادية في المرارة، وبشاعة المنظر، ونتن الريح ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾ منها ﴿ٱلْبُطُونَ﴾ أي: من ثمراتها الوبيئة البشعة المحرقة، ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي: الماء الذي انتهى حره وغليانه، ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ أي: الإبل التي بها الهيام، وهو داء لا ريّ معه؛ لشدة الشغف والكلب، بها ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: جزاؤهم في الآخرة»[(١)].

رابعًا: أن يأتي الترهيب في سورة قرآنية:

من أنواع الترهيب في القرآن الكريم ما جاء في سورة قرآنية، مثل ما جاء في سورة الهمزة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ [الهمزة: ١-٩].

يقول الطبري: «﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ الوادي يسيل من صديد أهل النار وقيحهم، ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾: لكل مغتاب للناس، ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ ولم ينفقه في سبيل الله، ولم يؤدّ حق الله فيه، ولكنه جمعه فأوعاه وحفظه، يحسب أن ماله الذي جمعه وأحصاه وبخل بإنفاقه مخلّده في الدنيا، فمزيل عنه الموت، ثم أخبر -جلّ ثناؤه- أنه هالك ومعذّب على أفعاله ومعاصيه التي كان يأتيها في الدنيا، فقال -جل ثناؤه-: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ ليقذفنّ يوم القيامة في الحطمة، والحطمة: اسم من أسماء النار، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ وأيّ شيء أشعرك يا محمد ما الحطمة، ثم أخبره عنها ما هي، ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ يقول: التي يطلع ألمها ووهجها القلوب، ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ يعني: على هؤلاء الهمازين اللمازين ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: مطبقة، ﴿عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ أنهم يعذّبون بعمد في النار، والله أعلم كيف تعذيبه إياهم بها»[(٢)].

من خلال ما سبق بيانه، ظهر لنا أنّ القرآن الكريم استخدم أنواع الترهيب المختلفة في كتابه، وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على أنّ القرآن الكريم لم يغفل هذا الجانب؛ لأهميته في حياة المسلم، وأثره الكبير في استقامة الإنسان على طاعة ربه وامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ كي ينجو من العذاب الذي أعدّه الله سبحانه وتعالى لمن عصاه وأشرك به، ويفوز بالجزاء العظيم، والنعيم المقيم الذي أعدّه لعباده المتقين.

(١) محاسن التأويل، ٩/ ١٢٥.

(٢) جامع البيان، ٢٤/ ٥٩٩.

مجالات الترهيب في القرآن

يسعى الشيطان جاهدًا ليوقع الإنسان في الضلال والغواية، ويجعله يرتكب جرائم عديدة، أخطرها تلك التي تتعلق بحق الله سبحانه و تعالى، كالكفر والشرك والنفاق، وقد رهّب سبحانه و تعالى من هذه الجرائم ورتّب عليها عقوبات زاجرة؛ حتى تكون مانعة للإنسان من الوقوع فيها، فإن الشرك خطره كبير، فهو من أكبر الكبائر، ومن أعظم الظلم، فهو سبب في عدم مغفرة الذنب، كذلك النفاق أشد خطرًا من الكفر والشرك، وقد جاءت الآيات القرآنية تحذّر من الوقوع فيه، وقد توعّد الله سبحانه و تعالى المنافقين بالعذاب الشديد يوم القيامة، وإن الكفر من الجرائم المتعلقة في حق الله سبحانه وتعالى؛ لأنه منافٍ للإيمان، ومحبط للعمل، فقد رتّب الله سبحانه و تعالى على مرتكبي هذه الجرائم أشد العقوبات وأبشعها؛ لأنها من الأعمال السيئة؛ كي تكون رادعة للإنسان في حياته الدنيا وزاجرة له، وسوف نتحدث في هذه السطور عن مجالات الترهيب في القرآن كالكفر والشرك والنفاق، والأعمال السيئة والعقاب:

أولًا: الكفر:

إنّ الكفر والشرك والنفاق من الجرائم المتعلقة بحق الله سبحانه وتعالى.

ولذا فقد رهّب الله سبحانه وتعالى من هذه الأمور، ورتّب عليها العقوبات، وهذا ما سنتحدث عنه:

ويعدّ الكفر من الجرائم المتعلقة بحق الله؛ لأنه منافٍ للإيمان، وقد ذم الله سبحانه و تعالى الكفر.

وبيّن سوء عاقبته على الكافرين في كثير من آيات القرآن الكريم، وتوعّدهم بالعذاب والهلاك، ومن صور الوعيد ما يلي:

١ . العذاب الأليم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

بيّن سبحانه و تعالى حال أولئك الكافرين ومصيرهم، فهم يكفرون بآيات الله، وهي الدلائل الواضحة، وما بعث به رسله، ويقتلون مع ذلك النبيين بغير حق ولا سبب موجب للقتل، ويقتلون الذين يأمرونهم من أتباع الأنبياء المؤمنين الصالحين، فكان مصيرهم العذاب أليم(١).

(١) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٣٠٠.

٢. العذاب المهين.

قال تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

توعّد الله سبحانه وتعالى الكافرين بالعذاب المهين وهو الذي يهين صاحبه ويذله في الدنيا والآخرة؛ وذلك بسبب كفرهم بالله وما أنزل على رسله[(١)].

٣. الضلال المبين.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، وبمحمد وما جاء به من عند الله.

يقول السعدي في تفسيره: «واعلم أن الكفر بشيء من هذه المذكورات، كالكفر بجميعها؛ لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض»[(٢)].

وقد بيّن سبحانه و تعالى جزاء من يكفر بهذه المذكورات ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ فإنه يعني: فقد ذهب عن قصد السبيل، وجار عن محجّة الطريق إلى المهالك؛ لأن كفر من كفر بذلك، خروجٌ منه عن دين الله الذي شرعه لعباده، والخروج عن دين الله فيه الهلاك والبوار، وفيه الضلال عن الهدى[(٣)].

٤. لعنة الله والملائكة على الكافرين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

يقول ابن كثير في تفسيره: «ثم أخبر تعالى عمن كفر به، واستمر به الحال إلى مماته بأنّ ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي لا يخفّف عنهم العذاب فيها، أي: لا ينقص عما هم فيه، ولا هم ينظرون، أي لا يغيّر عنهم ساعة واحدة ولا يفتر، بل هو متواصل دائم، فنعوذ بالله من ذلك»[(٤)]، وقال سبحانه و تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤].

٥. شراب الكافرين من الحميم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

يخبر سبحانه و تعالى عن أولئك الذين جحدوا وحدانية الله، ورسالة رسوله صلى الله عليه وسلم، بأن لهم شرابًا من ماء حارٍّ شديد الحرارة، يشوي الوجوه ويقطّع

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٢٦٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٠٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٩/ ٣١٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ١٣٨.

الأمعاء، ولهم عذاب موجع بسبب كفرهم وضلالهم[(١)].

٦. الكافرون لا مولى لهم، ولا ناصر ينصرهم.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

إن الله سبحانه و تعالى ولي المؤمنين وناصرهم ومؤيدهم، أما الكافرون فـ ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ ينصرهم، أو يدفع عنهم ما حلّ بهم من دمار وخسران بسبب كفرهم وجحودهم[(٢)].

٧. الخلود في نار جهنم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

يقول البغوي: «﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: جحدوا، ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بالقرآن، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يوم القيامة، ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها»[(٣)].

وهكذا نجد أن الله سبحانه وتعالى توعّد من كفر، أو وقع في الكفر بأنواع عديدة من العذاب، ولما علـم الإنسان ماله من الوعيد حينما يكفر بالله عز و جل وآياته، وأن مأواه جهنم، وأن الله عز و جل سيذله ويذيقه من العذاب الأليم والشراب الحميم، ويلعنه الله والملائكة والناس أجمعون، ويخلد في نار جهنم، كما قال سبحانه و تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٣٩].

فإن الإنسان لا يستقيم حاله إلا بإقراره بوحدانية ربه وتوحيده، وتجعله يسير وفق ما يريد الله عز و جل، ويجتنب الأمور التي توقع صاحبها في الكفر، فإن علم الإنسان المسلم ذلك، فإنه سينقاد إلى طاعة خالقه عز وجل، ويبتعد عن الكفر، ويكفر بكل ما عبد من غير الله عز وجل، من حجر، وشجر وغيره.

يقول الله عز و جل: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فالإيمان بالله سبب من أسباب استقامة الإنسان على طاعة الرحمن، والبعد عن طاعة الشيطان.

ثانيًا: الشرك:

إن الشرك جريمة عظيمة بحق الله سبحانه و تعالى، فالشرك ظلم النفس، حيث وصفه سبحانه وتعالى بأنه أعظم الظلم،

---

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٧/ ٤٣٠.

(٢) انظر: الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ١/ ٣٨٨٦.

(٣) معالم التنزيل، ١/ ٨٦.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

وذلك لأن المشرك يجعل المخلوق في منزلة الخالق؛ لذلك جاء التحذير منه في القرآن الكريم، واعتبره الرسول صلى الله عليه وسلم كبيرة من كبائر الذنوب، فالشـرك: جعـل شريك لله في ربوبيته أو إلهيته، كأن يدعو مع الله غيره، أو يصرف له شيئًا من أنواع العبادة، كالذبح والنذر والخوف والرجاء[(١)].

ولقد تنوعت دلالة النصوص على ذم الشرك، والتحذير منه وبيان خطره، وسوء عاقبته على المشركين في الدنيا والآخرة، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

١. الشرك الذنب الذي لا يغفر إلا بتوبة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

يقول أبو بكر الجزائري: «فأخبر تعالى عن نفسه بأنه لا يغفر الذنب المعروف بالشرك والكفر، وأما سائر الذنوب كبيرها وصغيرها فتحت المشيئة، إن شاء غفرها لمرتكبها فلم يعذّبه بها، وإن شاء آخذه بها وعذّبه، وأن من يشرك به تعالى فقد اختلق الكذب العظيم؛ إذ عبد من لا يستحق العبادة، ومن لا حق له في التأليه؛ فلذا هو قائل بالزور وعامل بالباطل، ومن هنا كان ذنبه عظيمًا»[(٢)]، فمن رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أنه يغفر الذنوب مهما عظمت، فإذا تاب المشرك عن شركه، ورجع إلى ربه وأناب، فإن الله سبحانه وتعالى يغفر لـه، يقول الإمام السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «وهذه الآية الكريمة في حـق غير التائب، وأما التائب فإنه يغفر له الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

أي: لمن تاب إليه وأناب؛ ولهذا حتّم على صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب»[(٣)]، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

٢. وصف الله الشرك بأنه ظلم عظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

يقول ابن عاشور في تفسيره: «والمراد بالظالمين ابتداءً: المشركون، أي: الذيـن ظلمـوا أنفسهم إذ أشركوا بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

والظلم يشمل أيضًا عمل المعاصي الكبائر، كما وقع في قوله تعالى: ﴿وَمَن

(١) انظر: عقيدة التوحيد، صالح الفوزان، ص٥١.

(٢) أيسر التفاسير، ١/ ٤٨٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص١٨١.

﴿ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣].

وقد وصف القرآن اليهود بوصف الظالمين في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

فالمراد بالظلم: المعاصي الكبيرة وأعلاها الشرك بالله تعالى»[١]، وإنّ أول وصية وصى بها لقمان ابنه وهو يعظه ألا يشرك بالله؛ لخطره على صاحبه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

٣. الشرك محبطٌ لجميع للأعمال، وسببٌ في خسران صاحبه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

أي: أوحى الله سبحانه و تعالى إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما أوحى إلى الأنبياء من قبله، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ بنا غيرنا في عبادتنا ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أي: يبطل كله، ولا تثاب على شيء منه وإن قلّ، ﴿وَلَتَكُونَنَّ﴾ بعد ذلك من جملة الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وذلك هو الخسران المبين[٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

يقول ابن كثير: «هذا تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم لملابسته»[٣].

٤. تحريم دخول الجنة على المشرك.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

يقول ابن جرير الطبري في تفسيره: «﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾، أن يسكنها في الآخرة، ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ يقول: ومرجعه ومكانه الذي يأوي إليه ويصير في معاده، من جعل لله شريكًا في عبادته نار جهنم، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾، يقول: وليس لمن فعل غير ما أباح الله له، وعبد غير الذي له عبادة الخلق، ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾، ينصرونه يوم القيامة من الله، فينقذونه منه إذا أورده جهنم»[٤].

(١) التحرير والتنوير، ١/ ٧٠٦.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٤/ ٥٠٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٤٤٥.

(٤) جامع البيان، ١٠/ ٤٨١.

٥. المشرك حلال الدم والمال.

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة: ٥].

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ أي: «التي حرم فيها قتال المشركين المعاهدين، وهي الأشهر الحرم الأربعة[١]، وتمام المدة لمن له مدة أكثر منها، ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ في أي مكان وزمان»[٢]، يقول القرطبي: «يقتضي جواز قتلهم بأي وجه كان، إلا أن الأخبار وردت بالنهي عن المثلة»[٣]، ﴿وَخُذُوهُمْ ﴾ أسرى ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ ﴾ أي: ضيّقوا عليهم واحبسوهم، فلا تدعوهم يتوسعون في بلاد اللّه وأرضه، التي جعلها الله معبدًا لعباده، فهؤلاء ليسوا أهلًا لسكنها، ولا يستحقون منها شبرًا؛ لأن الأرض أرض اللّه، وهم أعداؤه المتنابذون له ولرسله، المحاربون الذين يريدون أن تخلو الأرض من دينه، ويأبى اللّه إلا أن يتم نوره، ولو كره الكافرون، ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ أي: كل ثنية وموضع يمرون عليه، ورابطوا في جهادكم، وابذلوا غاية مجهودكم في ذلك، ولا تزالوا على هذا الأمر؛ حتى يتوبوا من شركهم»[٤].

٦. براءة الله سبحانه و تعالى من المشركين ورسوله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة: ٣].

أمر النبي صلى الله عليه وسلم مؤذنه أن يؤذّن يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، وقت اجتماع الناس مسلمهم وكافرهم، من جميع جزيرة العرب، أن يؤذن بأنّ اللّه بريء ورسوله من المشركين، فليس لهم عنده عهد وميثاق، فأينما وجدوا قتلوا، وقيل لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، ثم رغّب تعالى المشركين بالتوبة، ورهّبهم من الاستمرار على الشرك[٥].

فقال تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه قال: **(أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل**

(١) الأشهر الحرم أربعة هي: ذو القعدة، ذو الحجة، محرم، رجب.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٢٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٧٢.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٢٩.
(٥) المصدر السابق، ص٣٢٨.

عملًا فأشرك فيه غيري، فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك»[١].

٧. نجاسة المشرك (المعنوية).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

يقول الإمام السعدي: «﴿نَجَسٌ﴾ أي: خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي نجاسة أبلغ ممن كان يعبد مع اللّه آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنه شيئًا، وأعمالهم ما بين محاربة للّه، وصد عن سبيل اللّه ونصر للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض لا في الصلاح»[٢].

٨. الشرك افتراءٌ و إثم عظيمٌ على الله سبحانه و تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

ومن يشرك بالله في عبادته، ﴿فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي: اختلق ﴿إِثْمًا عَظِيمًا﴾، وإنما جعله الله تعالى مفتريًا؛ لأنه قال زورًا، وإفكًا بجحوده وحدانية الله، وإقراره بأن لله شريكًا من خلقه.

لما يعلم الإنسان خطر الشرك، فإنه سيبذل قصارى جهده من أجل عدم الوقوع فيه؛ لأن الشرك سبب في عدم مغفرة الذنوب، فالمشرك حلال الدم والمال، وإنّ الله سبحانه و تعالى تبرأ من المشركين ورسوله صلى الله عليه وسلم.

فالشرك يوجب لصاحبه العذاب في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

فهو أبغض الأشياء إلى الله، قال ابن القيم: «إنّ الشرك لما كان أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات، كان أبغض الأشياء إلى الله، وأكرهها له وأشدها مقتًا لديه، ورتّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه، وأخبر أنه لا يغفره، وأن أهله نجس، ومنعهم من قربان حرمه، وحرّم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين، وجعلهم أعداًء له سبحانه ولملائكته ورسله وللمؤمنين، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم وأن يتخذوهم عبيدًا؛ وهذا لأن الشرك هضم لحقّ الربوبية، وتنقيص لعظمة الإلهية»[٣].

فيجب على الإنسان أن يتحرر من جميع مظاهر الشرك، وأن يقلع عنها، ويستنير بنور التوحيد؛ لأنه سبب في مغفرة الذنوب واستقامة الإنسان، يقول ابن القيم: «فإن التوحيد الخالص الذي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله، ٤/ ٢٢٨٩، رقم ٢٩٨٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٣٣٣.
(٣) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ١/ ٦٠.

لا يشوبه شرك، لا يبقى معه ذنب فإنه يتضمن من محبة الله تعالى، وإجلاله، وتعظيمه وخوفه، ورجائه وحده مما يوجب غسل الذنوب، ولو كانت قراب الأرض»[1]، فالذي يتوجه إلى ربه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يصرف شيئًا من العبادة لغيره، فقد حقّق التوحيد واستقام على شرع الله سبحانه و تعالى.

ثالثًا: النفاق:

إن النفاق داء عضال، وانحراف خطير في حياة الأفراد والمجتمعات والأمم، فخطره عظيم، وشرور أهله كثيرة، وتكمن خطورته في آثاره المدمرة على حياة الأفراد والمجتمعات.

النفاق معناه: إظهار الإسلام وإبطان الكفر والشرك[2].

وسوف نتحدث عن النفاق ونبين صفات المنافقين؛ حتى يكون المسلم على حذر من الوقوع في النفاق، ومما يعين المسلم على ذلك تدبر ما ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه من صفاتهم، وما صحت به السنة النبوية، إن للمنافقين صفات كثيرة نشير إليها مجرد إشارات مختصرة، وإلا فإن التفصيل يحتاج إلى مؤلفات تفضح ما هم عليه، ومن أهم صفات المنافقين ما يأتي:

(١) المصدر السابق، ١/ ٦٤.
(٢) انظر: عقيدة التوحيد، صالح الفوزان، ص٥٨.

١. أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

ومن الناس فريق يتردد متحيرًا بين المؤمنين والكافرين، وهم المنافقون الذين يدّعون الإيمان بألسنتهم ويضمرون الكفر في قلوبهم، وهم في باطنهم كاذبون لم يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر، فنفى الله سبحانه و تعالى عنهم صفة الإيمان؛ لأنهم أشد خطورة من الكافرين[3].

٢. خداع الله سبحانه وتعالى والمؤمنين.

قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

يقول ابن كثير في تفسيره للآية: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخادعون الله بذلك، وأنّ ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ

(٣) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٢٥.

﴿الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]؛ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: وما يغرون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم»[1].

٣. الإفساد في الأرض بالقول والفعل.

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

يقول سيد طنطاوي في تفسيره: «الفساد: خروج الشيء عن حالة الاعتدال والاستقامة، وعن كونه منتفعًا به، وضده الصلاح، يقال: فسد الشيء فسادًا، وأفسده إفسادًا، والمراد به هنا: كفرهم، ومعاصيهم، ومن كفر بالله وانتهك محارمه فقد أفسد في الأرض؛ لأن الأرض لا تصلح إلا بالتوحيد والطاعة، ومن أبرز معاصي هؤلاء المنافقين، ما كانوا يدعون إليه في السر من تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلقاء الشّبه في طريق دعوته، والتحالف مع المشركين ضد المسلمين، كلما وجدوا لذلك سبيلًا»[2].

٤. الاستهزاء بالمؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۝١٤ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥].

«هؤلاء المنافقون إذا قابلوا المؤمنين قالوا: صدّقنا بالإسلام مثلكم، وإذا انصرفوا وذهبوا إلى زعمائهم الكفرة المتمردين على الله، أكّدوا لهم أنهم على ملة الكفر لم يتركوها، وإنما كانوا يستخفّون بالمؤمنين، ويسخرون منهم، فالله سبحانه وتعالى يستهزئ بهم معاملة لهم بالمثل؛ لتزداد حيرتهم، وتضطرب نفوسهم، وتضل عقولهم؛ لأنهم استبدلوا الإيمان بالكفر والإخلاص بالنفاق»[3].

٥. المنافقون يحلفون كذبًا ليستروا جرائمهم.

قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢].

يقول ابن كثير في تفسيره: «أي: اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة، والحلفان الآثمة؛ ليصدقوا فيما يقولون، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون، وصدّقهم فيما يقولون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالًا -مفسدة- فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس»[4].

(١) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٢٨٣.
(٢) الوسيط، ١/ ٢٧.
(٣) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٢٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ١٤/ ٥.

٦. موالاة المنافقين للكافرين ونصرتهم على المؤمنين.

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

يقول الإمام الشوكاني: «إطلاق البشارة على ما هو شر خالص لهم تهكم بهم»[(١)].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى حال المنافقين بأنهم يوالون الكافرين، ويتخذونهم أعوانًا لهم، ويتركون ولاية المؤمنين، ولا يرغبون في مودتهم، أيطلبون بذلك النصرة والمنعة عند الكافرين؟ إنهم لا يملكون ذلك، فالنصرة والعزة والقوة جميعها لله تعالى وحده[(٢)].

وهذا المعنى الذي دلّت عليه هذه الآية الكريمة، جاء موضحًا في آيات من كتاب الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾[المنافقون: ٨].

٧. المنافقون يعملون على تهوين المؤمنين وتخذلهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٢ - ١٨].

يقول المنافقون والذين في قلوبهم شك ومرض: ما وعدنا الله ورسوله من النصر والتمكين إلا باطلًا من القول والغرور، فلا تصدّقوا، واذكر يا محمد قول طائفة من المنافقين الذين ينادون المؤمنين من أهل المدينة: لا إقامة لكم في معركة خاسرة، فارجعوا إلى منازلكم؛ لأنها غير محصنة، فالحق أنهم قصدوا بذلك الفرار من القتال،

(١) فتح القدير، ١/ ٧٩٣.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٦/ ٢٨٠.

فهؤلاء المنافقون عاهدوا الله سبحانه وتعالى ألا يفروا من الحرب، وألا يتأخروا إذا دعوا إلى الجهاد؛ لكنهم خانوا عهدهم وسيحاسبهم الله سبحانه وتعالى على تلك الخيانة وعدم وفائهم بالعهد، وقل يا محمد لهؤلاء المنافقين: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾ من المعركة خوفًا من الموت أو القتل، فإن ذلك لا يؤخّر آجالكم، وإن فررتم فلن تتمتعوا إلا بقدر أعمالكم المحدودة، وهو زمن يسير جدًّا بالنسبة للآخرة، ومن الذي يمنع المنافقين من عذاب الله وسخطه، فالمنافقون ليس لهم من دون الله ناصر ينصرهم، وإن الله سبحانه وتعالى يعلم المثبطين من المنافقين عن الجهاد في سبيل الله، فكان ديدن هؤلاء المنافقين العمل على تهوين المؤمنين وتثبيطهم وتخذلهم[1].

٨. التحاكم إلى الطاغوت.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

هكذا حال المنافقين: إنهم يتركون التحاكم إلى الله ورسوله، فهم حين لا يقبلون حكم الله ورسوله، ويفتضح نفاقهم، يأتون بأعذار كاذبة ملفقة، ويحلفون الأيمان لتبرئة أنفسهم، إننا لم نرد مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم في أحكامه، إنما أردنا التوفيق والمصالحة، وأردنا الإحسان لكل من الفريقين المتخاصمين، ومن عجيب أمرهم في ذلك، أنهم إذا وجدوا الحكم لصالحهم قبلوه[2]، وإن يكن عليهم يعرضوا عنه.

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى بذلك ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور: ٤٧ – ٤٩].

٩. طعنهم في المؤمنين وتشكيكهم في نوايا الطائعين.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

إن الله سبحانه وتعالى توعد بالعذاب الأليم للمنافقين الذين يسخرون من

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٥/ ٥٥، مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ١٤٧.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ٦/ ٤٥٢.

المؤمنين المتصدقين، فإذا تصدق الأغنياء بالمال الكثير عابوهم واتهموهم بالرياء، وإذا تصدق الفقراء بما في طاقتهم استهزءوا بهم، وقالوا: إن الله غني عن هذه الصدقة، وقد روى ابن مسعود رضي الله عنه قال: (لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مراء، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزل قوله: ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[التوبة: ٧٩])[1].

والنفاق انحراف خطير يطرأ على سلوك الإنسان، وقد رهّب منه القرآن الكريم؛ حيث توعد الله سبحانه وتعالى المنافقين بالعذاب الشديد في نار جهنم.

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾[التوبة: ٦٨].

وقد حذّر الله سبحانه وتعالى من النفاق؛ لما له من آثار جسيمة على الفرد والمجتمع، فلما يعلم الإنسان خطر النفاق وآثاره المدمرة وصفات المنافقين، وما أعد لهم من الوعيد الشديد، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[النساء: ١٤٥].

فإن الإنسان يحرص كل الحرص، ويحذر كل الحذر من الوقوع في النفاق بأنواعه، فيبدأ بتصحيح نواياه ومعتقداته، ويجعلها خالصة لله عز وجل، مما يدفعه ذلك إلى الاستقامة على طاعة ربه، فيترفع عن أخلاق المنافقين وصفاتهم الذميمة التي أشار إليها القرآن والسنة، وبذلك تتحقق الاستقامة للفرد والمجتمع.

رابعًا: الأعمال السيئة:

رهّب الله سبحانه وتعالى من الأعمال السيئة، وبيّن أن الإنسان مسئول عن أعماله سواء كانت صالحة أو سيئة، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[فصلت: ٤٦].

وسوف نتحدث هنا عن بعض الأعمال السيئة في القرآن، كالقتل، والزنا، والقذف، والسرقة.

١ . القتل.

إن القتل جريمة خطيرة، لها أضرارها على الفرد والمجتمع، وقد ذكر الله تحريمها في مواطن كثيرة من القرآن الكريم.

فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة، ٢/ ١٠٩، رقم ١٣٤٩.

﴿... لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴾ [الإسراء: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٩٢ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ٩٢، ٩٣].

جاءت الآية الأولى تبين حكم من قتل مؤمنًا خطأً، والقتل الخطأ هو القتل الحادث بغير قصد الاعتداء لا للفعل، ولا للشخص، كأن وقع شخص على آخر فمات، أو رمى شجرة أو دابة، فأصابت الرمية إنسانًا فمات، أو رمى آدميًا فأصاب غيره فمات، فإذا حصل ووقع القتل بطريق الخطأ؛ فعلى القاتل عتق رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهل القتيل، إلا إذا عفوا عنه وأسقطوا الدية باختيارهم فلا تجب حين إذن، وإذا كان المقتول مؤمنًا وأهله من الكفار، فالواجب على قاتله عتق رقبة مؤمنة، ولا تجب الدية لأهله؛ لأنهم أعداء محاربون فلا يعطوا من أموال المسلمين ما يستعينون به على قتالهم، وأما إذا كان المقتول معاهدًا أو ذميًا فالواجب في قتله كالواجب في قتل المؤمن، وهي دية مسلمة إلى أهله تكون عوضًا عن حقهم، وعتق رقبة مؤمنة كفّارة عن حق الله، فمن لم يجد الرقبة التي يحررها فعليه صوم شهرين متتابعين، توبة من الله على عباده المؤمنين؛ لأن الله عليم بما يصلح الناس، وحكيم في تشريعه[(١)].

وجاءت الآية الثانية تبيّن حكم وجزاء من يقتل مؤمنًا متعمدًا، حيث غلّظ الشارع في العقوبة على هذه الجريمة؛ لعظمها عند الله تعالى، فعن البراء بن عازبٍ أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (لزوال الدّنيا أهون على اللّه من قتل مؤمنٍ بغير حقٍّ)[(٢)].

ولم يذكر القرآن الكريم له كفارة، بل جعل عقابه أشد عقاب توعّد به القاتل، فهو سبب في هلاك صاحبه في الدنيا والآخرة، حيث قال تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ١٨٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١٩٢، الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، ٧/ ٥٣٧، روائع البيان، الصابوني، ١/ ٤٩٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الديات، باب التغليظ في قتل مسلم ظلمًا، ٤/ ٢١٢، رقم ٢٦١٩.
وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، ٦/ ١١٩.

﴿مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

فقد حكمت الآية على القاتل المتعمد بعقوبات ثلاثة، وذلك كما يأتي:

الأولى: الخلود في جهنم.

الثانية: استحقاق الغضب واللعنة.

الثالثة: العذاب العظيم في الآخرة.

وثبت في السنة تشريع عقوبة أخرى للقتل العمد، وهي الحرمان من الإرث، والوصية، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: (ليس لقاتل ميراث)[(١)].

فإذا قتل الوارث مورثه، أو الموصى له الموصي، حرم من الميراث والوصية، عملًا بمبدأ سد الذرائع؛ حتى لا يطمع أحد بمال مورثه، فيتعجل موته بالقتل، فمن تعجّل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه[(٢)].

ومن أضرار جريمة القتل ما يأتي:

١. خسران القاتل الآخرة باستحقاقه العذاب والغضب واللعنة.

٢. إنها من الكبائر المنصوص عليها في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (اجتنبوا السبع الموبقات...)[(٣)] وعدّ منها قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

٣. إنّ قتل نفسٍ واحدةٍ كقتل الناس جميعًا، قال تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

قال ابن كثير: «أي: من قتل نفسًا بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس»[(٤)].

٤. إنّ القتل أول ما يقضى فيه بين العباد يوم القيامة، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أول ما يقضى بين الناس في الدماء)[(٥)].

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الديات، باب ليس لقاتل ميراث، ٤/ ٣٣٣، رقم ٢٦٤٦. وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، ٦/ ١٤٦.

(٢) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، وهبه الزحيلي، ٧/ ٦٢٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، ١/ ٦٤، رقم ٨٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ١٨٠.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا،

فمن خلال ما سبق ظهرت لنا بعض أضرار جريمة القتل على مرتكبها، فلابد للإنسان أن يضع مخافة الله سبحانه و تعالى نصب عينيه قبل أن يقدم على هذه الجريمة؛ حتى لا يقع في الهلاك والخسران.

٢. الزنا.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾[النساء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾[الإسراء: ٣٢].

يقول الإمام السعدي رحمه الله: «والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله؛ لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه»[(١)]، وقد كانت عقوبة الزانية في صدر الإسلام الحبس في البيت، وعدم الإذن لها بالخروج، وكانت عقوبة الرجل التأنيب والتوبيخ قولًا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾[النساء: ١٥].

ثم نسخ ذلك بجلد الزاني أو الزانية البكر، ورجم المحصن منهم[(٢)].

قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[النور: ٢، ٣].

ذكر الله سبحانه و تعالى عقاب من انتهك حرمات الله تعالى بالزنا، وبيّن عقوبة كلًّا من الزانيين، وهي مائة جلدة، تستوفونها منهما كاملة دون رحمة أو شفقة، ودون تخفيف من العقاب، أو انتقاص من الحد، وقدّم الزانية لأن الزنا كان حينئذ في النساء أكثر، فإنه كان منهنّ إماء وبغايا يجاهرن بتلك الجريمة، فإن جريمة الزنا أخطر وأعظم من أن تستدر العطف، أو تدفع إلى العفو عن مرتكب هذه الجريمة النكراء، فإن من عرف آثار جريمة الزنا وأضرارها من تدنيس للعرض والشرف وضياع للأنساب، واعتداء على كرامة الإنسان، وتلطيخ لهم بالعار، وتعريض الأولاد للتشرد والضياع؛ حيث يولد اللقيط وهو لا يدري أباه، ولا يعرف حسبه ولا نسبه، فمن عرف ذلك أدرك حكمة الله تعالى في تشريع هذا العقاب الزاجر الصارم، وليس هذا فحسب بل لابد

٨/ ١١١، رقم ٦٤٧١.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٤٥٧.

(٢) انظر: روائع البيان، الصابوني، ٢/ ١٩.

أن تشهدوا على هذه العقوبة؛ لتكون زاجرًا له ولأفراد المجتمع من اقتراف مثل هذا المنكر الشنيع، فتحصل العبرة والعظة[1].

وعبّر القرآن بقوله «﴿فَٱجْلِدُوا﴾» ولم يقل: (فاضربوا) للتنبيه على أن الغرض من هذا العقاب هو الإيلام، حيث يصل ألمه إلى الجلد؛ وذلك لعظم هذا الجرم»[2].

وفرّقت الشريعة الإسلامية بين حد البكر (غير المتزوج) وحد المحصن (المتزوج) فخففت العقوبة في الأول فجعلتها مائة جلدة، وغلّظت العقوبة في الثاني فجعلتها الرجم بالحجارة حتى الموت؛ وذلك لأن جريمة الزنا بعد الإحصان (التّزوج) أشد وأغلظ من الزنا قبل الإحصان في نظر الإسلام، فالجريمة التي يرتكبها رجل محصن مع (امرأة محصنة) عن طريق الفاحشة أشنع وأقبح من الجريمة التي يرتكبها مع البكر؛ لأنه قد أفسد نسب غيره، ودنّس فراشه، وسلك لقضاء شهوته طريقًا غير مشروع، مع أنه كان متمكنًا من قضائها بطريق مشروع، فكانت العقوبة أشد وأغلظ[3].

وبيّن الله تعالى أن الزاني لا يليق به أن ينكح المؤمنة العفيفة الشريفة، إنما ينكح من هي مثله أو أخس منه، ينكح الزاني الفاجرة، أو المشركة الوثنية، ولا عجب في أنّ الفاسق الخبيث لا يرغب غالبًا إلا في فاسقة مثله أو مشركة، والزانية الخبيثة، كذلك لا ترغب إلا في خبيث مثلها أو مشرك[4].

وقد صدق الله تعالى حيث يقول: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

هكذا نجد أنّ الله تعالى حرّم جريمة الزنا لما فيها من أضرار عظيمة ومخاطر جسيمة تودي بحياة الأفراد والجماعات، حيث جعل الله تعالى عقوبة الزاني المحصن الرجم حتى الموت، والبكر الجلد مائة جلدة، وفي ذلك ردع له عن الإقدام على مثل هذه الفعلة ولا حتى قربانها، وقد بيّن الله سبحانه أنه لابد من حضور طائفة من المؤمنين ليشهدوا عذاب الزاني، قال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يفيد حضور جمع من المؤمنين عند إقامة الحد؛ وذلك تنكيلًا وعبرةً وعظةً لغيره من التفكير في الإقدام عليها، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٠/ ١٥٩، روائع البيان، الصابوني، ٢/ ١١٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٢/ ١٦٠.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ٢٧٦.
(٤) انظر: روائع البيان، الصابوني، ٢/ ١٢.

نهى عن مقاربته بالمقدمات، كالعزم والنظر وشبهه، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: فعلة ظاهر فحشها وقبحها، ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾؛ قبح طريقًا طريقه؛ لما فيه من اختلاط الأنساب وهتك محارم الناس، وتهييج الفتن، فلما يعلم الإنسان أنه ينفضح على رءوس الأشهاد، يقف ويفكّر مليًّا في ما سيفعله، فيكون هذا الترهيب دافعًا له على الاستقامة، وإذا استقام الإنسان يستقيم حال المجتمع، فتصان الأعراض وتحفظ الأنساب(١).

٣. القذف.

القذف جريمة عظيمة نص عليها القرآن والسنة، فهو من الكبائر، ومن أشنع الذنوب وأبلغها في الإضرار بالمقذوف والإساءة إليه؛ لذا كان التحذير منه في القرآن الكريم شديدًا، وقد عاقب الله سبحانه وتعالى القاذفين بعقوبات عديدة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى ذكره: والذين يشتمون العفائف من حرائر المسلمين، فيرمونهنّ بالزنا، ثم لم يأتوا على ما رموهن به من ذلك بأربعة شهداء عدول يشهدون عليهن أنهم رأوهن يفعلن ذلك، فاجلدوا الذين رموهن بذلك ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا، وأولئك هم الذين خالفوا أمر الله وخرجوا من طاعته ففسقوا عنها»(٢).

يقول الإمام القرطبي: «للقذف شروط عند العلماء تسعة: شرطان في القاذف، وهما: العقل والبلوغ؛ لأنهما أصلا التكليف؛ إذ التكليف ساقط دونهما، وشرطان في الشيء المقذوف به وهو: أن يقذف بوطء يلزمه فيه الحد، وهو الزنا واللواط أو بنفيه من أبيه دون سائر المعاصي، وخمسة من المقذوف وهي: العقل، والبلوغ، والإسلام، والحرية، والعفة عن الفاحشة»(٣).

بيّنت الآية حكم جلد القاذف للمحصنة وهي الحرة البالغة العفيفة، فإذا كان المقذوف رجلًا فكذلك يجلد قاذفه أيضًا، وليس فيه نزاع بين العلماء، فإن أقام القاذف بيّنة على صحة ما قاله درأ عنه الحد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، وقوله: ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يدل على أن شهادة الأربعة شرط في إثبات الزنا(٤).

أوجب الله سبحانه وتعالى على القاذف

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٤/ ١٢٦.

(٢) جامع البيان، ١٩/ ١٠٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٢/ ١٧٣.
(٤) انظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي، ٤/ ٢٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٠/ ١٧١.

إذا لم يأت بالبينة على صحة ما قال ثلاث عقوبات، حسية ومعنوية ودينية:

أولًا: العقوبة الحسية: وتتمثل في جلد القاذف ثمانين جلدة.

ثانيًا: العقوبة المعنوية: وتتمثل في عدم قبول شهادة القاذف، فيهدر قوله، ويصبح في المجتمع من المنبوذين، فلا ثقة له بين الناس.

وقد توعد الله سبحانه وتعالى لأولئك الذين يرمون المؤمنات المحصنات ويتهمونهن بالزنا، باللعنة في الدنيا والآخرة والعذاب العظيم لجرم الذنب الذي ارتكبوه في حقهن، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

يقول الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: «﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال العلماء: إن كان المراد بهذه الآية المؤمنين من القذفة، فالمراد باللعنة: الإبعاد وضرب الحد واستيحاش المؤمنين منهم وهجرهم لهم، وزوالهم عن رتبه العدالة، والبعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين»[(١)].

لذلك نجد الله سبحانه وتعالى شدّد في عقوبة القذف، فجعلها قريبة من عقوبة الزنا؛ وذلك صيانة للأعراض من التهجم، وقطع ألسنة السوء، فيمتنع ضعاف النفوس من أن يجرحوا مشاعر الناس، وجريمة القذف تولّد أخطارًا جسيمة في المجتمع، فكم من فتاة عفيفة شريفة لاقت حتفها بسبب كلمة قالها قائل، فوصل خبرها إلى الناس، وافتضح أمرها، وانتشر صيتها، وهي بريئة من ذلك، فجاءت حكمة التشريع في بيان العقوبة المترتبة على هذه الجريمة؛ ردعًا للقاذف من أن يتهم الناس بالفاحشة، وحماية سمعتهم من التدنيس، ومنع إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، فإن كثرة الترامي بها، وكثرة سماعها، وسهولة قولها، يجرئ السفهاء على ارتكابها، فكانت العقوبة غليظة؛ حتى لا يتجرأ أحد على ارتكابها، ولا يقدم على فعلها، فيمتنع عن هذا الفعل الشنيع، وبذلك يستقيم الإنسان، وتصان الأعراض من أن تنتهك، وتحفظ كرامة الأمة، ويطهر المجتمع من مقالة السوء، وتنتشر المودة والمحبة بين الأفراد، وبذلك تستقيم حياة الأمة[(٢)].

٤ . السرقة.

السرقة من الجرائم العظيمة في الإسلام، فهي لا تحل في شرع الله، ولا في أي قانون وضعي؛ لأن إباحة السرقة تخلّ بأمن الناس، وتفقد الطمأنينة؛ ومن ثمّ يتزعزع استقرار المجتمع؛ لذا فقد جعل الله سبحانه

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٢/ ٢١٠.

(٢) انظر: التشريع الجنائي في الإسلام، عبدالقادر عودة، ٢/ ١٧٧.

و تعالى عقوبة السرقة القطع زجرًا لأخذ الأموال بغير حق.

يقول تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨، ٣٩].

الأحكام التشريعية المستنبطة من النص:

جاءت الآية الأولى تبيّن حكم السرقة، فكل من يسرق فحكمه أن تقطع يده اليمنى من الكوع، وكذا يد السارقة؛ مجازاة لهما على ظلمهما بالاعتداء على أموال غيرهم، وقد ذكر ﴿وَالسَّارِقَةُ﴾ عطفًا على ﴿وَالسَّارِقُ﴾ حتى لا يفهم منها أنّ الحكم مقتصرٌ على الذكور فقط دون الإناث، فقد كانت العرب لا تقيم الحدود على الإناث قبل الإسلام، ونلاحظ أن الآية لم تبيّن مفهوم السرقة ولا النصاب الذي تسمى عنده سرقة فتوجب الحد، ولا كيفية القطع ومكانه، فقد بيّنت ذلك السنة النبوية، كما بيّنت الآية أن هذا الحكم إنما هو جزاءً من الله على ظلم السارق والسارقة في اعتدائهما على حقوق العباد، وأنه عقوبة من الله تعالى لهما تجعل غيرهما لا يقدم على أخذ أموال الناس بطريق السرقة المحرمة، وذلك الحكم لأن الله سبحانه و تعالى ﴿عَزِيزٌ﴾ في ملكه لا يغالبه مغالب، و﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره وقضائه[١].

وبيّنت الآية الثانية أنّ من تاب من السارقين بعد قيامه بالسرقة فأقلع عن السرقة وعمل عملًا صالحًا، فإن الله يقبل توبته، لكن مع الانتباه أن الآية لم تذكر إسقاط عقوبة السرقة، وإن جاء السارق تائبًا قبل القدرة عليه[٢].

وقد جعل الله تعالى عقوبة السرقة هي القطع «ليكون هذا العقاب الصارم عبرة للناس؛ حتى يرتدع أهل البغي والفساد، ويأمن الناس على أموالهم وأرواحهم»[٣].

وعليه فالجزاء على السرقة جزاء يقصد منه الردع وعدم العود، فليس بانتقام، ولكنه استصلاح وتهذيب لسلوك الفرد والمجتمع، فلا يكون المراد أن القطع تعويض عن المسروق، فعندما يعلم المكلف أن يده ستقطع، وأنه سيصبح بلا يد فتكون علامة مادية للمجتمع أنه سارق، فإنه سيفكر جيدًا في هذا التصرف من حيث أنه سيلقى عقابه بقطع يده، وسيلقى الخزي بين مجتمعه بيده المقطوعة؛ ومن ثمّ يصبح هذا الحكم دافعًا له للاستقامة على الطاعة وحفظ الأمانة، واجتناب المعصية.

(١) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٦٢٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ٦/ ١٩٠-١٩٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٢٥٣.

صور الترهيب في القرآن الكريم

ذكر القرآن الكريم صور وطرقًا عديدة تخوّف المؤمن من حصول العذاب في الدنيا والآخرة، فمن طريقة القرآن الكريم وأساليبه، ترهيب المؤمن بما أعد الله من أصناف العذاب لمن خالف أمره، وكل ذلك حتى يكون على طاعة مستمرة لربه، وبذلك يحصل له الفوز في الدنيا والآخرة.

والمتأمل في القرآن الكريم يجد أن أسلوب الترهيب لم يأت بصيغة الترهيب الصريحة فحسب، بل جاء في العديد من المواضع بطريق التلميح والتعريض والتهديد، وبطرق أخرى نبيّنها فيما يلي:

١ . التهديد والتخويف بصيغة العلم.

فكثيرًا ما يقع التهديد في القرآن بذكر (العلم)، والمثال على هذا قوله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

فالأمر بـ (العلم) بأن لقاء الله آتٍ لا مفر منه مشعر بالتهديد[1]، ومن هذا القبيل أيضًا ، قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

٢ . الترهيب بصيغة (أفعل).

والمراد: المبالغة في التهديد والزجر، والمثال عليه قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

ففي الآية تهديد عظيم لمن منع مساجد الله أن تقام فيها العبادة، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

٣ . الإملاء للمعرضين والإمداد لهم.

والمثال عليه قوله سبحانه: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣].

ونظير هذا قوله عز وجل: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥].

٤ . التعبير بصيغة المستقبل بالإخبار عن عاقبة المعرضين.

ومثاله قوله تعالى: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

يقول ابن كثير: «سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدّمار والتّباب»[2]، ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣/ ٧٦٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٢٦.

٥. الأمر بطاعة الله سبحانه والرهبة منه.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

فالأمر هنا متضمن معنى التهديد والوعيد.

٦. تكرار الكلام بلفظه، والقصد التهديد.

قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣].

فقد تكررت هذه الآية كثيرًا في سورة الرحمن؛ بقصد التهديد لمن تنكّر لنعم الله عليه وأفضاله.

٧. إخباره سبحانه بعدم غفلته عما يفعله عباده.

والمثال عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

فالمراد: التهديد، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

٨. الخطاب بلفظ (الإنذار).

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]. فالإنذار يتضمن معنى الترهيب.

٩. ختم الآيات بعبارات تفيد أنّ من يخالف أوامر الله سبحانه فإنه معرّض للعذاب الشديد.

كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

١٠. الإخبار بلفظ الغلبة والحشر.

كقوله سبحانه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢].

فالمراد بـ(الغلبة) و(الحشر) هنا التهديد.

١١. التذكير بالأمم السالفة، وما نزل بها من العقاب والعذاب.

كقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: ٤٥].

فالآية سيقت مساق التهديد بتذكيرهم بالأمم السالفة التي كذّبت رسلها، وكيف عاقبهم الله على ذلك، وكانوا أشد قوة من قريش، وأعظم سطوة منهم.

ومن خلال ما تقدم تبيّن أن أساليب القرآن الكريم تعددت في خطاب النفس البشرية، ما بين ترهيب وإنذار، ووعيد، وتخويف، وكان الترهيب من الأساليب التي اعتمدها القرآن في خطابه؛ وذلك أن من النفوس البشرية من لا تستجيب لنداء الحق إلا إذا خوطبت بخطاب فيه تهديد ووعيد.

أثر الترهيب في سلوك المرء

إنّ القرآن الكريم استخدم الكثير من الآيات المتضمنة للترهيب، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

قال البيضاوي في تفسيره: «﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ ذكر العدد مع أن المعدود يدل عليه دلالة على أن مساق النهي إليه، أو إيماء بأن الاثنية تنافي الألوهية، كما ذكر الواحد في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية دون الإلهية، أو للتنبيه على أن الوحدة من لوازم الإلهية، ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب، وتصريحًا بالمقصود، فكأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد فإياي فارهبون لا غير»[١]، وفي قوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ يقول: فإياي فاتقوا وخافوا عقابي بمعصيتكم إياي إن عصيتموني وعبدتم غيري، أو أشركتم في عبادتكم لي شريكًا، فدلت هذه الآية على مخافة العبد من غضب الله وسخطه وعذابه[٢].

ولا شك أن الترهيب بأنواعه المتعددة وأساليبه المختلفة له أثره الكبير على سلوك المرء؛ لكون هذا الأسلوب رادعًا للفرد حينما يقصّر في أداء ما فرضه الله سبحانه وتعالى عليه من العبادات، وللعبادات تأثير واضح في سلوك الفرد، فهي التي تزكّي نفسه، وتزيد مراقبته لربه تعالى في السر والعلن، والخوف منه، فينزجر عن المعاصي والإضرار بالناس، ويسارع إلى عمل الخير، ولاشكّ أن المجتمع سيكون سعيدًا إذا زاد فيه عدد الصالحين الخائفين من الله تعالى، وأنّ كمية الخير في المجتمع ستكثر، وأن الجرائم تقل، فالعبادات في الإسلام تصلح الفرد والمجتمع، ولها الأثر الكبير في استقامة الإنسان[٣].

وكذلك إذا اجتنب المرء ما نهى الله عنه من كبائر الذنوب والمعاصي، يبقى الفرد في اتصال دائم مع ربه فيخاف عقابه وعذابه ويرجو رحمته، قال تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٣١].

يقول القاسمي في تفسيره: «﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ أي: كبائر الذنوب التي نهاكم الشرع عنها، مما ذكر هاهنا ومما لم يذكر، ﴿نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ أي: صغائر ذنوبكم، ونمحها عنكم، وندخلكم الجنة»[٤].

(١) أنوار التنزيل، ٣/ ٢٢٩.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٢٢٠.
(٣) انظر: أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، ص ٦٩.
(٤) محاسن التأويل، ٣/ ٨٨.

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أن جعل باب التوبة مفتوحًا لمن أقدم على كبيرة من الكبائر، كالقتل والشرك والزنا والعقوق وغيرها من الآثام، قال سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

أي: إن الله يغفر لمن رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية، وآمن بقلبه، وعمل الصالحات بجوارحه ثم استقام على طاعة ربه[1].

فلما يعلم المرء أن الله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب والكبائر والمعاصي، فإنه يبادر إلى التوبة والرجوع والإنابة إلى الله وحده، فيستقيم على طاعة ربه، ويبتعد عن كل ما يسخط الله ويغضبه؛ لأنه يعلم الوعيد الذي أعده الله سبحانه لمن خالف أمره وعصاه، فلو استطاع الإفلات من عذاب الدنيا، فإن العقاب الأخروي ينتظره، فمن ثَمّ يكون لهذا الترهيب الأثر البالغ على سلوك المرء، لاسيما وإنّ الترهيب يثير عند الإنسان عامل الخوف، وعامل الرجاء والأمل، وهما في الواقع يوجّهان اتجاه الإنسان إلى السلوك الأفضل والطريق الأقوم.

فوائد الترهيب في التربية والدعوة

أولًا: فوائد الترهيب في التربية:

لاشك أن الترهيب في التربية له فوائده الكثيرة التي تعود بالنفع على صاحبه، وتظهر مكانة الترهيب وأهميته من أمر الله تعالى الصريح بتطبيقه واستعماله في حقّه جلّ ثناؤه، قال تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

فالترهيب من ركائز الإيمان، فيقتضي الخوف؛ لذا قيّده الله تعالى بالإيمان في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

فجعل الخوف والرهبة شرطًا في تحقيق الإيمان، فإذا تحقق الشرط وهو الخوف، تحقق المشروط وهو الإيمان، فالمقصود أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يختلف عنه، فالخوف يربي المؤمن على طاعة ربه، ومن ثمّ يبقى على صلة بالله؛ فيزداد إيمان المؤمن بالطاعات، وبالبعد عن المنكرات.

وكذلك فإن الترهيب سبب في وصول المسلم إلى أعلى الدرجات، فمثلًا صاحب القلب الخائف، هو الّذي يقيم الصلاة على أكمل وجه، وهو الّذي يؤدي الزكاة

---
(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/٣٠٩.

بنفس طيبة، وهو الّذي يخشى الله في السر والعلن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨].

ولهذا كان جزاؤه الفوز والفلاح وميراث جنة الفردوس.

وقد بيّن سبحانه وتعالى اتصاف أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم به، بعد أن أثنى عليهم ومدحهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال تعالى عن ملائكته الكرام الذين أمنهم من عذابه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

وقال سبحانه عن عباده العلماء: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وهكذا نجد أن الأنبياء والملائكة والعلماء كانوا يدعون ربهم خوفًا ورهبة منه سبحانه وتعالى، وفي ذلك دعوة لنا أن نتذكر هذا الأسلوب الناجع في حياتنا، فالأفضل منا جميعًا كانوا يتصفون به، فمن باب أولى أن نكون أول من يلتزم ويتذكر هذا الأسلوب التربوي الذي ذكره الله سبحانه في كتابه؛ كي يكون رادعًا لنا في حياتنا اليومية.

والترهيب سبب في الانتفاع بالعبر والقصص القرآنية التي تحدثت عن مصير الأمم الغابرة؛ لأنّ من طبع النفس النسيان والغفلة؛ لذلك فإن الترهيب يصبح نوعًا من التذكير بما آلت إليه النفس من ارتكاس ونكوص، ووقوع في الرذائل والآثام هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن من رهب الله تعالى وخاف وعيده أوجب له ذلك الحذر، ومن ثمّ الانتفاع بالعظات والآيات والعبر، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣].

ومن خلال ما سبق ذكره من الآيات ظهر لنا فوائد الترهيب في التربية، فهو سبب في القضاء على كثير من الأمراض والجرائم الاجتماعية، والمخالفات السلوكية، وسبب في تقوية وزيادة الإيمان، بمعنى أن من لم يرتدع بالترغيب والإرشاد والجدل واللين، واستمرّ على ما هو عليه، فلابد له حينئذٍ من سياط التخويف وسطوات السيوف من خلال الترهيب العمليّ، فمثلًا المرتد المصرّ على ردّته يقتل، والزاني المحصن يرجم، والسارق المستمر في فعله تقطع يده، ومن خلال ما سبق ظهر لنا فوائد هذا الأسلوب في التربية.

ثانيًا: فوائد الترهيب في الدعوة إلى الله:

قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

الدعوة إلى الله واجب كل مسلم، كما كانت من قبل وظيفة الأنبياء والرسل، ولقد شرع لنا الله سبحانه في دعوتنا للناس أساليب ووسائل تتنوع بين الحين والآخر، فقد يستخدم مع المدعو أحيانًا أسلوبًا أو وسيلة تختلف عنه مع مدعو آخر.

ومن هنا يبرز لنا أهمية أسلوب الترهيب في الدعوة إلى الله؛ لأن هنالك بعضًا من الناس وأصنافًا منهم لا يجدي فيهم الترغيب والوعود الجميلة، وإنما ينفع معهم التقريع والتعنيف والتهديد، وكسر حدة النفس ونتوئها وإعراضها عن الحق، وإلزامها كلمة التقوى والمتابعة، فكان الترهيب والتخويف مناسبًا لذلك.

ومن صوره: الترهيب من ترك جنس الطاعات، وعدم القيام بأركان الإسلام والإيمان والإحسان، أو التهاون في بقية أنواع الطاعات الأخرى، والحقوق والواجبات المترتبة على المسلم، فناسب تنبيهه إلي ما ينبغي عليه العمل بـه والتحلي بموجبه[1].

لذلك ينبغي للداعية عندما يلجأ إلى الترهيب في الدعوة إلى الله، أن يوازن بين ما يحصل من مفاسد، وما يترتب على ترهيبه من مصالح، إذ لابد أن تكون المصلحة الترهيبية راجحة على المفسدة؛ لأن هذا هو الذي يحبه الله ويرضاه، وبهذا بعثت الرسل وأنزلت الكتب، لذا إن تأكد الداعية حدوث مفسدة أعظم من التي أراد إزالتها بسبب ترهيبه فليس له أن يرهّب، وكذلك لابد للداعية أن يكون حريصًا على إيصال الحق إلى الخلق، فهو مطالب باستخدام هذه الوسيلة، فنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ذهب إلى عكاظ وذي المجاز وغيرهما وغشى أندية قريش واجتماعاتهم، ولكن لابد للداعية أن يكون متسلحًا بالعلم وقوة الإيمان والأسلوب الأمثل للمدعوين زمانًا ومكانًا وتأهيلًا[2].

وقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فلابد للداعية المسلم أن يكون حريصًا على دعوة أخيه إلى الخير، وينهاه عن المنكر في دنياه؛ لأن هناك الكثير من الناس يتعلق

(١) انظر: وسائل الدعوة، عبد الرحيم المغذوي، ص٢٠٥.
(٢) انظر: من وسائل الدعوة، محمد بن عبد العزيز الثويني، ص ٢٩.

بهذه الدنيا الزائلة، ويجعلها همه وغايته، ولما كان الإنسان يعيش في الدنيا ويتعرض لإغراءاتها مما قد يجرّه إلى الركون إليها، والتعلق بها، ونسيان الآخرة، فلابد إذن من تنفير المدعوين من إيثارها على الآخرة، لا من الفرار منها جملة واحدة، مع بيان حقيقتها وقيمتها وقدرها بالنسبة إلى الآخرة ونعيمها.

وقد بيّن ذلك كله القرآن الكريم خير بيان، مما يجعل أيّ مسلم عاقل يؤثر الآخرة على الدنيا، بل ويجعل المدعو غير المسلم منجذبًا إلى هذه الحقائق في موازنة الدنيا مع الآخرة، وقد يجرّه ذلك إلى الإيمان لما يحسه من صدق هذا البيان والتصوير لقيمة الدنيا الفانية، ومن الآيات القرآنية الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

يقول السعدي في تفسيره: «يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبين غايتها وغاية أهلها، بأنها لعب ولهو، تلعب بها الأبدان، وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب، والغفلة عن ذكر الله، وعما أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا، بخلاف أهل اليقظة وعمّال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته ومحبته، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقرّبهم إلى الله، من النفع القاصر والمتعدي»[1].

وهكذا تظهر لنا فوائد الترهيب في الدعوة إلى الله؛ لأن هناك بعض المدعوين لا ينفع معهم الترغيب، فهو بحاجة لأسلوب رادع وزاجر كأسلوب الترهيب في القرآن.

موضوعات ذات صلة:

التربية، الترغيب، الدعوة، النصيحة

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٤١.